

# المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر  
لضياء الدين بن الأثير

قدمه وعلق عليه

دكتور أحمد الجومني و دكتور بدوي طبانة

القسم الأول

دار نهضة مصر للطبع والنشر  
الفيحة - القاهرة



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تصدير

هذا كتاب « المثل السائر » الذى ألفه ضياء الدين بن الأثير فى أدب الكاتب والشاعر ، تقدمه اليوم إلى الباحثين عن الفكرة العربية فى مظانها التى يعد « المثل السائر » فى طليعة تلك المظان الأصيلة ، بما حوى من الآراء والفكر التى تدور حول فن الأدب ، والتى تتعمق إلى أصوله فى عصر ابن الأثير ، وفى العصور التى سبقته ، وهى التى زخرت بكثير من أصول تلك الصناعة التى اهتدى إليها العلماء وكبار الأدباء والنقاد الذين يعرفهم تاريخ الأدب والنقد عند هذه الأمة العربية التى تعمل اليوم فى جد ودأب لبناء قوميتها ، وتبحث فى إصرار عن المقومات الأصيلة لهذه القومية فى السياسة والعلم والتفكير والأخلاق والفنون ، لتبعثها من جديد مجارية ركب التقدم ، ولتعيد إليها سالف مجدها فى بناء الحضارة الإنسانية .

وعلى الرغم مما يمتاز به هذا الكتاب من الآراء المستنيرة التى أثرت عن أعلام التفكير الفنى ، والتى يعد هذا الكتاب سجلا حافلا لها ، فإن فيه من معالم الأصالة وآثار الشخصية التى تميز صاحبها من غيره من الباحثين شيئا كثيراً .

وقد كان لنا من إخراج هذا الأثر وإعادة نشره غايات ثلاث :

أولها : تقديم نسخة صحيحة من هذا الكتاب يستطيع الباحثون والدارسون الاعتماد عليها ، بعد أن عز على كثير من الطالبين اقتناء نسخة منه ، بسبب تقادم العهد بينهم وبين عهود نشره ، ونفاد هذا السفر الجليل من المكتبات العربية ، مع الإحساس بالحاجة إليها ، ليقوم بدوره بجانب ما بعث من آثار التراث العربى فى الناحية التى يتصدى لها هذا الكتاب .

والثانية : إحياء ناحية لها أهميتها من نواحي التفكير الفنى عند العرب فى هذا العهد الذى يمتاز ببعث نفائس التراث العربى ، وإحياء مصادر الثقافة العربية ونشرها ، تمهيداً لدرسها ، واستخراج كل صالح مفيد من الأفكار التى اشتملت عليها .

والثالثة : وصل تلك الآراء التى اشتمل عليها المثل السائر بغيرها من الآراء التى توافقها أو تخالفها . والغاية من ذلك الوقوف على أصالة مباحث هذا الكتاب ومداهما فيما عرضت له من الدراسات ، وكذلك معرفة حظ ابن الأثير من تلك الأصالة . وهذه الغاية الأخيرة وحدها جديرة بأن يفرد لها بحث ، بل بحوث مستقلة . ولذلك اكتفينا بالإشارة فى هامش هذه الطبعة إلى الآراء التى توأرد عليها ابن الأثير وغيره من الذين بحثوا فى مثل ما بحث ، والآراء التى نقلها عن غيره ناسباً إياها إلى صاحبها الأصلي . أو التى ادعاها لنفسه ، مما وجدنا ثمرة الإفادة منه واضحة . وأثر الاقتفاء بارزاً . ولم يخرج ذلك عن طبيعة ما وضع الهامش من أجله بما لا يخرج عن حد الإشارة أو اللمحة الدالة .

أما ضروب الأصالة ، ومنابع العقلية التى استقى منها هذا الكتاب ، فإننا ذكروها فى هذه المقدمة ، بما لا يخرج أيضاً عن طبيعة المقدمات .

\* \* \*

وإذا كان لكل مؤلف فى فن من فنون التأليف لون خاص من ألوان المعرفة يمتاز به عما سواه ، وناحية يظهر تفوقه فيها . ويظهر تقصيره فى غيرها . فإن ابن الأثير قد حلق فى آفاق كثيرة من آفاق المعرفة ، تجدد صداها واضحاً فى هذا السفر النفيس . فأنت ترى فيه الكثير من الإشارات التاريخية التى لا يعرفها إلا الواقفون على أحداث الزمان ، والعارفون بتقلباته وسير أبطاله وأعلامه .

وتقرأ فيه آثار معرفة واسعة بعلوم العربية التى لا يعرفها إلا المختصون بدراسة أصولها ، والمتبحرون فى فقه لغتها ، والعاكفون على معرفة نحوها وصرفها ، وأساليب التعبير بها . وتطالع فى المثل السائر آثار معرفة بكتاب الله . وحفظ آياته ، وقدرة عجيبة على استحضارها ، والتمثل بها فى كل موضع يريد أن يتمثل فيه بما يوافق آراءه فى وسائل الإجابة ، وأسباب الإلتقان . وتجدد فيه كثيراً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وفقه سنته ، والوقوف على سيرته وأخبار صحابته .

كل ذلك إلى جانب ما وشيت به صفحات المثل السائر من حكم العرب وأمثالها ، ومن مآثور منظومها ، وجيد مثورها ، مما يروك الاطلاع عليه ويأخذ بلبك ما ترى من القدرة على استحضاره ، وإجادة التمثل به .

بهذه الألوان الكثيرة من المعرفة ، وبهذه الثقافات المتنوعة كمل ابن الأثير نفسه ، حتى يحسن إعداد نفسه لما عرض له من علاج الأدب الذى كانوا يعرفون أنه الأخذ من كل فن بطرف .

ولقد كان ابن الأثير أديباً من كبار أدباء العرب ، وكاتباً من كتّابهم المعدودين والكتّاب - كما يرى ابن الأثير - ينبغى أن يتعلق بكل علم ، وفي رأيه أن كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه ، فيقال : فلان النحوى وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم . ولا يسوغ له أن ينسب إلى الكتابة ، فيقال : فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر إليه الكاتب من الخوض في كل فن . . .

وبمثل هذه النظرة إلى الأديب الكاتب وما ينبغى له ، نظر ابن الأثير إلى البلاغى أو صاحب البيان ، وذهب إلى أنه لا ينبغى له أن يقدم على هذا العلم إلا إذا اكتملت لديه ألوان ثمانية من المعارف ، وهى :

- ١ - معرفة علم العربية من النحو والتصريف .
- ٢ - معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ، ولا المستكره المعيب .
- ٣ - معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام ، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .
- ٤ - الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور . فإن فى ذلك فوائد جمة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم . ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة ، وتذكى الفطنة . وإذا كان صاحب الصناعة عارفاً بها تصير المعانى التى ذكرت ، وتعب فى استخراجها ، كالشئ الملقى بين يديه « يأخذ منه ما أراد ، ويترك ما أراد . وإذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها فإنه قد يتهياً له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه .
- ٥ - معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك ، لما يحتاج إليه الكاتب فى تقليدات الملوك والأمراء ، وغيرهم ممن يجرى مجراهم ، وإذا لم يكن الكاتب عارفاً بالحكم فى الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها ، وما هو رخصة فى ذلك ، وما ليس برخصة ، فإنه لا يستطيع أن يكتب كتاباً ينتفع به .
- ٦ - حفظ القرآن الكريم . فإن صاحب هذه الصناعة ينبغى له أن يكون عارفاً به لأن فيه فوائد كثيرة منها أن يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللاتفة بها . واستعمالها فى مواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق

وإذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذها بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر ، ويودعها مطاوى كلامه .

٧ - حفظ الأخبار النبوية ، مما يحتاج إلى استعماله ، فإن الأمر في ذلك يجري مجرى القرآن الكريم .

٨ - ما يختص بالناظم دون الناثر . وذلك معرفة العروض ، وما يجوز فيه من الزحاف ، وما لا يجوز ، فإن الشاعر محتاج إليه ، وإن كان النظم مبنياً على الذوق ، ولكن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات . ويكون ذلك جائزاً في العروض ، وقد ورد للعرب مثله ، فإذا كان الشاعر غير عالم به ، لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز

وكذلك يحتاج الشاعر أيضاً إلى معرفة علم القوافي ، ليعلم الروى والردف ، وما يصح من ذلك وما لا يصح .

وقد اشترط ابن الأثير قبل تحصيل تلك المعارف جميعها أن يكون الله تعالى قد ركب في الأديب طبعاً قابلاً لهذا الفن ، ورأى أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التثبث بكل فن من الفنون ، حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادرة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس . وإلى ما يقوله المنادى على السلعة في السوق . والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد ، فيحتاج أن يتعلق بكل فن : لأن الحكمة ضالة المؤمن ، وقد يستفيد منها أهلها من غير أهلها .

وهكذا يغالى ابن الأثير في ثقافة الأديب ، ويرى أنها لا حصر لمواردها ، ويذهب إلى أن البيان كالجمال ، لا نهاية لكل منهما .

\* \* \*

ولقد كان ضياء الدين على حظ عظيم من تلك الثقافات ، كما يشهد لذلك هذا الكتاب ، وما أودع فيه من فنونها الكثيرة التي حصلها بجده ، والطبع الأصيل الذي منحه الله إياه . وكل ركن من الأركان التي ذكرها ، وكل آلة من الآلات التي أوجب أن تكون طوع يمين الكاتب ، فقد عنى نفسه في البحث عنها في مظانها .  
والواقع أن أكثر ما ذكر ضياء الدين من أصول فن الأدب ، وما يسموه وما ينحط

لم يكن من أثر النظر وضروب التخيل لمثل الفن الأدبي ، كما كان ذلك شأن أكثر الآراء التي أثرت عن الذين قننوا لهذا الفن ، ووضعوا قواعده ، وقد كان جهد أكثرهم أهمية ، وأجدرهم بالاعتبار ، الموازنة بين الأعمال الأدبية ، واستخلاص مظاهر القوة والجمال التي تمتاز بها بعض تلك الأعمال على بعض . وكان أكثر تلك الأعمال من صنع غيرهم ، على حين أن ابن الأثير كانت صفته الأساسية البارزة اشتغاله بالأدب ، واحترافه فن الكتابة الذي عدّ علماً من أعلامه ، وارتقى به هذا الفن حتى وصل به إلى مرتبة الوزارة ، وتصريف شئون المملكة ، بصرف النظر عن مدى توفيقه في ذلك المنصب الخطير ، وسوء تدبيره للأمور ، مما كانت عاقبته نكالا عليه وعلى من ولاه . لذلك كانت آراؤه في الأدب والنقد صادرة عن الفن الذي أعد نفسه له ، وعن التجربة التي عاش فيها حياته . ولذلك قرأ ضياء الدين آثار الكتاب الذين ذاع صيتهم وحلق نجمهم ، في سماء صناعة الكتابة ، ليقف على مناهجهم فيها ، وينقد منها ما لا يراه جارياً وفق مقاييسه التي يرتضيها وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصنعة ، ولم يقف في سبيل ذلك عند آثار القدماء من فحول هذه الصناعة ، بل إنه نقد معاصريه منهم ، وهم الذين كان يشار إليهم في عصره في هذه الصناعة بالبنان .

وكان ابن الأثير لا يقنع بما يوجهه إلى أولئك الأعلام من النقد لآثارهم ، ولكنه كان يتبع هذا النقد بناذج من آثاره ، ويوقف على الفرق بين أسلوبه وأسلوب غيره ، حتى يستدرج قارئه إلى الإذعان لنبوغه ، والتسليم بتفوقه ، ثم يثنى على نفسه وفنه بما استطاع . والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١ - نقده للقاضي الفاضل في قوله (١) : « وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني - رحمه الله - عن الملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب - رحمه الله - إلى ديوان الخلافة ببغداد في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيه ما قاساه في الفتح من الأهوال » .

(١) انظر صفحة ٥٤ وما بعدها من هذه الطبعة .

قال : ولما تأملته وجدته كتاباً حسناً قد وفي فيه الخطابة حقها ، إلا أنه أخلّ بشيء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح في المرة الثالثة ، وهذا له نظير في فتح النبي صلى الله عليه وسلم ، مكة فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها في عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ، ففتحها .

ثم يقول : وقد سألتني بعض الإخوان أن أنشئ في ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي - رحمه الله - فأجبتني إلى سؤاله ، وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله - فقلت . . الخ إلى أن يقول : وعجبت من عبد الرحيم بن علي البيساني ، مع تقدمه في فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتي به في الكتاب الذي كتبه ؟!

٢ - قوله في ابن زياد الكاتب البغدادي : « وجدت لابن زياد البغدادي كتاباً كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وضمنه فصولاً تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التي أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمر المؤمنين خاصة ، فإنه الإمام الناصر لدين الله . فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتاباً حسناً ، قد أجاد فيه كل الإجادة ، ولم أجد فيه مغمراً إلا في هذا الفصل الذي يتضمن حديث اللقب ، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقي الفصول المذكورة ، بل أتى بكلام فيه غثاثة كقوله : « ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام » وشيئاً من هذا النسق . وكان الأليق والأحسن أن يحتج بحجة فيها روح ، ويذكر كلاماً فيه ذلاقة ورشاقة .

قال : وحضر عندي في بعض الأيام بعض إخواني ، وجرى حديث ذلك ، فسألني عما كان ينبغي أن يكتب في هذا الفصل ، فذكرت ما عندي ، وهو : . . الخ .

إلى أن يقول منهاً القارئ إلى ما وفق إليه ، وموازنًا بين نفسه وابن زياد : « فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوي ، وجعلته شاهداً على هذا الموضع ، ولا يمكن أن يحتج في مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج ، وما أعلم كيف شد عن ابن زياد أن



يأتى به ، مع أنه كان كاتباً مفلحاً أرتضى كتابته ، ولم أجد فى متأخرى العراقيين من يماثله فى هذا الفن» (١) .

٣ - وقد نقد أبا إسحاق الصابى فى كثير من المواضع ، وأورد له الرسائل الطويلة ، والنتف اليسيرة ، وأتبعها بكتابته ، ليرى الفرق بين الكتابتين ؛ فمن ذلك ما أورده من قول الصابى فى صفة النبی ﷺ « لم ير للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه . ولا رسماً إلا أراله وعفاه » ، وقد عابه ابن الأثير بأنه لافرق بين مرور العصور وكرور الدهور ، وكذلك لافرق بين محو الأثر وعفاء الرسم .

وأورد للصابى أيضاً قوله فى بعض كتبه « وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ، ومتعاقب الأعوام ، تعتل تارة ، وتصح أطواراً ، وتلتاث مره ، وتستقل مراراً ، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع ، وبنياتها ثابت لا يتضعضع » وعابه ابن الأثير بأن هذه الأسجاع كلها متساوية المعانى فان الاعتلال والالتاث ، والطور والمره ، والرسوخ والثبات ، كل ذلك سواء وساق على هذا النحو من النثر الصابى أمثله أخرى .

٤ - وعاب على الصاحب بن عبادما كتبه فى وصف مهزومين « طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلاهم نحورهم » بقوله : إن كلا المعنيين سواء . . . وكذلك نقد قول الصاحب فى وصف ضيق مجال الحرب « مكان ضنك على الفارس والراجل ، ضيق على الرامح والنابل » وقوله فى كتاب « لا تتوجه همته إلى أعظم مرقوب إلا طاع ودان ، ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان واستكان » ، فإن كل هذا الذى ذكره الصاحب فى نظر ابن الأثير شىء واحد . لأنها ألفاظ متعددة تؤدى معانى واحدة .

وقول الصاحب من كتاب « وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقاً وأتمها للحمد استغراقاً ، وتعرفت من إحسان الله فيما وفر من سلامته ، وهنأه من كرامته ، أنفس موهوب ومطلوب ، وأحمد مرقوب ومخطوب » نقده ابن الأثير بأن هذا كله مماثل المعانى متشابه الألفاظ (٢) .

(١) انظر صفحة ٥٧ وما بعدها من هذه الطبعة . (٢) انظر صفحة ٢١٤ وما بعدها من هذه الطبعة

وقد أراد ابن الأثير أن ينفي عن نفسه مظنة التحامل على هذين الكاتبين الكبيرين والتعصب عليهما ، فيما قدمه من الأمثلة المسجوعة للصابي والصاحب ابن عباد ، فقد يذهب بعض الناس إلى أن المآخذ فيها يسيرة لأنها جمل قصيرة ، قد يقال إنه التقطها التقاطاً من جملة رسائلها الطويلة .

وقد حاول أن يخرج نفسه من هذه التهمة ، بأنه وجد للصابي تقليداً بنقابة الأشراف العلويين ببغداد ، وكان ابن الأثير قد أنشأ تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل ، وقد أورد التقليديين في كتابه <sup>(١)</sup> ، ليتأملها الناظر ، ويحكم بينهما إن كان عارفاً ، أو يسأل عنها العارف إن كان مقلداً .

وعلى الرغم من أن كلام ابن الأثير هنا غاية الوضوح ، إذ أنه يحاول أن يقود القارئ إلى الحكم الذي يريد ، وهو الحكم بتفوقه ، أو تفوق كتابته على الصابي أو كتابته ، فإنه يحاول أن يستر ما أظهر من انتقاصه ، ولا يجد سبيلاً إلى ذلك إلا أن يورد تقليد الصابي أولاً ، لأنه كما يقول « المقدم زماناً وفضلاً ! » .

ومعنى ذلك أنه يريد أن يقول إنه إذا كان قد بذ المقدم زماناً وفضلاً في نظر الناس فهو أحق بالفضل والتقدمة ، وإن تأخر به زمانه !

وحين يرى وضوح الغاية من كلامه ، يحاول أن يسترها بأنه لم يقصد بما أورد من كتابة الصابي وكتابته الوضع من منزلة الرجل : أو التهوين من خطر فنه .

وقد يكون ذلك حقاً ، وقد يكون الوضع من شأن الصابي في حد ذاته لم يكن

هدف ابن الأثير من هذه الكلمات وتلك الموازنات . وإنما كان القصد الحقيقي هو إثبات تفوقه عليه ، وتمكنه من صناعة الكتابة على درجة لم يستطع أن يصل إليها

الصابي ، أو غيره من أعلام الكتاب ، الذين اعترف لهم الناس بالإجادة والسبق .

ولذلك تراه يعترف بمنزلة الصابي ، وبأن علم الكتابة قد رفعه ، وأنه إمام هذا

الفن ، والواحد فيه ، وأنه أجاد في السلطانيات كل الإجادة ، وأحسن كل

الإحسان ، ولكنه في الإخوانيات مقصر ، وكذلك في كتب التعازي . مع أن

(١) تقليد الصابي في صفحة ٢٨٧ - ٢٥٩ وتقليد ابن الأثير في صفحة ٢٩٥ - ٣٠١

التقليدين الذين سجلها ابن الأثير ، ووازنها بتقليديه ، إنما يدخلان في باب السلطانيات ، ولا علاقة لها بالرسائل الإخوانية أو بكتب التعازى ! وهذا من أهم مظاهر اضطراب ابن الأثير ، في تقدير الصابي بين الغاية والوسيلة ، ففي هذا الكلام مدح جارى به المشهور الذى لا ينكره أحد ، وذم أشبع به ما في نفسه من الزهو والغرور . فوصف الرجل بأن عقله في كتابته زائد على فصاحته وبلاغته ، وزيادة العلم على المنطق هجته ، وزيادة المنطق على العلم خدعة !

وقد يكون ابن الأثير على حق في كل ما قال ، أو في أكثر ما قال مما نقد به أولئك الكتاب من الناحية الفنية ، وقد لا يكون كذلك ، وإنما الغاية من سوق هذه الشواهد أن ابن الأثير قد عاش في جو الكتابة والكتاب كاتباً يقرأ كثيراً ، ويتعمق فيما يقرأ ، ويبحث عن أسباب القوة وأسباب الضعف ، ثم يعرض ذلك على ذهنه وبصيرته الفنية الواعية ، ثم يكتب ما شاء ان يكتب مجرداً كتابته من أسباب الضعف ، ومضيفاً إليها من أسباب القوة مارآه يزيد في قدره ، ويرفع من شأن كتابته ، ومحققاً المثل التي تصورها لفن الكتابة .

وكذلك كان ابن الأثير شاعراً ، وإن غلبت صناعة الكتابة على فنه الأدبي ، ولذلك كان ماروى له من الشعر قليلاً ؛ وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن ابن الأثير كان يعبر عن تجربته شعراً ، كما عبر عنها نثرأ ، وأنه فيما كتب في المثل السائر كان يستوحى طبيعته الفنية ، قبل أن يتخيل الرسوم والقواعد التي تخيلها من قبله علماء البلاغة والنقد .

\* \* \*

وقد أقدم ابن الأثير على صناعة الأدب بعامة ، وصناعة الكتابة بخاصة ، بعد أن زود نفسه بآلاتها ، وثقفها بألوان الثقافات التي عددها ، وة أحس بالحاجة إليها كلما أوغل فيها ، وأحس أن خطورة هذا الفن ، وبعد أثره لاتقل عن خطورة المناصب الرفيعة التي يتولاها صاحبه في قربه من الحكام ، وفي تصرفه لأمر الدولة .

وما رأيك في رجل كان يحفظ القرآن ، والحديث النبوي ، ودواوين الشعراء ، ويعرف من اللغة شاردها وواردها . ومن النحو أصوله وفروعه ، ومن الصرف دقائقه ، ومن الأخبار والأمثال ما يعيا بوعيه المختصون في كل لون من تلك الألوان ، وهذه صورة من تلك الجهود المصنية التي بذلها في تكميل نفسه : يقول عن نفسه : وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل في الاستعمال ، ومازلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظاً لا يشدعني منه شيء .. ( ص ١٥٠ ) .

ويقول في موضع آخر : واعلم أن المتصدى لحل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس ، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل . وهذا شيء جربته وخبرته ، فإني كنت آخذ سورة من السور ، وأتلوها ، وكلما مر بي معنى أثبتته في ورقة مفردة ، حتى أنتهى إلى آخرها ، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي أثبتتها واحداً بعد واحد ، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة ، وأفعل ما فعلته أولاً ، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في التي قبلها .. ( ص ١٣٥ ) .

وأما معرفة ابن الأثير بالشعراء وحفظه الشعر فحدث عنها ما شئت ، ولقد برزت آثار تلك المعرفة وذلك الحفظ واضحة في المثل السائر وغيره من آثار ضياء الدين ، يقول في المثل « إني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا وعرضته على نظري » ويقول : « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بجرأ لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحصى أسماء قائله » .. ثم يقول : « ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير . ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل ، وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام » .

وبعد أن حصل ضياء الدين هذه الثروة الضخمة من فن المنظوم ، اقتصر منها على ما تكثر فوائده ، وتشعب مقاصده ، ويقول عن نفسه : « لم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منها للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبي عباد ، ولا أنقش ديباجة ، ولا أبهج سبكا ، فاخترت حينئذ دواوينهم ، لاشتغالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها ، مع ما بقي على خاطري من غيرها .

ثم يؤكد هذا القول ، ويفصل أسباب إيثاره لشعر أولئك الثلاثة الفحول ، فيقول : « ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ؛ إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف ، فتي وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس ، وأبي عباد الوليد ، وأبي الطيب المتنبي . وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء :

أما أبو تمام فإن رب معان ، وصيقل الباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذي برز فيه على الأضراب .

وأما أبو عباد البحرى فإنه أحسن في سبك الألفاظ على المعنى ، وأراد أن يشعر ففنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما هوفى شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق . وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه ، فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحرى » ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعزب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عباد أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام . وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاقه العالية ، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال . وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ، ولا منه متلماً ، وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا . والسلاحين قد تواصلوا ، فطريقه في ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركة . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه .

ولاشك في أن ضياء الدين كان صادقاً في كل وصف من تلك الأوصاف ، التي آثر بها كل شاعر من أولئك الفحول ، ولا يكاد يشك ناقد من النقاد في صحة ما ذكر من نعوت الشعر عند كل واحد منهم ، ولكن مجال القول إنما هو في سعة اطلاع ابن الأثير على الشعر العربي قديمه ومحدثه ، وإيثاره دواوين أولئك الثلاثة بالحفظ والاستظهار .

ولقد كان اطلاع ابن الأثير على هذا الشعر الكثير ، وحفظه ما استطاع من نصوصه سبباً من أهم الأسباب في توسيع مجال دراسته البيانية ، وكثرة ما اهتدى إليه من أحكام ، أكثرها سديد مصيب . تظهر فيه شخصية الواثق بعلمه ، المطمئن إلى حسن رأيه .

وتطالعنا في ثنايا المثل السائر أسماء كثير من الكتب التي قرأها ابن الأثير ، وفقه ما فيها ، فأعانتته على ماتعرض له من دراسة الأدب في فنونه المشهورة وفي كل جزئية من جزئيات العمل الأدبي .

فأنت تقرأ في هذا الكتاب كلاماً في النحو العربي ، وفي علم التصريف وفي فقه اللغة ، فلا يسعك إلا أن تستجيد ما تقرأ ، وإلا أن تعترف بأنك أمام عالم من صفوة العلماء الثقات المختصين في كل فن من تلك الفنون .

وتقرأ كلاماً في التأويل وفي التفسير وفي الحديث النبوي ، فيأخذك ما ترى من كثرة الاطلاع وسعة الباع في الفهم والتحصيل . وكأنك أمام علم من أعـلام التفسيرين والمحدثين .

وتقرأ أمثالاً وأخباراً وشعراً ونثراً ، فتعجب من هذا المحصول الذى عنى ابن الأثير نفسه فى تحصيله ، وتعترف أنك أمام ثقافة لاتكاد تقف عند حد ، أو تتوقف عند غاية من الغايات .

وقد اعتمد ابن الأثير نفسه على كثير من أمهات الكتب فى كل فن من الفنون التى تعرض لها ، وقد أشار إلى هذه المراجع فى أثناء دراسته .

١ - فقد ذكر أن مما قرأ فى التفسير تفسير البلاذرى ، وتفسير النقاش المسمى « شفاء الصدور » .

٢ - وقرأ فى الحديث النبوى كتاب « الشهاب » ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، والموطأ ، والترمذى ؛ وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وغيرها من كتب الحديث .

٣ - وقرأ فى الدين وأصوله « إحياء علوم الدين » وكتاب « الأربعين » للإمام أبى حامد الغزالى .

٤ - وقرأ فى اللغة والتصريف كتاب « الخصائص » لأبى الفتح بن جنى ، وكتاب « التصريف » لأبى عثمان المازنى ، وكتاب « الفصيح » للإمام ثعلب . وكتاب « إصلاح ماتغلط فيه العامة » لأبى منصور الجواليقى ، و « مجمع الأمثال » للميدانى .

٥ - وكان مما قرأ من كتب الأدب وموسوعاته ودواوين الشعراء وشروحها : كتاب « الأغاني » لأبى الفرج الأصفهانى ، وكتاب « الروضة » لمحمد بن يزيد المرند ، الذى وصفه بأنه كتاب جمعه ، واختار فيه أشعار شعراء ، بدأ فيه بأبى نواس ، ثم بمن كان فى زمانه ، وانسحب على ذيله .

كما قرأ كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « ديوان الحماسة » لأبى تمام ، و « البيان والتبيين » لأبى عثمان الجاحظ ، وقرأ « مقامات الحريرى » ورسائل أبى إسحاق الصابى ، ورسائل الصاحب بن عباد ، وشرح ديوان المتنبى لأبى الفتح بن جنى ، و « لزوم مالا يلزم » لأبى العلاء المعرى ، ومعجز أحمد له ؛ وكما قرأ كتاب « النقائص » ، وديوان الفرزدق ، وأبى تمام ، والمتنبى ، وأبى نواس .

والبحتري ، وابن الرومي ، وكشاجم ، وديك الجن ، وأبي العتاهية ، والعباس  
ابن الأحنف ... الخ

٦ - أما كتب البلاغة والبيان فقد قرأ أمهاتها ، وأفاد منها ، ونقدها ، قال في  
خطبة المثل السائر : وقد ألف الناس فيه - علم البيان - كتباً ، وجلبوا ذهباً ،  
وحظبوا حظباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه ،  
فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب « الموازنة » لأبي القاسم الحسن بن بشر  
الأمدي ، وكتاب « سر الفصاحة » لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي (١) .

وقال في خطبة « الجامع الكبير » بعد كلامه في أهميته علم البيان ، وصعوبة  
مرامه : « فشرعت عند ذلك في تطلبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك في  
تحصيله سبيلاً إلا نهجته ، ولا غادرت في إدراكه باباً إلا ولجته ، حتى اتضح عندي  
بأديه وخافيه ، وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين فيه ، كأبي الحسن علي  
ابن عيسى الرماني ، وأبي القاسم بن بشر الأمدي وأبي عثمان الجاحظ ، وقدامة  
بن جعفر الكاتب ، وأبي هلال العسكري ، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف  
بالغانمي ، وأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي ، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه ،  
وقول تعقد الخناصر عليه (٢) .

وأشهر كتب هؤلاء الأعلام التي تتصل بهذا الفن هي النكت في إعجاز القرآن  
للرماني ، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي والبيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب  
نقد الشعر ، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة ، وكتاب جواهر الألفاظ ، ثلاثتها  
لقدامة بن جعفر ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، وكتاب صناعة الشعر  
للغانمي ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .

كما قرأ وأفاد من كتاب البديع الذي ألفه عبد الله بن المعتز ، وكتاب الوساطة بين  
المتنبي وخصومه للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، وكتاب حلية  
المحاضرة للحاتمي ، وكتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ،

(١) انظر صفحة (٣٢) من هذه الطبعة

(٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل

سعيد : ص ٢ - مطبعة المجمع العلمي العراقي : بغداد ١٣٧٥ هـ .



ومقدمة ابن أفلح البغدادي التي ذكر ابن الأثير أنه قصرها على تفصيل أقسام علم  
الفصاحة والبلاغة .

بهذه الثقافة بل بتلك الثقافات التي حصلها ، والعقول التي سبر أغوارها ، اقتحم  
ابن الأثير ميدان البحث البلاغي ، فكان كتابه مجموعة من الأفكار الماثورة عن  
أولئك العلماء الأعلام مزجها بأفكاره ، وبدت شخصيته واضحة مستقلة بين سمات  
تلك الشخصيات ، ولم يكتف بأن يكون جامعاً أو ناقلاً ، بل أراد أن يكون مؤلفاً في  
البلاغة ، ورائداً من رواد علم البيان ، بما أضاف وصحح ، وعاب ونقد .  
ومن هنا كان المثل السائر لوناً متميزاً من ألوان التأليف في البيان العربي ،  
واستطاع على الرغم من كثرة الآثار فيه ، ووفرة الدراسات المتباينة في هذا الكتاب  
أن يكون مرجعاً من مراجع البلاغة العربية ، لا يستغنى عنه باحث من الباحثين  
فيها .

\* \* \*

وقد تأثر ابن الأثير في تلك الدراسة الخصبة التي نجدها في المثل السائر بعاملين  
مهمين هما العصر الذي عاش فيه ، والفن الذي اشتغل به ، ووصل به ما كان  
يشتهى من المنصب والجاه .

١ - فقد وصل ابن الأثير إلى قمة مجده وذرورة نضجه أخريات القرن السادس  
الهجري شطراً كبيراً من القرن السابع ، فجاء بعد ازدهار البحوث البيانية ونضجها ،  
واختلاف مناهج البحث ، وتعدد الآراء في البيان ، من رأى ينادى بتحكيم  
الذوق ، إلى آخر يدعو إلى التقليد في النظر إلى الأدب والحكم عليه إلى رأى ينادى  
بالموضوعية والمنهج العلمي ، ويعنى بالتعريف والتنظيم وحصر الأقسام ، إلى ذلك  
الأسلوب النقدي التحليلي النفسي الذي نراه في كتابي عبد القاهر : دلائل  
الإعجاز : وأسرار البلاغة ، وما تميزا به من فكرة النظم التي تبناها عبد القاهر ،  
وأرسي قواعدها في النقد والنظر إلى البيان وما نادى به من النظرة الكلية للأدب  
والانتصار للمعنى .

بل رأينا ما هو أكثر من ذلك : رأينا الصورة النهائية للبلاغة العربية قد تم وضعها

على يد السكاكى فى كتابه المشهور ، مفتاح العلوم ، الذى نظم دراسة البلاغة .  
وقن لها ، وقسمها إلى علومها ، وحدد مباحث كل فن منها .  
٢- وكذلك كان ابن الأثير كاتباً من كتاب الدواوين . كتب للقاضى  
الفاضل فى دولة صلاح الدين ، كما كتب لأولاد صلاح الدين من بعده ، والذى  
يعرف أساليب الكتابة فى ذلك العصر الذى عمل فيه ابن الأثير يعرف أنها كانت  
تتميز امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام  
معانى الشعر وألفاظه فى كتابة الرسائل ، بجمل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى  
كادت الرسائل تكون شعراً منشوراً ، والاقْتباس من كلام البلغاء ، وتضمين الأفاذ  
من أبيات الشعراء . ولما نبه شأن القاضى الفاضل أراد أن يحاكي كتاب المشاركة فى  
البديع ، فراد عليهم وأرى ، وجاراهم فى التزام السجع والجناس والطباق ، وزاد  
عليهم أن استعمال كل أنواع البديع التى كانت فاشية وقتئذ فى الشعر ،  
كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها ، وأكثر من حل المنظوم ، والاقْتباس من  
الآيات ، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال ، وأمعن فى التشبيه والاستعارة حتى  
جاءت معانى رسائله منقاداً لألفاظها وأساليبها .

وقد كانت هاتان الناحيتان عظيمتى الأثر فى ابن الأثير ، وفى إدراكه لمعنى  
البيان ، كما تصوره فى المثل السائر .

\* \* \*

تكلم ابن الأثير فى خطبة كتابه عن أهمية علم البيان ، وذكر أن منزلته فى تأليف  
النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام .  
ويبدو من أول كلامه أنه رجل كثير الاعتداد بنفسه ، والتباهى بعلمه ، وكثيراً ما  
جره هذا الاعتداد إلى انتقاص غيره من الباحثين فيما بحث فيه فقد ذكر أن الذين ألفوا فى  
البيان من قبله ألفوا كتباً ، وجلبوا ذهباً ، وحطبوا حطباً ، وما من تأليف إلا وقد  
تصفحه ، وعلم غثه وسمينه ، ثم لم يجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب « الموازنة »  
للأمدي وكتاب « سر الفصاحة » للخفاجى ، والكتاب الأول هو الذى حظى  
بإعجابيه . لأنه - كما يقول - أجمع أصولاً وأجدى محصولاً ، مع أن المناسبة بين

الكتابين بعيدة ، لأن كتاب الأمدى يعرض للشاعرين أبي تمام والبحترى ، ويعرض شعرهما ، ويوازن بينهما ، ويعرض أقوال الأنصار والخصوم فيها .  
أما كتاب الخفاجى فإنه يبحث بحثاً عاماً فى أصول الفصاحة والبلاغة والبيان بما بحث عن أسرارها ودرس من فنونها .

وقد عاب ابن الأثير كتاب سر الفصاحة بأن صاحبه أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المقررة وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره .

ولا يقنع من ذلك إلا بأن يعود فيعيب الكتابين معاً ، فيصفهما بأنها قد أهملتا من علم البيان أبواباً ، وربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً أو تركا لباباً !

وشبيه بهذا الانتقاص وصفه لمقدمة ابن أفلح البغدادى فى قوله : ووقعت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح البغدادى » قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية ، وهم واصفون لها ، ومكبون عليها ، ولما تأملتها وجدتها قشوراً لا لب تحتها ، لأن غاية ما عند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فإنها كقول النابغة مثلاً ، أو كقول الأعشى ، أو غيرها ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا نعرف حقيقة الفصاحة ، حتى إذا وردت فى كلام عرفنا أنه فصيح . بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه . وكذلك يقول فى غير الفصاحة .

ويذكر فى موضع آخر أنه عثر على ضروب كثيرة من البيان فى القرآن الكريم ، وأنه لم يجد أحداً تقدمه تعرض لذكر شىء منها ، وهى إن عدت كانت فى علم البيان بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وأن الله هداه لابتداع أشياء لم تكن من قبله مبتدعة ، ومنحه درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هى متبعة .

وأمثال هذا كثير فى ثنايا المثل السائر الذى زيف فيه كثيراً من آراء العلماء والبلاغيين والنقاد ، وقد سبقت إشارات إلى حملاته على الأدباء والكتاب لىبنى على هذا الانتقاص إعجابه بنفسه ، وزهوه بفنه ، وإن كان فى هذا الزهوشىء من الصدق ، إلا أن أخلاق العلماء وما اختصوا به من فضيلة التواضع يأبى إقراره على كل ما ذهب إليه فى هذا الموضوع وغيره .

ولقد عرف كتاب « المثل السائر » في بيئات الثقافة العربية على أنه كتاب أدب ، وعرف كذلك على أنه كتاب في أصول البلاغة العربية أحياناً ، وعلى أنه كتاب في النقد الأدبي أيضاً .

وكان الذين عدوا المثل السائر كتاب أدب على حق ، لأنهم وجدوا أنفسهم أمام دراسة خصبة في صناعة الأدب ، وفي أشهر فنونه ، وهى فن الشعر وفن الكتابة ، ووجدوا فيه أصولاً للأدب تجمع صفاته ، وتعرف بأركانه ، وإشارات إلى عدد كبير من الأدياء الذين عرفهم تاريخ الأمة العربية ، ونصوصاً من المنظوم والمنثور تمثل عصوره المختلفة ، واتجاهاته المتباينة .

وكان الذين عدوا هذا الكتاب من كتب النقد على حق أيضاً ، لأنهم رأوه يفيض بكثير من الفكر والآراء الحرة في الأدب والأدياء ، ولم يسلم من نقد ابن الأثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربي بالإجلال والإكبار ، كامرئ القيس ، وتأبط شرا ، والفرزدق ، وأبي نواس وأبي تمام ، وأبي الطيب المتنبي ، وغيرهم من كبار شعراء العربية .

وفي كثير من الأحيان نجد نقداً موضوعياً ، وفي كثير من الأحيان أيضاً نرى ابن الأثير لا يكتفي في النقد الادبي بحكم المعرفة المستنيرة ، بل يكبر من حكم الذوق السليم الذى يرى أنه أكبر من حكم القاعدة الموضوعية والمعرفة المحدودة ؛ ويشجع على تربية هذا الذوق بكثرة القراءة ومداومة الاطلاع ، فتراه يقول بالرغم من اعتداده بنفسه ، والزهو بتأليفه . اعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب إن كان فيما يلقى عليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ! فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعاً ، وهما يريانك الخبر عياناً ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قلباً ولساناً ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، ومماثل في مهدته لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفاً ، ووضع في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال !

ثم إن هذا الكتاب معدود من أمهات الكتب في البلاغة العربية ، ومرجعاً من أهم

مراجعتها ، بما حوى من فنونها الكثيرة المنثورة فى بطون الكتب المختلفة فى موضوعاتها ، المتباينة فى مناهجها .

ويمتاز كتاب ابن الأثير من بين أكثر كتب البلاغة بأنه درس تلك الفنون دراستين : إحداهما : دراسة قاعدية ، عنى فيها بالحدود والتعاريف وحصر الأقسام ، وجمع فيها كل ما استطاع جمعه من معالمها التى اهتدى إليها الذين سبقوه إلى البحث البلاغى ، وهو فى كثير من المواضع يصحح أخطاءهم ، ويضيف إلى تحديداتهم ما جعلها جامعة مانعة على الوجه الذى يهتدى إليه ؛ وبالنظر الذى يهتدى به .  
والأخرى : دراسة نقدية ، وفيها ألم بكثير من العيوب التى يقع فيها مستعملو تلك الفنون فى أشعارهم أو خطيبهم أو كتاباتهم .

ولذلك كان من الممكن أن يقال إن ابن الأثير قد جمع فى المثل السائر كثيراً من أصوله البلاغة العربية والنقد الأدبى ، وأنه وحد هذين الفنين الجمالين ، ومزجها ، وأعادها إلى طبيعتهما التى تنفر من الأسلوب القاعدى الجاف ، وخلطها بنصوص من الأدب وآراء فيه أكثرها جيد مصيب .

\* \* \*

ومن جيد ما وفق إليه من النظرات الصائبة فى هذا الكتاب محاولته التفريق بين مهمة البيانى ، ومهمة كل من النحوى واللغوى ، ويقول فى ذلك إن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، ويسأل صاحب هذا العلم عن أحوالها اللفظية والمعنوية ، ويشترك هو والنحوى أو اللغوى فى أن الثانى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة .

أما صاحب البيان فإن له نظرة فوق هذه النظرة ، لأنه ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، التى هى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء اللغة والنحو والإعراب ، ألا ترى أن النحو يفهم معنى الكلام المنظور والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من أسرار الفصاحة والبلاغة ؟ وهذا هو السر فى خطأ مفسرى الأشعار ، لأنهم اقتصروا على شرح

معناها ، وما فيها من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون العناية بشرح ماتضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

وهذا كلام جيد ، لأن ابن الأثير يفرق فيه بين أمرين هامين ، ينبغى أن يكون التفريق بينهما أساساً لفهم مهمة اللغوى أو النحوى ، ومهمة الناقد أو صاحب البيان . ذلك أن هناك علوماً تتخصص في البحث عن صحة العبارة ، من حيث صحة مفرداتها ، وصحة دلالتها على معانيها ، وصحة التركيب الذى توضع فيه وضعاً صحيحاً على حسب ما يقتضى المعنى وفقاً لقواعد النحو والإعراب ، وتلك مهمة علماء اللغة الذين يبحثون في بنية الكلمة ، وفي دلالتها على معناها ، طبقاً للوضع اللغوى ، وفهم أصحاب اللغة لتلك الدلالة ، وهى مهمة علماء النحو والإعراب الذين يبحثون في صحة ضبط كل لفظ في الجملة على حسب موقعه من العبارة ضبطاً يوافق ما جرى عليه العرب في ذلك الضبط ، وما بنيت عليه قواعد النحو والإعراب التى استنبطها أولئك العلماء بالقياس على نهج العرب في كلامهم .

ثم إن هنالك علوماً أخرى لاتقف عند تلك المسائل التقليدية المعروفة ولكنها تعالج النواحي الجمالية في الأعمال الأدبية على حسب التقاليد الفنية المعروفة التى استنها كبار الأدباء ، والقواعد المستقاة من مظاهر الحسن التى توافرت للفن الأدبى الماثور عن أولئك الأدباء ، نتيجة لطول المدارس والموازنة بين نص ونص ، وبين أديب وأديب . وتلك مهمة النقاد ، أو البلاغيين ، أو علماء البيان .

والنظرة الأولى من هاتين النظرتين عامة ، تتناول العبارة المقولة ، والعبارة المكتوبة بكل أنواعها ، سواء أكانت تلك العبارة عبارة علمية تخاطب العقل ، أم كانت عبارة أدبية تخاطب المشاعر ، وتثير العاطفة والوجدان . وسواء أكانت في أعلى درجات سمو ، أم كانت هابطة إلى مستوى لغة التفاهم التى تجرى بين الناس ، ولاتسمو عن العامية إلا بصحة كلماتها ، وسلامة تركيبها .

أما النظرة الأولى فإنها تختص بالعبارة الأدبية ، أو الأسلوب الفنى ، الذى يعتمد عليه الشعر والخطابة ، وسائر أساليب الكتابة الفنية .

ومن تلك المسائل أيضاً ، مما انفرد به ابن الأثير برأى ، أنه في سبيل بحثه عن فصاحة اللفظة المفردة عرض للحوشى من الألفاظ الذى أنكره النقاد ، وأجمعوا على إخلاله بالفصاحة ، ولكن ضياء الدين يرى أن هذا الوحشى خفى على جماعة من المتتمين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنوه المستقبح من الألفاظ ، وليس كذلك ، وذلك أن الوحشى منسوب إلى اسم الوحش الذى يسكن القفار ، وليس بأنيس . وكذلك الألفاظ التى لم تكن مأنوسة الاستعمال . وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبها ، بل أن يكون نافراً ، فتارة يكون حسناً ، وتارة يكون قبيحاً .

ويبنى على هذا أن الوحشى ينقسم إلى قسمين :

أحدهما الوحشى الذى جاءت إليه هذه الصفة من غرابته ، وهو يختلف باختلاف النسب والإضافات .

وأما القسم الآخر من الوحشى فقبيح ، والناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربى باد ، ولا قروى متحضر .

وعلى هذا يكون اللفظ عند ابن الأثير أنواعاً :

١ - ماتداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا ، ولا ينعت بالوحشية أو الحوشية ، وهذا هو الحسن من الألفاظ .

٢ - وماتداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله ، وهذا هو الذى لا يعاب استعماله عند العرب ، لأنه لم يكن عندهم وحشياً ، وهو عندنا وحشى .

٣ - الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضاً المتوعر ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى ، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ، ممن لم يخطر بباله شئ ومن معرفة هذا الفن . وإذا ورد كرهه السمع ، وثقل على اللسان النطق به .

وإذا كان معنى الحوشى عند ابن الأثير هو الغريب ، فإن العرب لاتلام على استعمال الغريب الحسن ، وإنما تلام على استعمال الغريب القبيح .

وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً ، وهو في أحدهما أحق بالملاءمة من الآخر .

وفي هذا الكتاب أدل ابن الأثير بكثير من الآراء النقدية التي لها اعتبارها في موازين النقد الأدبي ، وتراه في كثير من الأحيان لا يرضى بآراء الغير بل يبسط الرأي الذي يراه ، والذي يتمشى مع ذوقه ، والذي يساير - في أكثر الأحيان - الفكرة النقدية السليمة ، التي لايسع القارئ إلا الإقرار بها والإذعان لها ، والشهادة لابن الأثير بالذوق السليم ، ومن ذلك هذا العيب الذي سماه أبو هلال العسكري ( التضمين ) وسماه قدامة بن جعفر ( المبتور ) وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد ، فيقطعه بالقافية ، ويتممه في البيت الثاني . وعند أبي هلال العسكري أن التضمين هو أن يكون الفصل الأول مفتقراً إلى الفصل الثاني ، والبيت الأول محتاجاً إلى الأخير .

ومرجع هذا العيب في نظرهم أن نقاد الشعر العربي قد درجوا على أن وحدة الشعر هي البيت لا القصيدة ، ولهذا عدوا احتياج البيت إلى ما بعده ليتم معناه عيباً من العيوب التي يجب على الشاعر المجيد أن يتجنبها . وهم لا يقصرون هذا العيب على الشعر ، بل يحملونه على النثر أيضاً ، إذا كانت الفقرة التي تليها . وهذا الاعتبار لا يخفى فساده ، لأن القصيدة ينبغي أن تكون وحدة متماسكة ، والحكم على الشعر أو الشاعر ببيت واحد لا يخلو من ظلم وتعسف ، واحتجاجهم بأن خير الشعر ما كان البيت فيه قائماً بنفسه . مستقلاً عما قبله وعما بعده ، حتى يكون كالمثل يصلح للاقتباس ، ويصلح للاستشهاد ، فيه خروج عن طبيعة الشعر الذي لا يتحرى الحكمة وإن جاءت فيه ، وإنما القصيدة من الشعر أو الفصل من النثر يحدث تأثيره بمجموعه الكلي ، حين يحس القارئ أو السامع بالنشوة أو الطرب أو الانفعال ، حين يتم قراءة القصيدة من الشعر ، أو الفصل من النثر ، وإلا فقد جوزنا للشاعر - حين نقصر النظر على البيت الواحد - أن يرضينا في بيت ، وأن يسخطنا في تاليه ، ويكون الأول في غاية الجودة ، ويكون الثاني كذلك ، من غير نظر إلى تتابع الأفكار وتناسق الصور ، ولا بأس حينئذ بالتعارض أو التناقض على رأيهم .

نعم ! قد يكون ذلك عيباً إذا لم تتم الكلمة في البيت . وأتمها الشاعر في البيت الثاني ، كتلك الأبيات التي نقلها الخفاجي في سر الفصاحة ، ووصفها بأنها قبيحة ظاهرة التكلف ، أما احتياج بعض الكلام إلى بعض فلا عيب فيه ، بل هو دليل



التماسك والترابط بين أجزاء النص الأدبي ، وهذا هو الحمود الذى يكون به بعض أجزاء الكلام آخذاً برقاب بعض .

ولا يقر ابن الأثير أولئك النقاد فيما ذهبوا إليه ، فيقول إن المعيب عند قوم (تضمين الإسناد) وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنشور ، على أن يكون الأول منها مسنداً إلى الثانى ، فلا يقوم الأول ولا يتم معناه إلا بالثانى ، وهذا هو المعيدود من عيوب الشعر ، وهو عندى غير معيب ، لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً ، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنشور فى تعلق إحدهما بالأخرى ، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى .

والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينهما يقع فى الوزن لاغير ، والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه . فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لى قرين . يقول إنك لمن المصدقين ، إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون » . فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ، فلا تفهم كل واحد منهن إلا بالتى تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان ذلك عيباً لما ورد فى كتاب الله عز وجل . وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضاً . فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بقانتين . إلا من هو صال الجحيم ، فالآيتان الأوليان لاتفهم إحدهما إلا بالأخرى . وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء : « أفرايت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » .

فهذه ثلاث آيات لاتفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة . ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة وقد استعملته العرب كثيراً ، وورد فى شعر فحول شعرائهم ، فمن ذلك قول الشاعر :

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كُنه  
أن من يعرف شيئاً يدعى أكثر منه

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ، ولا تم معناه إلا بالبيت الثاني ؟ ومنه أيضاً قول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل  
ألا أيها الليل الطويلُ ألا أنجلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ  
وكذلك ورد قول الفرزدق :

وما أحدٌ من الأقومِ عدواً عروف الأكرمينَ إلى التراب  
بمحتفظين إن فضلتُمونا عليهم في القديم ولا غضاب  
وكذلك قول الشاعر :

لعمري لرهط المرء خيرُ نقيّةٍ عليه وإن عالوا به كل مركبِ  
من الجانب الأقصى وإن كان ذاغنى جزيل ولم يخبرك مثل مجربِ

وهذه الحافظة الواعية يؤيد ابن الأثير قوله ، جاعلاً إمامه الكتاب الكريم ، وهو المثل الأعلى للبيان والبلاغة ، وشعر الفحول من السابقين « وكلامه يوافق الرأي الذي يجب أن يحتذى ، وإن لم يذكر له من أسباب التأيد والتعليل سوى ورود أمثاله في غرر الكلام ، وأما العلة الأدبية فتلتمس في مثل ما قدمناه .

ويعد ابن الأثير من أعظم نقاد العرب الذين درسوا السرقات الشعرية وفصلوا القول في ضرورها ، ويعد المثل السائر من أعظم الكتب التي درس فيها هذا الموضوع دراسة خصبة مجدية ، يرجع إليها الباحثون في هذا الموضوع الذي يشتمل في كثير من أصول النقد عند العرب .

تلك بعض لمحات مما اشتمل عليه هذا الأثر النفيس الذي احتل منزلته بحق بين أصول البلاغة والنقد الفني عند العرب ، .

## ترجمة ابن الأثير \*

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكرم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب ضياء الدين .

كان مولده بجزيرة ابن عمر ونشأ بها ، وانتقل مع والده إلى الموصل ، وبها اشتغل ، وحصل العلوم ، وحفظ كتاب الله الكريم ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئاً كثيراً من الأشعار .

ولما كملت لضياء الدين المذكور الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ، تغمده الله برحمته ، في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فوصله القاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من تلك السنة ، وأقام عنده إلى شوال من السنة .

ثم طلبه والده الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته ، والانتقال إلى ولده ، ويبقى المعلوم الذي قرره له باقياً عليه ، فالخيار ولده ، فمضى إليه ، وكان يومئذ شاباً ، فاستوزره ولده الملك الأفضل نور الدين على المقدم ذكره ، رحمه الله تعالى ، وحسنت حاله عنده .

ولما توفي السلطان صلاح الدين ، واستقل ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق ، استقل ضياء الدين المذكور بالوزارة ، وردت أمور الناس إليه ، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه .

ولما أخذت دمشق من الملك الأفضل ، وانتقل إلى صرخد ، وكان ضياء الدين قد أساء العشرة من أهلها ، فهموا بقتله ، فأخرجه الحاجب محاسن بن عجم

(٥) مختصرة من وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٨/٢

مستخفياً في صندوق مقفل عليه ، ثم سار إليه ، وصحبه إلى مصر لما استدعى لنيابة ابن أخيه الملك المنصور .

ولما قصد الملك العادل الديار المصرية ، وأخذها من ابن أخيه ، وتعوض الملك الأفضل البلاد الشرقية ، وخرج من مصر ، لم يخرج ضياء الدين في خدمته ، لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه ، فخرج منها مستتراً .

وغاب عن محدومه الملك الأفضل مديدة ولما استقر الأفضل في سميساط عاد إلى خدمته ، وأقام عنده مدة ، ثم فارقه في ذي القعدة سنة ٦٠٧ هـ واتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج مغاضباً ، وعاد إلى الموصل ، فلم يستقم حاله ، فورد إربل ، فلم يستقم حاله فسافر إلى سنجار ، ثم عاد إلى الموصل ، واتخذها دار إقامته ، واستقر وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ، وأتابك يومئذ بدر الدين أبو الفضائل النورى ، وذلك في سنة ٦١٨ هـ .

قال ابن خلكان : ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لأخذ عنه شيئاً ، ولما كان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق ، وانتقلت إلى الشام ، وأقيمت به مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية ، وهو في قيد الحياة ، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة .

ولضياء الدين من التصانيف ، الدالة على غزارة فضله ، وتحقيق نبلة كتابه الذى سماه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه ، فوصل إلى بغداد منه نسخة .

وله كتاب « الواشى المرقوم في حل المنظوم » وهو مع وجازته في غاية الحسن

والإفادة .

وله كتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء ، وهو أيضاً نهاية في بابه .

وله مجموع اختار فيه شعر أبي تمام ، والبحترى وديك الجن والمنتبى ، وهو في مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد .

وله أيضاً ديوان ترسل في عدة مجلدات ، والمختار منه في مجلد واحد .  
وذكر أبو البركات بن المستوفى في تاريخ إربل ، وبالغ في الثناء عليه وقال ورد إربل في شهر ربيع الأول سنة ٦١١ هـ . وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ هـ وتوفى في إحدى الجهادين سنة ٦٣٧ هـ . ببغداد وقد توجه إليها رسولا من جهة صاحب الموصل ، وصلى عليه من الغد بجامع القصر ، ودفن بمقابر قریش في الجانب الغربى بمشهد موسى بن جعفر رضى الله عنهما .

قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادى في تاريخ بغداد توفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو أخير ، لأنه صاحب هذا الفن ، وقد مات عندهم .

ولضياء الدين أخوان ناهان مجد الدين أبو السعادات المبارك ، وأبو الحسن على الملقب عز الدين . وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء ، لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله تعالى .

وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن ، وصنف عدة تصانيف نافعة ، من مجاميع وغيرها ، ورأيت له مجموعاً جمعه الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب ، وأحس فيه ، وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه ، ومولده بالموصل في شهر رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، وتوفى بكرة نهار الاثنين ثانى جادى سنة ٦٢٢ هـ واسمه محمد ، ولقبه الشرف ، رحمه الله تعالى .



# المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر  
يضياء الدين بن الأشير





# بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَسَأَلُ اللّٰهَ رَبَّنَا أَنْ يُبَلِّغَ بَنِيَّ مِنَ الْحَمْدِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَأَنْ يُعَلِّمَنَا مِنَ الْبَيَانِ مَا تَقْصُرُ عَنْهُ مَزِيَّةُ الْفَضْلِ وَأَصْلُهُ ، وَحِكْمَةُ الْخَطَابِ وَقَفْصَلُهُ ، وَرَغْبَ إِلَيْهِ أَنْ يُوقِنَنَا لِلصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ ، وَنَسَخَ هَدْيَهُ شَرِيعَةً كُلِّ هَادٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ سَبَقَ وَبَدَّرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَابَرَ وَصَبَرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ آوَى وَنَصَرَ .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّ عِلْمَ الْبَيَانِ لِتَأْلِيفِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ بِمَنْزِلَةِ أَصُولِ الْفِقْهِ (١) لِلْأَحْكَامِ وَأَدِلَّةِ الْأَحْكَامِ . وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِيهِ كِتَابًا ، وَجَلَبُوا ذَهَبًا وَحَطَّبُوا حَطْبًا ، وَمَا مِنْ تَأْلِيفٍ إِلَّا وَقَدْ تَصَفَّحَتْ شَيْئَهُ وَسِينَهُ (٢) ، وَعِلِّمْتُ عَثَّةً (٣) وَسَمِينَهُ ، فَلَمْ أَجِدْ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي ذَلِكَ إِلَّا كِتَابَ « الْمَوَازِنَةِ » لِأَبِي الْقَاسِمِ الْحَسَنِ بْنِ بَشْرِ الْأَمْدِيِّ (٤) وَكِتَابَ « سِرِّ الْفَصَاحَةِ » لِأَبِي

(١) أَصُولُ الْفِقْهِ هِيَ الْقَوَاعِدُ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْفُرْعِيَّةِ مِنَ الْأَدَلَّةِ التَّفْصِيلِيَّةِ .

(٢) يُرِيدُ أَنَّهُ تَصَفَّحَهُ كُلَّهُ حَالِيهِ وَعَاطَلَهُ وَمَعَجَمَهُ وَمَهْمَلَهُ .

(٣) الْغَثُ : الْمَهْزُولُ .

(٤) أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بَشْرِ الْأَمْدِيِّ ، صَاحِبُ كِتَابِ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ الطَّائِفَيْنِ . كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ جَيِّدَ الدَّرَايَةِ وَالرُّوَايَةِ ، سَرِيعَ الْإِدْرَاكِ ، وَهُوَ مَعْدُودٌ مِنْ أَعْمَةِ الْبَيَانِ وَالنَّقْدِ الْأَدْبِيِّ . وَصَفَّهُ صَاحِبُ الْفَهْرَسْتِ بِأَنَّهُ مَلِيحُ التَّصْنِيفِ جَيِّدُ التَّأْلِيفِ يَتَعَاطَى مَذْهَبَ الْجَاحِظِ فِيمَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْكُتُبِ ، وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ : كِتَابُ الْمُخْتَلَفِ وَالْمُؤْتَلَفِ فِي أَسْمَاءِ الشُّعْرَاءِ ، وَكِتَابُ مَعَانِي شُعْرِ الْبِحْتَرِيِّ ، وَكِتَابُ نَثْرِ الْمَنْظُومِ ، وَكِتَابُ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ عَمَارٍ فِيمَا خَطَأَ فِيهِ أَبَا تَمَامٍ ، وَكِتَابُ فِي أَنَّ الشُّاعِرِينَ لَا تَنْفَقُ خَوَاطِرُهُمَا ، وَكِتَابُ مَا فِي مَعْيَارِ الشُّعْرِ لِابْنِ طَبَاطَبَا مِنْ الْخَطَأِ . وَكِتَابُ فَرْقِ مَا بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْمَشْتَرَكِ مِنْ مَعَانِي الشُّعْرِ ، وَكِتَابُ تَفْضِيلِ شُعْرِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ عَلَى الْجَاهِلِيِّينَ ، وَكِتَابُ فِي شِدَّةِ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ ، وَكِتَابُ تَبْيِينِ غَلْطِ قَدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ فِي كِتَابِ نَقْدِ الشُّعْرِ ، وَكِتَابُ فَعَلْتُ وَأَفْعَلْتُ ، وَكِتَابُ الْحُرُوفِ ، وَدِيْوَانُ شِعْرِهِ .

وَنَقَلَ يَاقُوتٌ عَنِ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ التَّنُوخِيِّ أَنَّ مَوْلِدَ أَبِي الْقَاسِمِ الْحَسَنِ بْنِ بَشْرِ الْأَمْدِيِّ بِالْبَصْرَةِ . وَأَنَّهُ قَدِمَ بَغْدَادَ يَحْمِلُ عَنِ الْأَخْفَشِ وَالْحَفَاجِيِّ وَالزُّجَاجِيِّ وَابْنِ دَرِيدِ الْوَيْلِيِّ السَّرَاجِ وَغَيْرِهِمُ اللَّغَةَ وَالنَّحْوَ . وَرَوَى الْأَخْبَارُ فِي آخِرِ عَمْرِهِ بِالْبَصْرَةِ . وَكَانَ يَكْتُبُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ لِأَبِي جَعْفَرِ هَارُونَ بْنِ مُحَمَّدِ الضَّبِّيِّ وَغَيْرِهِ . وَكُتِبَ بِالْبَصْرَةِ لِأَلِ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَغَيْرِهِمُ . . . وَكَانَ كَثِيرَ الشُّعْرِ حَسَنَ الطَّبَعِ ، جَيِّدَ الصَّنْعَةِ ، مُشْتَهَرًا بِالنَّشِيئَاتِ ، قَالَ : وَلَأَبِي الْقَاسِمِ تَصَانِيفُ كَثِيرَةٌ جَيِّدَةٌ مَرْغُوبٌ فِيهَا ، مِنْهَا كِتَابُ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ الْبِحْتَرِيِّ وَابْنِ

محمد عبد الله بن سنان الخفاجي<sup>(٥)</sup> . غير أن كتاب « الموازنة » أجمع أصولاً ، وأجدي محصولاً ، وكتاب « سر الفصاحة » وإن نبه فيه على نكت منيرة ، فإنه قد أكثر مما قلَّ به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة ، وصفاتها ، مما لا حاجة إلى أكثره<sup>(٦)</sup> ، ومن الكلام في مواضع شدَّ عنه الصواب فيها ، وسرِّدُ بيان ذلك كله في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . على أن كلا الكتابين قد أهملنا من هذا العلم أبواباً ، ولربما ذكرنا في بعض المواضع قشوراً ، وتركنا لُباً . وكننت عثرتُ على ضروب كثيرة منه<sup>(٧)</sup> في غضون القرآن الكريم ؛ ولم أجد أحداً ممن تقدمني تعرض لذكر شيء منها ؛ وهي إذا عُدَّتْ كانت في هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظَرَ إلى فوائدها وُجِدَتْ محتويةً عليه بأسره ، وقد أوردتها هاهنا ، وشفَعْتُها بضروب أُخِرَ مدونةً في الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفتُ منها ما حذفته ، وأضفتُ إليها ما أضفته . وهاداني الله لا ابتداءً أشياء لم تكن من قبلي مُبتدعةً ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هي مُتَبَعَةٌ . وكلُّ ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا ، وعلى غيره من الكتب ، وقد بَنَيْتُهُ على مقدمة ومقالتين :

تمام . وهو كتاب حسن ، وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحرى فيما أورده . والتعصب على أبي تمام فيها ذكره . توفي الآمدي سنة ٣٧٠ هـ . وقد طبع كتب الموازنة عدة طبعات كلها ناقصة ، وبين أيدينا نسخة كاملة من هذا الكتاب نسأل الله أن يعين على نشرها وتحقيقها إن لم يقم بهذا الواجب غيرنا .

(٥) أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ؛ من بني خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب ، وكان أبوه من أشرافها ، وقد أخذ العلم والأدب عن علماء عصره ، ثم اتصل بأبي العلاء أحمد بن سليمان المري فأخذ عنه العلم والأدب ، وكان يرى رأى الشيعة ، وتولى بعض أعمال الدولة ، حتى ثار على ولاته ، ومات مسموماً سنة ٤٦٦ هـ ، وكتابه « سر الفصاحة » من أنفس كتب البلاغة ، سار فيه بالبلاغة والتقد سيراً مزدوجاً فيه التعريف والتحديد ، وإلى جانبه النص والمثال ، وإلى جانبها الرأي في الإصابتة أو سوء الاستعمال ، مما يدل على تمرسه بفن الأدب ، وتمتعه بالذوق المستنير ، وقد طبع في مصر طبعتين جيدتين .

(٦) لا عبرة بهذا النقد لأن الخفاجي في كلامه على الأصوات وعلى الحروف ذكر منها ما يؤلف وما لا يؤلف ، ولذلك من بعد الأثر في وقع الكلام على السمع والذوق وتقديره عند أهل صناعة البيان مالا يخفى . وكلام الخفاجي على اللفظة المفردة من أمتع الدراسات النقدية وهو أصل لما كتب البلاغيون في فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام في مقدمات كتب البلاغة بل إن ابن الأثير نفسه قد درس الكلمة المفردة وصفاتها في هذا الكتاب ، وأفاد كما أفاد غيره من تلك الدراسة المنظمة التي مهد سبيلها الخفاجي .

(٧) اللُّمِيسِرُ في « منه » عائد إلى « علم البيان » الذي ذكر من قبل .

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعها ،  
فالأولى : في الصناعة اللفظية ، والثانية : في الصناعة المعنوية .

ولا أدعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان ، ولا السلامة من سبِّ (٨)  
اللسان ، فإن الفاضل من تُعدُّ سَقَطَاتُهُ ، وتُحْصَى غَلَطَاتُهُ ، ويسىء بالإحسان ظناً ،  
لا كمن هو بآئنه وبشعره مَفْتُونٌ . وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتاب بديعٌ في  
إغرابه ، وليس له صاحبٌ في الكتب فيقال : إنه مُفَرَّدٌ بين أصحابه ، من  
أخذانه . أو من أتراه (٩) .

ومع هذا فإني أتيتُ بظاهر هذا العلم دُونَ خَافِيهِ ، وحميتُ حول حِجَاهِ ولم أقع  
فيه ، إذ الغرض إنما هو الحصولُ على تعليمِ الكلمِ التي بها تُنظَّمُ العُقُودُ وترصعُ .  
وتُخلَبُ العقولُ فتُخدَعُ . وذلك شيءٌ تُحيلُ عليه الخواطرُ ، لاتنطق به الدفاتر .  
واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حَاكِمِ الذَّوقِ السليمِ ، الذي  
هو أنفعُ من ذَّوقِ التعليمِ ، وهذا الكتابُ وإن كان فيما يُلقِيهِ إليك أستاذاً ، وإذا  
سألتَ عما ينتفعُ به في فنه قيل لك هذا ! فإن الدُّرْبَةَ والإدْمانَ أجدى عليك نفعاً ،  
وأهدى بصراً وسمعا ، وهما يريانك الخبر عياناً ، ويجعلان عُسرَكَ من القول إمكاناً ،  
وكلَّ جارحة منك قلباً ولساناً . فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك  
ما أخطاك . وما مثلي فيما مهَّدتُهُ لك من هذه الطريق إلا كمن طبع (١٠) سيفاً ،  
ووضعه في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حَمَلَ النِّصَالِ غيرُ  
مباشرة القتال .

وإنما يبلغ الإنسان غايته ما كلُّ ماشية بالرجل شملاً

(٨) في الأصل « سلق » باللام ، وهو تحريف .  
(٩) في الأصل « فيقال إنه من أخذانه أو من أتراه مفرد بين أصحابه » وهي عبارة مضطربة ولذلك  
قدمنا العبارة الأخيرة : ليستقيم المعنى . (١٠) يقال : طبع السيف والدرهم والحجرة عملها .

(١١) البيت لأبي الطيب المتنبي : الديوان ٢٨٧/٣ وروايته هكذا

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كلُّ ماشية بالرجل شملاً

والشملاً : الناقة القوية السريعة . يقول : كلُّ أحد يجرى في السيادة على قدر طاقته وليس كل من  
يمشى على رجله شملاً . يقدر على السرعة . والمعنى : ليس كل كريم يبلغ غاية الكرم . ولا كل شريف  
يبلغ غاية الشرف . وليس كل من سعى من الرؤساء يبلغ مبلغ ممدوحه الذي لا يعادل في فضله . ولا  
بمائل في جلالة قدره .



## مقدمة الكتاب

ولنرجع إلى ما نحن بصددَه فنقول : أما مقدمة الكتاب فإنها تشتمل على عشرة فصول :

## الفصل الأول

### فى موضوع علم البيان

موضوع كل علم هو الشيء الذى يُسأل فيه عن أحواله التى تُعرض لذاته .  
فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين ، والفقيه يُسأل عن أحوالها التى تُعرض لها من  
الفرض والنفل ، والحلال والحرام ، والتدب والمباح ، وغير ذلك .  
وموضوع الطب هو بدن الإنسان ، والطبيب يُسأل عن أحواله التى تُعرض له من  
صحته وسقمه .

وموضوع الحساب هو الأعداد ، والحاسب يُسأل عن أحوالها التى تعرض لها من  
الضرب والقسمة والنسبة وغير ذلك .

وموضوع النحو هو الألفاظ والمعانى ، والنحوى يُسأل عن أحوالها فى الدلالة من  
جهة الأوضاع اللغوية .

وكذلك يجرى الحكم فى كل علم من العلوم . وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه  
ولم يختلط بغيره .

وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة . وصاحبه يُسأل عن أحوالها  
اللفظية والمعنوية . وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على  
المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة . وصاحب علم البيان ينظر فى  
فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة . والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من  
الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب . ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام  
المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة  
والبلاغة .

ومن هاهنا غَلَطَ مُفسِّرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى ، وما فيها (١) من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون شرح ما تَضَمَّتْهُ من أسرار الفصاحة والبلاغة .

## الفصل الثاني

### في آلات علم البيان وأدواته

اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تَفْتَقِرُ إلى آلات كثيرة . وقد قيل : ينبغي للكاتب أن يَتَعَلَّقَ بكلِّ علم ، حتى قيل : كلُّ ذى علم يَسُوغُ له أن يَنْسُبَ نفسه إليه ، فيقال (٢) : فلانُ النحويُّ ، وفلانُ الفقيهُ ، وفلانُ المتكلمُ ، ولا يَسُوغُ له أن يَنْسُبَ نفسه إلى الكتابة ، فيقال (٣) : فلانُ الكاتب . وذلك لما يَفْتَقِرُ إليه من الخَوَاصِ في كل فن . ومِلاكُ هذا كلُّه الطبعُ ، فَإِنَّهُ إذا لم يكن ثمَّ طبعٌ فإنه لا تُغْنِي تلك الآلات شيئاً . ومثالُ ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد ، والحديدة التي يُقَدِّحُ بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لاتفيد تلك الحديدة شيئاً ؟ وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تَعَلُّمِ العلوم ، حتى إن بعض الناس يكون له نَفَادٌ في تَعَلُّمِ علمٍ مُشْكِلِ الْمَسَلِكِ ، صعب المأخذ ، فإذا كُفِّ تَعَلُّمَ ما هو دونه من سهِّلِ العلوم نَكَصَ على عَقْبِيهِ (٤) ولم يكن له فيه نَفَادٌ . وأغربُ من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دُونَ الهجاء ، أو في الهجاء دون المديح . أو يجيد في المرثي دون التهاني ، أو في التهاني دون المرثي . وكذلك صاحبُ الطبع في المنثور . هذا ابن الحريري (٤) صاحبُ المقامات قد كان على ماظهر عنه من تنميق

(١) الضمير عائد على الأشعار .

(٢) في الأصل « فيقول » والصواب عن الفلك الدائر ٧ .

(٣) يقال : نكص عن الأمر نكصاً ونكوصاً أحجم عنه . ونكص على عقبيه رجع عما كان عليه .

والعقبان مثنى العقب - ككتف - مؤخر القدم .

(٤) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري ، كان أحد أئمة عصره رزق الحظوة التامة في عمله المقامات ، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها . ومن عرفها حق معرفتها استدلت بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . وللحريري تأليف حسان منها درة الغواص في أوهام الخواص ، ومنها ملححة الإعراب المنظومة في النحو ، وله أيضاً شرحها . وله =

المقامات واحداً في فنه ، فلما حضر ببغداد ووقف على مقاماته ، قيل : هذا يُستصَلحُ  
لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ، ويَحْسُنُ أثره فيه . فأحْضِرَ وكَلَّفَ كتابةَ كتاب  
فأفْهِمَ ، ولم يَجْرِ لسانه في طويلة ولا قصيرة . فقال فيه بعضهم (٥) :

شيخُ لنا من ربيعةِ الفرسِ (٦) يَنْتِفُ عُنُونَهُ (٧) من الهوسِ  
أنطقه الله بالمشانِ (٨) وقد أجمه في بَغدادَ بالخرسِ

وهذا مما يُعْجَبُ منه . وسئِلْتُ عن ذلك فقلت : لا عَجَبَ : لأن المقامات  
مدارها جميعها على حكاية تُخْرِجُ إلى مَخْلَصٍ .

وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث  
الأيام ، وهي متحددة على عَدَدِ الأنفاس . ألا ترى أنه إذا خَطَبَ الكاتبُ  
المُفْلِقُ (٩) عن دولة من الدول الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور ، وسعى  
مذكور ، ومكث على ذلك بُرْهَةً يسيرة لا تبلغ عَشْرَ سنين فإنه يُدَوِّنُ عنه من  
المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كلُّ جزء منها أكبر من مقامات الحريري حجد  
لأنه إذا كَتَبَ في كل يوم كتابا واحداً اجتمع من كتبه أكثر من هذه العِدَّةِ المشارِ  
إليها ، وإذا نُخِلَتْ وغُرِبِلَتْ واختير الأجوْدُ منها ، إذ تكون كلها جيدة - فيخْلُصُ

---

= ديوان رسائل وشعر كثير غير شعره الذي في المقامات ، وكانت ولادة الحريري سنة ٤٤٦ هـ وتوفي سنة عشر  
قيل خمس أو ست عشرة وخمسمائة بالبصرة .

(٥) قيل إن الذي عمل هذين البيتين هو أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر .

(٦) ربيعة الفرس : هو ابن نزار بن معد بن عدنان ، أبو قبيلة ، سمي بذلك لأنه أعطى الخيل من  
ميراث ابنه ، على حين أن أخاه مضر أعطى الذهب ، فقيل مضر الحمراء ، وأعطى أخوه أثمار الشاة ، فقيل  
أثمار الشاة وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس .

(٧) العنون : اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين ، أو ما نبت على الذقن وتحت سفلا ، وكان الحريري  
مولعاً ينتف لحيته عند الفكرة .

(٨) المشان بفتح الميم والشين وبعد الألف نون : بليدة بعد البصرة كثيرة النخل موصوفة بشدة الوخم ،  
وكان أهل الحريري منها ، ويقال إنه كان له بها ثمانية عشر ألف نخلة وأنه كان من ذوى اليسار ، ويروى  
البيت الثاني هكذا :

أنطقه الله بالمشان كما رماه وسط الديوان بالخرس

(٩) يقال : أفلق الشاعر إذا أتى بالعجيب .

منها النصف، وهو خمسة أجزاء. والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب، وما حَصَلَ في ضِمْنِهَا من المعاني المبتدعة.

على أن الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رقاعا في مواضع عِدَّة، فجاء بها منحة عن كلامه في حكاية المقامات، لابل جاء بالغث البارد الذي لانسبة له إلى باقي كلامه فيها. وله أيضا كتابة أشياء خارجة عن المقامات، وإذا وَقَفَ عليها أُقْسِمَ أن قائل هذه ليس قائل هذه، لما بينهما من التفاوت البعيد.

وبلغني عن الشيخ أبي محمد [عبد الله بن (١٠)] أحمد بن الخشاب النحوي (١١) - رحمه الله - أنه كان يقول: ابن الحريري رجلُ مقامات، أي أنه لم يُحَسِّنْ من الكلام المنثور سواها، وإن أتى بغيرها لا يقول شيئا.

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور. ومن أَجْلِ ذلك قيل: شيثان لا نهاية لهما: البيان والجمال. وعلى هذا فإذا رَكَّبَ الله تعالى في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات.

النوع الأول: معرفة علم العربية من النحو والتصريف.

النوع الثاني: معرفة ما يَحْتَأُجُ إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوَحْشِيِّ الغريب، ولا المُسْتَكْرَهِ المعيب.

النوع الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم. ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام، فإن ذلك جرى مَجْرَى الأمثال أيضا.

النوع الرابع: الاطلاع على تأليفات من تقدّمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحفُّظ للكثير منه.

النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء والحِسْبَة (١٢) وغير ذلك.

(١٠) زيادة ليست في الأصل صححنا بها الاسم.

(١١) هو الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الخشاب كان أعلم أهل زمانه بالنحو، حتى يقال إنه كان في درجة الفارسي، وكانت له معرفة بالتفسير والحديث واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة، وما من علم من العلوم إلا كانت له فيه يد حسنة، وله كتب كثيرة منها رسالة كتبها في الرد على الحريري في مقاماته، توفي سنة ٥٦٧ هـ ووقف كتبه على أهل العلم.

(١٢) الحسبة بالكسر الأجر، واسم من الاحتساب، وهو حسن الحسبة حسن التدبير.



النوع السادس : حِفْظُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالتَّدْرُبُ بِاسْتِعْمَالِهِ وَإِدْرَاجِهِ فِي مَطَاوِي كَلَامِهِ .

النوع السابع : حِفْظُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالسَّلُوكُ بِهَا مَسَلَكَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْاسْتِعْمَالِ .

النوع الثامن : وَهُوَ مَخْتَصٌّ بِالنَّاطِقِ دُونَ النَّاتِرِ ، وَذَلِكَ عِلْمُ الْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي الَّذِي يُقَامُ بِهِ مِيزَانُ الشَّعْرِ .

وَلِنَذْرِكُ بَعْدَ ذَلِكَ فَائِدَةَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَعْرِفَتَهُ مِمَّا تَمَسُّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ فَنَقُولُ :

[ النَّوعُ الْأَوَّلُ : مَعْرِفَةُ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ ]

أَمَّا عِلْمُ النَّحْوِ فَإِنَّهُ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ بِمَنْزِلَةِ أَيْجِدٍ فِي تَعْلِيمِ الْخَطِّ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي إِتْقَانَ مَعْرِفَتِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ يَنْطِقُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، لِیَأْمَنَ مَعْرَةَ اللَّحْنِ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُ وَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْكَلَامِ دُونَ بَعْضٍ لِنُضْرُورَةِ الْإِفْهَامِ ، فَإِنَّ الْوَاضِعَ لَمْ يَخْصُصْ مِنْهُ شَيْئاً بِالْوَضْعِ ، بَلْ جَعَلَ الْوَضْعَ عَامّاً ، وَإِلَّا فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى ضَرْوَرَتِهِ وَأَقْسَامِهِ الْمَدُونَةِ وَجَدْنَا أَكْثَرَهَا غَيْرَ مَحْتَاجٍ إِلَيْهِ فِي إِفْهَامِ الْمَعَانِي . أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ أَمَرْتَ رَجُلًا بِالْقِيَامِ فَقُلْتَ لَهُ : « قُمْ » بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ وَلَمْ تَجْزَمْ لِمَا اخْتَلَفَ مِنْ فَهْمٍ ذَلِكَ شَيْءٌ؟ وَكَذَلِكَ الشَّرْطُ لَوْ قُلْتَ : « إِنْ تَقَوْمٌ أَقَوْمٌ » وَلَمْ تَجْزَمْ لِكَانَ الْمَعْنَى مَفْهُومًا . وَالْفَضْلَاتُ كُلُّهَا تَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى كَالْحَالِ وَالتَّمْيِيزِ وَالِاسْتِثْنَاءِ ، فَإِذَا قُلْتَ : « جَاءَ زَيْدٌ رَاكِبًا » ، وَ« مَا فِي السَّمَاءِ قَدْرٌ رَاحَةَ سَحَابٍ » ، وَ« قَامَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدٌ » ، فَلَزِمَتْ السُّكُونُ فِي ذَلِكَ كَلِمَةٍ ، وَلَمْ تَبَيِّنْ إِعْرَابًا لِمَا تَوَقَّفَ الْفَهْمُ عَلَى نَصْبِ الرَّاكِبِ وَالسَّحَابِ وَلَا عَلَى نَصْبِ زَيْدٍ ، وَهَكَذَا يُقَالُ فِي الْمَجْرُورَاتِ فِي الْمَفْعُولِ فِيهِ وَالْمَفْعُولُ لَهُ وَالْمَفْعُولُ مَعَهُ فِي الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ آخَرَ لَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهَا .

لَكِنْ قَدْ خَرَجَ عَنْ هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ مَا لَا يُفْهَمُ إِلَّا بِقِيُودِ تَقْيِيدِهِ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الَّذِي تَدُلُّ ضَبِغَتُهُ الْوَاحِدَةَ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلَفَةٍ ، وَلِنَضْرِبَ لَذَلِكَ مِثَالًا يُوَضِّحُهُ فَنَقُولُ : اَعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَقْسَامِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ مَا لَا يُفْهَمُ إِلَّا بِعَلَامَةٍ ، كَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَى الْفَاعِلِ ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عَلَامَةٌ تُبَيِّنُ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخَرِ ، وَإِلَّا أَشْكَلَ الْأَمْرُ (١٣)

(١٣) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ : وَالظَّاهِرُ يَقْتَضِي حَذْفَ « إِلَّا » أَوْ تَقْدِيرَ جَوَابٍ لِلشَّرْطِ .

كقولك « ضرب زيد عمرو » [ بالوقف عليها <sup>(١٤)</sup> ] ويكون زيد هو المضروب ، فإنك إذا لم تنصب زيدا وترفع عمرا وإلا لا يفهم ما أردت <sup>(١٣)</sup> ، وعلى هذا ورد قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ <sup>(١٥)</sup> » وكذلك لو قال قائل : ما أَحْسَنَ زَيْدٌ . ولم يبين الإعراب في ذلك لما علمنا غرضه منه . إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه . أو يريد به الاستفهام عن أى شيء منه أحسن . ويحتمل أن يريد به الإخبار بنبي الإحسان عنه . ولو بين الإعراب في ذلك . فقال : ما أَحْسَنَ زَيْدًا . وما أَحْسَنَ زَيْدٍ ؟ وما أَحْسَنَ زَيْدٌ <sup>(١٦)</sup> . علمنا غرضه . وفهمنا مغزى كلامه ، لا نفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يُعرفُ به من الإعراب . فوجب حينئذٍ بذلك معرفة النحو . إذ كان ضابطاً لمعاني الكلام . حافظاً لها من الاختلاف .

وأول من تكلم في النحو أبو الأسود الدؤلي <sup>(١٧)</sup> ، وسبب ذلك أنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له : « يا أبت ، ما أشدُّ الحر » متعجبة ، ورفعت « أشدُّ » ، فظنَّها مستفهمة ؛ فقال : شهرٌ ناجِرٌ <sup>(١٨)</sup> فقالت : يا أبت إنما أخبرتك ، ولم أسألك ، فأتى علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - فقال : « يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب ، ويوشِكُ إن تطاولَ عليها زمان أن تَضْمَحِلَّ » فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره

(١٤) زيادة عن الفلك الدائر ٨

(١٥) سورة فاطر ، آية ٢٨

(١٦) ما في المثال الأول للتعجب ، وفي الثاني للاستفهام ، وفي الثالث للنفي .

(١٧) قال ابن سلام الجمحي : أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي ، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل . . . وكان رجل أهل البصرة ، وكان علوى الرأى . وقيل لأبي الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ - يعنون النحو - قال : لقتت حدوده من علي بن أبي طالب - عليه السلام - وكان أبو الأسود أحد سادات التابعين والمحدثين والفقهاء والشعراء والفرسان والأمراء والأشراف والدهاة والحاظرى الجواب والصلح الأشراف والبخر الأشراف ومن مشاهير البخلاء ، وهو من القراء ، قرأ على أمير المؤمنين على عليه السلام وشهد معه صفين ، وقدم على معاوية فأكرمه وأعظمَ جنازته ، وولى قضاء البصرة وهو أول من نقط المصحف ، وله شعر كثير . مات أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ : وهو ابن خمس وثمانين سنة .

(١٨) ناجر : قال في القاموس « ناجر رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف » : إن شهرى رجب وصفر وكل الشهور القمرية يتغير موقعها سنة بعد سنة ، ولا بد أن يكون شهراً بعينه من شهور الصيف . وفي وضع أبى الأسود أقوال كثيرة غير ما رواه ابن الأثير . انظر إنباه الرواة على أنباء النحاة

خبر ابنته ، فقال : هَلُمَّ صحيفة ، ثم أملى عليه : « الكلامُ لا يَخْرُجُ عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى » ، ثم رَسَمَ له رسوما ، فنقلها النحويون في كتبهم . وقيل : إن أبا الأسود دخل على زياد ابن أبيه <sup>(١٩)</sup> بالبصرة فقال : إني أرى العرب قد خالطت العجم ، وتغيرت ألسنتها ، أفتأذن لي أن أصنع ما يقيمون به كلامهم ؟ فقال : لا ، فقام من عنده ، ودخل عليه رجل فقال : « أيها الأمير مات أبانا وخلف بنون » . فقال زياد : مات أبانا وخلف بنون ! ؟ مه ، زدوا على أبا الأسود ، فردوه ، فقال له : اصنع ما كنت نهيته عنه ، فوضع شيئا <sup>(٢٠)</sup> ، ثم جاء بعده ميمون الأقرن <sup>(٢١)</sup> فزاد عليه . ثم جاء بعده عنبسة بن معدان المهري <sup>(٢٢)</sup> فزاد عليه ، ثم جاء بعده عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي <sup>(٢٣)</sup> وأبو عمرو بن العلاء <sup>(٢٤)</sup> فزادا

(١٩) هو زياد بن أبي سفيان : استلحفه معاوية بأبيه ، وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة ولد عام الهجرة وقيل يوم بدر ، واستعمله عمر بن الخطاب على بعض أعمال البصرة ، واستعمله على بعض بلاد فارس ولم يزل معه حتى قتل وسلم الحسن الأمر إلى معاوية ، فاستلحفه بأبيه ، وجعله أخاه ، واستعمله على البصرة ، ثم أضاف إليه الكوفة ، وبقى عليها إلى أن مات سنة ٥٣ هـ .

(٢٠) قال أبو حريز بن أبي الأسود : أول باب رسم أبي من النحو باب التعجب . وقيل : أول باب رسم باب الفاعل والمفعول . والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم .

(٢١) هو الإمام المقدم في العربية بعد أبي الأسود وعنه أخذ ، وأخذ عنه عنبسة بن معدان الفيل في أصح الروايتين ، وزاد على أبي الأسود في حدود نغرية .

(٢٢) هو عنبسة بن معدان الفيل الميساني أخذ نحو عن أبي الأسود . قالوا : ولم يكن فيمن أخذ عنه النحو أربع منه ، وروى الأشعار وظرف وفصح . وروى شعر جرير والفرزدق .

(٢٣) هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، كان قبا بالعربية والقراءة إماماً فيها ، وكان شديد التجريد للقياس ، وكان عبد الله بن أبي إسحاق يطعن على العرب ، وكان يرد كثيراً على الفرزدق ويكلمه في شعره فقال فيه الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وتوفى بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة في أيام هشام بن عبد الملك .

(٢٤) هو العلم المشهور في علم القراءة واللغة العربية ، واسمه كنيته ، وقيل إن اسمه زبان ، أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي ، وأخذ عنه يونس بن حبيب البصري والخليل بن أحمد وعلى بن المبارك ، وكان يونس ابن حبيب يقول : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء كله في العربية ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت أخذ من قوله وتارك إلا النبي صلى الله عليه وسلم . وتوفى أبو عمرو بن العلاء في سنة ١٥٤ هـ في خلافة المنصور .

عليه ، ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأزدي<sup>(٢٥)</sup> وتتابع الناس . واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك . فهذا ما بلغني من أمر النحو في أول وضعه . وكذلك العلوم كلها يوضع منها في مبادئ أمرها شيء يسير ، ثم يزداد بالتدرج إلى أن يستكمل آخراً .

فإن قيل : أما علمُ النحو فمُسَلَّمٌ إليك أنه تجبُ معرفته ، لكنَّ التصريفَ لا حاجةَ إليه . لأنَّ التصريفَ إنما هو معرفةُ أصلِ الكلمةِ ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها ، وهذا لا يضرُّ جهلهُ ؛ ولا تنفعُ معرفتهُ . ولنضربَ لذلك مثلاً كيف اتفق ، فنقول : إذا قال القائل : « رأيتُ سِرْدَاحًا<sup>(٢٦)</sup> » لا يلزمه أن يعرف الألف في هذه الكلمة زائدةٌ هي أم أصليةٌ ، لأنَّ العرب لم تنطق بها إلا كذلك ، ولو قالتُ « سِرْدَاحًا » بغير الألف لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده ، فيقول : « سِرْدَاحًا » ، فعلمَ بهذا أنه إنما يُنطقُ بالألفاظ كما سُمِعَت عن العرب من غير زيادة فيها ولا نقص . وليس يلزم بعد ذلك أن يَعْلَمَ أصلها ولا زيادتها ، لأنَّ ذلك أمر خارج [ لا<sup>(٢٧)</sup> ] تقتضيه صناعة تأليف الكلام .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : اعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف كمعرفة النحو ، لأنَّ الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفاً بالمعاني ، مختاراً لها ، قادراً على الألفاظ ، مجيداً فيها ، ولم يكن عارفاً بعلم النحو ، فإنه يفسد ما يصوغه من الكلام . ويختل عليه ما يقصده من المعاني ، كما أريناك في ذلك المثال المتقدم .

وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفاً به لم تفسد عليه معاني كلامه ، وإنما تفسد عليه الأوضاع ، وإن كانت المعاني صحيحة ، وسيأتي بيان ذلك في تحرير الجواب ، فنقول : أما قولك إن التصريف لا حاجة إليه ، واستدللك بما ذكرته من المثال

---

(٢٥) هو أبو عبد الرحمن بن أحمد البصري الفرهودي الأزدي ، سيد أهل الأدب قاطبة في علمه وزهده ، وال غاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه ، وأخذ عنه سيبويه ، وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكل ما قال سيبويه « سألتُه » أو قال « قال » من غير أن يذكر قائله فهو الخليل ، وأخذ عنه أيضاً النضر بن شميل ، ومؤرج السدوسي ، وعلى بن نصر الجهضمي وغيرهم . وهو أول من استخراج علم العروض وضبط اللغة ، وأملى كتاب العين على الليث بن المظفر ، وكان أول من حصر أشعار العرب . توفي سنة ستين ومائة .

(٢٦) السرداح : الناقة الطويلة أو الكريمة أو العظيمة أو السمينة أو القوية الشديدة التامة .

(٢٧) زيادة يقتضيهما السياق .

المضروب ، فإن ذلك لا يستمرُّ لك الكلام فيه . ألا ترى أنك مثلت كلامك في لفظة « سِرْداح » ، وقلت إنه لا يُحْتَاجُ إلى معرفة الألف زائدة هي أم أصلية ، لأنها إنما نُقِلَتْ عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقص ، وهذا لا يَطْرِدُ إلا فيما هذا سبيله من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال ، فأما إذا أريد تصغيرها أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يَعْرِفِ الأصل في حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها يَضِلُّ حينئذ عن السبيل ، وينشأ من ذلك مجالٌ للعائب والطاعن .

ألا ترى أنه إذا قيل للنحوى - وكان جاهلا بعلم التصريف - كيف تُصَغَّرُ لفظة « اضطراب » ؟ فإنه يقول : « ضُطِّيرِب » ولا يلام على جهله بذلك ، لأن الذى تقتضيه صناعة النحو قد أتى به ، وذلك أن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته ، نحو قولهم فى « منطلق » « مُطَلِّق » وفى « جَحْمَرِش » (٢٨) « جُحْمِيرِ » . فلفظة « منطلق » على خمسة أحرف ، وفيها حرفان زائدان ، هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى ، فلذلك لم تُحْدَفْ ، وحذفت النون . وأما لفظة « جَحْمَرِش » فخاسية لا زيادة فيها ، وحذف منها حرف أيضا . ولم يعلم النحوى أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مُهْمَلًا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف ، لأنه لا يلزمهم أن يقولوا فى كتب النحو أكثر مما قالوا ، وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيئا من التصريف ، لأن كلا من النحو والتصريف عِلْمٌ منفرد برأسه ، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ، ومحتاج إليه ، وإنما قلت : إن النحوى إذا سئل عن تصغير لفظة « اضطراب » يقول : « ضُطِّيرِب » لأنه لا يخلو إما أن يَحْدِفَ من لفظة « اضطراب » الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء . وهذه الحروف المذكورة - غير الألف - ليست من حروف الزيادة فلا تحذف ، بل الأوَّلَى أن يُحْدَفَ الحرف الزائد ، ويترك الحرف الذى ليس بزائد . فلذلك قلنا : إن النحوى يصغِّرُ لفظة « اضطراب » على « ضُطِّيرِب » فيحذف الألف التى هى حرف زائد دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة . وإما أن يَعْلَمَ أن الطاء فى « اضطراب » مبدلة من تاء ، وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه وهو التاء فيقال : « ضُتِّيرِب » فإن هذا لا يعلمه إلا

(٢٨) الجحمرش : العجوز الكبيرة والمرأة السمجة والأربب المرضع والحشناء من الأفاعى .

التصريفى ، وتكليفُ النحوى الجاهلِ بعلمِ التصريفِ معرفةً ذلك كتكليفه علمَ مالا يَعْلَمُه ، فثبت بما ذكرناه أنه يَحْتَاجُ إلى علمِ التصريفِ ، لئلا يَعْلَطَ فى مثل هذا . ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف . ألم تعلم أن نافع بن أبى نُعَيْمٍ (٢٩) - وهو من أكبر القراء السبعة قدراً ،<sup>١</sup> وأفخمهم شأنًا - قال فى « معاش (٣٠) » « معاشش » بالهمز؟ ولم يعلم الأصل فى ذلك فأوحِذَ عليه ، وعيب من أجله . ومن جملة مَنْ عابه أبو عثمان المازنى (٣١) فقال فى كتابه فى التصريف : إن نافعاً لم يَدْرِ ما العربيةُ . وكثيراً ما يقع أولو العلم فى مثل هذه المواضع ، فكيف الجُهَّالُ الذين لا معرفة لهم بها ، ولا اطلاع لهم عليها؟ وإذا عَلِمَ حَقِيقَةَ الأمرِ فى ذلك لم يَعْلَطْ فيما يوجب قَدْحًا ولا طَعْنًا . وهذه لفظه « معاش » لا يجوز همزها بإجماع من علماء العربية ، لأن الياء فيها ليست مُبَدَلَةً من همزة ، وإنما الياءُ التى تُبَدَلُ من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ، ويكون بعدها حرف واحد ، ولا تكون عيناً نحو « سفائن » وفى هذا الموضع غَلِطَ نافعٌ ، رحمة الله عليه ، لأنه لاشكَّ اعتقد أن « معيشة » بوزن فعيلة ، وجمع فعيلة هو على فعائل . ولم ينظر إلى أن الأصل فى « معيشة » « مَعِيشَةٌ » على وزن مَفْعَلَةٍ ، وذلك لأن أصل هذه الكلمة من « عاش » التى أصلها « عَيْشٌ » على وزن فَعَلَ ، ويَلْزَمُ مضارعُ فِعْلٍ المعتلِّ العينِ « يَفْعَلُ » لتصح الياء نحو « يَعْيشُ » ، ثم تُنْقَلُ حركةُ العينِ إلى الفاء فتصير « يَعْيشُ » ثم يبنى من « يعيش » مفعول فيقال « مَعْيُوشٌ به » كما يقال « مَسِيرٌ به » ثم يُخَفَّفُ ذلك بحذف الواو ، فيقال « مَعِيشٌ به » كما يقال « مَسِيرٌ به » ثم تَوَثُّ هذه اللفظة ، فتصيرُ « مَعِيشَةٌ » .

(٢٩) نافع بن أبى نعيم أحد القراء السبعة ، وهو نافع بن عبد الرحمن ، وهو مولى جعونة بن شعوب الشجعى ، كان أسود شديد السواد ، وأصله من أصحابان ، توفى سنة ١٦٩ هـ بالمدينة .

(٣٠) فى سورة الأعراف « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون » آية ١٠ وفى سورة الحجر « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » آية ٢٠ .

(٣١) أبو عثمان المازنى هو بكر بن محمد بن بقية ، قيل ابن عدى بن حبيب ، نزل فى بنى مازن فنسب إليهم . وهو بصرى . روى عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد . وعنه المبرد والفضل بن محمد البيزى وغيرهم . وكان إماماً فى العربية متساعاً فى الرواية . وكان لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته على الكلام . وقال المبرد : لم يكن بعد سيويه أعلم بالنحو من أبى عثمان وله تصانيف كثيرة فى النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى . توفى سنة ٢٤٧ هـ

ومع هذا فلا ينبغي لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر أن يُهْمِلَ من علم العربية ما يخفى عليه بإهماله اللَّحْنَ الخَفِيَّ ، فَإِنَّ اللَّحْنَ الظَّاهِرَ قد كثرت مُفَاوِضَاتُ النَّاسِ فِيهِ ، حَتَّى صَارَ يَعْلَمُهُ غَيْرُ النَّحْوِيِّ . وَلَا شَكَّ أَنَّ قِلَّةَ الْمَبَالَاةِ بِالْأَمْرِ ، وَاسْتِشْعَارَ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ ، تُوقِعُ صَاحِبَهُ فِيمَا لَا يَشْعُرُ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهِ ، فَيَجْهَلُ بِمَا يَكُونُ عَالِمًا بِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ (٣٢) كَانَ مَعْدُودًا فِي طَبَقَاتِ الْعُلَمَاءِ مَعَ تَقَدُّمِهِ فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ ، وَقَدْ غَلَطَ فِيهَا لَا يَغْلَطُ مِثْلُهُ فِيهِ ، فَقَالَ فِي صِفَةِ الْخَمْرِ :

كَانَ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ (٣٣)

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس ، فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه في شيء ، لأنه أمر نقلِي يَحْمِلُ نَاقِلَهُ فِيهِ عَلَى النُّقْلِ مِنْ غَيْرِ تَصَرُّفٍ . وَقَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ « صُغْرَى » « وَكُبْرَى » غَيْرُ جَائِزٍ ، فَإِنَّ فُعْلَى أَفْعَلُ لَا يَجُوزُ حَذْفُ الْأَلْفِ وَاللَّامِ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ حَذْفُهَا مِنْ فُعْلَى الَّتِي لَا أَفْعَلُ لَهَا ، نَحْوُ « جَبَلَى » إِلَّا أَنْ تَكُونَ فُعْلَى أَفْعَلُ مِضَافَةً ، وَهَاهُنَا قَدْ عَرِيَتْ عَنِ الْإِضَافَةِ وَعَنِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ ، فَانظُرْ كَيْفَ وَقَعَ أَبُو نَوَاسٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، مَعَ قُرْبِهِ وَسَهُولَتِهِ .

وقد غلط أبو تمام (٣٤) في قوله :

(٣٢) أبو نواس هو الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح الحنظلي ، ولد سنة ١٤١ هـ في كورة خوزستان ، واشتغل في صباه عند عطار حتى تعرف إلى والبة بن الحباب فأعجب به وصحبه إلى الكوفة ثم بغداد ، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً ، وطار ذكره في الآفاق ، واتصل بالرشيد والأمين ومدحها ونال منها الجوائز السنوية ، وتوفى أبو نواس في الثامنة والخمسين من عمره سنة ١٩٩ هـ .

(٣٣) ديوان أبي نواس : ص ٢٤٣ (فواقعهما) بالواو كما هنا ، وأكثر الرواة على أنها (ففاقعهما) بالقاف ، وهي النفاخات التي تعلق الماء أو الخمر . ومحل الخطأ قوله « صغرى وكبرى » حيث جاء بأفعل التفضيل مؤنثاً ، مع كونه مجرداً من أل ومن الإضافة ، وكان حقه أن يأتي به مفرداً مذكراً . فيقول « أصغر وأكبر » . وقد اعتذر بعض العلماء عنه بأنه لم يرد التفضيل ، وإنما أراد معنى الوصف المجرد عن الزيادة .

(٣٤) أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي : قال الأمدى في الموازنة : والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام أن أباه كان من أهل جاسم - قرية من قرى دمشق - يقال له تدوس العطار فجعلوه أوساً ، ولفقت له نسبة إلى طي . وكان واحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه : وله كتاب الحماسة الذي دل على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن الاختيار ، وله مجموع آخر سماه « فحول الشعراء » جمع فيه بين طائفة كثيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين ، وله كتاب « الاختيارات من شعر الشعراء » وكان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره . وقيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب =

يالقائم الثامن المستخلف اطأدت<sup>(٣٥)</sup> قواعدُ الملِك مُمتدًا لها الطَّولُ  
 ألا ترى أنه قال « اطأدت » والصواب « اتطدت » لأن التاء تبدل من الواو في  
 موضعين : أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع ، لأنك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت  
 « اتعد » ، ومثله ماورد في هذا البيت ، فإنه من وطد يَطد كما يقال وعد يَعد ، فإذا  
 بُني افتعل قيل « اتطد » ، ولا يقال « اطأد » . وأما غير المقيس فقولهم في وجاه  
 « تُجاه » وقالوا « تُكلان »<sup>(٣٦)</sup> . وأصله الواو لأنه من وكل يكل ، فأبدلت الواو تاء  
 للاستحسان . فهذه الأمثلة قد أشرتُ إليها ، ليعلم مكان الفائدة في أمثالها ،  
 وتوقى . على أنى لم أجد أحدا من الشعراء المُقلِّين سلم من مثل ذلك ، فإما أن  
 يكون لحنًا لحنًا يدل على جهله مواقع الإعراب ، وإما أن يكون خطأ في تصريف  
 الكلمة . ولا أعني بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا ، بل أعني بالشعراء من تقدّم  
 زمانه ، كالمتنبى<sup>(٣٧)</sup> ومن كان قبله ، كالبحرّى<sup>(٣٨)</sup> ، ومن تقدمه كأبي تمام ، ومن  
 سبقه كأبي نواس والمعصوم من عصمه الله تعالى .

على أن المخطئ في التصريف أندر وقوعًا من المخطئ في النحو ، لأنه قلما يقع له  
 كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال والنقل في حروفها ، وأما النحو فإنه يقع الخطأ  
 فيه كثيرا ، حتى إنه ليشدُّ في ظاهره في بعض الأحوال ، فكيف خافيه ، كقول أبي  
 نواس في الأمين محمد رحمه الله :

غير القصائد والمقاطع . ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم ، وجاب البلاد . وتوفى بالموصل سنة ٢٣١ هـ .  
 (٣٥) فعله المجرد وطد يقال وطد الشيء يطده بالتخفيف كوعد بعد ، فهو وطيد وموطود أثبتته ونقله  
 كوطده فتوطد بالتشديد ورواية الديوان « اعتدلت » موضع « اطأدت » ص ٢٢٧ .  
 (٣٦) تجاه ووجه مثلثين تلقاء الوجه . أراد أن كلمة تجاه فيها تاء ليست في الأصل والتكلان : الاسم  
 من التوكل .

(٣٧) المتنبى هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور ، من أهل الكوفة ، وقدم الشام في صباه  
 وجال في أقطاره واشتغل بقنون الأدب ومهر فيها ، وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها  
 وحوشها ، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب ، وإنما قيل له المتنبى لأنه ادعى النبوة في بادية  
 السماوة وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأسره وتفرق  
 أصحابه ، وحجسه ، طويلا ثم استنابه وأطلقه ثم التحق بسيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٣٧ هـ ، ثم فارقه  
 إلى مصر سنة ٣٤٦ هـ ، ومدح كافورا الإخشيدى ، ولما لم يرضه هجاه ، وفارقه ليلة النحر سنة ٣٥٠ هـ ،  
 ومات مقتولا سنة ٣٥٤ هـ .

(٣٨) البحرى هو أبو عبادَةَ الوليد بن عبيد الطائي ولد بناحية منبج سنة ٢٠٦ هـ ، وتقل في قبائل طي  
 وغيرها من البدو الضارين في شواطئ الفرات فغلبت عليه فصاحة العرب ، واتصل بالمتوكل والفتح بن =



ياخِيرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ إِلَّا النَّبِيُّ الطَّاهِرُ المِيمُونُ (٣٩)  
 فرجع في الاستثناء من الموجب، وهذا من ظواهر النحو، وليس من خافيه في  
 شيء.

وكذلك قال أبو الطيب المنبجى (٤٠)

أرأيتَ هِمَّةَ نَاقَتِي فِي نَاقَةٍ نَقَلْتُ يَدًا سُرْحًا وَخُفًّا مُجْمَرًا (٤١)  
 تَرَكْتُ دُخَانَ الرَّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ العَنَبْرَا (٤٢)  
 وَتَكَرَّمَتْ رُكْبَاتُهَا عَن مَبْرِكِ تَقَعَانٍ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكَأً أَذْفَرًا (٤٣)  
 فجمع في حال الثنية، لأن الناقة ليس لها إلا ركبتيان، فقال «رُكْبَاتِ» وهذا  
 من أظهر ظواهر النحو، وقد خفي على مثل المنبجى.

ومع هذا فينبغى لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة  
 ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه، وهم الناطقون  
 باللغة، فوجب اتباعهم.

والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب  
 المفعول أو ماجرى مجراها، وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن  
 المتصفيين بصفة الفصاحة والبلاغة، ولهذا لم يكن اللحن قادحاً في حسن الكلام،  
 =خاقان حتى قتلا. ويمتاز شعره بركة الأسلوب وحسن الخيال وإجادة الوصف والثناء والعتاب والغزل  
 والمديح. توفي البحترى سنة ٢٨٤ هـ.

(٣٩) ديوان أبي نواس ص ١١٧، وقد أبقينا لفظ «النبى» مرفوعاً لأن مبنى النقد على ذلك. ويمكن  
 أن يكون منصوباً ولا خطأ فيه. ويرفع ما بعده على أنه نعت مقطوع.  
 (٤٠) من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد. ومطلعها:  
 باد هواك صيرت أم لم تصيرا وبكاك إن لم يجر دمك أو جرى

(٤١) الديوان: ١٦٨/٢ والسر: السهلة السير. والخف المحمر: الشديد الصلب. أو هو الخفيف السريع  
 من قومه «أجمرت الناقة» إذا أسرع. يجبر عن علوهته: لأنه يحمل ناقته على السير.  
 (٤٢) الرمث: نبت يوقد به. وهو من مراعى الإبل. يقول تركت الأعراب ووقدهم هذا الرمث. وأتيت  
 قوماً وقودهم من العنبر.

(٤٣) ركباتها: جمع ركة. وإنما عنى الاثنين. وهو كقوله جل وعلا «فقد صغت قلوبكما» وذلك أن  
 أقل الجمع اثنان. فجاز أن يعبر عنها بالجمع. ودل على أنه أراد الثنية أنه أخبر عنها بالثنية فقال «تقعان».  
 والأذفر: الشديد الرائحة. يقول: تكرمت ناقتي عن البروك إلا على المسك الأذفر. لأن العنبر يوقد بحضرة  
 المسدوح. والمسك متهن عنده. بحيث تترك عليه ناقتي.

لأنه إذا قيل « جاء زيد ركباً » إن لم يكن حسناً إلا بأن يقال « جاء ركباً » بالنصب لكان النحو شرطاً في حسن الكلام ، وليس كذلك ، فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته ، وإنما الغرض أمرٌ وراء ذلك ، وهكذا يجرى الحكم في الخطب والرسائل من الكلام المنثور .  
وأما الإدغام فلا حاجة إليه لكاتب ، لكن الشاعر ربما احتاج إليه لأنه قد يُضطرُّ في بعض الأحوال إلى إدغام حرف ، وإلى فك إدغام ، من أجل إقامة الميزان الشعري .

[ النوع الثاني : معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ]

النوع الثاني<sup>(٤٤)</sup> وهو قولنا إنه يحتاج إلى معرفة اللغة مما تداول استعماله ، فيردُّ بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة ، والكلام على جيدها ورديثها في المقالة المختصة بالصناعة اللفظية .

ويفتقر أيضاً مؤلف الكلام إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر ، ليجد - إذا ضاق به موضعٌ في كلامه بإيراد بعض الألفاظ فيه - العدول عنه إلى غيره ومما هو في معناه ، وهذه الأسماء تسمى « المترادفة » وهي اتحاد المسمَّى واختلافُ أسمائه ، كقولنا الخمر ، والراح ، والمُدام ، فإن المسمى بهذه الأسماء شيء واحد ، وأسماءه كثيرة .

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء « المشتركة » ليستعين بها على استعمال « التجنيس » في كلامه ، وهي اتحاد الاسم واختلاف المسميات ، كالعين فإنها تطلق على العين الناظرة ، وعلى ينبوع الماء ، وعلى المطر ، وغيره ، إلا أن المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تخصصها ، كى لا تكون مبهمة ، لأننا إذا قلنا « عين » ثم سكتنا وقع ذلك على احتمالات كثيرة من العين الناظرة ، والعين النابغة ، والمطر ، وغيره ، مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم ، وإذا قرئنا إليه قرينة تخصصه زال ذلك الإبهام بأن نقول : عين حسناء أو عين نضاجة<sup>(٤٥)</sup> أو ملثة<sup>(٤٦)</sup> أو غير ذلك .

(٤٤) ذكر من قبل في صفحة : . أن البليغ يحتاج إلى معرفة ثمانية أنواع ، الأول معرفة علم العربية من النحو والتصريف . وهذا هو النوع الثاني .

(٤٥) عين نضاجة : يشق منها الماء في قوة . (٤٦) ملثة : دائمة المطر .

وهذا موضع للعلماء فيه مجاذباتٌ جدليَّةٌ ، فمنهم من ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقة في المعنيين جميعا ، ويقول إن ذلك يُخلُّ بفائدة وَضَعِ اللغة ، لأن اللغة إنما هي وَضَعُ الألفاظ في دلالتها على المعاني ، أي وَضَعُ الأسماء على المسميات ، لتكون مُنبِئَةً عنها عند إطلاق اللفظ ، والاشتراك لا بيان فيه ، وإنما هو ضدُّ البيان ، لكن طريقَ البيان أن يُجعلَ أحدُ المعنيين في اللفظ المشترك حقيقةً ، والآخرُ مجازاً .

فإذا قلنا « هذه كلمة » وأطلقنا القول فهمَ منه اللفظة الواحدة ، وإذا قيّدنا اللفظَ فقلنا : هذه كلمة شاعرة ، فهم منه القصيدة المقصّدة من الشعر ، وهي مجموع كلمات كثيرة ، ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا البتّة . هذا خلاصة ما ذهب إليه من ينكر وقوع اللفظ المشترك في المعنيين حقيقةً ، وفي ذلك ما فيه ، وسأين ما يدخله من الخلل ، فأقولُ في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكرِي ، ولم يكن لأحدٍ فيه قولٌ من قبلي ، وهو : أما قولك : إن فائدة وَضَعِ اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ ، واللفظُ المُشتركُ يُخلُّ بهذه الفائدة ، فهذا غير مُسَلَّمٍ ، بل فائدة وَضَعِ اللغة هو البيانُ والتحسينُ .

أما البيانُ فقد وفي به الأسماء المتباينة التي هي كلُّ اسمٍ واحدٍ دلٌّ على مُسمّى واحدٍ ، فإذا أُطلقَ اللفظُ في هذه الأسماء كان بيناً مفهوماً ، لا يحتاجُ إلى قرينة . ولو لم يَضَعِ الواضعُ من الأسماء شيئاً غيرَها ، لكان كافياً في البيان .

وأما التحسينُ فإنَّ الواضعَ لهذه اللغة العربية ، التي هي أحسنُ اللغات ، نظرَ إلى ما يحتاجُ إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظمٍ ونثرٍ ، ورأى أن من مُهمّاتِ ذلك ( التجنيس ) ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة ، التي هي كل اسم واحد دل على مُسمّين فصاعداً ، فوضَعَهَا من أجل ذلك . وهذا الموضع يتجاذبه جانبان ، يترجّحُ أحدهما على الآخر .

وبإياه أن التحسينَ يَقْضَى بوضع الأسماء المشتركة ، ووضَعُها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ ، وعلى هذا فإنَّ وَضَعَهَا الواضع ذهب بفائدة البيان ، وإن لم يَضَعِ ذهب بفائدة التحسين ، لكنّه إن وَضَعَ استَدْرَكَ ما ذهب من فائدة البيان بالقرينة ، وإن لم يضعْ لم يَسْتَدْرِكْ ما ذهب من فائدة التحسين ، فترجع حينئذ جانب الوَضَعِ فَوَضَعِ .

فإن قيل : فلم لا تنسب الأسماء المشتركة إلى اختلاف القبائل ، لا إلى واضع واحد؟

قلت في الجواب : هذا تعسف لا حاجة إليه ، وهو مدفوع من وجهين : أحدهما : ما قدّمتُ القولَ فيه من الترجيح الذي سوّغَ للواضع أن يضع . الآخر : أنا نرى أنه قد ورد من الجموع ما يقع على مُسمَّيْنِ اثنين كقولهم : « كِعَاب » جمع « كَعَب » الذي هو كعب الرُّجُل ، وجمع « كَعْبَة » وهي البِنْيَة <sup>(٤٧)</sup> المعروفة . وإذا أطلقنا اللفظ فقلنا « كِعَاب » من غير قرينة لا يُدرى ما المرادُ بذلك : أكعبُ الرُّجُل أم البِنْيَة المعروفة؟ وكذلك ورد واحد وجمع على وزن واحد كقولهم « راح » اسم للخمر ، و « راح » جمع راحة ، وهي الكفُّ ، وقولهم « عِقَاب » وهو الجزاء على الذنب ، وجمع « عَقَبَة » أيضا .

وفي اللغة من هذا شيءٌ كثير ، وهو بالإجماع من علماء العربية أنه لم يجر فيه خلاف بين القبائل ، فاتَّضح بهذا أن الأسماءَ المشتركة من وضع واحد . فإن قلت : إنَّ الواضع إنما وَضَعَ المفرد من الألفاظ ، والجمع وَضَعَهُ غيره . قلت في الجواب : إن الذي وضع المفرد هو الذي وَضَعَ الجمع ، لأنَّ من قواعد وضع اللغة أن يوضعَ المفردُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنثُ والمصغرُ والمكبرُ والمصادرُ وأسماء الفاعلين ، وما جرى هذا المجرى ، وإذا أَخَلَّ بشيءٍ من ذلك كان قد أحل بقاعدةٍ من قواعد وضع اللغة .

ثم لو سلَّمتُ إليك أنَّ واضعَ الجمع غيرُ واضعِ المفرد لكان ذلك قدْحًا في الواضع الثاني ، إذ جاء بالإبهام عند إطلاق اللفظ ، لأنه جمع كعبة - التي هي البِنْيَة ، وكعب الرجل - على « كِعَاب » ، وهذا لفظٌ مُشْتَرِكٌ مُبْهَمٌ عند الإطلاق ، ولا فرقَ بين أن يضعه الواضعُ الأولُ أو واضعٌ ثانٍ ، فإن الإبهام حاصل منه . وكان فإوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقرة : « صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ <sup>(٤٨)</sup> » . وقال إن لون البقرة كان أسود ، والأصفر هو الأسود ،

(٤٧) قال صاحب القاموس : والبينة كغنية الكعبة لشرفها .

(٤٨) سورة البقرة : آية ٦٩ .

فأنكرت عليه هذا القول ، فأخذ يجادل مجادلةً غير عارِفٍ ، ويعزو ذلك إلى تفسير النقاش<sup>(٤٩)</sup> وتفسير البلاذري<sup>(٥٠)</sup> .

فقلت له : اعلم أن هذا الاسم الذي هو « الأصفر » لا يخلو في دلالته على الأسود من وجهين : إما أنه من الأسماء المتباينة ، التي يدلُّ كلُّ اسم منها على مُسمَّى واحد ، كالإنسان والأسد والفرس وغير ذلك ، وإما أنه من الأسماء المشتركة ، التي يدلُّ الاسمُّ منها على مُسمَّيين فصاعداً .

ولا يجوز أن يكون من الأسماء المتباينة ، لأننا نراه متجاذباً بين لونين : أحدهما : هذا اللون الزعفرانيُّ الشكل ، والآخَرُ : اللون المظلمُ الشكل . وعلى هذا فإنه يكون من الأسماء المشتركة ، وإذا كان من الأسماء المشتركة فلا بُدُّ له من قرينة تُخصِّصُه باللونِ الزعفرانيِّ دون اللونِ المظلم ، لأن الله تعالى قال : « صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » والفاقع من صفات اللون الزعفراني خاصة ، لأنه قد ورد للألوان صفاتٌ متعددة ، لكل لون منها صفة ، ف قيل أبيضُ يَقْقُ<sup>(٥١)</sup> ، وأَسْوَدُ حَالِكٌ ، وَأَحْمَرُ قَانٍ ، وَأَصْفَرُ فَاقِعٌ ، ولم يُقَلْ : أَسْوَدَ فَاقِعٌ ، ولا أَصْفَرُ حَالِكٌ ، فعلم حينئذٍ أن لون البقرة لم يكن أسوداً ، وإنما كان أصفر .

فلما تحقق عند ذلك الفقيه ما أشرت إليه أذعن بالتسليم .

[ النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ]

وأما النوع الثالث فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام .

---

(٤٩) النقاش : هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون المقرئ النقاش الموصلي ببغدادى المولد والمنشأ ، كان عالماً بحروف القرآن حافظاً للتفسير . صنف فيه كتاباً سماه « شفاء الصدور » وله تصانيف في القراءة وغيرها من العلوم . ذكره طلحة بن محمد بن جعفر فقال : كان يكذب في الحديث والغالب عليه القصاص . وسئل أبو بكر البرقاني عنه فقال : كان حديثه منكراً ، وقال البرقاني - وذكر تفسير النقاش - فقال : ليس فيه حديث صحيح ، ولد النقاش سنة ٢٦٦ هـ وكانت وفاته سنة ٣٤١ هـ .

(٥٠) البلاذري : أبو الحسن وقيل أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة . ونشأ ببغداد ، وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز . وقد عهد إليه المعتز بتثقيف ابنه عبد الله . ومن بعد فتح البلدان ، والقرابة وتاريخ الأشراف . وكان يجيد الفارسية وقد ترجم عنها عهد أردشير ، وقد جن في آخر أيامه ، وتوفي سنة ٢٧٩ هـ . (٥١) أبيض يقق بفتحين وككتف شديد البياض .

وقولى هذا لا يقتضى كل الأمثال الواردة عنهم : فَإِنَّ مِنْهَا مَا لَا يَحْسُنُ اسْتِعْمَالَهُ ،  
كما أَنَّ مِنْ أَلْفَاظِهِمْ أَيْضاً مَا لَا يَحْسُنُ اسْتِعْمَالَهُ .

وَكَنتَ جَرَّدْتُ مِنْ كِتَابِ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِي (٥٢) أَوْرَاقاً خَفِيفَةً تَشْتَمِلُ عَلَى  
الْحَسَنِ مِنَ الْأَمْثَالِ الَّتِي يَدْخُلُ فِي بَابِ الِاسْتِعْمَالِ . وَسَبِيلُ الْمُتَصَدِّقِ لِهَذَا الْفَنِّ أَنْ  
يَسْأَلَ مَا سَلَكَتَهُ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا شَدِيدَةٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَضَعْ الْأَمْثَالَ  
إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا ، وَحَوَادِثَ اقْتَضَتْهَا ، فَصَارَ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ  
عِنْدَهُمْ كَالْعَلَامَةِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الشَّيْءُ ، وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجُزٌ مِنْهَا ، وَلَا أَشَدُّ  
اِخْتِصَاراً .

وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا أَذَكَرَهُ لَكَ ، لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ ، فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ  
الْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ « إِنْ يَبِغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغِ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » (٥٣) وَهُوَ مِثْلُ  
يَضْرِبُ لِلْأَمْرِ الظَّاهِرِ الْمَشْهُورِ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ - كَمَا قَالَ الْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ - أَنَّهُ بَلَّغْنَا  
أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ صَبَّءَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهُنَا عَلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ  
عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُرَى ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ يَغِيبُ  
الْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ . فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا (٥٤) ، فَقَالَ وَاحِدٌ (٥٥)  
مِنْهُمْ : إِنْ قَوْمِي يَبِغُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ الْحَكَمُ (٥٦) : « إِنْ يَبِغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغِ  
عَلَيْكَ الْقَمَرُ » فَذَهَبَتْ مِثْلًا .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ « إِنْ يَبِغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغِ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » إِذَا أُخِذَ  
عَلَى حَقِيقَتِهِ ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْقَرَائِنِ الْمُنَوِّطَةِ بِهِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا ، لَا  
يُعْطَى مِنَ الْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ الْمَثَلُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَثَلَ - كالتَّمَدَّاتِ وَأَسْبَابُ قَدْ عُرِفَتْ ،  
وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ النَّاسِ ، مَعْلُومَةٌ عِنْدَهُمْ ، وَحَيْثُ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ جَازًا إِيْرَادَ  
هَذِهِ اللَّفْظَاتِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ .

---

(٥٢) الميْدَانِي : هُوَ أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمِيدَانِي النَّيْسَابُورِي . كَانَ أَدِيبًا  
فَاضِلًا . عَارِفًا بِاللُّغَةِ . اخْتَصَّ بِصَحْبَةِ أَبِي الْحَسَنِ الْوَاحِدِيِّ صَاحِبِ التَّفْسِيرِ . ثُمَّ قَرَأَ عَلَى غَيْرِهِ وَأَتَقَنَ فَنَ الْعَرَبِيَّةِ  
خُصُوصًا لِاللُّغَةِ وَأَمْثَالِ الْعَرَبِ . وَلَهُ فِيهَا التَّصَانِيفُ الْمَفِيدَةُ . مِنْهَا كِتَابُ مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ . وَلَمْ يَعْلَمْ مِثْلَهُ فِي بَابِهِ .  
وَكِتَابُ السَّامِيِّ فِي الْأَسْمَاءِ . وَنَحْوِ ذَلِكَ . هـ نَيْسَابُورُ . وَالْمِيدَانِيُّ نَسَبُهُ إِلَى « مِيدَانِ » وَهِيَ مَحَلَّةٌ فِي نَيْسَابُورِ .  
(٥٣) مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ ٣٠/١ . (٥٤) رَوَايَةُ مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ « فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ » .  
(٥٥) رَوَايَةُ مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ « فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ » . (٥٦) رَوَايَةُ مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ « فَقَالَ الْعَدْلُ » .

ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة لما فهم من قول القائل « إن يَبَغِرْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبَغِرْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » ما ذكرناه من المعنى المقصود ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد ، لأن البَغْيَ هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يَظْلِمَ أحداً ، فكان يصيرُ معنى المثل : إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر ، وهذا الكلام مختل المعنى ، ليس بمستقيم .

فلما كانت الأمثالُ كالرُّمُوزِ والإشارات التي يُلوَّحُ بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً .

ومن أجل ذلك قيل في حدِّ المثل : إنه القول الوجيز المرسلُ ليعمَلَ عليه ، وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلالُ بمعرفتها .  
وأما أيامُ العربِ فإنها تتنوعُ وتتشعبُ ، فمنها أيامُ فَحَارٍ ، ومنها أيامُ مُحَارِبَةٍ ، ومنها أيامُ مُنَافَرَةٍ ، ومنها غيرُ ذلك .

ولا يخلو الناظم والنائر من الانتصاب لوصف يوم يمرُّ به في بعض الأحوال شبيهاً بيومٍ من تلك الأيام ، ومماثلاً له ، فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمُرَادِهِ ، الموافقة له ، وقاس عليه يَوْمَهُ ، فإنه يكونُ في غايةِ الحسنِ والرُّونقِ . هذا لاخفاء به .  
وأما الوقائع التي وَرَدَتْ في حوادثٍ خاصَّةٍ بأقوامٍ ، فإنها كالأمثالِ في الاستشهاد بها ، وسأبين لك نُبذةً منها حتى تعلمَ مقدارَ الفائدةِ بها . فن ذلك أنه ورد عن النبي ﷺ حديثٌ بيَّعَهُ الحُدَيْبِيَّةُ (٥٧) تحت الشجرة وكان أرسل عثمان - رضى الله عنه - إلى مكة في حاجة عرَضَتْ له ولم يحضُرُ البيعةَ ، فضربَ رسولُ الله ﷺ بيده الشَّمالِ على اليمين . وقال : هذه عن عثمان ، وشمالى خيرٌ من يمينه .

(٥٧) خرج النبي ﷺ في آخر سنة ست معتمراً لا يريد حرباً واستنفر العرب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن القرشيون حربه . لكن قريشاً لما علمت بمقدمه خرجت للقائه ، وبعثت مندوبين عنها فأخبرهم الرسول بأنه قدم زائراً للبيت . وعاد المندوبون إلى قريش فاتهمتهم وسفهمتهم ، فأراد النبي أن يبعث عمر بن الخطاب موثقاً عنه إلى قريش ليؤكد لهم أن المهاجرين والأنصار إنما قدموا زواراً للمحاربين ، فاعتذر عمر ، لأنه خشى على نفسه من عدوان قريش عليه . إذ ليس بمكة من بنى عدى أحد يحميه . وأشار على النبي أن يرسل عثمان بن عفان . فأرسله النبي . فاحتسبه قريش عندها . وعلم النبي بذلك فقال : لا تبرح حتى تناجز القوم . ودعا الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت . وعلى ألا يفروا ثم جاء الخبر إلى النبي أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

وقد استعملتُ أنا هذا في جُملة كتاب ، فقلت : ولا يُعَدُّ البرِّيراً حتى يُلْحَقَ  
 العَيْثُ بالحُصُور<sup>(٥٨)</sup> ، وَيَصِلَ مَنْ لَمْ يَصِلْهُ بِجِزَاءٍ وَلَا شَكُورٍ ، فَزَنَةَ الغَائِبَ بِالشَّاهِدِ  
 مِنْ كَرَمِ الإِحْسَانِ ، ولهذا نابتُ شِمالُ رسولِ اللهِ ﷺ عن يَمِينِ عُثْمَانَ . ومن ذلك  
 أنه ورد عن عُمَرَ بنِ الخُطَّابِ - رضى اللهُ عنه - أنه اسْتَدْعَى أبا موسى الأشْعَرِيَّ  
 وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ العَمَالِ ، وكان مِنْهُمُ الرِّبِيعُ بنُ زيادِ الحارثِيَّ ، فَضَى إلى يَرْفَأَ مولى  
 عمر ، وسأله عما يروُجُ عنده وَيَنْفُقُ عليه ، فأشارَ إلى خُشُونَةِ العيشِ ، فَضَى ولبس  
 جُبَّةَ صُوفٍ وِعِمَامَةً دَسْمَاءَ<sup>(٥٩)</sup> وَخُفًّا مُطابِقًا ، وحضرَ بين يديه في جُملةِ العَمَالِ ،  
 فَصَوَّبَ عُمَرُ نَظْرَهُ وَصَعَّدَهُ ، فلم يَقَعْ إلا عليه ، فأداناه وسأله عن حاله . ثم أوْصَى أبا  
 موسى الأشْعَرِيَّ به .

وقد استعملتُ أنا هذا في جملة تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة فقلت :  
 « وَإِذَا اسْتَعْنَتْ بِأَحَدٍ عَلَى عَمَلِكَ ، فَاضْرِبْ عَلَيْهِ بِالْأَرْصَادِ ، وَلَا تَرْضَ بِمَا عَرَفْتَهُ عَنْ  
 مَبْدَأِ حاله ، فَإِنَّ الأَحْوالَ تَتَقَلَّبُ تَتَقَلَّبُ الأَجْسادَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُخَدَعَ بِصَلاحِ الظَّاهِرِ ،  
 كما خَدَعَ عُمَرُ بنُ الخُطَّابِ بالرِّبِيعِ بنِ زيادِ . »

فانظر كيف فعلت في هاتين القصتين؟ وكيف أوردتَهُمَا في الغرض الذي  
 قصدته؟ وامض أنت على هذا النهج ، فإنه من محاسن هذه الصنعة .

وعرَضَ على كتابُ كُتِبَ عبدَ الرَّحِيمِ بنِ عليِّ البِيسَانِي - رحمه اللهُ - عن المَلِكِ  
 صَلاحِ الدِّينِ يُوْسُفَ بنِ أَيُوبَ - رحمه اللهُ - إلى ديوانِ الخِلافةِ ببِغدادِ في سنة  
 إحدى وسبعين وخمسمائة ، وَضَمَّنَهُ ما أبلاه في خدمةِ الدَّولةِ ، من فَتْحِ الدِّيَارِ  
 المِصرِيَّةِ ، وَمَحْوَ الدَّولةِ العُلُويَّةِ<sup>(٦٠)</sup> ، وإقامةِ الدَّعوةِ العِباسِيَّةِ ، وَشَرَحَ فِيهِ ما قاساه  
 في الفتح من الأهوال .

ولما تأملته وجدته كتاباً حَسَنًا قد وَفَى فِيهِ الخِطابةُ حَقَّها . إلا أنه أَخَلَّ بِشئٍ ،  
 واحدٍ : وهو أَنَّ مِصرَ لم تُفْتَحْ إلا بَعْدَ أَنْ قَصِدَتْ مِنَ الشَّامِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وكان  
 الفتحُ في المَرَّةِ الثَّالِثَةِ ، وهذا له نَظِيرٌ في فَتْحِ النَبِيِّ ﷺ مَكَةَ - فإنه قَصَدَهَا عام

(٥٨) الحُصُورُ من معانيه الهَيُوبِ المَجمَعِ عن الشَّيْءِ . والمرادُ أَنَّ هذا المَمدوحَ يَشْمَلُ بَعضَها من لم يَطْلُبوا منه

شَيْئاً . (٥٩) مَلُونَةٌ بِالدِّسَمِ .

(٦٠) الدَّولةُ العُلُويَّةُ هِيَ الفاطِمِيَّةُ ، النِّسْبَةُ الأوَّلَى إلى الإِمامِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ ، والنِّسْبَةُ الثَّانِيَةُ إلى السَّيِّدةِ



الحديبية. ثم سار إليها في عمرة القضاء، ثم سار إليها عام الفتح. ففتحها. وقد سألتني بعض الإخوان أن أنشئ في ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله، فأجبتة إلى سؤاله وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فقلت: «ومن جملتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية، وقد قام بها منبر وسرير، وقالت: منا أمير ومنكم أمير، فردت الدعوة العباسية إلى معادها، وأذكر المنابر مانسبته بها من زهو أعوادها، وكانت أخرجت منها إخراج النبي ﷺ من قريته، وقذف الشيطان على حقها بإطله، وعلى صدقها بغوايته، ثم طوتها الليالي طي السجل<sup>(٦١)</sup> للكتاب، وكثر عليها مرور الدهر، حتى نسي لها عدد السنين والحساب. ولم يعد لها إلى وطنها، حتى تعربت لها الأرواح عن أوطانها، وسهرت لها أجفان<sup>(٦٢)</sup> السيوف سهر العيون عن أجفانها<sup>(٦٣)</sup>، وتطاردت الآراء في تسهيل أمرها قبل مطاردة أقرانها، وحتى تقدمتها غربات<sup>(٦٤)</sup> ثلاث كلها ذوات غروب<sup>(٦٤)</sup>، وكل خطب من خطوبها ذو خطوب، إلى أن تمخض ليلها عن صبحه، وأصبحت في الإسلام كعام حديبية، وعمرة قضائه، وعام فتحه، وفي ذكر أخبارها ما يطبع الأسنه في رءوس الأقلام<sup>(٦٥)</sup>، ويذهب سامعها، ولم ينله شيء من مكروها سوى الكلام، ويومها للدولة هو اليوم الذي أرخ فيه معاد نصرها وميعاد بشرها، فإذا عدت ليالها السالفة كانت كسائر الليالي، وهذه ليلة قدرها».

فهذا فصل من فصول الكتاب، فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصري وفتح مكة، وذكرت أيضاً حديث الحباب بن المنذر الأنصاري حيث قال بعد وفاة النبي ﷺ: منا أمير ومنكم أمير، وذلك لما حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهم - في سقيفة بني ساعدة، والقصة مشهورة، فقال الحباب بن

(٦١) السجل: الكتاب.

(٦٢) أجفان السيوف: أغقادها. والأجفان: أغطية العيون من أعلى وأسفل.

(٦٣) غربات ثلاث: ثلاث سفرات ورحلات.

(٦٤) غروب: جمع غرب والمراد هنا حد السيف، أي أن المرات الثلاث، فيها قتال.

(٦٥) المراد من طبع الأسنه في رءوس الأقلام أن الأقلام التي تذكر أخبار هذا الفتح تصور معارك رهيبة

فكان في رءوس الأقلام أسنة رماح.

المنذر: منا أميرٌ ومنكم أمير، فقال أبو بكر رضى الله عنه: «بل نحنُ الأمراءُ .  
وأنتم الوزراءُ» . وهذا الذى ذكرته هو نكتةُ هذا الفتح التى عليها المعولُ ، ومركزه  
الذى عليه يدور .

وعجبتُ من عبد الرّحيم بن علىّ البيسانى مع تقدّمه فى فنّ الكتابة ، كيف فاته أن  
يأتى به فى الكتاب الذى كتبه ؟

وكذلك وجدتُ لابن زيادِ البغدادى كتاباً كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين  
يوسفَ المقدّم ذكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمّنه فصولاً تشتمل على  
أموارٍ أنكرت عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التى أنكرت عليه أنه تلقّب  
بالمملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمر المؤمنين خاصّة ، فإنّه الإمامُ الناصرُ لدين الله .  
فلما وقفتُ على ذلك الكتاب وجدته كتاباً حسناً قد أجاد فيه كلُّ الإجابة ، ولم أجد  
فيه مغزراً إلا فى هذا الفصل الذى يتضمّن حديث اللقب ، فإنّه لم يأت بكلام  
يناسبُ باقى الفصول المذكورة . بل أتى فيه بكلامٍ فيه غثائهُ ، كقوله : « ما  
يستصلحه المولى فهو على عبده حرام » وشيئاً من هذا النسق ، وكان الأليقُ  
والأحسنُ أن يحتجَّ بحجّةٍ فيها رُوحٌ ، ويذكرَ كلاماً فيه ذلاقةٌ ورشاقةٌ .

وحضّر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجرى حديث ذلك ، فسألنى عما  
كان ينبغى أن يكتبَ فى هذا الفصل ، فذكرت ما عندى ، وهو : « قد علّم أن  
للأنبياءِ والخلفاءِ خصائصَ يختصّون بها على حكم الأفراد وليس لأحدٍ من الناس  
أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد وقد أجرى رسولُ الله ﷺ ذلك فى أشياء نصّ  
عليها بحكمهم ، ومن جملتها أنّه نهى غيره أن يجمع بين كنيته وبين اسمه ، وهذا  
مُسوّغٌ لأمر المؤمنين أن يختصّ بأمرٍ يكون به مشهوراً ، وعلى غيره محظوراً ، وقد  
وسّم نفسه بسمة نزلت عليه من السماء ، وتميزت به من بين المسمّياتِ والأسماء ، ثم  
استمرتُ عليها الأيام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ، ورفعها الخطباءُ على  
المنابر فى أيام الجمعِ ومواسم الأعياد ، وقد شاركتهُ أنت فيها غير مراقبٍ لمزية  
التعظيم ، ولا فارقي بين فسحة التحليل وحرّج التحريم ، والشرع والأدب يحكمان  
عليك بأن تلقى ما فرط منك بالمتاب ، ولا تحوج فيه إلى التقرير الذى هو أشدُّ  
العتاب ، ومثلك من عرف الحقَّ فأمسكه بيده ، ونسخَ إغفالاً أمسه باستئناف

التَيْقِظُ فِي غَدِهِ ، وَاللَّهِ قَدْ رَفَعَ الْمُواخِذَةَ عَمَّنْ أَتَى الشَّيْءَ خَطَاً لَا عَمَدًا ، وَقَبْلَ التَّوْبَةِ  
مَمْنٌ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْإِخْلَاصِ عَهْدًا .

فَانظُرْ أَيُّهَا الْمَتَأَمِّلُ كَيْفَ جِئْتُ بِالْخَبْرِ النَّبَوِيِّ ، وَجَعَلْتُهُ شَاهِدًا عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ،  
وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْتَجَّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا الْاِحْتِجَاجِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ شَدَّ عَنْ  
ابْنِ زِيَادٍ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ كَاتِبًا مُغْلَقًا أَرْضَى كِتَابَتَهُ ، وَلَمْ أَجِدْ فِي مَتَاخَرِي  
الْعِرَاقِيِّينَ مَنْ يُثَالِّهُ فِي هَذَا الْفَنِّ ؟ .

[ النوع الرابع : الاطلاع على المنظوم والمثور ]

وَأَمَّا النَّوعُ الرَّابِعُ ، وَهُوَ الْإِطْلَاقُ عَلَى كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْمُنْظُومِ وَالْمَثُورِ ، فَإِنَّ فِي  
ذَلِكَ فَوَائِدَ جَمَّةً ، لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ أَغْرَاضُ النَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ  
كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، وَإِلَى أَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَدُ  
الْقَرِيحَةَ ، وَتُذَكِّي الْفِطْنَةَ ، وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ الْمَعَانِي الَّتِي  
ذَكَرْتُ ، وَتَعَبٌ فِي اسْتِخْرَاجِهَا ، كَالشَّيْءِ الْمَلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَرَادَ ، وَيَتْرَكُ  
مَا أَرَادَ .

وَأَيْضًا ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطْلَعًا عَلَى الْمَعَانِي الْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يُنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا  
مَعْنَى غَرِيبٌ لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهِ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ خَوَاطِرَ النَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي الْجُودَةِ وَالرَّدَاءَةِ . فَإِنَّ بَعْضَهَا  
لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ ، أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ ، وَكَثِيرًا مَا تَسَاوَى الْقَرَائِحُ  
وَالْأَفْكَارُ فِي الْإِتْيَانِ بِالْمَعَانِي ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنَى مُوَضَّوعٍ بِلَفْظٍ ، ثُمَّ  
يَأْتِي الْآخَرَ بَعْدَهُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ بَعَيْنِهَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ الْأَوَّلُ .  
وَهَذَا الَّذِي يَسْمِيهِ أَرْبَابُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ « وَقُوعَ الْخَافِرِ عَلَى الْخَافِرِ » وَسَيَأْتِي لَذَلِكَ  
بَابٌ مُفْرَدٌ فِي آخِرِ كِتَابِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية ]

وَأَمَّا النَّوعُ الْخَامِسُ : وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ مِنَ الْإِمَامَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالْقَضَاءِ  
وَالْحِسْبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا أُوجِبْنَا مَعْرِفَتَهَا وَالْإِحَاطَةَ بِهَا ، لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ فِي  
تَقْلِيدَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْقَضَاةِ وَالْمُحْتَسِنِينَ ، وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَدْ

يَحْدُثُ فِي الْإِمَامَةِ حَادِثٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ بِأَنْ يَمُوتَ الْإِمَامُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ مَنْ لَمْ تَكْمَلْ فِيهِ شُرَايِطُ الْإِمَامَةِ ، أَوْ يَكُونَ كَامِلًا الشَّرَائِطِ غَيْرَ أَنَّ الْإِمَامَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ عَهْدَ بِهَا إِلَى آخِرِ غَيْرِهِ ، وَهُوَ نَاقِصُ الشَّرَائِطِ . أَوْ يَكُونَ قَدْ تَنَازَعَ الْإِمَامَةَ اثْنَانِ أَوْ يَكُونَ أَرْبَابُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ قَدْ اخْتَارُوا إِمَامًا وَهُمْ غَيْرُ كَامِلِي الشَّرَائِطِ الَّتِي تَجِبُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِمْ . أَوْ يَكُونَ أَمْرٌ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، فَتَخْتَلِفُ الْأَطْرَافُ فِي ذَلِكَ ، وَيَنْتَصِبُ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ لَهُ عِنَايَةٌ بِالْإِمَامِ الَّذِي قَدْ قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَيَأْمُرُ كَاتِبَهُ أَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا فِي أَمْرِهِ إِلَى الْأَطْرَافِ الْمُخَالَفَةِ لَهُ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ عِنْدَ ذَلِكَ عَارِفًا بِالْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَاخْتِلَافِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا ، وَمَا هُوَ رُخْصَةٌ فِي ذَلِكَ ، وَمَا لَيْسَ بِرُخْصَةٍ ، لَا يَكْتُبُ كِتَابًا يُنْتَفَعُ بِهِ .

وَلَسْنَا نَعْنِي بِهَذَا الْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ مَقْصُورًا عَلَى فِقْهِ مَحْضٍ فَقَطْ ، لِأَنَّا لَوْ أَرَدْنَا ذَلِكَ لَمَا كُنَّا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كِتَابِ بِلَاغِيٍّ ، بَلْ كُنَّا نَقْتَصِرُ عَلَى إِسْرَالِ مُصَنَّفٍ مِنْ مَصْنَفَاتِ الْفِقْهِ عَوَضًا عَنِ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا قَصَدْنَا أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ الَّذِي يُكْتُبُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُشْتَمِلًا عَلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ ، وَالمُسَامَحَةِ فِي مَوْضِعٍ ، وَالمَحَاقِقَةِ فِي مَوْضِعٍ ، مَشْحُونًا ذَلِكَ بِالنِّكَتِ الشَّرْعِيَّةِ ، الْمُبْرَزَةِ فِي قَوَالِبِ الْبِلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ ، كَمَا فَعَلَ الْكَاتِبُ الصَّابِي (٦٦) ، فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ عَنِ عَزِّ الدَّوْلَةِ بِخْتِيَارِ بْنِ مُعَزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، إِلَى الْإِمَامِ الطَّائِعِ لَمَّا خَلَعَ الْمَطِيْعَ ، فَإِنَّهُ مِنْ مَحَاسِنِ الْكُتُبِ الَّتِي تَكْتُبُ فِي هَذَا الْفَنِّ .

[النوع السادس : حفظ القرآن الكريم]

وأما النوع السادس : وهو حفظ القرآن الكريم ، فإنَّ صاحبَ هذه الصناعة

(٦٦) هو أبو اسحق إبراهيم بن هلال الصابي صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الإنشاء عن الخليفة ببغداد وعن عز الدولة بختيار الديلمي ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ، وكان متشدداً في دينه ، ووجد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ، وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ وكان يستعمله في رسائله توفي الصابي سنة ٣٨٤ هـ ببغداد ، ورثاه الشريف الرضي بقصيدة مشهورة : وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفاً يرثى صليباً : فقال : إنما رثيت فضله .

يَبْغِي له أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِذَلِكَ ، لِأَنَّ فِيهِ فَوَائِدَ كَثِيرَةً ، مِنْهَا أَنَّهُ يُضَمَّنُ كَلَامَهُ بِالآيَاتِ فِي أَمَاكِنِهَا اللَّائِقَةِ بِهَا وَمَوَاضِعِهَا الْمُنَاسِبَةِ لَهَا . وَلَا شُبْهَةَ فِيمَا يَصِيرُ لِلْكَلامِ بِذَلِكَ مِنَ الْفَخَامَةِ وَالْجَزَالَةِ وَالرَّوْنِقِ .

ومنها أنه إذا عَرَفَ مَوَاقِعَ الْبِلاغَةِ وَأَسْرَارَ الْفِصَاحَةِ الْمُودَعَةِ فِي تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ اتَّخَذَهُ بَحْرًا يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الدَّرَرَ وَالْجَواهِرَ ، وَيُودِعُهَا مَطَاوِي كَلَامِهِ ، كَمَا فَعَلْتَهُ أَنَا فِيمَا أَنْشَأْتَهُ مِنَ الْمَكاتِبِ ، وَكَفَى بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحْدَهُ آلَةً وَأَدَاةً فِي اسْتِعْمَالِ أَفانِينَ الْكَلَامِ .

فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة بحفظه ، والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته ، فإنه تجارة لن تبور ، ومنبع لا ينفد ، وكنز يرجع إليه ، وذخر يعول عليه .

[ النوع السابع : حفظ الأخبار النبوية ]

وأما النوع السابع : وهو حفظ الأخبار النبوية ، مما يحتاج إلى استعماله فإن الأمر في ذلك يجرى مجرى القرآن الكريم ، وقد تقدم القول عليه فاعرفه .

[ النوع الثامن : معرفة علمي العروض والقوافي ]

وأما النوع الثامن : وهو ما يختص بالناظم دون النائر ، وذلك معرفة العروض ، وما يجوز فيه من الزحاف<sup>(٦٧)</sup> وما لا يجوز ، فإن الشاعر محتاج إليه .  
ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه ، فإن النظم مبني على الذوق ، ولو نظم بتقطيع الأفاعيل<sup>(٦٨)</sup> لجاء شعره متكلفاً غير مرضي ، وإنما أريد للشاعر معرفة العروض . لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ويكون ذلك جائزاً في العروض ، وقد ورد للعرب مثله .

فإذا كان الشاعر غير عالم به ، لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز .

(٦٧) الزحاف على وزن كتاب في الشعر أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر : وهو تغيير مخصص بثواني الأسباب ، جمع سبب ، وهو عند العروضيين متحرك بعده ساكن ، ويسمونه السبب الخفيف نحو قد : ومتحركان نحو بك ، ويسمونه السبب الثقيل .

(٦٨) المعروف أنها « تفاعيل » بالتاء جمع لتفعيله ، وهي الألفاظ التي يوزن بها أي يجرى من بحر الشعر .

وكذلك أيضاً يحتاجُ الشاعرُ إلى العِلْمِ بالقوافي والحركات ، ليعلمَ الرُّويَّ (٦٩) والرَّدْفَ (٧٠) ، وما يصحُّ من ذلك ، وما لا يصحُّ .

\* \* \*

فإذا أكملَ صاحبُ هذه الصَّنَاعَةِ مَعْرِفَةَ هذه الآلات ، وكان ذا طبعٍ مجيبٍ وقرِيحَةٍ مُواتية ، فعليه بالنظر في كتابنا هذا ، والتَّصَفُّحُ لما أودَعناه من حقائق علم اليكَّان ، ونبها عليها من أصول ذلك وفروعِهِ . على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاجُ إليه الخطيبُ والشاعر ومعرفة ضروريَّة لأبدٍ منها . وهاهنا أشياء أُخرُ هي كالتوابع والروادِف ، وبالجملة فإن صاحبَ هذه الصَّنَاعَةِ يحتاجُ إلى التَّشْبِثِ بكل فنٍّ من الفنون ، حتَّى إنه يحتاجُ إلى معرفة ماتقولهُ النَّادِبَةُ بين النساءِ ، والماشيطةُ عند جَلْوَةِ العروس ، وإلى مايقوله المنادى في السُّوقِ على السلعة ، فما ظنُّكَ بما فُوقَ هذا ؟

والسَّبَبُ في ذلك أنه مؤهَّلٌ لأنَّ يهيمَ في كلِّ وادٍ ، فيحتاجُ أن يتعلَّقَ بكل فنٍّ .

## الفصل الثالث

### في الحكم على المعاني

وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها . وصاحبُ هذه الصنعة مفتقرٌ إلى هذا الفصل والذى يليه بخلاف غيرهما من هذه الفُصول المذكورة ، لاسيَّما مُفسِّرى الأشعار ، فإنهم به أعنى .

واعلمُ أنَّ الأصلَ في المعنى أن يُحمَلَ على ظاهر لفظه ، ومنْ يذهبُ إلى التَّأويلِ يفتقرُ إلى دليل كقوله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ<sup>(١)</sup> » فالظاهر من لفظ « الثياب » هو ما يُلبَسُ ، ومنْ تأوَّلَ ذهبَ إلى أنَّ المرادُ هو القلب : لا اللبوسُ ، وهذا لأبدٍ له من دليل . لأنه عدُولٌ عن ظاهر اللَّفْظِ .

(٦٩) الروي من حروف القافية : وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة .

(٧٠) الردف من حروف القافية : وهو حرف مد قبل حرف الروي .

(١) س : نذر . آية ٤ .

وكذلك وَرَدَ عَنْ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ . « إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَصَلِيَ فادخُلْ بَيْتَكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ » فالظاهرُ من هذا هو البيت والبابُ . وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ ، وتمنع أن يخطرَ به سوى أمر الصلاة ، فعبرَ عن القلب بالبيتِ ، وعن منع الخواطر التي تخطرُ له بإغلاقِ الباب . وهذا يحتاجُ إلى دليل ، لأنه عدُولٌ عن ظاهر اللفظ .

فالمعنى المحمولُ على ظاهره لا يقعُ في تفسيره خلاف ، والمعنى المعدُولُ عن ظاهره إلى التَّأْوِيلِ يقع فيه الخلاف . إذ بابُ التأويل غير محصُور ، والعلماء متفاوتون في هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهًا ضعيفًا من التأويل ، فيكسوه بعبارة قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه :

إِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قَلَبُوهُمْ كَقُلُوبِهِمْ إِذَا التَّقَى الْجَمْعَانَ  
تَلَقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ مِثْلَ الْعَجَبَانَ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانٍ<sup>(٢)</sup>

وذهب بعضهم في الفرق بين « التفسير » و « التأويل » إلى شئٍ غير مرضي ، فقال : التفسيرُ بيانُ وضع اللفظ حقيقةً ، كتفسير الصراطِ بالطريق . والتأويلُ إظهارُ باطن اللفظ كقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ<sup>(٣)</sup> » فتفسيره من الرصد ، يقال : رَصَدْتَهُ ، إِذَا رَقَبْتَهُ ، وتأويله تحذير العبادِ من تعدِّي حدودِ الله ومخالفة أوامره . والذي عندي في ذلك أنه أصاب في الآخر ، ولم يُصَبْ في الأول . لأنَّ قوله :

« التفسيرُ بيان وضع اللفظ حقيقة » لا مُسْتَنَدَ لجوازه ، بل ( التفسيرُ ) يطلقُ على بيان وضع اللفظ حقيقةً ومجازاً ، لأنه من « الفسر » وهو الكشف ، كتفسير الرصد في الآية المشار إليها بالرقبة ، وتفسيره بالتحذير من تعدِّي حدودِ الله ومخالفة أوامره . وأما ( التأويلُ ) فإنه أحدُ قِسْمَي التفسير ، وذلك أنه رُجوعٌ عن ظاهر اللفظ ، وهو مُشْتَقٌّ من الأول ، وهو الرجوعُ ، يقال : آل ، يئول إذا رَجَعَ .

وعلى هذا فإنَّ التأويلَ خاصٌّ ، والتفسيرَ عامٌّ ، فكل تأويل تفسيرٌ ، وليس كلُّ تفسير تأويلاً . ولهذا يقال : تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ ، وَمِنْ تَفْسِيرِهِ ظَاهِرٌ وَبِاطِنٌ .

(٢) البيتان للمنتهي ؛ الديوان ١٨٤/٤ والمعنى : إنما يغني السيف إذا كان مع الشجاع .

(٣) سورة الفجر ؛ آية ١٤ .

وهذا الفصلُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ ذِكْرِهِ هَاهُنَا يَرْجِعُ أَكْثَرُهُ إِلَى التَّأْوِيلِ . لِأَنَّهُ  
أَدَقُّ .

وَلَا يَخْلُو تَأْوِيلُ الْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُحْتَمَلُ  
غَيْرُهُ . وَإِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ الشَّيْءُ وَغَيْرُهُ ، وَتِلْكَ الْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدًّا ، أَوْ لَا تَكُونَ  
ضِدًّا . وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ .  
فَالأُولَى : يَقَعُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَشْعَارِ ، وَيَجْرَى فِي الدَّقَّةِ وَاللِّطَافَةِ مَجْرَى الْقِسْمَيْنِ  
الْآخَرَيْنِ .

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي : فَإِنَّهُ قَلِيلُ الْوُقُوعِ جَدًّا ، وَهُوَ مِنْ أَظْرَفِ التَّأْوِيلَاتِ  
الْمَعْنَوِيَّةِ . لِأَنَّ دَلَالََةَ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى وَضِدَّهُ أَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى الْمَعْنَى وَغَيْرِهِ مِمَّا  
لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ  
صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ » فَهَذَا الْحَدِيثُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ  
ضِدَّانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَفْضَلُ مِنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالْآخَرُ أَنَّ  
مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيْ أَنَّ صَلَاةً وَاحِدَةً فِيهِ لَا  
تَفْضُلُ أَلْفَ صَلَاةٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، بَلْ تَفْضُلُ مَا دُونَهَا بِخِلَافِ الْمَسَاجِدِ الْبَاقِيَةِ ،  
فَإِنَّ أَلْفَ صَلَاةٍ فِيهَا تَقْصُرُ عَنْ صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِ .

وَكَذَلِكَ جَاءَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ أَيْضًا مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا  
شِئْتَ » وَهَذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيْنِ ضِدِّيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ إِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلًا  
تَسْتَحِي مِنْهُ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ . وَالْآخَرُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَزْعُكَ عَنْ  
فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ . وَهَذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ ، أَحَدُهُمَا مَدْحٌ ، وَالْآخَرُ  
ذَمٌّ .

وَمِثْلُهُ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ أَيْضًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذُكِرَ شَرِيحُ الْحَضْرَمِيِّ عِنْدَ  
النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ » وَهَذَا يَحْتَمَلُ مَدْحًا وَذَمًّا . أَمَّا الْمَدْحُ فَالْمُرَادُ بِهِ  
أَنَّهُ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَيَكُونُ الْقُرْآنُ مَتَوَسَّدًا مَعَهُ ، لَمْ يَتَهَجَّدْ بِهِ ، وَأَمَّا الذَّمُّ  
فَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا ، فَإِذَا نَامَ لَمْ يَتَوَسَّدْ مَعَهُ الْقُرْآنَ . وَهَذَانِ  
التَّأْوِيلَانِ مِنَ الْأَضْدَادِ . وَكَثِيرًا مَا يَرِدُ أَمْثَالُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ .  
وَيَجْرَى عَلَى هَذَا النَّهْجِ مِنَ الشُّعْرِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةِ يَمْدَحِهَا كَافُورًا :



وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً ومن بات في نَعَائِهِ يتقلبُ (٤)  
وهذا البيت يُستخرجُ منه معنيان ضدان ، أحدهما : أن المُنعمَ عليه يحسُدُ  
المنعم . والآخر : أن المنعمَ يحسُدُ المنعمَ عليه . وكذلك وردَ قوله أيضاً من قصيدةٍ  
يمدحه :

فإن نلت ما أملت منك فربما شربتُ بماء نِعْحِ الطيرِ وردُهُ (٥)  
فإن هذا البيت يحتملُ مدحاً وذمّاً . وإذا أُخذَ بمفردِهِ من غيرِ نظرٍ إلى ما قبله فإنه  
يكون بالذمِّ أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمنُ وصفَ نواله بالبُعْدِ والشذوذ . وصدرُ  
البيت مفتوحٌ بأن الشرطيّة ، وقد أُجيبَ بلفظة « رُبَّ » التي معناها التقليل ، أي  
لستُ من نوالك على يقين ، فإن نلتَهُ فربما وصلتُ إلى موردٍ لا يصلُ إليه الطيرُ  
لبُعْدِهِ . وإذا نُظرَ إلى ما قبلَ هذا البيت دلٌّ على المدح خاصّة ، لارتباطه بالمعنى  
الذي قبله . وكثيراً ما كان يقصدُ المتنبي هذا القسمَ في شعره ، كقوله من قصيدةٍ  
أولها :

عدوك مدمومٌ بكلِّ لسانٍ ولو كان من أعدائك القمرانِ  
ولله سرٌّ في علاك وإنما كلامُ العدا ضربٌ من الهديان (٦)  
ثم قال :

فمالك تُعنى بالأسنةِ والقنا وجدك طعانٌ بغيرِ سنانِ (٧)  
فإن هذا بالذمِّ أشبهُ منه بالمدح ؛ لأنه يقولُ لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك بل  
بجدِّ وسعادة ، وهذا لا فضلَ فيه ؛ لأنَّ السعادة تنالُ الخاملُ والجاهدُ ومن لا  
يستحقُّها . وأكثرُ ما كان المتنبي يستعملُ هذا القسمَ في قصائده « الكافوريات » .  
وحكى أبو الفتح ابن جني ، قال : قرأت على أبي الطيبِ ديوانه إلى أن وصلتُ  
إلى قصيدته التي أولها :

(٤) ديوان المتنبي ١٨٥/١

(٥) ديوان المتنبي ٢٨/٢ (٦) ديوان المتنبي ٢٤٢/٤

(٧) ديوان المتنبي ٢٤٧/٤ والرواية فيه « ومالك تعنى . . . البيت » وقبل هذا البيت :

فما لك تخنار القسي وإنما عن السعد يرمي دونك الثقلان

\* أَغَابُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ (٨) \*

فَأْتَيْتُ مِنْهَا عَلَى هَذَا الْبَيْتِ وَهُوَ:

وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدَعَاةٍ لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنَّ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ (٩)

فقلت له: يا أبا الطَّيِّبِ لم تَزِدْ عَلَيَّ أَنْ جَعَلْتَهُ أَبَا زَيْنَةَ (١٠)، فضحك لقولي! وهذا القسم من الكلام يُسَمَّى (المَوْجَه) أي له وَجْهَان (١١)، وهو ممَّا يدلُّ على براعة الشاعر وحُسن تَأْتِيهِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ: فَإِنَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ وَقُوعًا مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي، وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، لِأَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ كَثِيرُ الْوُقُوعِ، وَالْقِسْمَ الثَّانِي قَلِيلُ الْوُقُوعِ، وَهَذَا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا.

فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (١٢)» فَإِنَّ هَذَا لَهُ وَجْهَانٌ مِنَ التَّأْوِيلِ، أَحَدُهُمَا: الْقَتْلُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ، وَالْآخَرُ: هُوَ الْقَتْلُ الْمَجَازِيُّ، وَهُوَ الْإِكْبَابُ عَلَى الْمَعَاصِي: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكَبَ عَلَى الْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَذَبْحِ وُلْدِهِ - عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ: «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهْدِينِ \* رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ جَلِيمٍ \* فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ \* فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَهُ لِلْجَبِينِ \* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا

(٨) ديوان المتنبي ١٧٦/١ وشرطه الآخر \* وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب \*

(٩) ديوان المتنبي ١٨٦/١.

(١٠) الأصل «أبارنة» بالراء، وهو تصحيف، وأبو زينة كنية القرد.

(١١) التوجيه عند البلاغيين أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً من غير تقييد بمدح أو غيره،

واستشهدوا على التوجيه بقول الشاعر في الحسن بن سهل عندما زوج ابنته. بوران بالخليفة:

بــــارك الله للحسن ولبوران في الحسنين  
يا إمام الهدى ظفرت ولكن بينت من؟

فلم يعلم ما أراد بقوله «بينت من» في الرفع أو في الخفارة.

(١٢) سورة النساء: آية ٢٩.

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ \* وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ \*  
 وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ  
 مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \* وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ « (١٣) فقوله تعالى :  
 « وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » قد يكون بشارته بعد البشارة بميلاده .  
 وقد يكون استثناءً بِذِكْرِهِ بعد ذِكْرِ إِسْمَاعِيلَ - عليه السلام - وَذَبْحِهِ ، والتأويلُ  
 متجاذبٌ بين هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ، ولا دليلَ على الاختصاص بأحدهما ، ولم يرد في  
 القرآن ما يدلُّ على أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ ولا إِسْحَاقُ عليهما السَّلَامُ ، وكذلك لم يرد في  
 الأخبار التي صَحَّتْ عن رسول الله ﷺ : وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « أَنَا ابْنُ  
 الذَّبِيحِينَ » فخارجٌ عن الأخبار الصحيحة وفي التَّوْرَةِ أَنَّ إِسْحَاقَ - عليه السَّلَامُ -  
 هو الذَّبِيحُ .

ومن ذلك قول النبي ﷺ لأزواجه : « أَطَوْلُكُمْ يَدًا ، أَسْرَعُكُمْ لِحْوَاقًا بِي » فلما  
 مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن ، حتى ينظرن أيتهن أطولُ يدًا ، ثم  
 كانت زينبُ أَسْرَعَهُنَّ لِحْوَاقًا بِهِ ، وكانت كثيرةَ الصدقة ، فعلمن حينئذٍ أنه لم يرد  
 الجارحة ، وإنما أراد الصدقة ، فهذا القولُ يدلُّ على المعنيين المشار إليهما .

ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك - رضى الله عنها - أنه قال خدمت رسول  
 الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ ، فلم يقلُ لشيءٍ فعلته : لِمَ فعلته ؟ ولا لشيءٍ لم أفعله : لِمَ لا  
 فعلته ؟ وهذا القولُ يحتملُ وجهين من التأويلِ : أحدهما وَصَفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
 بِالصَّبْرِ على خلقٍ من يَصْحَبُهُ ، والآخِرُ أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ فيما يقصده  
 من الأعمالِ كأنه مُتَفَتِّظٌ لما في نفسِ رسولِ الله ﷺ ، فيفعله من غير حاجةٍ إلى  
 استئذانه .

ومن ذلك ما ورد في الأُدْعِيَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فإنه ﷺ دَعَا على رجلٍ من المشركين ،  
 فقال : « اللَّهُمَّ اقْطَعْ أثره » وهذا يحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ من التأويلِ : الأولُ أنه دَعَا  
 عليه بالزَّمانَةِ (١٤) ، لأنه إذا زَمَنَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ على الأرض ، فينقطع حينئذٍ  
 أثره . الوجهُ الثاني : أنه دَعَا عليه بالألَّا يكون له نسلٌ من بعده ولا عقب . الوجه

(١٣) سورة الصافات : الآيات من ٩٩ إلى ١١٢ .

(١٤) من معاني الزمانه : العاهة ؛ والمرض يدوم طويلًا .

الثالثُ : أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ بِالْأَلِّ يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ مِنَ الْآثَارِ مُطْلَقًا ، وَهُوَ الْأَلُّ يَفْعَلُ فِعْلًا يَبْقَى أَثَرُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَأَنَّ مَا كَانَ مِنْ عَقَبٍ أَوْ بِنَاءٍ ، أَوْ غِرَاسٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .  
 وَظَفِرَتِ الْحُرُورِيَّةُ<sup>(١٥)</sup> بِرَجُلٍ ، فَقَالُوا لَهُ : أَبْرَأُ مِنْ عَلِيٍّ وَعُمَانَ ، فَقَالَ أَنَا مِنْ عَلِيٍّ وَمِنْ عُمَانَ أَبْرَأُ ! فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ عُمَانَ وَحَدِهِ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمَا جَمِيعًا . وَالرَّجُلُ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْوَجْهَ الْأَوَّلَ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَسِيحِ بْنِ بَقِيْلَةَ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْحِيرَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنِ بَقِيْلَةَ<sup>(١٦)</sup> ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ : أَنْعِمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : قَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ عَنْ تَحْيِيكَ هَذِهِ بِ « سَلَامٍ عَلَيْكُمْ » ثُمَّ قَالَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْصَى أَتَرُكُ ، قَالَ : مِنْ ظَهْرِ أَبِي ! قَالَ : فَمَنْ أَيْنَ خَرَجْتَ ؟ قَالَ : مِنْ بَطْنِ أُمِّي ! قَالَ : فِعْلَامَ أَنْتَ ؟ قَالَ : عَلَى الْأَرْضِ ! قَالَ : فَفِيمَ أَنْتَ ؟ قَالَ : فِي ثِيَابِي ! قَالَ : ابْنُ كَمْ أَنْتَ ؟ قَالَ : ابْنُ رَجُلٍ وَاحِدٍ ! قَالَ خَالِدٌ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُ ، أَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ ، وَهُوَ يَنْحُو فِي غَيْرِهِ وَهَذَا مِنْ تَوْجِيهِ الْكَلَامِ عَلَى نَمَطٍ حَسَنٍ ، وَهُوَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِحَالِدٍ عَمَا سَأَلَ ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِغَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرَهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنِ بَقِيْلَةَ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّوَارِقِ الْأَلُّ يُؤْكَلُ الْجَدْيُ بِلَبِنِ أُمِّهِ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيمَ فِي وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَادَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ ، وَهُوَ تَحْرِيمُ لَحْمِ الْجَدْيِ بِلَبِنِ أُمِّهِ خَاصَّةً ، وَإِذَا أَكَلَ بِلَبِنِ غَيْرِ لَبِنِ أُمِّهِ جَازَ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ حَرَامًا ، وَهَذَا لَا يَأْخُذُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ . وَالْوَجْهُ الْآخَرُ ، وَهُوَ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ عِنْدَ الْيَهُودِ جَمِيعِهِمْ ، أَنَّ أَكْلَ اللَّحْمِ بِاللَّبَنِ حَرَامٌ ، كَأَنَّ مَا كَانَ مِنَ اللَّحْمِ ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَسْمَوْنَ « الْقَرَائِينَ » فَإِنَّهُمْ تَأَوَّلُوا ، فَأَكَلُوا لَحْمَ الطَّيْرِ بِاللَّبَنِ ، وَقَالُوا : إِنَّمَا حُرِّمَ اللَّحْمُ بِاللَّبَنِ مِنَ اللَّحْمِ ذَوَاتِ الْأَلْبَانِ ، وَالطَّيْرِ مِنْ ذَوَاتِ الْبَيْضِ ، لَا مِنْ ذَوَاتِ الْأَلْبَانِ .

(١٥) الحرورية ؛ وقد يسمون « الوعيدية » وأصلهم أنهم تسلقوا جبال حروراء بقتال علي ؛ ولذلك يوضعون ضمن الخوارج في بعض التقاسيم ؛ يتغالون في إثبات الوعيد والخوف على المؤمنين لإمكان الخلود في النار مع الإيمان ؛ فمقتروا الكبائر مشركون ، وهم يكفرون الخوارج .

(١٦) هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن ببيعة الغسانی ؛ وهو من المعمرين ، وقد أورد الجاحظ

الحديث كله في البيان والتبيين ١٤٧/٢ .

وممّا يجرى على هذا النهج ما يُحكى عن « أفلاطون » أنه قال : ترك الدواء دواءً ، فذهب بعض الأطباء أنه أراد أن لطف المزاج انتهى<sup>(١٧)</sup> إلى غاية لا يحتمل الدواء ، فتركه حينئذ والإضراب عنه دواءً . وذهب آخرون إلى أنه أراد بالترك الوضع ، أى وضع الدواء على الداء دواءً ، يشير بذلك إلى حدق الطبيب في أوقات علاجه .

ومثله في الشعر قول الفرزدق :

إذا جعفر مرت على هضبة الحمى فقد أخزت الأحياء منها قبورها<sup>(١٨)</sup>

وهذا يدل على معنيين : أحدهما ذم الأحياء ، والآخر : ذم الأموات ، أما ذم الأحياء فهو أنهم خذلوا الأموات ، يريد أنهم تلاقوا في قتالهم وقوما آخرين فقر الأحياء عنهم وأسلموهم ، أو أنهم استنجدوهم فلم يُنجدوهم ، وأما ذم الأموات فهو أن لهم مخازي وفصائح ، توجب عاراً وشناراً ، فهم يعدون بها الأحياء ، ويُصقونها بهم . وعلى هذا ورد قول أبي تمام :

بالشعر طول إذا اضطكت قصائده في معشر وبه عن معشر قصر<sup>(١٩)</sup>

فهذا البيت يحتمل تأويلين : أحدهما أن الشعر يتسع بحاله بمدحك ، ويضيق بمدح غيرك يريد بذلك أن مآثره كثيرة ، ومآثر غيره قليلة ، والآخر : أن الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك ، وذا خمول بمدح غيرك . فلفظة « الطول » يفهم منها ضد القصر ، ويفهم منها الفخر ، من قولنا : طال فلان على فلان ، أى فخر عليه . ومما ينتظم بهذا السلك قول أبي كبير الهذلي :

عجبت لسعى الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما : أنه أراد بسعى الدهر سرعة تقضى الأوقات مدة الوصال ، فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته في السكون

(١٧) في الأصل « وانتهى » .

(١٨) في الأصل « أخذت » وهو تحريف ، ورواية الديوان (ص ٤٦١) :

إذا جعفر مرت على هضبة الحمى تقنع إذ صاحت إليها قبورها

والبيت من قصيدة للفرزدق يهجو بها بني جعفر بن كلاب بن ربيعة بن صعصعة .

(١٩) ديوان أبي تمام ١٥١

والبطء. الآخر: أنه أراد بسعى الدهر سعى أهل الدهر بالنائم والوشايات، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية، وهذا من باب وضع المضاف إليه مكان المضاف، كقوله تعالى: « واسأل القرية (٢٠) » أي أهل القرية. ومن الدقيق المعنى في هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي في عَضِدِ الدَّوْلَةِ من جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ التي أولها:

\* أَوْهَ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَأَهَا (٢١) \*

فقال:

لَوْ فَطِنْتُ خَيْلَهُ لِنَائِلِهِ لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا (٢٢)

وهذا يُسْتَبْطَأُ مِنْهُ مَعْنِيَانِ غَيْرَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مَقْدَارَ عَطَايَاهِ النَّفِيسَةَ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِأَنَّ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهِ، لِأَنَّ عَطَايَاهُ أَنْفُسٌ مِنْهَا، الْآخَرُ: أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ أَنَّهُ يَهْبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهِ لَمَا رَضِيَتْ ذَلِكَ، إِذْ تَكَرَّرَ خُرُوجُهَا عَنْ مُلْكِهِ. وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ أَنَا ذَكَرْتُهُمَا، وَإِنَّمَا الْمَذْكُورُ مِنْهُمَا أَحَدُهُمَا. وَهَذَا الَّذِي أَشْرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ، وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمَلِهَا عَلَى أَشْبَاهِهَا وَنظَائِرِهَا.

## الفصل الرابع

### في الترجيح بين المعاني

وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد ذرهمها ودينارها، بل المحك الذي يعلم منه مقدار عيارها، ولا يزن به إلا ذو فكرة متقدمة ولمحة منقذة. فليس كل من حمل ميزاناً سُمي صرافاً، ولا كل من وزن به سُمي عرافاً.

(٢٠) سورة يوسف: آية ٨٢.

(٢١) ديوان المتنبي ٢٦٩/٤ وعجز البيت \* لمن نأت والبديل ذكراها \*

(٢٢) ديوان المتنبي ٢٧٦/٤.

والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهي أَنَّ هُنَاكَ يُرْجَعُ بَيْنَ دَلِيلِ  
الْخُصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ ، وَهَاهُنَا يُرْجَعُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي الْفَاطِ  
وَمَعَانٍ خَطَابِيَّةٍ .

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ التَّرْجِيحِ الْفَقْهِيَّ يَرْجَعُ بَيْنَ خَبَرِ التَّوَاتُرِ مِثْلًا وَبَيْنَ خَبَرِ  
الْأَحَادِ . أَوْ بَيْنَ الْمُسْنَدِ (١) وَالْمُرْسَلِ (٢) . أَوْ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ، وَهَذَا لَا يَعْزِضُ  
إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ الْبَيَانِ : لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَرْجَعَ  
بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ ، أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ ، أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ . وَيَكُونُ نَازِلًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ  
إِلَى الصَّنَاعَةِ الْخَطَابِيَّةِ ، وَلِرَبِّمَا اتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ التَّرْجِيحِ الْفَقْهِيَّ فِي بَعْضِ  
الْمَوَاضِعِ ، كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ ، أَوْ مَا شَابَهُ ذَلِكَ .  
وَكَنَّا قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَعَانِي وَانْقِسَامِهَا ، وَلِتُبَيِّنَ فِي هَذَا الْفَصْلِ  
مَوَاضِعَ التَّرْجِيحِ بَيْنَ وَجْهِ تَأْوِيلَاتِهِ . فَنَقُولُ :

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ ،  
وَلَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي شَيْءٍ .

وَالتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ ، وَلَا يَخْلُو التَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا  
مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي الْآخَرِ ، أَوْ حَقِيقَةً  
فِيهِمَا جَمِيعًا ، أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا ، وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ .

وَالتَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ الْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ ، وَأَمَّا التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ  
وَالْمَجَازِ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهِيَّةِ النَّظَرِ ، لِمَكَانِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا ، وَالشَّيْئَانِ الْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ  
الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ، نَحْلَافَ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ الْمُشَبَّهَيْنِ فَثَالُ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

---

(١) الْحَدِيثُ الْمُسْنَدُ مَا ذَكَرَ سَنَدَهُ ، وَهُوَ سِلْسَلَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَوَوْا الْحَدِيثَ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَخْصُ هَذَا  
الْإِسْمَ بِالْحَدِيثِ الْمَتَّصِلِ الْمَرْفُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ ، فَإِذَا سَقَطَ وَاحِدٌ مِنَ الرِّوَاةِ ، أَوْ لَمْ يَرْفَعْ  
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا يُقَالُ لَهُ مُسْنَدٌ .

(٢) الْحَدِيثُ الْمُرْسَلُ مَا حَذَفَ مِنْ سَنَدِهِ مَنْ يَكُونُ فَوْقَ التَّابِعِيِّ ؛ وَهُوَ الصَّاحِبِيُّ ؛ وَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ أَحَدُ  
التَّابِعِينَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَا ؛ أَوْ فَعَلَ كَذَا أَوْ فَعَلَ بِحَضْرَتِهِ كَذَا .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون (٣) » فالجلود هاهنا تفسر حقيقةً ومجازاً. أمّا الحقيقة فيراد بها الجلد مطلقاً. وأمّا المجاز فيراد بها الفروج خاصة. وهذا هو المانع البلاغي الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة، لما فيه من لطف الكناية عن الممكنى عنه. وقد يسأل هاهنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغي، ويقال: ما بيان هذا الترجيح؟ فيقال: طريقة لفظ الجلود عام، فلا يخلو إمّا أن يراد به الجلد مطلقاً، أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة، ولا يجوز أن يراد به الجلد على الإطلاق، لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة شهادة باطلة، إذ هي شهادة غير شاهد، والشهادة هنا يراد بها الإقرار، فتقول اليد: أنا فعلت كذا وكذا، وتقول الرجل: أنا مشيت إلى كذا وكذا وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرة بأعمالها، فترجع بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح. وإذا أريد به الجوارح، فلا يخلو إمّا أن يراد به الكل أو البعض، فإن أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر ولم يكن لتخصيصها بالذكر فائدة، وإن أريد به البعض فهو بالفرج أحص منه بغيره من الجوارح لأمرين: أحدهما أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم، شاهدة على صاحبها بالمعصية، ماعداً الفرج. فكان حمل الجلد عليه أولى، ليستكمل ذكر الجميع. الآخر: أنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج، فكفى عنه بالجلد، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته.

فإن قيل: إن تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفصيل كقوله تعالى: «فاكهة ونخل ورمان» (٤) والنخل والرمان من الفاكهة..

قلت في الجواب: هذا القول عليك لالك، لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفصيلهما في الشكل أو في الطعم، والفضيلة هاهنا في ذكر الشهادة إنما هي تعظيم لأمر المعصية، وغير السمع والبصر أعظم في المعصية؛ لأن معصية السمع إنما تكون في سماع عيبة، أو في سماع صوت مزمار أو وتر، أو ماجرى هذا الجرى.

(٣) سورة فصلت: الآيتان ١٩ و ٢٠

(٤) سورة الرحمن: آية ٦٨



ومعصية البَصْرِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي النَّظَرِ إِلَى مُحَرَّمٍ ، وَكَلَّمَا الْمُعْصِيَتَيْنِ لَا حَدَّ فِيهَا . وَأَمَّا الْمُعْصِيَةُ الَّتِي تَوْجَدُ مِنْ غَيْرِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ فَأَعْظَمُ : لِأَنَّ مُعْصِيَةَ الْيَدِ تَوْجِبُ الْقَطْعَ ، وَمُعْصِيَةَ الْفَرْجِ تَوْجِبُ جُلْدَ مِائَةِ أَوْ الرَّجْمَ ، وَهَذَا أَعْظَمُ ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُخَصَّ بِالذِّكْرِ دُونَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَإِذَا ثَبَتَ فِسَادُ مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ بِالْجُلُودِ إِلَّا الْفُرُوجَ خَاصَّةً .

وَأَمَّا مِثَالُ الْمَعْنِينَ إِذَا كَانَا حَقِيقَتَيْنِ فَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « التَّمِسُوا الرِّزْقَ فِي خُبَايَا الْأَرْضِ » وَالْخُبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ . وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَأَنَّ مَا كَانَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيْنِ حَقِيقَتَيْنِ : أَحَدُهُمَا الْكُنُوزُ الْمَحْبُوءَةُ فِي بَطُونِ الْأَرْضِ ، وَالْآخَرُ : الْحَرْثُ وَالغِرَاسُ ، وَجَانِبِ الْحَرْثِ وَالغِرَاسِ أَرْجَحُ ، لِأَنَّ مَوَاضِعَ الْكُنُوزِ لَا تُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَأْمُرُ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ مُجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ ، فَبَقِيَ الْمُرَادُ بِخُبَايَا الْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ .

وَكَذَلِكَ وَرَدَّ قَوْلُهُ ﷺ : « إِذَا ابْتَلَّتِ النَّعَالَ فَالصَّلَاةَ فِي الرَّحَالِ » وَهَذَا الْحَدِيثُ مُرْخَصٌ فِي تَرْكِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ بِسَبَبِ الْمَطَرِ ، وَلَهُ تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ نِعَالَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ مَا غُلِظَ مِنْهَا . وَالْآخَرُ : أَنَّهُ أَرَادَ الْأَحْذِيَّةَ : وَالْوَجْهُ هُوَ الثَّانِي : لِظُهُورِهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى ، وَاشْتُرَّ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ . وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ مَا غُلِظَ مِنَ الْأَرْضِ لَخَرَجَ عَنْ هَذَا الْحُكْمِ كُلُّ بَلَدٍ تَكُونُ أَرْضُهُ سَهْلَةً لَا غِلْظَ فِيهَا . وَأَمَّا مِثَالُ الْمَعْنِينَ الْمَجَازِينَ فَقَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ (٥) :

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمًا  
وَوَرَدَنَاهُ سَاحِلًا وَقَلْبِيًّا وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمًا (٦)  
فَعَلِمْنَا أَنَّ لَيْسَ إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمًا (٧)

فَالسَّاحِلُ وَالْقَلْبِيُّ يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا الْكَثِيرَ وَالْقَلِيلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّاحِلِ وَالْقَلْبِيِّ . وَالْآخَرُ : أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا السَّبَبَ ، وَغَيْرَ السَّبَبِ ،

(٥) ديوان أبي تمام ٢٩٢ من قصيدته التي مطلعها :

إن عهداً لو تعلمان ذمياً أن تناما عن ليلتي أوتنيا

(٦) رواية الديوان « ووردناه ساحلاً وقلبياً » والسائح الماء الجاري . والقلب البئر . والبارض أول

النبات . والجميم النبات الطويل المنتشر . وهو في الأصل « حمياً » بالخاء المهملة وهو تصحيف .

(٧) في الأصل « إلا بشق الأنفس » وفيه اختلال في الوزن . والصواب عن الديوان ٢٩٢

فإنَّ الساحلَ لا يحتاجُ في وِزْدِهِ إلى سببٍ ، والقلبُ يحتاجُ في وِزْدِهِ إلى سببٍ ، وكلا هذينَ المعنيينِ مجاز . فإنَّ حقيقةَ الساحلِ والقلبِ غيرُهما . والوجهُ هو الثاني ، لأنَّه أدلُّ على بلاغةِ القائلِ ومدحِ المَقُولِ فيه .

أما بلاغةُ القائلِ فالسَّلَامَةُ من هُجْنَةِ التكريرِ بالمخالفةِ بينَ صَدْرِ البيتِ وَعَجْزِهِ . فإنَّ عَجْزَهُ يدلُّ على القليلِ والكثيرِ ، لأنَّ البَارِضَ هو أَوَّلُ النَّبْتِ حينَ يَبْدُو ، فإذا كَثُرَ وتكاثَفَ سُمِّيَ جمياً<sup>(٨)</sup> ، فكأنَّه قالَ : أَخَذْنَا مِنْهُ تَبْرَعًا ، وَمَسْأَلَةً ، وَقَلِيلًا ، وكثيرًا .

وأما مدحُ المَقُولِ فيه ، فلتَعَدَادِ حالاته الأربعةِ في تَبْرَعِهِ وَسُؤَالِهِ وإكثارِهِ وإقلالهِ ، وما في مُعَانَاةِ هذه الأحوالِ من المشاقِّ . فهذا ما يتعلَّقُ بالترجيحِ البلاغِيِّ بين الحقيقةِ والحقيقةِ ، وبين المجازِ والمجازِ ، وبين الحقيقةِ والمجازِ .

وهاهنا ترجيحُ آخرُ لا يتعلَّقُ بما أُشْرْنَا إليه ، إذ هو خارجٌ عما تَقْتَضِيهِ المعاني الخَطَابِيَّةُ من جهةِ الفصاحةِ أو البلاغةِ ، وذلك أنَّ يَرَجَّحَ بينَ مَعْنِيَيْنِ ، أَحَدُهُمَا تَامٌ ، والآخِرُ مَقْدَرٌ . أو يكونُ أَحَدُهُمَا مناسبًا لمعنى تَقَدَّمَهُ أو تَأَخَّرَ عَنْهُ ، والآخِرُ غَيْرُ مناسبٍ . أو بأنَّ يُنْظَرَ في التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا إلى شيءٍ خارجٍ عن اللَّفْظِ .

فمثالُ المعنيينِ المشارِ إليهما أنَّ المعنى التامَّ هو الَّذِي يدلُّ عليه لَفْظُهُ ولا يَتَعَدَّاهُ وَأَمَّا المَقْدَرُ فهو الَّذِي لا يدلُّ عليه لَفْظُهُ ، بل يُسْتَدَلُّ عليه بِقَرِينَةٍ أُخْرَى ، وتلكِ القَرِينَةُ قد تكونُ من تَوَابِعِهِ ، وقد لا تكونُ . فمِمَّا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ « فِي سَائِمَةِ الْغَنَمِ زَكَاةٌ » فهذا اللَّفْظُ يَسْتَخْرُجُ مِنْهُ مَعْنِيَانِ : أَحَدُهُمَا تَامٌ ، والآخِرُ مَقْدَرٌ . فالتامُّ دلالتُهُ على وَجُوبِ الزَّكَاةِ فِي السَّائِمَةِ لا غَيْرِ ، والمَقْدَرُ دلالتُهُ على سُقُوطِ الزَّكَاةِ عَنِ المَعْلُوفَةِ ، إلا أَنَّهُ لَيْسَ مَفْهُومًا مِنْ نَفْسِ اللَّفْظِ ، بل مِنْ قَرِينَةٍ أُخْرَى هِيَ كَالتَّابِعَةِ لَهُ ، وهِيَ أَنَّهُ لَمَّا خَصَّتِ السَّائِمَةُ بِالذِّكْرِ دُونَ المَعْلُوفَةِ عِلْمَ مَنْ مَفْهُومٌ ذَلِكَ أَنَّ المَعْلُوفَةَ لا زَكَاةَ فِيهَا . وَلِلْفِقْهَاءِ فِي ذَلِكَ مُجَادِبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ ، يَطُولُ الْكَلَامُ فِيهَا ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا . وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ عِنْدِي هُوَ الْقَوْلُ بِفَحْوَى الْمَعْنَى الْمَقْدَرِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْفِقْهَاءُ « مَفْهُومَ الْخِطَابِ » وَلَهُ فِي الشُّعْرِ أَشْبَاهٌ وَنَظَائِرٌ ، فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ شِعْرًا قَوْلُ

(٨) فِي الْأَصْلِ « حَمِيًا » بِالْحَامِ الْمَهْمَلَةِ ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

جزء بن كليب الفقعي<sup>(٩)</sup> ، من شعراء الحامسة ، وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فردّه :

تبغى ابن كوز والسفاهة كاسمها ليستاد منا أن سنونا لياليا<sup>(١٠)</sup>  
فلا تطلبنها يابن كوز فإنه غدا الناس مذقاً نبي الجواريا<sup>(١١)</sup>  
وهذا البيت الثاني يشتمل على المعنيين التام والمقدر.

أمّا التام فإن ابن كوز سأل أبا هذه الجارية أن يزوجه إياها في سنة ، والسنة : الجذب ، فردّه . وقال : قد غدا الناس البنات مذقاً النبي ﷺ ، وأنا أيضاً أغدو هذه ، ولولا ذلك لوأدتها ، كما كانت الجاهلية تفعل وفيه وجه آخر : وهو أنهم كانوا يثدون البنات قبل الإسلام ، فلما جاء النبي ﷺ نهى عن ذلك ، فقله : « غدا الناس مذقاً النبي الجواريا » أى فى النساء كثيرة ، فتزوج بعضهنّ وخلّ ابنتى . وهذان المعنيان هما اللذان دلّ عليهما ظاهر اللفظ .

وأما المعنى المقدر الذى يُعلم من مفهوم الكلام فإنه يقول : إن النبي ﷺ أمر بإحياء البنات ، ونهى عن الوأد ، ولو أنكحكها لكنت قد وأدتها ، إذ لا فرق بين إنكاحك إياها وبين وأدّها . وهذا ذمٌ للمخاطب . وهو معنى دقيق .

ومجىء المعانى المستخرجة من المفصومة قليلٌ فى الشعر .  
وأما ما يُستدلّ عليه بقريضة ليست من توابعه ، فإن ذلك أدق من الأوّل ، والطف مأخذاً .

فما ورد منه قول النبي ﷺ : « من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سيكين » فهذا يُستخرج منه المعنيان المشار إليهما ، فالتام منها يدل على أنه من جعل

(٩) فى الأصل « جرى بن كلب » والتصويب عن ديوان الحامسة ٨٨/١ . وقال التبريزى : قال ابن الأعرابى : هو جرير لاجزاء ، ولم أفق لها على ترجمة .

(١٠) رواية الحامسة « شتونا » بالشين والتاء . ومعنى « يستاد منا » أى يتزوج فى ساداتنا . وقوله « أن شتونا » أى دخلنا فى الشتاء والجذب . والمعنى طلب منا الزواج فى هذا الوقت . ولو كنا فى غيره لما أمكنه أن يجترئ علينا بذلك .

(١١) غداه قام بغذائه . وهذا كناية عن إبطال وأد البنات من الفقر أو خشيته . والجوارى جمع جارية وهى البنت . والمعنى : لا تطلب التزوج بالمرأة التى خطبتها فلك فى سائر النساء مندوحة عنها . فإن النساء كثرن منذ منع الإسلام وأد البنات .

قاضياً فقد عرّض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سيكين . وأما المقدر فإنه يدلُّ على أنه من جعل قاضياً فقد أمر بمفارقة هَواه . وهذا لا يدلُّ عليه اللفظ بنفسه ، بل يُستدلُّ عليه بقريضة أُخرى ، ولكنها ليست من توابعه . ووجه ذلك أن لفظ الحديث عامٌ ، يشمل القضاة على الإطلاق ، ولا يخلو إما أن يُراد به عذاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا ولا يجوز أن يكون المرادُ به عذاب الآخرة ، لأنه ليس كلُّ قاضٍ معذبا في الآخرة ، بل المعذبُ منهم قضاةُ السوء . فوضّح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا . وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذابُ صورةً أو معنىً ، ولا يجوز أن يكون صورةً لأننا نرى الإنسان إذا جعل قاضياً لا يُذبح ، ولا يناله شئٌ ، من ذلك . فبقى أن يكون المراد به عذاباً معنوياً ، وهو الذبح المجازيُّ غير الحقيقي . وفحوى ذلك أن نفس الإنسان مُركبة على حُبِّ هواها ، فإذا جعل قاضياً فقد أمر بترك ما جُبِلَ على حُبِّه من الامتناع عن الرِّشوة ، والحُكْم لصديقه على عدوه ، ورفع الحجابِ بينه وبين الناس ، والجلوس للحُكْم في أوقات راحته ، وغير ذلك من الأشياء المكروهة التي تشقُّ على النفس ، وتحدّد لها ألماً مبرِّحاً ، والذبح هو قطع الحلقوم ، والألم حاصلٌ به ، وهو كالذبح الحقيقي ، بل أشدُّ منه . لأن ألم الذبح الحقيقي يكون لحظةً واحدة ، ثم ينقضي ويذوب وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولا ينقضي ، وهو أشدُّ العذاب . قال الله تعالى في عذاب أهل النار « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ <sup>(١٢)</sup> » وقال في نعيم أهل الجنة « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ الأعين <sup>(١٣)</sup> » وكثيراً ما رأينا وسمعنا من حمّله حُبُّ الشئِ على إتلافِ نفسه في طلبه ، وركوبِ الأهوالِ من أجله ، فإذا امتنع عنه مع حُبِّه إياه فقد ذبح نفسه ، أى قطعها عنه ، كما يقطع الذابح حلق الذبيحة ، ولهذا قال النبي ﷺ : « انتقلنا عن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فسمى جهاد الكفّار « الجهاد الأصغر » . و جهاد النفس « الجهاد الأكبر » .

فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتالٌ بغير سيف ، فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سيكين . وهذا موضع غامضٌ ، والترجيحُ فيه محتصُّ بالوجه الآخر ، لاشتماله على المعنى المقصود ، وهو المرادُ من القضاة على الإطلاق .

وأما مثالُ المعنَّين إذا كانَ أحدهما مناسباً لمعنى تقدّمه ، أو لمعنى تأخر عنه ،

والآخر غير مناسب :

فالأول : وهو ما كان مناسباً لمعنى تقدّمه كقوله تعالى : « لا تجعلوا دُعَاءَ الرَّسُولِ

بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا <sup>(١٤)</sup> » فالدُعَاءُ هاهنا يدلُّ على معنَّين : أحدهما :

النهيُّ أن يُدعى الرسولُ باسمِهِ ، فيقال : يا مُحَمَّد ، كما يدعوا بعضهم بعضاً بأسمائهم ،

وإنما يقالُ له : يا رسولَ الله ، أو يا نبيَّ الله . الآخرُ : النهيُّ أن يجعلوا حضورَهم عنده

إذا دعاهم لأمرٍ من الأمور كحضور بعضهم عند بعضٍ ، بل يتأدبونَ معه ، بالألَّا

يُفارقوا مجلسه إلا بإذنه . وهذا الوجه هو المراد . لمناسبة معنى الآية التي قبله ، وهو

قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم

يذهبوا حتى يَسْتَأذِنوه <sup>(١٥)</sup> »

وأما الثاني : وهو ما كان مناسباً لمعنى تأخر عنه كقوله تعالى : « والتَّينِ والزَّيْتُونِ \*

وطُورِ سِينِينَ <sup>(١٦)</sup> » فالتَّينُ والزَّيْتُونُ هما هذا الشجرُ المعروفُ ، وهما اسمًا جبلين أيضاً .

وتأويلُها بالجبلينِ أُولَى ، للمناسبةِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ما أتى بَعْدَهُمَا من ذكرِ الجبلِ الذي هو

الطُّور .

وعلى هذا وَرَدَ قولُ الشاعر <sup>(١٧)</sup> في أبياتِ الحماسة :

وَلَوْ كُنْتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلَانَ لَمْ تَجِدْ عَلَيَّ لِإِنْسَانٍ مِنْ النَّاسِ دِرْهَمًا

كَكُنِّي مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا فَلَسْتُ أَبَالِي أَنَّ أَدِينَ وَتَغَزَمًا <sup>(١٨)</sup>

هذا نظرنا إلى البيتِ الأوَّلِ وجدناه يُحتملُ مدحاً وذمًا ، أى أَنَّهُم كانوا يُعْنونُهُ

بعضَهم أَن يَدِين ، أو أَنَّهُ كانَ يخافُ الدَّيْنَ حَذَرَ الأَلَّا يَقومُوا عَنْهُ بِوَفائِهِ ، لكنَّ البيتَ

سنى حَقَّقَ أن الأوَّلَ ذمٌّ وليسَ بمدحٍ ، فهذا المعنى لا يتحقَّقُ فهمُهُ إلا بآخِره .

(١٤) سورة النور : آية ٦٣ (١٥) سورة النور : آية ٦٢ (١٦) سورة التين : الآيتان ١ و٢

(١٧) هو شقران مولى بنى سلامان بن سعد هديم : وهو شاعر إسلامي من شعراء الدولتين أمية وبنى

العباس .

(١٨) البيتان في ديوان الحماسة ٢/٢٦٠ . ومعنى البيتين لو كان . في قيس عيلان لم أقترض درهماً من

أحد لأنفقه في سبيل الخير محافة ألا يثوده عنى . ولكن ولائى في قضاة فلا أبالى أن أقترض ما أنفقه في وجوه

البر : لأنهم يؤدونه عنى . والمراد من هذا الكلام تفضيل قضاة لجودهم وكرمهم . قيس عيلان لبخلهم

وإسماكهم .

وأما الذى يكون الترجيحُ فيه بسببِ شَيْءٍ خارجٍ عن مفهومِ اللفظِ فقوله تعالى :  
 « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » (١٩) « فهذا مُسْتَنْبَطٌ منه  
 معنيان : أحدهما أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَفِي ذَلِكَ تَقْدِيمٌ  
 وتأخيرٌ . أى يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ . الآخرُ : أَنَّهُ فِي  
 السَّمَوَاتِ وَأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ ، لِأَنَّ الْوَقْفَ يَكُونُ عَلَى  
 السَّمَوَاتِ ، ثُمَّ يَسْتَأْنَفُ الْكَلَامَ ، فيقول : يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي الْأَرْضِ . إلا أَنَّ  
 هذا يَمْنَعُ مِنْهُ اعْتِقَادُ التَّجْسِيمِ . وذلك شَيْءٌ خَارِجٌ عَنِ مَفْهُومِ اللَّفْظِ .

## الفصل الخامس

### فى جوامع الكلم

قال النبىُّ ﷺ : « أُوتِيَتْ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » فالكلم جمعُ كلمة ، والجوامعُ جمعُ  
 جامعة ، والجامعة اسمُ فاعلةٌ ، من جمعت ، فهى جامعة ، كما يُقالُ فى المذكرِ  
 « جَمَعَ » فهو « جامع » . والمرادُ بذلك أَنَّهُ ﷺ أُوتِيَ الْكَلِمَ الْجَوَامِعَ للمعاني .  
 وهو عندي ينقسمُ قسمين .

القسمُ الأولُ منها : هُوَ ما استخرجته ، ونبّهتُ عليه ، ولم يكن لأحدٍ فيه قولٌ  
 سابقٌ ، وهو أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ الْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخْوَاتُهَا ، مما يجوزُ أَنْ  
 يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا . فَمِنْ ذَلِكَ ما يَأْتِي عَلَى حُكْمِ الْحِجَازِ ، وَمِنْهُ ما يَأْتِي عَلَى حُكْمِ  
 الْحَقِيقَةِ .

أما ما يَأْتِي عَلَى حُكْمِ الْحِجَازِ فقوله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ : « الْآنَ حَمِيَّ الْوَطِيسِ »  
 وهذا لم يُسْمَعْ مِنْ أَحَدٍ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَلَوْ آتَيْنَا بِمِجَازٍ غَيْرِ ذَلِكَ فِي مَعْنَاهُ ،  
 فَقَلْنَا « اسْتَعْرَتِ الْحَرْبُ » لَمَا كَانَ مُؤَدِّيًا مِنَ الْمَعْنَى مَا يُؤَدِّيه « حَمِيَّ الْوَطِيسِ » وَالْفَرْقُ  
 بَيْنَهُمَا أَنَّ الْوَطِيسَ هُوَ التَّنُورُ . وَهُوَ مَوْطِنُ الْوَقُودِ وَمُجْتَمَعُ النَّارِ . وَذَلِكَ يَخِيلُ إِلَى  
 السَّمْعِ أَنَّ هُنَاكَ صُورَةَ شَبِيهَةٍ بِصُورَتِهِ فِي حَمِيَّهَا وَتَوَقُّدِهَا ، وَهَذَا لَا يَوْجَدُ فِي قَوْلِنَا

« اسْتَعَرَّتْ الْجَرْبُ » أو ماجرى مجراه . وكذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ »  
 فقوله : « نفس الساعة » من العبارة العجيبة ، التي لا يقوم غيرها مقامها ، لأنَّ المراد  
 بذلك أنه بُعثَ والساعة قريبةٌ منه ، لكنَّ قَرَبَهَا منه لا يدلُّ على ما دلَّ عليه النَّفْسُ ،  
 وذلك أنَّ النفس يدلُّ على أن السَّاعَةَ منه بحيث يُحسُّ بها ، كما يحسُّ الإنسان بنفسه  
 مَنْ هو إلى جانبه . وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضعٍ آخر « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ »  
 وجمع بين أَصْبُعَيْهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى ، ولو قال : بُعِثْتُ عَلَى قُرْبٍ مِنَ السَّاعَةِ ، أو  
 وَالسَّاعَةَ قَرِيبَةً مِنِّي ، لَمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ نَفْسُ السَّاعَةِ ، وهذا لا يحتاجُ إلى  
 الإطالةِ في بيانه ، لأنه بيِّنٌ واضحٌ .

وقد وردَ شَيْءٌ من ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ . ولقد تصفحتُ الأشعارَ  
 قديمها وحديثها . وحفظتُ ما حفظتُ منها . وكنتُ إذا مررتُ بنظري في ديوانٍ من  
 الدَّوَاوِينِ ، ويلوحُ لي فيه مِثْلُ هذه الألفاظِ أَجْدُهَا نَشْوَةَ كُنْشَوَةَ الخمرِ ، وطرباً  
 كطربِ الأُلْحَانِ ، وكثير من الناظمين والنائِثِينَ يمرُّ على ذلك . ولا يتفطنُّ له سِوَى أَنَّهُ  
 يَسْتَحْسِنُهُ ، من غير نظرٍ فيما نظرتُ أنا فيه ، ويظنُّه كغيره من الألفاظِ المستحسنة .  
 فما جاء من ذلك قول أبي تمام (١) :

كَمْ صَارِمٍ عَصَبَ أَنَا فِ عَلَى قَفَاً مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَعْيِ حَمَالٍ  
 سَبَقَ الْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَرَّهُ وَطَنُ النَّهْيِ مِنْ مَفْرَقٍ وَقَدَّالٍ (٢)

فقوله : « وطنُ النهي » من الكلمات الجامعة ، وهي عبارة عن الرأس ، ولا يُجاءُ  
 بمثلها في معناها مما يسدُّ مسدَّها . وكذلك وَرَدَ قولُ البُحْتَرِيِّ :

قَلْبٌ يُطَلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدُّ تُمْضِي الْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوَهَا التَّعَبُ (٣)

فقوله : « قلبٌ يطلُّ على أفكاره » من الكلمات الجوامع ، ومرادهُ بذلك أن قلبه  
 لا تملؤه الأفكارُ ، ولا تحيطُ به ، وإنما هو عالٍ عليها . يصفُ بذلك عدمَ احتفاله  
 بالفوادح ، وقلةَ مبالاته بالخطوبِ ، التي تحدثُ أفكاراً تستغرقُ القلوبَ . وهذه  
 عبارةٌ عجيبةٌ ، لا يُؤتى بمثلها مما يسدُّ مسدَّها .

(١) ديوان أبي تمام ٢٦٣

(٢) ابتزه : سلبه ، وطن النهي : الرأس ، المفرق : وسط الرأس ، القدال : مؤخره .

(٣) ديوان البحتري ٢٠٤ ، ورواية الديوان « يطل على أفطاره » .

وأما ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي (٤) :

سَقَى اللهُ أوطاراً لنا ومَآرِباً تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَابِهَا مَا تَقَطَّعَا  
ليالٍ تُنْسِنِي الليالي حِسَابِهَا بُلْهَنِيَّةٌ أَقْضَى بِهَا الحَوْلَ أَجْمَعَا  
سِوَى عِزَّةٍ لا أَعْرِفُ اليَوْمَ بِاسْمِهِ وأَعْمَلُ فِيهِ اللَهُوَ مَرَأَى وَمَسْمَعَا

فقوله : « لا أعرفُ اليومَ باسمه » من الكلمات الجامعة ، أى أنى قد شُعِلَتْ  
باللذاتِ عن معرفةِ الليالي والأيام . ولو وصفَ اشتغاله باللذاتِ مهما وصفَ لم يأت  
بمثلِ قوله : « لا أعرفُ اليومَ باسمه » .

وأما القسمُ الثاني من جوامع الكلم ، فالمراد به الإيجاز ، الذى يُدَلُّ به بالألفاظِ  
القليلة على المعاني الكثيرة ، أى أَنَّ أَلْفَاظَهُ - صلواتُ الله عليه - جامعةٌ للمعاني  
المقصودة على إيجازها واختصارها . وجُلُّ كلامه جارٍ هذا المجرى فلا يحتاجُ إلى  
ضَرْبِ الأمثلة به ، وسيأتى فى باب الإيجاز منه ما فيه كفايةٌ ومُقْنِعٌ .

فإن قيل : فما الفرقُ بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما ، فإنهما فى النظرِ سواءٌ ؟  
قلتُ فى الجواب : إنَّ الإيجازَ هو أنْ يُؤْتَى بِالْفَظِّ دَالَّةٍ عَلَى مَعْنَى ، مِنْ غَيْرِ أَنْ  
تَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ، وَلا يُشْتَرَطُ فِي تِلْكَ الْأَفْظَانِ أَنَّهَا لَانظِيرَ لَهَا ، فَإِنَّهَا تَكُونُ قَدْ  
اتَّصَفَتْ بِوَصْفِ آخَرَ خَارِجٍ عَنِ وَصْفِ الْإِيجَازِ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِيجَازاً وَزِيَادَةً ، وَأَمَّا  
هَذَا الْقِسْمُ الْآخَرُ ، فَإِنَّهُ أَلْفَاظُ أَفْرَادٍ فِي حَسَنِهَا لَانظِيرَ لَهَا ، فَتَارَةٌ تَكُونُ مَوْجِزَةً .  
وَتَارَةٌ لَاتَكُونُ مَوْجِزَةً ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهَا الْإِيجَازُ ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ الْحُسْنِ  
الذى لَانظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَامٍ : « وَطَنُ النَّهْيِ » ؟ فَإِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ  
عَنِ الرَّأْسِ ، وَلا شَكَّ أَنَّ الرَّأْسَ أَوْجِزٌ . لِأَنَّ الرَّأْسَ لَفِظَةً وَاحِدَةً . وَ« وَطَنُ النَّهْيِ »  
لَفِظَتَانِ ، إِلا أَنَّ « وَطَنُ النَّهْيِ » أَحْسَنُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الرَّأْسِ مِنَ الرَّأْسِ . فَبِأَنَّ بَهَذَا  
أَنَّ أَحَدَ هَذَيْنِ الْقَسْمَيْنِ غَيْرِ الْآخَرِ .

(٤) ديوان ابن الرومي ٢٩٩ وروى صدر البيت الثالث في الديوان هكذا « سدى غرة لأعرف اليوم



## الفصل السادس

### فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن

قال النبىُّ ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فهو أحقُّ بها إذا وجدها » والمرادُ بذلك أن الحكمة قد يستفيدُها أهلها من غير أهلها ، كما يُقال : « رَبَّ رَمِيَّةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ » وهذا لا يَخْصُّ علماً واحداً من العلوم . بل يقعُ فى كلِّ علم ، والمطلوبُ منه هاهنا هو ما يَخْصُّ علمَ البيان من الفصاحةِ والبلاغةِ دونَ غيره .

ومذ سمعتُ هذا الخبر النبوى جعلتُ كدّى فى تتبُّعِ أقوالِ الناسِ فى مُفاوضاتهم ومحاوراتهم ، فإنه قد تصدَّرُ الأقوالُ البليغة والحكمُ والأمثالُ ممَّن لا يعلم مقدار ما يقوله ؛ فاستفدتُ بذلك فوائدَ كثيرةً ، لا أحصرُها عدداً . وأنا أذكرُ منها طرفاً ، يُستدلُّ به على أشباهه ونظائره .

فمن ذلك أنى سِرْتُ فى بعضِ الطُرُق ، وفى صُحبتى رجلٌ بدوىٌّ من الأنباطِ (٥) لا يُعتدُّ بقوله ، فكان يقولُ : « غداً ندخلُ البلد ، وتشغلُ عنى » . وكان الأمرُ كما قال ، فدخلتُ مدينةَ حَلَبَ ، وشُغِلتُ عنه أياماً ، ثم لَقِينى ، فقال لى : « مَنْ تَرَوَى فَرَّتْ عِظَامُهُ » ، وهذا القولُ من الأقوالِ البليغة . وهى من الحكمةِ التى هى الضالةُ المطلوبة عندَ مؤمِنى الفصاحةِ والبلاغةِ .

ثم إنى سمعتُ منه بعد ذلك شيئاً يناسبُ قوله الأوَّل ، فإنى سَفَرْتُ لَهُ إلى صاحبِ فى حَلَبَ فى شىءٍ أخذتهُ منه فاستقلَّه ، وقال : « الماءُ أَرَوَى لَشُدُوقِ النَّيْبِ » . وهذا أيضاً من الحكمةِ فى بابها .

وسافرتُ مرَّةً أخرى على طريقِ المناظرِ وكان فى صُحبتى رجلٌ بدوىٌّ ، فسألتهُ عن مسافةِ ما بين تدمرَ (٦) وأراكَ (٧) ، فقال : إذا « خرجَ سَرَّحَاهما تلاقياً » فعبرَ عن قَرَبِ المسافةِ بينهما بأوجزِ عبارةٍ وأبلغها .

(٥) النبط والنبيط والأنباط جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين (القاموس ٢/٣٨٧) .

(٦) تدمر مدينة مشهورة فى بركة الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام . وهى قرية من حمص .

(٧) أراك ، وادى الأراك قرب مكة .

ثم سألته ليلةً من الليالي عن الصبح لرتحلَ عن موضعنا ، فقال : « قد ظهر الصبح إلا أنه لم يملك الإنسانُ بصرَه » ، وهذا القولُ من الحكمة أيضاً .  
 وكان تزوّجَ غلامٌ من غِلْماني بدمشقَ ، فوقعَت المرأةُ منه بموقعٍ ، وشغِف بها ثم سافرتُ عن دِمَشقُ لمهمٍّ عَرَّضَ لى ، وسافرَ ذلك الغلامُ فى صُحْبَتى ، فلمَّا عُدنا من السَّفَرِ شغِلَ بامرأته ، والمقام عندها ، فسألتُه عن حاله ، فقال : إنها قد طالتُ وَحَسُنَتْ ، وهى كذا وكذا ، وأخذَ يصفُها ، فقال أخُ له كان حاضراً : يامولاي هى تلكَ لم تزدُ شيئاً ، وإنما هى فى عَيْنه جبارٌ من الجبارة !

وهذا القولُ قد وَرَدَ فى بعضِ أبياتِ الحماسةِ ، وهو معدودٌ من أبياتِ المعاني :  
 أهابك إجلالا وما بكِ قدرةٌ علىَّ ولكنْ مِلءُ عَيْنٍ حَبِيْبُهَا<sup>(٨)</sup>  
 فكثيراً ما يصدُرُ مثلُ هذه الأقوالِ عن ألسنةِ الجهَّالِ .

وسمعتُ ما يجرى هذا المجرى من بعضِ العبيدِ الأحابيشِ الذين لا يستطيعون تقويمَ صَنِيعِ الألفاظِ ، فضلاً عمَّا وراءَ ذلك . وذلك أنه رأى صَبِيًّا فى يده طاقةُ رِيحانٍ . فقال : « هذه طاقةُ آسٍ تحملُ طاقةَ رِيحانٍ » . فلمَّا سمعتُ ذلكَ منه أخذتُ هِزَّةَ التَّعَجُّبِ ، وذكرتُ شعرَ أبى نُوَاسٍ الذى تَوَاصَفَه الناسُ فى هذا المعنى ، وهو قوله :

وَوَرْدَةٌ جَاءَ بِهَا شَادِنٌ      فى كفه البنى فحيانا  
 سَبَحْتُ رَبِي حِينَ أَبْصَرْتُهَا      رِيحانة تحمِلُ رِيحاناً

وحضِرَ عندى فى بعضِ الأيامِ رجلٌ نصرانىٌّ موسومٌ بالطب ، وكان لا يُحسِنُ أن يقولَ كلمةً واحدةً ، وهو أَقْلَفُ اللسانِ ، يسميُ العبارةَ ، فسألتُه عن زيارةِ شخصٍ ، وهل يتردُّ إليه أم لا ؟ فقال : « ظلامُ الليلِ يَهْدِينِي إلى بابِ مَنْ أَوْدُهُ ، وضوءُ النهارِ بَضَلَّ بى عنْ بابِ مَنْ لا أَوْدُهُ » وهذا من أَلْطَفِ المعاني وأَحْسَنِها ، وهو من الحكمةِ المطلوبةِ .

وكنْتُ قصدتُ زيارةَ بعضِ الإخوانِ من الأجنادِ وهو من الأَغْثامِ<sup>(٩)</sup> والأعْجامِ ، فسألتُه عنْ حاله ، وكان تَوَالَتْ عليه نكباتٌ طالتُ أيامُها ، وعظمتُ

(٨) ديوان الحماسة ١٣١/٢

(٩) جمع أغم ، وهو من لا يفصح شيئاً .

آلامها ، فقال لى فى الجواب ما معناه : إنه لم يبقَ عندى ارتياحٌ لوقوع نائبةٍ من النوائب . وهذا معنى لو أتى به شاعرٌ مُفلقٌ ، أو كاتبٌ بليغٌ ، لاستحسن منه غاية الاستحسان .

وكنتُ فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرضِ فلسطين ، فى الجيش الذى كان قبالة العدو الكافر من الفرنج ، لعنهم الله ، وتقابل الفريقان على مدينة « يافا » وكان إلى جانبى ثلاثة فرسانٍ من المسلمين ، فتعاقدوا على الحملة إلى نحو العدو ، فلما حملوا صدق منهم اثنان ، وتلكاً واحداً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « الموتُ طعامٌ لائحته (١٠) . فلما سمعتُ هذه الكلمة استحسنتها وإذا هى صادرةٌ عن رجلٍ من أهل « بصرى » قدم (١١) من الأقدام .

ولو أخذتُ فى ذكر ما سمعته من هذا لأطلتُ ، وإنما دلتُ بيسير ما ذكرته على المراد ، وهو أنه يجبُ على المتصدى للشعر والخطابة أن يتبعَ أقوالَ الناسِ فى محاوراتهم ، فإنه لا يعدمُ مما يسمعه منهم حكماً كثيرة ، ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه .

ويُحكى عن أبى تمامٍ أنه لما نظمَ قصيدته البائية التى أولها :  
\* على مثلها من أربع وملاعب (١٢) \* .

انتهى منها إلى قوله :

يرى أفتح الأشياءِ أوبةً أمل كسته يد المأمول حلة خائب  
ثم قال : \* وأحسن من نورٍ يفتحهُ الصبا \* .

ووقفَ عند صدر هذا البيت يردده ، وإذا سائلٌ يسألُ على الباب ، وهو يقولُ :  
« من بياض عطاءيا كم فى سواد مطالينا » ، فقال أبو تمام :

\* بياض العطاءيا فى سواد المطالب \* .

فأتمَّ صدر البيت الذى كان يردده من كلام السائل .

(١٠) يقال : جشه أى دقه وكسره .

(١١) القدم العبي عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم ، والغليظ الأحمق الجافى .

(١٢) ديوانه ٤٠ ، وعجز البيت . أذيلت مصونات الدموع السواكب . وهو مطلع قصيدة يمدح بها أبا

دلف القاسم بن عيسى العجلي ، وهى من عيون قصائده .

وسمعتُ امرأةً قد تُوفِّي لها ولد . وهو بِكْرُهَا الذي هو أَوَّلُ أَوْلَادِهَا ، فقالت : كيفَ لا أَحْزَنُ لذهابِهِ . وهو أَوَّلُ دِرْهَمٍ وَقَعَ في الكيسِ ؟ فأخذتُ أَنَا هذا المعنى . وَأَوْدَعْتُهُ كِتَاباً من كِتَابِي في التَّعَاذِي ، وهو كِتَابٌ كُتِبَتْهُ إلى بَعْضِ الإِخْوَانِ ، وقد تُوفِّي بِكْرُهُ من الأَوْلَادِ ، فقلتُ : « وهو أَوَّلُ دِرْهَمٍ ادَّخَرْتُهُ في كَيْسِ الادِّخَارِ ، وَأَعَدَدْتُهُ لِحَادِثِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ » .

وَبَلَّغْنِي عن الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ [ عبد الله بن (١٣) ] أَحْمَدَ بنِ أَحْمَدَ المعروفِ بِابْنِ الحِشَابِ البَغْدَادِيِّ ، وَكَانَ إِمَاماً في عِلْمِ العَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهِ ، فَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ كَثِيراً مَا يَقِفُ عَلَى حِلْقِ القَصَاصِ والمُشْعَبِينَ ، فَإِذَا أَتَاهُ طَلِبَةُ العِلْمِ ، لَا يَجِدُونَهُ في أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ إِلَّا هُنَاكَ ، فَلَيِّمَ عَلَى ذَلِكَ ، وَقِيلَ لَهُ : أَنْتَ إِمَامُ النَّاسِ في العِلْمِ ، وَمَا الَّذِي يَبْعَثُكَ عَلَى الوُقُوفِ بِهَذِهِ المَوَاقِفِ الرَّذِيئَةِ ؟ فَقَالَ : « لو عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لِمَا لُمْتُمْ ! وَلَطَالَمَا اسْتَفَدْتُ من هَؤُلَاءِ الجُهَّالِ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ ، تَجْرِي في ضِمْنِ هَذِيكُم مَعَانَ غَرِيبَةٍ لَطِيفَةٍ ، وَلَوْ أَرَدْتُ أَنَا أَوْ غَيْرِي أَنْ نَأْتِيَ بِمِثْلِهَا لِمَا اسْتَطَعْنَا ذَلِكَ » . وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ رَأَى مَا رَأَيْتُهُ ، وَنَظَرَ إلى مَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ .

## الفصل السابع

### في الحقيقة والمجاز

وهذا الفصلُ مهمٌّ كبيرٌ من مَهَمَّاتِ عِلْمِ البَيَانِ ، لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ البَيَانِ بِأَجْمَعِهِ ، فَإِنَّ في تَصْرِيفِ العِبَارَاتِ عَلَى الأَسْلُوبِ المِجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً ، وَسِيرِدَ بَيَانِهَا في مَوَاضِعِهَا من هَذَا الكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . وَقَدْ تَبَّهْنَا في هَذَا المَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا .

فَأَمَّا ( الحَقِيقَةُ ) فَهِيَ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ الأَصْلِيِّ .  
وَأَمَّا ( المِجَازُ ) فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ المَعْنَى المَوْضُوعِ لَهُ في أَصْلِ اللُّغَةِ ، وَهُوَ مَا خُوذَ مِنْ جِازٍ مِنْ هَذَا المَوْضِعِ إِلَى هَذَا المَوْضِعِ ، إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ .  
فالمِجَازُ إِذَا اسْمٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُجَازُ فِيهِ ، كَالْمَعَاجِ والمَزَارِ وَأَشْبَاهِهَا . وَحَقِيقَتُهُ

(١٣) زيادة ليست في الأصل صححنا بها الاسم ، وقد سبقت ترجمته في صفحة ٥٠

هي الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ ، فُجِعِلَ ذَلِكَ لنقل الألفاظ من محلٍّ إلى محلٍّ .  
كقولنا زيدٌ أسدٌ . فإنَّ زيداَ إنسانٌ . والأسد هو هذا الحيوانُ المعروفُ . وقد جُزْنَا من  
الإنسانيةِ إلى الأسديةِ ، أى عبّرنا من هذه إلى هذه لوصلةِ بينهما ، وتلك الوصلةُ هي  
صفةُ الشجاعةِ .

وقد يكونُ العبورُ لغيرِ وُصلةٍ ، وذلك هو ( الاتّساع ) كقولهمُ في كتابِ « كليلَة  
ودمنة » قال الأسدُ ، وقال الثعلبُ . فإنَّ القولَ لا وُصلةَ بينه وبين هذين بحال من  
الأحوال ، وإنَّما أُجْرِى عليهما اتساعاً مَحْضاً لا غيرُ .

ولهذا مثالٌ في المجاز الحقيقيِّ الذى هو المكان المجازُ فيه ، فإنَّه لا يخلو إِمَّا أَنْ يُجَازَ  
من سهليِّ إلى سهليِّ ، أو من وعريِّ إلى وعريِّ ، أو من سهليِّ إلى وعريِّ ، فالجوازُ من سهليِّ  
إلى سهليِّ أو من وعريِّ إلى وعريِّ ، هو كقولنا زيدٌ أسدٌ ، فالمشابهةُ حاصلةٌ فى ذاتِ بينهما  
كالمشابهةِ الحاصلةِ فى المكانِ . والجوازُ من سهليِّ إلى وعريِّ كقولهم : قال الأسدُ ، وقال  
الثعلبُ . فكما أنه لا مشابهةَ بين القولِ وبين هذين ، فكذلك لا مُشابهةَ بين السهليِّ  
والوعريِّ . وسيأتى كشفُ الغطاءِ عن ذلك ؛ وإشباعُ القولِ فى تحقيقه فى باب  
( الاستعارة ) فليؤخَذْ من هناك .

وقد ذهب قومٌ إلى أن الكلامَ كُلُّهُ حقيقةٌ لا مجازٌ فيه ، وذهب آخرونَ إلى أنه كلُّه  
مجازٌ ، لا حقيقةٌ فيه . وكلا هذين المذهبين فاسدٌ عندى ، وسأجيبُ الخصمَ عما  
ادَّعاهُ فيهما ، فأقول : محلُّ النزاعِ هو أنَّ اللغةَ كُلُّها حقيقةٌ . أو أنَّها كُلُّها مجازٌ ، ولا  
فرقَ عندى بين قولك إنها كُلُّها حقيقةٌ ، أو إنها كُلُّها مجازٌ ، فإنَّ كِلَا الطرفينِ عندى  
سواءٌ ، لأنَّ مُنكَرَهما غيرُ مُسَلَّمٍ لهما . وأنا بصددِ أن أبينَ أنَّ فى اللغةِ حقيقةٌ ومجازاً .  
و ( الحقيقةُ اللُّغويةُ ) ، هي حقيقةُ الألفاظِ فى دلالتها على المعانى ، وليستُ  
بالحقيقةِ التى هي ذاتُ الشيءِ ، أى نفسه وعينه . فالحقيقةُ اللفظيةُ إذاً هي دِلالةُ  
اللفظِ على المعنى الموضوعِ له فى أصلِ اللغةِ . والمجازُ هو نقلُ المعنى عن اللفظِ  
الموضوعِ له إلى لفظٍ آخرَ غيره .

وتقريرُ ذلك بأنَّ أهولَ : المخلوقاتُ كُلُّها تفتقرُ إلى أسماءٍ يُستَدَلُّ بها عليها ، يُعرَفُ  
كل منها باسمه ، من أجلِّ التفاهمِ بين الناسِ ، وهذا يقعُ ضرورةً لأبَدٍ منها ، فلا سُمُّ  
الموضوعِ بإزاءِ المسمى هو حقيقةٌ له ، فإذا نُقلَ إلى غيره صار مجازاً .

ومثال ذلك أننا إذا قلنا « شمس » أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وهذا الاسم له حقيقة ، لأنه وضع بإزائه . وكذلك إذا قلنا « بحر » أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح ؛ وهذا الاسم له حقيقة ، لأنه وضع بإزائه . فإذا نقلنا « الشمس » إلى « الوجه المليح » استعارةً كان ذلك له مجازاً لا حقيقة . وكذلك إذا نقلنا « البحر » إلى « الرجل الجواد » استعارةً كان ذلك له مجازاً لا حقيقة .

فإن قيل : إن « الوجه المليح » يقال له « شمس » وهو حقيقة فيه ، وكذلك « البحر » يقال للرجل الجواد ، وهو حقيقة فيه . فالجواب عن ذلك من وجهين أحدهما نظريٌّ . والآخر وضعيٌّ .

أما النظريُّ فهو أن الألفاظ إنما جعلت أدلةً على إفهام المعاني ، ولو كان ما ذهبت إليه صحيحاً لكان « البحر » يطلق على هذا الماء العظيم المليح ، وعلى الرجل الجواد بالاشتراك . وكذلك الشمس أيضاً ، فإنها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وعلى الوجه المليح بالاشتراك ، وحينئذٍ إذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقاً بغير قرينة تخصّصه ، فلا يفهم المرادُ به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، فإننا إذا قلنا « شمس » أو « بحر » وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجهٌ مليحٌ ، ولا رجلٌ جوادٌ ، وإنما يفهم منه ذلك الكوكبُ المعلوم ، وذلك المساءُ المعلوم لا غير . فبطلَ إذاً ما ذهبت إليه بما بيناه وأوضحناه .

فإن قلت : إن العُرف يخالف ما ذهبت إليه ، فإن من الألفاظ ما إذا أُطلق لم يذهب الفهم منه إلا إلى المجاز دون الحقيقة ، كقولهم : « الغائط » فإن العُرف خصّص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الأرض .

قلت في الجواب : هذا شيء ذهب إليه الفقهاء ، وليس الأمر كما ذهبوا إليه ، لأنه إن كان إطلاق اللفظ فيه بين عامّة الناس من إسكافٍ ، وحدادٍ ونجّارٍ ، وخبّازٍ ، ومن جرى مجراهم ، فهؤلاء لا يفهمون من « الغائط » إلا قضاء الحاجة ، لأنهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة ، وأنها مطمئن من الأرض . وأما خاصة الناس ، الذين يعلمون أصل الوضع ، فإنهم لا يفهمون عند إطلاق اللفظ إلا

الحقيقة لا غير، ألا ترى أن هذه اللفظة لما وَرَدَتْ في القرآن الكريم، وأريدَ بها قضاء الحاجة قُرِنَتْ بِالْفَافِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، كقوله تعالى: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» (١) فَإِنْ قَوْلُهُ: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ قَضَاءَ الْحَاجَةِ، دُونَ الْمَطْمَئِنِّ مِنَ الْأَرْضِ، فَالْكَلَامُ فِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ عِلْمِ أَصْلِ الْوَضْعِ حَقِيقَةٌ وَالنَّقْلُ عَنْهُ مَجَازٌ، وَأَمَّا الْجُهَالُ فَلَا اعْتِبَارَ بِهِمْ، وَلَا اعْتِدَادَ بِأَقْوَاهُمْ، وَالْعَجْبُ عِنْدِي مِنَ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ دَوَّنُوا ذَلِكَ عَلَى مَا دَوَّنُوهُ، وَذَهَبُوا إِلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الْوَضْفِيُّ فَهُوَ أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هَذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ إِلَى أَصْلِ اللَّغَةِ، الَّتِي هِيَ وَضَعُ الْأَسْمَاءِ عَلَى الْمَسْمِيَّاتِ، وَلَمْ يَوْجَدْ فِيهَا أَنَّ الْوَجْهَ الْمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا، وَلَا أَنَّ الرَّجْلَ الْجَوَادَ يُسَمَّى مَجْرًا، وَإِنَّمَا أَهْلُ الْخَطَابَةِ وَالشُّعْرُ تَوَسَّعُوا فِي الْأَسَالِبِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فَنَقَلُوا الْحَقِيقَةَ إِلَى الْمَجَازِ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ وَاضِعِ اللَّغَةِ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ. وَلِهَذَا اخْتَصَّ كُلُّ مِنْهُمُ بِشَيْءٍ اخْتَرَعَهُ فِي التَّوَسُّعَاتِ الْمَجَازِيَّةِ.

هَذَا أَمْرٌ الْقَيْسِ قَدْ اخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ، فَفِي ذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ الْفَرَسِ بِقَوْلِهِ: «قَيْدِ الْأَوَابِدِ» (٢) وَلَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «الآنَ حَمِيَّ الْوَطَيْسِ» وَأَرَادَ بِذَلِكَ شِدَّةَ الْحَرْبِ، فَإِنَّ الْوَطَيْسَ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ هُوَ التَّنَوُّرُ، فَنَقَلَ إِلَى الْحَرْبِ اسْتِعَارَةً، وَلَمْ يُسْمَعْ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَاضِعُ اللَّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ أَنَّ مِنَ اللَّغَةِ حَقِيقَةً بَوْضَعَهُ، وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ أَهْلِ الْخَطَابَةِ وَالشُّعْرِ. وَفِي زَمَانِنَا هَذَا قَدْ يَخْتَرَعُونَ أَشْيَاءَ مِنَ الْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ اسْتِعَارَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ اللَّغَةِ لَمَا اخْتَرَعَهُ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ، وَلَا زِيدَ فِيهِ، وَلَا نَقِصَ مِنْهُ.

(١) سورة المائدة . آية ٦ (٢) من بيته المشهور في -معلقته :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل =

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ ، فَهُوَ أَنَّ الْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى الْعُمُومِ فِي نِظَائِرِ . أَلَا تَرَى أَنَّا إِذَا قُلْنَا : « فُلَانٌ عَالِمٌ » صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ ، بِخِلَافِ « وَاسْأَلِ الْقَرِيَةَ » (٣) لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي بَعْضِ الْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ ، إِذِ الْمُرَادُ أَهْلُ الْقَرِيَةِ ، لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ السُّؤَالُ لَهُمْ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : وَاسْأَلِ الْحَجَرَ وَالتُّرَابَ ، وَقَدْ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : وَاسْأَلِ الرَّبْعَ وَالتَّلْلَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَجَازِ إِلَّا لِنَقْلِهِ عَنِ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ ، إِذِ الْمَجَازُ هُوَ اسْمٌ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، فَجُعِلَ ذَلِكَ لِنَقْلِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْحَقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهَا .

وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا يَدُلُّهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا إِلَى حَالَتِهِ الْمَجَازِيَّةِ ، فَكَذَلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةٍ كُلِّ حَقِيقَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ ، فَإِنَّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ ، كَأَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ ، لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الذُّوَاتِ ، لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ الصِّفَاتِ .

وَكَذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَجَازَ أَوْلَى بِالِاسْتِعْمَالِ مِنَ الْحَقِيقَةِ فِي بَابِ الْفِصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ (٤) ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَكَانَتِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ ، حَيْثُ هُوَ فَرَعٌ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ الْكَلَامِ الْخَطَائِيَّ هُوَ إِثْبَاتُ الْغُرُضِ الْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ بِالتَّخْيِيلِ وَالتَّصْوِيرِ ، حَتَّى يَكَادُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ عِيَانًا .

أَلَا تَرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : « زَيْدٌ أَسَدٌ » هِيَ قَوْلُنَا : « زَيْدٌ شَجَاعٌ » لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فِي التَّصْوِيرِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَإِثْبَاتِ الْغُرُضِ الْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ ، لِأَنَّ

---

== وَالْأَوَايِدُ جَمْعُ أَبْدَةِ الْوَحْشِ ، قَالَ أَبُو هِلَالٍ : وَالْحَقِيقَةُ مَانِعُ الْأَوَايِدِ مِنَ الذَّهَابِ وَالْإِفْلَاتِ ، وَالِاسْتِعَارَةُ أَبْلَغُ ؛ لِأَنَّ الْقَيْدَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ تَمَنُّعٍ عَنِ التَّصَرُّفِ ، لِأَنَّكَ تَشَاهَدُ مَا فِي الْقَيْدِ مِنَ الْمَنْعِ ، فَلَسْتَ تَشْكُ فِيهِ .

(٣) سُورَةُ يُوسُفَ : آيَةٌ ٨٢

(٤) هَذَا رَأْيٌ مِنَ الْأَكْرَاءِ الشَّائِعُ ، وَلَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْبَلَاغَةُ مُطَابِقَةً لِمَقْتَضَى الْحَالِ ، كَانَتِ الْبَلَاغَةُ فِي الْمَجَازِ كَمَا تَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوَدِّ الْمَجَازُ غُرُضًا مِنَ الْأَغْرَاضِ الْبَلَاغِيَّةِ لَا تُؤَدِّيهِ الْحَقِيقَةُ لَكَانَتِ الْحَقِيقَةُ أَوْلَى مِنْهُ بِالِاسْتِعْمَالِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ نَفْسَهُ فِيمَا يَلِي بَعْضَ الْأَغْرَاضِ الَّتِي يَفْضِلُ بِهَا الْمَجَازَ الْحَقِيقَةَ ؛ وَعَادَ إِلَى الرَّأْيِ الَّذِي قُلْنَا .



قولنا : « زيد شجاع » لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجلٌ جرىءٌ مقدّمٌ ، فإذا قلنا « زيد أسد » يتخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته ، وما عنده من البطش والقوة ودقّ الفرائس ، وهذا لا نزاع فيه . وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتى أنها ليسمحُ بها البخيلُ ، ويشجعُ بها الجبان ، ويحكمُ بها الطائشُ المتسرعُ ، ويجد المخاطبُ بها عند سماعها نشوةً كنشوة الخمر ، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلامُ أفاق وندم على ما كان منه من بذلِ مالٍ ، أو تركِ عُقوبة ، أو إقدام على أمرٍ مهولٍ . وهذا هو مَحْوَى السّحر الحلال ، المستغنى عن إلقاء العَصَا والحبال .

واعلم أنه إذا وردَ عليك كلامٌ يجوز أن يُحمَلَ معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه ، فانظر ، فإن كان لا مزيةَ لمعناه في حمّله على طريق المجاز ، فلا ينبغي أن يُحمَلَ إلا على طريق الحقيقة ، لأنها هي الأصلُ ، والمجاز هو الفرع ، ولا يُعدّلُ عن الأصلِ إلى الفرع إلا لفائدةٍ مثالُ ذلك قولُ البُحترى :  
 مَهيبٌ كحدِّ السِّيفِ لو ضَرَبَتْ بِهِ ذَرًّا أَجًّا ظَلَّتْ وَأَعْلَامُهَا وَهْدٌ<sup>(٥)</sup>  
 ويروى أيضاً « لو ضَرَبَتْ بِهِ طَلِيٌّ أَجًّا » جمع طَلِيَّة . وهي العنق . فهذا البيتُ لا يجوزُ حمّله على المجاز . لأنَّ الحقيقةَ أوَلَى به ألا ترى أن « الذَّرًّا » جمع « ذِرْوَةٌ » وهو أعلى الشيء ، يقالُ : ذِرْوَةُ الجبلِ أعلاه . والطلّيُّ جمع طَلِيَّة وهي العنق ، والعنق أعلى الجسد ؛ ولا فرقَ بينهما في صفة العلوِّ هنا ، فلا يُعدّلُ إذاً إلى المجاز ، إذ لا مزيةَ له على الحقيقة .

وهكذا كلُّ ما يجيءُ من الكلامِ الجارى هذا المجرى ، فإنه إن لم يكن في المجاز زيادةٌ فائدةً على الحقيقة لا يُعدّلُ إليه . . .

(٥) ديوان البُحترى ١١٠/١ وأجأ أحد جيلي طيء أجأ وسلمى ، والوهد والوهدة الأرض المنخفضة والهوة في الأرض ، والبيت من قصيدته التي يصف فيها الذئب حين لقيه ، ورواية الديوان :  
 مهيباً كمنصل السيف لو ضربت به ذرا أجأ ضلت وأعلامها وهد  
 وقيله :

بني ناهل مهلا فإن ابن أحتكم له عزمات - هزل آرائها جد  
 من هجمتوه لاتبهجوا سوى الردى وان كان خرقا مايجل له عقد

## الفصل الثامن

### في الفصاحة والبلاغة

اعلم أن هذا بابٌ متعذرٌ على الواجِبِ ، ومسلِكٌ متوعرٌ على الناهِجِ ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرُونَ القولَ فيه ، والبحثَ عنه ، ولم أجدُ من ذلك ما يعولُ عليه إلا القليل .

وغاية ما يقالُ في هذا الباب أن « الفصاحة » هي الظهورُ والبيانُ في أصلِ الوضعِ اللغويِّ ، يقال « أَفْصَحَ الصُّبْحُ » إذا ظهر ، ثم إنَّهم يقفونَ عند ذلك ، ولا يكشفونَ عن السرِّ فيه .

وبهذا القولِ لا تبيِّنُ حقيقةَ الفصاحةِ ، لأنَّه يُعترضُ عليه بوجوهٍ من

الاعتراضاتِ :

أحدهما : أنَّه إذا لم يكن اللفظُ ظاهراً بينا لم يكن فصيحاً ، ثم إذا ظهر وتبيَّن صار فصيحاً .

الوجهُ الآخرُ : أنَّه إذا كان اللفظُ الفصيحُ هو الظاهرُ البينُ ، فقد صارَ ذلك بالنسبِ والإضافاتِ إلى الأشخاصِ ، فإنَّ اللفظَ قد يكونُ ظاهراً لزيدٍ ، ولا يكونُ ظاهراً لعمرو . فهو إذاً فصيحٌ عند هذا ، وغيرُ فصيحٍ عند هذا . وليسَ كذلك ، بل الفصيحُ هو فصيحٌ عند الجميعِ ، لا خلافَ فيه بحالٍ من الأحوالِ ؛ لأنَّه إذا تحقَّقَ حدُّ الفصاحةِ ، وعُرفَ ماهيِّ ، لم يبقَ في اللفظِ الذي يختصُّ به خلاف .

الوجهُ الثالثُ : أنَّه إذا جرى بلفظٍ قبيحٍ يَنبُو عنه السمعُ ، وهو معَ ذلك ظاهرٌ بينٌ ، ينبغي أن يكونَ فصيحاً ، وليسَ كذلك . لأنَّ الفصاحةَ وَصْفُ حُسْنِ اللفظِ لا وَصْفُ قبح .

فهذه الاعتراضاتُ الثلاثةُ واردةٌ على قولِ القائلِ : إن اللفظَ الفصيحَ هو الظاهرُ

البين ، من غيرِ تفصيل .

ولمّا وقفت على أقوالِ الناسِ في هذا البابِ ملكتني الحيرةُ فيها ، ولم يثبتْ عندى منها ما أُعولَ عليه ، ولكثرةِ ملبستى هذا الفن ، ومعاركتى إيّاه ، انكشفَ لى السرُّ فيه ، وسأوضّحه في كتابي هذا ، وأحقّقُ القولُ فيه ، فأقولُ :

إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البيّنُ ، وأعنى بالظاهر البيّنُ أن تكونَ ألفاظُهُ مفهومةً ، لا يُحتاجُ في فهمها إلى استخراجٍ من كتابٍ لُغَةٍ . وإنّما كانت بهذه الصفة ، لأنّها تكونُ مألوفةً الاستعمالِ بينَ أربابِ النظم والنثر ، دائرةً في كلامهم . وإنّما كانت مألوفةً الاستعمالِ دائرةً في الكلام دونَ غيرها من الألفاظِ لمكانِ حُسْنِها . وذلكَ أنَّ أربابَ النظم والنثرَ غرّبوا اللُغَةَ باعتبارِ ألفاظِها ، وسبّروا وقسموا ، فاختاروا الحسنَ من الألفاظِ فاستعملوه . ونفوا القبيحَ منها فلم يستعملوه فحسُنُ الألفاظِ (١) سببُ استعمالها دونَ غيرها ، واستعمالها دونَ غيرها سببُ ظهورها وبيانها ، فالفصيحُ إذاً من الألفاظِ هو الحسنُ .

فإن قيلَ : من أيِّ وجهٍ علِمَ أربابُ النظم والنثر الحسنَ من الألفاظِ حتى استعملوه ، وعلموا القبيحَ منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟ قلتُ في الجوابِ : إنَّ هذا من الأمور المحسوسة ، التي شاهدها من نفسها : لأنَّ الألفاظَ داخلةً في حيزِ الأصواتِ ؛ فالذي يستلذهُ السمعُ منها ، ويميلُ إليه هو الحسنُ ، والذي يكرهه وينفرُ عنه هو القبيحُ .

ألا ترى أن السمعَ يستلذُّ صوتَ البُلبُلِ من الطَّيرِ ، وصوتَ الشَّحرورِ ، ويميلُ إليهما ، ويكرهُ صوتَ الغرابِ وينفرُ عنه ، وكذلك يكرهُ نهيقَ الحمارِ ولا يجدُ ذلكَ في صهيلِ الفرسِ ؟ والألفاظُ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنّه لا خلافَ في أنَّ لفظةَ « المزنّة » و « الديمة » حسنةٌ يستلذُّها السمعُ ، وأنَّ لفظةَ « البُعاق » قبيحةٌ يكرهها السمعُ . وهذه اللفظَاتُ الثلاثةُ من صِفةِ المطرِ ، وهي تدلُّ على معنى واحدٍ ، ومع هذا فإنّك ترى لفظتى « المزنّة » و « الديمة » وما جرى مجراها مألوفةً الاستعمالِ ، وترى لفظ « البُعاق » وما جرى مجراه متروكاً لا يُستعملُ وإن استعمل ، فإنّما

(١) في الأصل « وحسن الاستعمال » وهو تكرارٌ يختل به المعنى .

يستعمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو مَنْ ذوقه غير سليمٍ لا جرم أنه ذمٌّ وقدح فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عريباً محضاً من الجاهلية الأقدمين . فإن حقيقة الشيء إذا علمت وجب الوقوف عندها ، ولم يعرج على ما خرج عنها .

وإذن ثبت أن الفصحیح من الألفاظ هو الظاهر البين . وإنما كان ظاهراً بيناً ، لأنه مألوف الاستعمال . وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع . والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح . والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة ، لأنه ضدها لمكان قبحه . وقد مثلت ذلك في المثال المتقدم بلفظة « المزنة » و « الديمة » ولفظة « البعاق » .

ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء ، ليس منها حسن ومنها قبيح . ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى .

وليس لقائل هاهنا أن يقول : لا لفظ إلا بمعنى ، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإني لم أفصل بينهما ، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له ، والمعنى يجيء فيه ضمناً وتبعاً .

الوجه الثاني أن وزن « فعيل » هو اسم فاعل من « فعل » بفتح الفاء وضم العين ، نحو كرم فهو كريم . وشرف فهو شريف ، ولطف فهو لطيف ، وهذا مطرد في بابه وعلى هذا فإن اللفظ الفصيح هو اسم فاعل من فصح فهو فصيح ، واللفظ هو الفاعل للإبانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة محتصة به .

فإن قيل : إنك قلت : إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، أي المفهوم ، ونرى أن من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنته من المعنى إلا باستنباط وتفسير ، وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته .

قلت : لأن الآيات التي تستنبط ، وتحتاج إلى تفسير ، ليس شيء منها إلا

ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة. وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب، لا من جهة الألفاظ المفردة، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب، ويصير له هيئة تخصه وهذا ليس قدحاً في فصاحة تلك الألفاظ، لأنها إذا اعتبرت لفظة لفظة، وجدت كلها فصيحة، أي ظاهرة واضحة، وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير. وهذا لا يختص به القرآن وحده، بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير ذلك، وسأورد هاهنا منه شيئاً، فأقول: قد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «صومكم يوم تصومون، وفطركم يوم تفطرون، وأضحاكم يوم تضحون» وهذا الكلام مفهومة مفردات ألفاظه، لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله. وإذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل: علمنا أن صومنا يوم نصوم، وفطرننا يوم نفطر، وأضحانا يوم نضحى، فما الذي أعلمنا به مما لم نعلمه؟

وإذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج إلى استنباط. والمراد به أنه إذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا، ولم يكن ذلك اليوم أوله فإن الصوم صحيح، وأوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس عليه. وكذا يقال في يوم الفطر ويوم الأضحى. ولهذا الخبر المشار إليه أشباه كثيرة، تفهم معاني ألفاظها المفردة، وإذا تركبت تحتاج في فهمها إلى استنباط.

وأما ما ورد من ذلك شعراً فكقول أبي تمام (٢):

وَلَهْتَ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا وَأَضَاءَ (٣) مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُظْلَمٍ

فإن الولة والظلمة والإضاءة كل ذلك مفهوم المعنى، لكن البيت يجملته يحتاج في فهمه إلى استنباط. والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بيني وبينها، لما نالني من الخبز لولهاها، كما يقول الجازع: أظلمت الأرض على، أي أني صيرت كالأعمى

(٢) ديوان أبي تمام ٣١٢ وهو من قصيدة في مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم ومطلعها:

نرت فريد مدامع لم تنظم والدمع يحمل بعض شجو المغم

(٣) رواية الديوان «وأنا».

الذى لا يُبصر. وأما قوله « وأضاءَ منها كلُّ شيءٍ مظلمٍ » أى وَضَحَ لى منها ما كان مُستتراً عني من حبِّها إياى .

وكذلك ورد قول أبى عبادة البحرى فى منهزم (٤) :

إذا سار سَهْباً عاد ظهراً عَدُوهُ      وكان الصِّديقَ بكرةً ذلك السَّهْبُ  
فإنَّ السَّيرَ ، والسَّهْبَ والظَّهْرَ ، والعَدُوَّ ، والصِّديقَ ، كلُّ ذلك مفهومُ المعنى . لكنَّ  
البيتَ بمجموعه يحتاجُ معناه إلى استنباطٍ . والمرادُ أنَّ هذا المنهزم يرى ما بين يديه  
محبوباً إليه ، وما خلفه مكروهاً عنده . لأنه يطلبُ النجاةَ فيؤثِّرُ البُعدَ مما خلفه ،  
والقربَ ممَّا أمامه ، فإذا قطعَ سَهْباً ، وخلفه ورَاءَهُ صارَ عنده كالعدو . وقبل أن  
يقطعه كان له صديقاً ، أى يطلب لقاءهُ ، ويحبُّ الدنوَّ منه .

فانظر أيها المتأملُ إلى ما ذكرته من هذه الأمثلةِ ، حتى يثبتَ عندك ما أردت  
بيانه .

وأما البلاغةُ : فإنَّ أصلها فى وضع اللغة من الوُصولِ والانتهاء ، يقال : بَلَغتِ  
المكانَ ، إذا انتهيت إليه ، ومبلغُ الشيءِ منتهاهُ . وسمي الكلامُ بليغاً من ذلك ، أى  
أنَّه قد بلغ الأوصافَ اللفظيةَ والمعنويةَ .

والبلاغة شاملةٌ للألفاظ والمعانى ، وهى أَخَصُّ من الفصاحة ، كالإنسان من  
الحيوان . فكلُّ إنسانٍ حيوانٌ ، وليس كلُّ حيوانٍ إنساناً . وكذلك يقالُ : كل كلامٍ  
بليغٍ فصيحٌ . وليس كلُّ كلامٍ فصيحٍ بليغاً .

ويفرقُ بينها وبين الفصاحة من وجهٍ آخرٍ غيرِ الخاصِّ والعامِّ ، وهو أنَّها لا  
تكونُ إلا فى اللفظِ والمعنى ، بشرطِ التركيبِ ، فإنَّ اللفظةَ الواحدة لا يطلقُ عليها  
اسم البلاغةِ ، ويطلقُ عليها اسم الفصاحةِ ، إذ يوجد فيها الوصفُ المختصُّ  
بالفصاحةِ ، وهو الحسنُ . وأما وصفُ البلاغةِ فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعنى المفيدِ  
الذى ينتظم كلاماً .

(٤) ديوان البحرى ٧٨/٢ ، ومعنى السهب هنا الفلاة .

## مسألة تتعلق بهذا الفصل .

هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب ،  
أم بالنظر وقضية العقل ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء ، فإنَّ العربَ الذين  
ألفوا الشعرَ والخطبَ لا يخلو أمرُهُم من حالين ، إمَّا أنَّهم ابتدَعُوا ما أتوا به من  
ضروبِ الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء ممَّن كان  
قبلهم . فإنَّ كانوا ابتدَعُوهُ عند وقوفهم على أسرارِ اللغة ، ومعرفةٍ جيِّداً من رَدِّيها ،  
وحسنها من قبيحها . فذلك هو الذي أذهبُ إليه وإن كانوا أخذوه بالاستقراء ممَّن  
كانَ قبلهم فهذا يتسَلَّل إلى أوَّل من ابتدَعَهُ ولم يَسْتَقِرِّهِ ، فإنَّ كلَّ لغةٍ من اللغات لا  
تخلو من وصفي الفصاحة والبلاغة ، المختصين بالألفاظ والمعاني . إلاَّ أنَّ اللغةَ العربيَّةَ  
مزيَّةٌ على غيرها ؛ لما فيها من التوسُّعات التي لا توجدُ في لغةٍ أخرى سواها .

## مسألة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضا

هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جارٍ مجرى علم النحو أم لا ؟  
الجوابُ عن ذلك أنا نقول : الفرقُ بينهما ظاهرٌ ، وذلك أنَّ أقسامَ النحو أخذتُ  
من واضعها بالتقليد ، حتى لو عكس القضية فيها لجازَ له ذلك ، ولما كان العقل  
يأباه ولا ينكره ، فإنَّه لو جعلَ الفاعلَ منصوباً ، والمفعولَ مرفوعاً ، قلَّد في ذلك ، كما  
قلَّد في رَفْعِ الفاعلِ ونصبِ المفعول . وأمَّا علمُ البيان من الفصاحة والبلاغة فليس  
كذلك . لأنَّه استنبطَ بالنظرِ وقضية العقل ، من غيرِ واضعِ اللغة ، ولم يُفْتَقِرْ فيه إلى  
التوقيف منه ، بل أخذتُ ألفاظَ ومعانٍ على هيئةٍ مخصوصةٍ ، وحكَّم لها العقلُ بمزيةٍ  
من الحسنِ ، لا يشاركها فيها غيرها ، فإنَّ كلَّ عارفٍ بأسرارِ الكلامِ من أيِّ لغةٍ  
كانت من اللغاتِ يعلمُ أنَّ إخراجَ المعاني في ألفاظٍ حسنةٍ رائقةٍ ، يلدُّها السمعُ ولا  
ينبؤ عنها الطبعُ ، خيرٌ من إخراجها في ألفاظٍ قبيحةٍ مُستكرهةٍ ، ينبؤ عنها السمعُ . ولو  
أرادَ واضعُ اللغةِ خلافَ ذلك لما قلَّدناه .

فإن قيل: لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الأدلة عليها ،  
وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعاً ، والمفعول منصوباً .  
فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذه الأدلة واهية ، لا تثبت على محك الجدل ،  
فإن هؤلاء الذين تصدوا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب  
المفعول ، من غير دليل أبداً لهم ، فاستخرجوا لذلك أدلة وعلا ، وإلا فمن أين  
علم هؤلاء أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ، ونصب المفعول هي التي  
ذكروها ؟

## الفصل التاسع

### في أركان الكتابة

اعلم أن للكتابة شرائط وأركاناً أما شرائطها فكثيرة ، وهذا التأليف موضوع  
لمجموعها وللقسم الآخر من الكلام المنظوم .  
وليس يلزم الكاتب أن يأتي بالجميع في كتاب واحد ، بل يأتي بكل نوع من  
أنواعها في موضعه الذي يليق به ، كما أريناها فيما يأتي من هذا التأليف .  
وأما الأركان التي لا بد من إيداعها في كل كتاب بلاغى ذى شأن فخمسة :  
الأول : أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة . فإن الكاتب من أجاد  
المطلع والمقطع ، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب . ولهذا باب يسمى باب  
« المبادئ والافتتاحات »<sup>(١)</sup> فليحذ حذوه . وهذا الركن يشترك فيه الكاتب  
والشاعر .

الركن الثاني : أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقاً من المعنى الذى  
بنى عليه الكتاب : وقد نبهنا على طرف من ذلك في باب يخصه<sup>(٢)</sup> أيضاً ، فليطلب

(١) هو النوع الثانى والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية ، وسيأتى .

(٢) هو باب الاشتقاق وهو النوع السادس والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية .



من هناك. وهو مما يدل على حداقة الكاتب وفطانتِهِ، وكثيراً ما تجده في مكاتباتي التي أنشأتها، فإنني قصدته فيها، وتوخيتُه بخلافِ غيري من الكُتَّاب، لأنَّه ربَّما يوجدُ في كتابةِ غيري قليلاً، وتجده في كتابتي كثيراً.

الركنُ الثالثُ: أن يكونَ خروجُ الكاتبِ من معنى إلى معنى برابطة، لتكون رقابُ المعاني آخذةً بعضها ببعضٍ، ولا تكونُ مُقتَضَبَةً، ولذلك بابٌ مفردٌ أيضاً يسمَّى باب «التخلُّصِ والاقْتِضابِ»<sup>(٣)</sup>. وهذا الركنُ أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر.

الركنُ الرابعُ: أن تكونَ ألفاظُ الكتابِ غيرَ مخلوِّقَةٍ بكثرةِ الاستعمالِ، ولا أريدُ بذلك أن تكونَ ألفاظاً غريبة، فإنَّ ذلكَ عيبٌ فاحشٌ، بل أريدُ أن تكونَ الألفاظُ المستعملةُ مَسبُوكَةً سبكاً غريباً، يظنُّ السَّامِعُ أنها غيرُ ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس. وهناك مُعْتَرَكُ الفصاحةِ الذي تُظهِرُ فِيهِ الخواطرُ براعتها، والأقلامُ شجاعتهَا، كما قالَ البُحْتَرِيُّ.

باللفظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِي بُعْدِهِ عَنَّا وَيَبْعُدُ نَيْلُهُ فِي قُرْبِهِ<sup>(٤)</sup>.

وهذا الموضعُ بعيدُ المنالِ، كثيرُ الإِشْكَالِ، يحتاجُ إلى لُطْفِ ذوقٍ، وشَهَامَةِ خاطر، وهو شبيهٌ بالشيء الذي يقالُ إنه «لا داخلُ العالَمِ ولا خارجُ العالَمِ» فلفظُهُ هو الذي يستعملُ، وليسَ بالَّذي يستعملُ، أي أنَّ مفرداتِ ألفاظِهِ هيَ المستعملةُ المألوفةُ، ولكنَّ سَبْكُهُ وتركيبه هو الغريبُ العجيبُ.

وإذا سموتَ أيُّها الكاتبُ إلى هذه الدرجة، واستطعمتَ طعمَ هذا الكلامِ المشارِ إليه عَلِمْتَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ كَالرُّوحِ السَّائِكَةِ فِي بَدَنِكَ الَّتِي قَالَ اللهُ فِيهَا: «قُلِ الرُّوحُ

---

(٣) في الأصل «التخلص» والتخلص والاقْتِضاب هو النوع الثالث والعشرون من ضروب الصناعة

المعنوية.

(٤) ديوان البحتري ١٩٩/٢ ورواية الديوان «منا» موضع «عنا» والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن

وهب.

مِنْ أَمْرٍ رَبِّي» (٥) وليس كلُّ خاطرٍ بَراقٍ إلى هذه الدرّجة ، « ذلك فضلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » (٦) .

ومع هذا فلا تظنَّ أيُّها الناظر في كتابي أنّي أردتَ بهذا القولِ إهمالَ جانبِ المعاني ، بحيثُ يُؤْتَى باللفظِ الموصوفِ بصفاتِ الحُسْنِ والمَلاحَةِ ، ولا يكونَ تحته من المعنى ما يماثلُه ويساويه ، فإنّه إذا كان كذلكَ كانَ كصورةٍ حَسَنَةٍ بديعةٍ في حُسْنِها ، إلا أنّ صاحبها بليدٌ أبلهٌ والمرادُ أن تكونَ هذه الألفاظُ المشارُ إليها حسماً لمعنى شريفٍ .

على أنّ تحصيلَ المعاني الشريفةِ على الوجهِ الذي أشرتُ إليه أيسرُ من تحصيلِ الألفاظِ المشارِ إليها .

ويحكى عن المبرد - رحمه الله تعالى - أنه قال : ليس أحدٌ في زمانِي إلا وهو يسألني عن مُشكَلٍ من معاني القرآن ، أو مُشكَلٍ من معاني الحديث النبويّ ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربيّة ، فأنا إمامُ الناسِ في زمانِي هذا ، وإذا عرّضتُ لي حاجةٌ إلى بعضِ إخواني ، وأردتُ أن أكتبَ إليه شيئاً في أمرها أحجمُ عن ذلك ، لأنّي أرتبُ المعنى في نفسي ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظٍ مرضيّة ، فلا أستطيعُ ذلك ! ولقد صدقَ في قوله هذا ، وأنصفَ غايةَ الإنصافِ .

ولقد رأيتُ كثيراً من الجهّال الذين همُّ من السوقة أربابِ الحرفِ والصنائع ، وما منهم إلا مَنْ يقعُ له المعنى الشريفُ ، ويظهرُ من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنّه لا يحسنُ أن يُزَوجَ (٧) بين لفظتين فالعبارةُ عن المعاني هي التي تُخلبُ بها العقولُ . وعلى هذا فالناسُ كلّهم مشرّكون في استخراج المعاني ، فإنّه لا يمنع الجاهلَ الذي لا يعرفُ علماً من العلوم أن يكونَ ذكياً بالفطرة . واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء ، لا بتعلّم العِلْمِ .

وَبَلَّغْنِي أَنَّ قَوْمًا بَبْغَدَادَ مِنْ رِعَاعِ الْعَامَةِ يَطُوفُونَ بِاللَّيْلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى

(٥) سورة الإسراء : آية ٨٥ . (٦) سورة الحديد : آية ٢١ .

(٧) في الأصل « يزوج » وهو تحريف . والمزاوجة من فنون البلاغة .

الحرارة ويُنادون بالسُّحور، ويخرجونَ ذلك في كلامٍ موزونٍ على هيئة الشعر، وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب، وسمعتُ شيئاً منه فوجدتُ فيه معاني حسنةً مليحةً، ومعاني غريبةً، وإن لم تكن الألفاظ التي صيغتُ به صيغةً. وهذا الرُّكن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر.

الركن الخامس : أن لا يخلو الكتاب من معني من معاني القرآن الكريم والأخبار النبويّة، فإنها معدنُ الفصاحة والبلاغة. وإيراد ذلك على الوجه الذي أشرت إليه في الفصل الذي يلي هذا الفصل من حلِّ معاني القرآن الكريم والأخبار النبويّة أحسن من إيراده على وجه التضمين. وتوخى ذلك في كل كتابٍ عسيرٍ جداً. وأنا انفردتُ بذلك دون غيري من الكتاب، فإني استعملته في كل كتابٍ، حتّى إنّه ليأتى في الكتاب الواحد في عدّة مواضع منه، ولقد أنشأتُ تقليداً لبعض الملوك مما يكتبُ من ديوان الخليفة، ثمّ إني اعتبرتُ ما وردَ فيه من معاني الآيات والأخبار النبويّة، فكان ما يزيدُ على الخمسين، وهذا لا أتكلّفه تكلفاً، وإنما يأتي على حسب ما يقتضيه الموضع الذي يُذكرُ فيه. وقد عرفتُك أيّها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك في الفصل الذي يأتي بعد هذا الفصل، فخذهُ من هناك. وهذا الركنُ يختصُّ بالكاتب دون الشاعر؛ لأنّ الشاعر لا يلزمه ذلك. إذ الشعرُ أكثره مدائح، وأيضاً فإنّه لا يتمكّن من صوغِ معاني القرآن والأخبار في المنظوم، كما يتمكّن منه في المنثور. ولربّما أمكن ذلك في الشيء اليسير في بعض الأحيان. وإذا استكلت معرفة هذه الأركان الخمسة، وأتيت بها في كل كتاب بلاغيٍّ ذي شأنٍ، فقد استحققت حينئذٍ فضيلة التقدّم، ووجب لك أن تسمي نفسك كاتباً.

## الفصل العاشر

### في الطريق إلى تعلم الكتابة

هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها ، وما رأيتُ أحداً تكلمَ فيه بشيءٍ ولما حُبِّبْتُ إلى هذه الفضيلة ، وبلغني الله منها ما بلغني وجدتُ الطريقَ ينقسم فيها إلى ثلاثِ شُعبٍ :

الأولى : أن يتصفحَ الكاتبُ كتابة المتقدمين ويطلعَ على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثمَّ يحذو حذوهم وهذه أدنى الطبقاتِ عندي .

الثانية : أن يمزجَ كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادةٍ حسنةٍ ، إما في تحسين ألفاظ ، أو في تحسين معانٍ . وهذه هي الطبقة الوسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

الثالثة : أن لا يتصفحَ كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شيءٍ منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم ، وكثيرٍ من الأخبار النبوية ، وعدةٍ من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلبَ على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذُ في الاقتباس من هذه الثلاثة ، أعني القرآن والأخبار النبوية والأشعار ، فيقومُ ويقعُ ، ويخطئُ ويصيبُ ، ويضلُّ ويهتدي ، حتى يستقيم على طريقة يفتحها لنفسه ، وأخلقُ بتلك الطريق أن تكون مبتدعةً غريبةً ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، وهذه الطريقُ هي طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعدُّ إماماً في فن الكتابة ، كما يعد الشافعيُّ وأبو حنيفة ومالكٌ ، رضي الله تعالى عنهم ، ونهمهم من الأئمة المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مُستوعرةٌ جداً ، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لساناً هجّاماً ، وخاطرأً رقّاماً . وقد سهّلتُ لك صعابها ودللتُ معاجها . وكنتُ أشحُّ بإظهار ذلك لِمَا عانيت من

نيله من العناء ، فإني سلكت إليه كلَّ طريقٍ حتى بَلَغْتُهُ آخِرًا . وإنما تكون نَفَاسَةٌ  
الأشياء لِعِزَّةِ حُصُولِهَا ، ومَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيْسَ حُلُومًا وَجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيهِ طِلَابًا حَتَّى يَعْزَّ طِلَابُهُ (٨) .

ولقد مارستُ الكتابةَ ممارسةً كَشَفْتُ لِي عن أَسْرَارِهَا ، وَأظْفَرْتَنِي بِكُنُوزِ  
جَوَاهِرِهَا ، إذ لم يَظْفُرْ غَيْرِي بأحجارها ، فما وَجَدْتُ أَعُونَ الأشياءِ عليها إلا حَلَّ  
آياتِ القرآنِ الكَرِيمِ ، والأخبارِ النبويَّةِ ، وحلَّ الأبياتِ الشعريَّةِ .

وقد قَصَرْتُ هذا الفصلَ على ذِكْرِ وَجُوهِهَا وتقسيمِها ، وتمهيدِ الطَّرِيقِ إلى  
تعليمِها ، فَمَنْ وَقَفَ على ما ذَكَرْتُهُ عِلْمَ أَنِي لَمْ آتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٩) ، وَأَنَّ اللهَ قد جعلَ  
تَحْتَ خِوَاطِرِي من بناتِ الأفكارِ سَرِيًّا (١٠) ، وهذه الطَّرِيقُ يجهلُها كثيرٌ من مُتَعَاظِي  
هذه الصَّنَاعَةِ ، والذي يعلمُها منهم يَرْضَى بالحواشي والأطرافِ ، وَيَقْنَعُ من لآئِهَا  
بِعِمْقَةِ ما في الأصدافِ ، ولو استخرجَ منها ما استخرجتُ ، واستنتجَ ما  
استنتجتُ ، لَهَامَ بها في كلِّ وادٍ ، وتزوَّدَ إلى سُلُوكِ طَرِيقِهَا كلُّ زادٍ :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا      خَرُوا لِعِزَّةِ رُكْعًا وَسُجُودًا (١١)

ولا أريدُ بهذه الطَّرِيقِ أن يكونَ الكاتبُ مرتبطًا في كتابتهِ بما يستخرجُه من  
القرآنِ الكَرِيمِ والأخبارِ النبويَّةِ والشَّعْرِ ، بحيثُ أَنَّهُ لا يُنْشِئُ كتابًا إلا من ذلك ، بلُ  
أريدُ أَنَّهُ إذا حفظَ القرآنَ الكَرِيمَ ، وأكثرَ من حِفْظِ الأخبارِ النبويَّةِ والأشعارِ ، ثمَّ  
نَقَّبَ عن ذلك تنقيبَ مُطَّلِعٍ على معانيه ، مُفْتِشٍ عن دَفَائِنِهِ ، وَقَلْبُهُ ظَهْرًا لِبَطْنِ ،  
عَرَفَ حِينَئِذٍ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الكَيْفُ ، فَمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ ، واستعانَ بالمحفوظِ على  
الغَرِيْزَةِ الطَّبِيعِيَّةِ .

(٨) البيت للبحرئى : ديوانه ٦٢/٢ . ورواية الديوان

ليس يحلو وجودك الشيء تبغيه التماساً حتى يعز طلابه

(٩) بديعاً عجيباً . والفري القطع كأنه يقطع العادة . والعبارة تضمن قوله تعالى « قالوا يا مريم لقد جننت  
شيئاً فرياً » سورة مريم : آية ٢٧ .

(١٠) السرى النهر الصغير . والعبارة تضمن قوله تعالى « قد جعل ربك تحتك سرياً » سورة مريم : آية ٢٤ .

(١١) البيت لكثير . ورواية الأمامي ( ج ٢ ص ٧٥ ) :

لو يسمعون كما سمعت كلامها      خروا لعزة خاشعين سجوداً ١٠١

ألا ترى أنَّ صاحبَ الاجتهادِ منَ الفقهاءِ يفتقرُ إلى معرفةِ آياتِ الأحكامِ وأخبارِ الأحكامِ ، وإلى معرفةِ النَّاسِخِ والمنسوخِ من الكتابِ والسُّنةِ ، وإلى معرفةِ علمِ العربيَّةِ ، وإلى معرفةِ الفرائضِ والحسابِ من المعلومِ والمجهولِ ، من أجلِ مسائلِ الدُّورِ والوصايا وغيرها ، وإلى معرفةِ إجماعِ الصَّحابةِ ؟ فهذه أدواتُ الاجتهادِ ، فإذا عرَفَها استخرجَ بفكرتهِ حينئذٍ ما يؤدِّيه إليه اجتهادهُ ؛ كما فعلَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ ومالكٌ وغيرهم من أئمَّةِ الاجتهادِ .

وكذلك يَجْرِي الحكمُ في الكتابِ إذا أحبَّ الترقى إلى درجةِ الاجتهادِ في الكتابةِ ، فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرةٍ ، قد ذكرتها في صدرِ كتابي هذا ، إلا أنَّ رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء ، هي حفظُ القرآنِ الكريمِ ، والإكثارُ من حفظِ الأخبارِ النبويَّةِ ، والأشعارِ .

وحيثُ انتهى بنا القولُ إلى هذا الموضعِ ، فأولُ ما أبدأ به علي عقبِ دنت أن أقولَ :

## حل الأبيات الشعرية

ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مرتبة :

أَنْ يَأْخُذَ النَّائِرُ بَيْتًا مِنَ الشُّعْرِ ، فَيَنْثَرُهُ بِلَفْظِهِ ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ . وَهَذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا ، قَدْ أُتْقِنَ نَظْمَهُ ، وَأَحْسِنَ تَأْلِيْفَهُ ، فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ ، وَكَانَ يَقُومُ عُدْرَهُ فِي ذَلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ ، أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نَثَرَ الشُّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ السَّرْقَةِ ، فَيَقَالُ : هَذَا شَعْرُ فُلَانٍ بَعِيْنِهِ ، لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً ، لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ .

وقد سلكَ هذا المسلكَ بعضُ العِراقِيِّينَ . فَجَاءَ مُسْتَهْجِنًا ، وَلَا مُسْتَحْسِنًا ، كَقَوْلِهِ

فِي بَعْضِ أَيْبَاتِ الْحِمَاسَةِ (١) :

وَالَّذِي ذِي حَقِّ عَلِيٍّ كَأَنَّمَا تَغْلِي عِدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ (٢)  
أَرْجِيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْبَتُهُ فَوْقَ النَّوَظِرِ مِنْ عَلِيٍّ (٣)

فَقَالَ فِي نَثْرِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ : « فِكَمْ لَقِيَ أَلَدًا ذَا (٤) حَقِّ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْكُوكَبِ مِنْ عَلِيٍّ . وَتَغْلِي عِدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ ، فَكُوهَ فَوْقَ نَازِرِيْنِهِ وَأَكْبَهَ لِفَمِيْهِ وَبَدِيْنِهِ » فَلَمْ يَزِدْ هَذَا النَّائِرُ عَلَى أَنْ أَزَالَ رَوْنِقَ الْوِزْنِ ، وَطَلَاوَةَ النِّظْمِ لَا غَيْرَ .

وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ صَرَبٌ مَحْمُودٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ مِنَ الشُّعْرِ قَدْ

(١) ديوان الحماسة ٢٣/١ والبيان لربيعة بن مقروم الضبي .

(٢) الألد الشديد الخصومة . والحق الغيظ . والمرجل القدر من نحاس . يقول : رب خصم تغلي

العداوة في صدره غليان المرجل مما فيه على النار .

(٣) أرجيته أخرته وصرفته . قال أبو الفتح بن جني : أكثر من نرى يروى هذا البيت أرجيته بالراء . فإذا

تعالى شيئاً رواه أرجأته بالهمز . وكلاهما تصحيف . وإنما هو أرجيته بالواو . أى أذلته وقهرته . يقول : رب

خصم صرفته عن نفسي . وقد أبصر رشده وكويته فوق نواظره من أعلاه .

(٤) في الأصل « ذى » .

تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه ، فحينئذ يُعذرُ نادره . إذا أتى بذلك اللفظ . ومثاله قول الشاعر في أول الحماسة (٥) :

لو كنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِيَّايَ      بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بَنِ شَيْبَانَا  
وقد نثرتُ ذلك ، فقلتُ : « لستُ ممن تستبِحُ إِيَّايَ بَنُو اللَّقِيْطَةِ . ولا الَّذِي إِذَا هَمَّ  
بأمر كانت الآمالُ إليه وَسِيْطَةً . ولكنِّي أحملُ الهَمَلَ ، وأقربُ الأملَ . وأقولُ : سَبَقَ  
السَّيْفُ العَدْلَ (٦) » : فذكرُ « بنى اللَّقِيْطَةِ » هاهنا لأبْدُّ منه على حَسَبِ ما ذكره الشاعرُ .  
وكذلك الأمثالُ السائرةُ فَإِنَّه لا بُدَّ من ذكرها على ما جاءتْ في الشعرِ .

وأما القسم الثاني وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة :

فهو (٧) أن يُنثرَ المعنى المنظوم ، ببعض ألفاظه ، ويعزَمَ عن البعض بألفاظٍ أُخرى .  
وهناك تظهرُ الصنعةُ في الماثلةِ والمشابهةِ ، ومؤاخاةِ الألفاظِ الباقيةِ بالألفاظِ المرتجلةِ .  
فإنه إذا أخذَ لفظاً لشاعرٍ مجيدٍ ، قد نَفَّحَه وصَحَّحَه ، ففقرنه بما لا يُلائمهُ كان كَمَنْ  
جمعَ بين لَوْلُوَةٍ وَحَصَاةٍ ، ولا خفاءَ بما في ذلك من الانتصابِ للقدحِ ، والاستهدافِ  
للطعنِ .

والطريقُ المسلوكُ إلى هذا القسمِ أَنْ تأخذَ بعضَ بيتٍ من الأبياتِ الشعريَّةِ ، هوَ  
أحسنُ ما فيه ثمَّ تماثلهُ . وسأوردُ هاهنا مثالا واحداً ، ليكونَ قُدْوَةً للمتعلِّمِ ، فأقولُ :  
قد وَرَدَ هذا البيتُ من شعرِ أبي تمامٍ في وصفِ قصيدةٍ له :  
حَذَاءَ تَمَلُّ كُلُّ أُذُنٍ حِكْمَةً      وبلاغَةً وَتَدِرُّ كُلُّ وَرِيدٍ (٨)

(٥) ديوان الحماسة ١٣/١ والبيت لقريط بن أنيف أحد بني العنبر .

(٦) مثل من أمثال العرب قاله ضبة بن أد لما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم . انظر مجمع الأمثال للميداني ٢٤١/١ .

(٧) في الأصل « هو » .

(٨) ديوان أبي تمام ٨٥ وهو من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي دواد ، ويعتذر إليه وقبله .

خذها مثقفة القوافي رها لسوانح النعماء غير كنود

وفي الأصل « وحذاء » موضع « حذاء » والحذاء القارصة أو الطاعنة ؛ وتدر : تحلب ؛ والوريد عرق في العنق .



فقوله . « تملأُ كلَّ أُذنٍ حكمةً » من الكلامِ الحَسَنِ ، وهو أَحْسَنُ ما في البيت .  
فإذا أَرَدْتَ أن تشرَّ هذا المعنى فلا بُدَّ من استعمال لفظه بعينه ، لأنَّه في الغايةِ القُصوى  
من الفصاحة والبلاغةِ ، فعليك حينئذٍ أن تؤاخِيَه بمثله . وهذا عسيرٌ جداً ، وهو عندي  
أصعبُ منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ، لأنَّه مَسْلُكٌ مضيقٌ ، لِمَا فيه من التعرُّضِ للماثلةِ  
ما هو في غايةِ الحَسَنِ والجوْدَةِ .

وأما نثر الشعر بغير لفظه ، فذلك يتصرَّف فيه نائره على حَسَب ما يراه ، ولا يكونُ  
مقيداً فيه بمثالٍ يُضطرُّ إلى مؤاخاتِه .

وقد نثرتُ هذه الكلماتِ المشارِ إليها ، وأتيت بها في جُملة كتاب فقلت : « وكلامى  
قد عُرِفَ بين الناسِ واشتهرَ ، وفاقَ مَسِيرَ الشَّمسِ والقمرِ ، وإذا عُرِفَ الكلامُ صارت  
المعرفة له علامةً ، وأمينَ من سِرِّقته ، إذ لو سُرِقَ لدلَّتْ عليه الوسامةُ ، ومن خصائص  
صفاته أن يملأَ كلَّ أُذنٍ حكمةً . ويجعل فصاحةَ كلِّ لسانٍ عجمَةً ، وإذا جرَّتْ بفثاته في  
الأفهامِ قالتُ : أهذه بنتُ فكرة ؟ أم بنتُ كَرَمَةٍ ؟ »

فانظر كيف فعلتُ في هذا الموضعِ ، فإنى لما أخذتُ تلكَ الكلماتِ من البيتِ  
الشعرى التزمتُ بأنَّ أوأخِيها بما هو مثبها ، أو أَحْسَنُ منها فجننتُ بهذا الفصل كما تراه ،  
وكذلك ينبغي أن يُفعلَ فيما هذا سبيله .

وأما القسم الثالث وهو أعلى من القسمين الأولين :

فهو أن يؤخذ المعنى ، فيصاغَ بالفاظٍ غير ألفاظه . وثمَّ يتبيَّن حدُّقُ الصانعِ في  
صياغته ، ويُعلمُ مقدارُ تصرُّفه في صناعته ، فإن استطاعَ الزيادةَ على المعنى فتلك  
الدرجةُ العاليةُ ، وإلاَّ أَحْسَنَ التصرُّفَ ، وأتقنَ التأليفَ : ليكونَ أولى بذلك المعنى من  
صاحبه الأول .

واعلم أنَّ من أبيات الشعر ما يتسعُ المجالُ لنائره ، فيوردهُ بضروب من العبارات ،  
وذلك عندي شبيهٌ بالمسائلِ السَّيالةِ في الحساب ، التي يُجابُ عنها بعدة من الأجوبةِ  
ومن الأبيات ما يضيقُ فيه المجالُ حتى يكادُ الماهرُ في هذه الصناعةِ ألاَّ يخرجَ عن ذلك  
اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظر .

فَأَمَّا مَا يَتَّسِعُ الْمَجَالَ فِي نَثْرِهِ فَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :  
 لَا تَعْدُلُ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ<sup>(٩)</sup>  
 وَقَدْ نَثَرْتُ هَذَا الْمَعْنَى ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِي : « لَا تَعْدُلُ الْحَبَّ فِيمَا يَهْوَاهُ ، حَتَّى تَطْوِي  
 الْقَلْبَ عَلَى مَا طَوَاهُ » وَمِنْ ذَلِكَ وَجْهُ آخَرَ وَهُوَ : « إِذَا اخْتَلَفَتِ الْعَيْنَانِ فِي النَّظْرِ ،  
 فَالْعَدْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَرِ » .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي أَيْضًا :  
 إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدَمُوعِهِ مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ<sup>(١٠)</sup>  
 أَخَذْتُ هَذَا الْمَعْنَى فَنَثَرْتُهُ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِي : « الْقَتِيلُ بَسِيفِ الْعُيُونِ ، كَالْقَتِيلِ بِسِيفِ  
 الْمُنُونِ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجَرِّدُ مِنْ غِمْدِهِ ، وَلَا يُقَادُ صَاحِبُهُ بَعْمَدِهِ » فَرِدْتُ عَلَى الْمَعْنَى  
 الَّتِي تَضَمَّنَهَا الْبَيْتُ ، وَغَيَّرْتُ اللَّفْظَ . وَمِنْ ذَلِكَ وَجْهُ آخَرَ ، وَهُوَ « دَمَعُ الْحَبِّ وَدَمُّ  
 الْقَتِيلِ مُتَّفِقَانِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ ، وَلَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا ، إِلَّا أَنَّهَا يَخْتَلِفَانِ لَوْنًا » وَهَذَا  
 أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِ .

وَأَمَّا مَا يَضِيقُ فِيهِ الْمَجَالَ ، فَيَعْسُرُ عَلَى النَّاثِرِ تَبْدِيلُ الْفَاضِلِ فَكَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :  
 تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ<sup>(١١)</sup>  
 وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُثْثِ الْقَتَلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ<sup>(١٢)</sup>  
 وَأَمْثَالُ هَذَا لَا تَأْتِي إِلَّا قَلِيلًا ، وَسَبَبُهُ أَنَّ الْمَعْنَى يَنْحَصِرُ فِي مَقْصِدٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ حَتَّى  
 لَا يَكَادُ يَأْتِي إِلَّا فَذًّا كَهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، أَلَّا تَرَى أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ قَصَدَ الْمُوَاحَاةَ فِي ذِكْرِ لَوْنِي

(٩) ديوان المتنبى ٦/١ : وفي الأصل « لا تعزل » بالزاي . وفي الديوان « لا تعذر » بالذال والراء . يقول :  
 لا تكن عاذراً للمشتاق في شوفه حتى تجد ما يجده . ويكون قلبك في قلبه ، أي تحب مثل ما يحب ، وهو من  
 قول البحرى :

إِذَا شِئْتَ أَلَا تَعْدُلِ الدَّهْرَ عَاشِقًا عَلَى كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فَاعْشُقْ  
 (١٠) المصدر السابق . ويروى « إن المشوق » جعل جريان الدمع كجريان الدماء ، وهذا لأنه جعل العاشق  
 كالقتيل ، تعظيمًا للأمر .

(١١) ديوان أبي تمام ٣٦٩ . ويروى « فادجى » موضع « فأتى » والسندس نوع من رقيق الديداج معرب ،  
 كنى بالأول عن موته قتيلًا . وباللثاني عن دخوله الجنة . (١٢) ديوان المتنبى ٣٨١/٣ .

الثياب من الأحمر والأخضر . وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذى أرادته من لون ثياب القتلى وثياب الجنة . فإذا فك نظم هذا البيت ، وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك .

وبيتُ أبى الطيّبِ جازِ هذا المجرى : فإنه بناءٌ على واقعةٍ من الوقائع . وذلك أن حصناً من حصون سيف الدولة قصده الروم وانتزعوه وأخربوه . فنهد سيف الدولة إليه ، واسترجعه ، وجدد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب من جثث القتلى على السور ، فنظم المتنبي في هذا قصيداً أوله :

\* على قدر أهل العزم تأتي العزائم (١٣) \*

فلما انتهى إلى ذكر الحصن جاء بهذا البيت في جملة أبيات ، فشرح صورة الحال في إزعاج الحصن بالقتال ، وتعليق القتلى عليه . وأبرز ذلك في معنى التمثيل بالجنون والتمام ، وهذا لا يمكن تبديله لفظه . وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فك نظامه ، لأنه يتصدى لنثره بالفاظه . فإن كان عنده قوة تصرف ، وبسطة عبارة ، فإنه يأتي به حسناً رائعاً .

وقد نثرت هذين البيتين . أما بيت أبى تمام فإني قلت في نثره : « لم تكسه المنايا نسج شفارها ، حتى كسته الجنة نسج شعارها . فبدل أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حمامه بكأس كوثه » . وهذا من الحسنى على غاية يكون كمد حسودها من جملة شهودها .

وأما بيت أبى الطيّب المتنبي فإني قلت في نثره : « سرى إلى حصن كذا مستعيذاً منه سبيّة نزعها العدو اختلاسا ، وأخذها مخادعة لا افتراساً ، فما نزلها حتى استقادها ، ولا نزلها حتى استعادها . وكأنها كان بها جنون فبعث لها من عزائمهم عزائم ، وعلق عليها من رؤوس القتلى تمام » . وفي هذا من الحسنى مالا يخفاء به ، فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا ، وإلا فليترك .

(١٣) ديوان المتنبي ٣/٣٧٨ وعجز البيت . وتأتى على قدر الكرام المكارم .

وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر ، وأبرزته في صورةٍ أخرى . وذلك أني أضفتُ إلى هذا البيت الذي قبله ، وهو :

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنِيَا حَوْلَهَا مَتَلَاظِمٌ  
ولما نثرتُ هذين البيتين قلتُ في نثرهما ما أذكره ، وهو « بنَاهَا والأَسَنَةُ في بنَائِهَا مُتَخَاصِمَةٌ ، وأمواجُ المَنِيَا فوقَ أَيْدِي البَانِينَ متَلَاظِمَةٌ وما أحلت الحرب عنها حتى زُلزَلَتْ أَقْطَارُهَا بِرُكُضِ الجِيَادِ ، وأُصِيبَتْ بِمِثْلِ الجُنُونِ فَعَلَقَتْ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ مِنَ الرُّؤُوسِ والأَجْسَادِ ، ولا شكَّ أَنَّ الحربَ تعردُ عَمَّنْ عَزَّ جَانِبُهُ ، وتقول : أَلَا هَكَذَا فَلَيكْسِبِ المَجْدَ كَاسِيَهُ » وهذا أحسنُ من الأول . وأتمَّ معنى .

وقد تصرَّفْتُ في هذا الموضع بزيادةٍ في معناه ، ونثرتُه على أسلوب أحسن من هذا الأسلوب ، فقلتُ : « بَنَاهَا وَدُونَ ذَلِكَ البِنَاءِ شَوْكُ الأَسَلِ ، وطوفانُ المَنِيَا الذي لا يقال سَاوَى منه إلى جَبَلٍ ، ولم يَكُنْ بناؤُهَا إلا بعدَ أَنْ هُدِمَتْ رُؤُوسٌ عن أَعْنَاقٍ ، وَكَانَها أُصِيبَتْ بِجُنُونٍ فَعَلَقَتْ القَتْلَى عَلَيْهَا مَكَانَ التَّمَائِمِ ، أو شِينَتْ بِعَطَلٍ فَعَلَقَتْ مَكَانَ الأَطْوَاقِ » وهذا الفصلُ فيه زيادةٌ على الفصل الذي قبله .

★ وإذا انتهى بنا الكلام إلى هاهنا في التنبيه على نثر الشعر وكيفية نثره ، وذكر ما يسهلُ منه وما يعسرُ ، فلتتبع ذلك بقول كليٍّ في هذا الباب ، فنقول :

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبَعٌ مُجِيبٌ ، فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ الدَّوَابِّ ذَوَاتِ العَدَدِ ؛ وَلا يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي نَثْرِ الشَّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ ؛ وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِيءَ فَيَأْخُذُ قَصِيدًا مِنَ القَصَائِدِ ، فَيَنْثُرُ بَيْنًا بَيْنًا عَلَى التَّوَالِي . وَلا يَسْتَنكِفُ فِي الأَبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ الشَّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا ، فَإِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ إِلا ذَلِكَ . وَإِذَا مَرَّتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ، ارْتَفَعَ عَنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ ، وَصَارَ يَأْخُذُ المَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذَلِكَ ، حَتَّى يَكْسُوهُ ضَرْوبًا مِنَ العِبَارَاتِ المَخْتَلِفَةِ ، وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِحَاظِرِهِ بِمِباشِرَةِ المَعَانِي لِقَاحٍ ، فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِي غَيْرَ تِلْكَ المَعَانِي ، وَسِيْلُهُ أَنْ يُكْثِرَ الإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلا يَزَالُ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةٌ ، فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا ، أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَقَّقَتْ المَعَانِي فِي أَثْناءِ كَلَامِهِ ، وَجاءَتْ أَلْفَاظُهُ مَعْسُولَةً لا

مَعْسُولَةٌ ، وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَةٌ ، حَتَّى تَكَادُ تَرْقِصُ رَقْصًا . وَهَذَا شَيْءٌ خَبِرْتُهُ بِالتَّجْرِبَةِ ، وَلَا يَنْبَغُ مِثْلُ خَبِيرٍ .

فَإِنْ قِيلَ : الْكَلَامُ قِسْمَانِ : مَنْظُومٌ ، وَمَنْثُورٌ فَلَمْ خَصَّصْتَ عَلَى حِفْظِ الْمَنْظُومِ ، وَجَعَلْتَهُ مَادَّةً لِلْمَنْثُورِ ، وَهَلَّا كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ؟

قُلْتُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ الْأَشْعَارَ أَكْثَرَ ، وَالْمَعَانِي فِيهَا أَغْزَرُ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ الْفَصَاحَةِ جُلُّ كَلَامِهِمْ شِعْرٌ ، وَلَا نَجْدُ الْكَلَامَ الْمَنْثُورَ فِي كَلَامِهِمْ إِلَّا يَسِيرًا ، وَلَوْ كَثُرَ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ ، بَلِ الْمَنْقُولُ عَنْهُمْ هُوَ الشَّعْرُ . فَأَوْدَعُوا أَشْعَارَهُمْ كُلَّ الْمَعَانِي كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ <sup>(١٤)</sup> » ثُمَّ جَاءَ الطَّرَازُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا الشَّعْرُ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ الشَّعْرُ هُوَ الْأَكْثَرَ ، وَالْكَلَامُ الْمَنْثُورُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ . وَهَذَا صَارَتِ الْمَعَانِي كُلُّهَا مُودَعَةً فِي الْأَشْعَارِ ، وَحَيْثُ كَانَتْ بِهَذِهِ الصُّورَةَ فَكَانَ حَتَّى عَلَى حِفْظِهَا ، وَاسْتِعْمَالِ مَعَانِيهَا فِي الْخُطْبِ وَالْمَكَاتِبَاتِ لِهَذَا السَّبَبِ .

وَقَدْ نَثَرْتُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ آيَاتًا تَكُونُ قَدْوَةً لِلْمَتَعَلِّمِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِي فِي فَصْلِ مِنْ فَصُولِ الْكَلَامِ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ السِّيَادَةِ :

« وَهُوَ الشَّرِيفُ مَنْ شَرَّفَ بِنَفْسِهِ ، لَا بِمَا دُفِنَ مَعَ أَبِيهِ فِي رَمْسِهِ ، فَإِنَّ تِلْكَ مَكَارِمُ أُمَّتٍ فَتَجَمَّلَ الزَّمَانُ بِمَاتَاهَا ، ثُمَّ مَاتَ أَرْبَابُهَا فَدُفِنَتْ مَعَ مَوَاتَاهَا . وَلَوْ سَادَ النَّاسُ بِأَبَائِهِمْ لَكَانَتِ السِّيَادَةُ لِلطَّيْنَةِ الْأُولَى . وَلَقَدْ خَلِقَ الْأَنْبَاءُ مِنَ الْآبَاءِ مَجْبُولًا » . وَهَذَا الْمَعْنَى مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ وَإِنَّمَا فَخَارُ الَّذِي يَنْبَغِي الْفَخَارُ بِنَفْسِهِ  
غَيْرَ أَنَّ الْفَصْلَ الَّذِي ذَكَرْتَهُ يَتَضَمَّنُ مِنَ الْمَعْنَى زِيَادَةً عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْبَيْتُ .  
وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبْتَهُ فِي فَصْلِ مِنْ كِتَابٍ يَتَضَمَّنُ مَعَابِدَةَ أَخٍ لِإِخْوَتِهِ ، وَتَنْصَلُهُ إِلَيْهِمْ .  
فَقُلْتُ :

(١٤) سُورَةُ الشُّعْرَاءِ : آيَةٌ ٢٢٥ .

« جَرَحُوا قَلْبِي ، وَحُبُّهُمْ يَذْهَبُ بِأَلْمِ الْجِرَاحَةِ ، وَطَرَفُوا عَيْنِي وَهُمْ يَزِيدُونَ فِي نَظَرِهَا مَلَاخَةً . وَإِذَا صَدَرَتِ الْإِسَاءَةُ عَنِ الْأَحْبَابِ لَمْ يَكُنْ وَقْرُهَا وَقْرًا ، وَأَصْبَحَتْ وَهِيَ مَنِسِيَّةٌ إِذَا تَجَدَّدَتِ الْإِسَاءَةُ بِالذِّكْرِ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ سَيَّطَرَ دَمِي بِدَمِهِ ، وَجَمِي بِلِحْمِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْأَسْمَاءَ مَعَارِفَ الْأَشْخَاصِ لَكَانَ اسْمِي وَارِدًا عَلَى اسْمِهِ ، وَكَيْفَ أَحْسَنُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ جَبَلَنِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى اللَّيْنِ ؟ أَمْ كَيْفَ أَذْوَدُ النَّفْسَ عَنْهُمْ وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْهُمْ ، وَأَدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ؟ وَمَتَى أُؤْمَلُ مِنْ شَجَرَتِي أَغْصَانًا كَهَذِهِ الْأَغْصَانِ ، وَقَدْ أُصِيبَتْ جَرْتُومُهَا بِالْجِدَادِ (١٥) ؟ وَهَذَا قِيلَ إِنْ الْإِخْوَةَ يَتَعَدَّرُ الْإِعْتِيَاضَ عَنْهُمْ ، وَلَا يَتَعَدَّرُ الْإِعْتِيَاضُ عَنِ الْأَوْلَادِ » آخِرُ هَذَا الْفَصْلِ مَأْخُودٌ مِنْ شِعْرِ ابْنِ الرَّومِيِّ ، وَهُوَ قَوْلُهُ (١٦) :

تَعَزَّيْتَ عَمَّنْ أَثْمَرْتِكَ حَيَاتُهُ      وَوَشَكَ التَّعَزَّى عَنِ ثَمَارِكَ أَجْدَرُ  
تَعَدَّرَ أَنْ تَعْتَاضَ عَنْ أُمَّهَاتِنَا      وَأَبَائِنَا (١٧) وَالنَّسْلُ لَا يَتَعَدَّرُ

غَيْرَ أَنَّ ابْنَ الرَّومِيِّ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي تَعْزِيَةِ إِنْسَانٍ بَيْنَهُ ، فَتَصَرَّفْتُ أَنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَنَقَلْتُهُ إِلَى هَذَا الْفَصْلِ فِي تَضَمُّنِهِ مَعَاتِبَةَ أَخٍ لِإِخْوَتِهِ .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب ، فقلت :

« وَالْعَيْشُ كُلُّ الْعَيْشِ فِي سِنِّ الْحِدَاثَةِ ، وَمَا يَأْتِي بَعْدَهَا فَلَا يُدْعَى إِلَّا بَسْنٌ الْعَثَاثَةِ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ مَصِيفٍ لِلذَّةِ وَلَا مَرْبَعٌ . وَهِيَ نَهَايَةُ الْقُوَّةِ الصَّالِحَةِ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ . فَإِذَا تَجَاوَزَهَا الْمَرْءُ أَشْفَتْ ثَمَارَ عَمْرِهِ عَلَى حَرَصِهَا (١٨) . وَصَارَتْ زِيَادَتُهُ كَزِيَادَةِ التَّصْغِيرِ الَّتِي هِيَ زِيَادَةٌ تَدُلُّ عَلَى نَقْصِهَا . وَأَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ يُدْعَى أَبًا بَعْدَ أَنْ كَانَ يُدْعَى ابْنًا . وَتَقَمَّصَ ثَوْبًا مِنَ الْمَشِيبِ لَا يَجْرُ ثَوْبُهُ خِيَلَاءَ . وَلَا يُزْهَى بِهِ حُسْنًا . وَإِنْ قِيلَ : إِنْ أَحْسَنَ الثِّيَابَ شَعَارَ الْبِيَاضِ ، قِيلَ : إِلَّا هَذَا الثَّوْبَ فَإِنَّهُ مُسْتَثْنَى ، وَيَكْفِيهِ مِنَ الْفِطَاعَةِ أَنْ يَنْظُرَ الْأَحْبَابُ إِلَيْهِ نَظَرَ الْقِتَالِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْحَمُودَ بَعْدَهُ

(١٥) الجداد القطع .

(١٦) ديوان ابن الرومي ١٠٤ .

(١٧) في الأصل « وأبائنا » وهو خطأ ، والتصحيح عن الديوان .

(١٨) الحرص حزمًا على النخل من الرطب تمرًا .

لما استعير له لفظة الاشتعال . ومن الناس من يُدلّس لونه بصبغة الخضاب . وليس ذلك إلا حِداداً على فقدِ الشباب . وهو في فعله هذا كاذب . ولا يخفى أنس الصادق من وحشة الكذاب . وخداع النفس أن تسَلُو عن بثره المعطلة . وقصره المشيد . ويحسن لها الخروج في ثوبٍ مرقع . وهي تراه بعين الثوب الجديد . وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي . وهو قوله :

رَأَيْتُ خَضَابَ الْمَرْءِ بَعْدَ مَشِيهِ حِدَادًا عَلَى شَرَحِ الشَّبِيهِ يَلْبَسُ (١٩)

غير أن في هذا الفصل معاني كثيرة لطيفة لا توجد في كلامٍ آخر .

ومن ذلك قولي في وصف الجود والسماء . وهذا الفصل يشتمل على معاني متعددة ، فمنها قولي في العطاء ، وهو :

شَافَهْتِنِي أَسْبَابُ الْغِنَى بِرُؤْيَتِهِ حَتَّى كَادَتْ تَنْطِقُ ، وَاخْضَرَّتْ أَكْنَانُ مَنْزِلِ بَعْطَائِهِ حَتَّى كَادَتْ تَوْرِقُ ، وَمِنْ فَضِيلَةِ بَرِّهِ أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَإِذَا غَرَسَهُ عِنْدَ إِنْسَانٍ رَبَّ ذَلِكَ الْغَرَّاسِ ، فَلَا يَسْتَكْثِرُ مَا جَادَتْ بِهِ سَحَابِ يَدِهِ ، وَلَا يَمْنَعُهُ عَطَاءُ يَوْمِهِ عَنِ عَطَاءِ غَدِهِ » وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي نواس :

كَانُوا إِذَا غَرَسُوا سَقَوْا وَإِذَا بَنَوْا لَمْ يَهْدُمُوا لِبَنَائِهِمْ آسَاسًا (٢٠)

ومن هذا المعنى أيضاً قولي : « وهو أَخَذَ الْمَكَارِمَ مِنْ سَمَائِهَا وَأَرْضِهَا . وَقَامَ بِنَفْلِهَا فِي النَّاسِ وَفَرَضِهَا ، وَتَحَلَّى بِبَعْضِ أَسْمَاءِ الشُّهُورِ حَتَّى أَصْبَحَ بَعْضُهَا حَاسِدًا لِبَعْضِهَا . فَالْحَرَمُ لِلْعَائِدِ بِحَرَمِهِ . وَصَفَرٌ لِلطَّامِعِ فِي سَعَادَةِ قَدَمِهِ ، وَرَبِيعٌ لِرَائِدِ نَوَالِهِ . وَرَجَبٌ لِأَقْوَالِ عُدَالِهِ » . وهذا مأخوذ من قول الفرزدق :

يَدَاكَ يَدُ رَبِيعِ النَّاسِ فِيهَا وَفِي الْأُخْرَى الشُّهُورُ مِنَ الْحَرَمِ

وقد قال الشعراء في ذلك كثيراً إلا أني أنا تصرّفت في هذا المعنى تصرّفاً لم يتصرّف

فيه أحدٌ غيري .

(١٩) ديوان ابن الرومي ٣٩٧ ورواية الديوان « رأيت خضاب المرء عند مشيه » .

(٢٠) ديوان أبي نواس ١٣٠ وهو من أبيات يكي فيها البرامكة . وقد مرّ بدورهم . فكتبتها على حائط منها .

ومن هذا المعنى ما ذكرته في فصل من كتاب وهو .

ولقد سوى بين أعدائه في البُغضِ وبينَ أموالِهِ فهذه مُعْنِيَةٌ بوقِعِ نِصَالِهِ ، وهذه مُعْنِيَةٌ بصنَائِعِ نَوَالِهِ ، ولو أحبَّ المَالَ لكانَ أحبه إليه ما يبدُّله ، كما أنَّ أحبَّ النَّاسِ إليه مَنْ يَسْأَلُهُ . ومنَ أَحْسَنِ ما سَنَّهُ من الكرمِ أَنَّهُ جَادَ حَتَّى بَدَّلَ رَغَبَ العَافِينَ زُهْدًا ، ورَأَى الحمدَ عِوضًا من الصَّنِيعَةِ فَأَبَى أَن يَعتَاضَ من صَنَائِعِهِ حَمْدًا « وبعضُ هذا المعنى مأخوذٌ من شِعْرِ أَبِي نُوَاسٍ ، وهو :

لَيْتَ أَعْدَائِي كَانُوا لِأَبِي إِسْحَاقَ مَالًا (٢١)

ومن ذلك قولي في وصف القتال ومواطن الحرب ، ووصف الشجاعة والإيجاد ، وما يتعلق بذلك ، ويجرى معه . وهذا الفصل يشتمل على معانٍ مختلفة . فمن ذلك ما ذكرته في وصف العسكر ، وهو :

« فسرنا في غمامة من الكتائب تظللها غمامة من الطيور الأشائب (٢٢) ، فهذه يضمُّها بحرٌ من حديدٍ ، وهذه يضمُّها برٌّ من صعيدٍ ، وما مرَّتَ ببلدٍ إلا أزلتْ أرضه من سوائه ، وألبست نهاره ثوبَ ظلماته ، وبدلت أحراره بعبيده ، وحرَّيره بإمائه ، وكذلك فعلت بمدينة فلانة ، وقد ضرب الأمن عليها أسوارًا ، وبعد عهدها بالنواب فلم تدخل لها ديارًا ، فهي تُخبرُ عن بلهنية الخفض ، ولم ترع عنه بالانتقال ، ولا رأت السيفَ وقد ألقى لونه في ذوائب الأطفال ، فما شعر أهلها إلا وقد رجمها الجيش بكاهله ، ورماه بوابله قبل طله ، وطلَّ السحاب قبل وائله ، وبررت حيلُ القومِ ولها زىُّ فرسانها ، وهي مُستبقةٌ إلى طرادها كاستباقها إلى ميدانها إلا من تتأوَّد القناة من يده بين لَهْدَمَيْنِ (٢٣) ، وتستقلُّ السرج منه ومن جواده بين مُطَهَّمَيْنِ (٢٤) ، فجرت المغاويرُ

(٢١) ديوان أبي نواس ١١٨ وهو من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن عبيد الله الحجي .

(٢٢) الأشائب : الأخطاط ، جمع أشابة بضم الهمزة .

(٢٣) اللهدم على وزن جعفر القاطع من الأسنه .

(٢٤) المطهم على وزن معظم السمين الفاحش السمن . والنحيف الجسم الدقيقه : ضدان . والتام من كل

شيء . والبارع الجمال . والمتفخ الوجه ، والمدور الوجه المحتمعه .



إلى المَعَاوِيرِ ، وتَلَاقَتِ الرِّيحُ بِالْأَعاصيرِ ، وكانَ الطَّعْنُ بَيْنَهُمْ عِنَاقًا ، وَاللَّبْتُ وَفَاقًا .  
 وَسَبَقَ أَلَمُ الْمَوْتِ أَلَمَ الْجِرَاحِ ، وَنَفَذَتْ غَيْرَ مُخْتَصِبَةٍ لِسُرْعَتِهَا أَسِنَّةَ الرِّمَاحِ ، وَحَصَلَ  
 الْقَوْمُ فِي الْقَبْضَةِ ، وَذَمُّوا عَقْمِي النَّهْضَةَ ، وَجِئَءَ بِالْأَسْرَى مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، مَوْقِينَ  
 أَنَّ رُءُوسَهُمْ عَوَّارٌ عَلَى تِلْكَ الْأَجْسَادِ ، وَلَوْ اسْتَطَاعَ رَأْسُ أَحَدِهِمْ أَنْ يَنْكِرَ عُنُقَهُ  
 لِأَنْكَرِهِ ، وَلَا يُوَدُّ - وَهُوَ الْمُعْظَمُ - أَنْ يُقَالَ : مَا أَعْظَمَهُ ! بَلْ يُقَالَ : مَا أَحْقَرَهُ !  
 وَتَصَرَّفَتْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَتْلِ وَالنَّهَابِ ، وَكَانَ لِلسَّيْفِ رِقَابٌ ، وَلِلسَّبِي رِقَابٌ «

في هذا الفصل معانٍ كثيرةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ ، ومنها مَا أَخَذَ مِنْ شِعْرِ الْمُنْتَبِي كَقَوْلِهِ :  
 سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا  
 سَحَابٌ إِذَا اسْتَسَقَّتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ (٢٥)

وكقوله :

وَاسْتَعَارَ الْحَدِيدَ لَوْنًا وَاللَّقَى لَوْنَهُ فِي ذَوَائِبِ الْأَطْفَالِ (٢٦)

ومن ذلك ما ذكرته في وصف المسلوبين ، في فصل من جملة كتاب يتضمن  
 البشري بهزيمة الكفار ، وهو :

« فَسَلِبُوا وَعَاظَتْهُمُ الدِّمَاءُ عَنِ اللَّبَاسِ ، فَهَمُّ فِي صَوْرَةِ عَارٍ ، وَزِيَهُمْ زِيُّ كَاسٍ ،  
 وَمَا أَسْرَعَ مَا خِيَطَ لَهُمْ لِبَاسُهَا الْمُحَمَّرُ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُزَرَ ، وَمَا لَيْسُوهُ حَتَّى  
 لَيْسَ الْإِسْلَامُ شِعَارَ النَّصْرِ الْبَاقِيَّ عَلَى الدَّهْرِ ، وَهُوَ شِعَارُ نَسْجَةِ السَّنَانِ الْخَارِقِ ، لَا  
 الصَّنْعُ الْحَاذِقُ ، وَلَمْ يَغِبْ عَنِ لَابِسِهِ إِلَّا رَيْثُمَا غَابَتْ الْبِيضُ فِي الطُّلَى وَالْهَامِ (٢٧) ،  
 وَأَلْفَ الطَّعْنِ بَيْنَ أَلْفِ الْخَطِّ وَاللَّامِ » .

وهذه معانٍ حسنةٌ رَائِقَةٌ ، ومنها معنًى واحدٌ مأخوذٌ من شعر البُحْتَرِيِّ ، وهو :

سَلِبُوا وَأَشْرَقَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّرَةً فَكَانَهُمْ لَمْ يُسَلِبُوا (٢٨)

(٢٥) ديوان المتنبي ٣/٣٣٨ - جعل الطير التي يطير فوق عسكره سحاباً ، وجعل جيشه سحاباً ، لما فيه من  
 بريق الأسلحة وصبِّ الدماء وصوت الأبطال ، وجعل الأسفل يسقى الأعلى إغراباً في الصنعة .

(٢٦) ديوان المتنبي ٣/٢٠٠ .

(٢٧) الطلى بالضم الأعناق أو أصولها : جمع ضاد بضم الطاء ، أو طلاة بضمها أيضاً .

(٢٨) ديوان البحتري ٢/١٨٩ .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن فتحاً وهو : « أُصْدِرَ هَذَا الْكِتَابُ .  
وَالْفَتْحُ غَضُّ طَرِيٍّ لَمْ تَنْصَلْ حُمْرَةَ يَوْمِهِ ، وَلَا أُغْمِدَتْ سَيْوْفُ قَوْمِهِ . فَسَطُورُهُ مُتْرَبَةٌ  
بِمَثَارِ عَجَاجِهِ ، مِمْتَلِئَةٌ بِحُطِّ ضَرْبِهِ وَإِعْجَامِ زَجَاجِهِ (٢٩)  
وهذا المعنى يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ (٣٠) :

كَتَبْتَ أَوْجُهُهُمْ مَشَقًّا وَنَمْنَمَةً ضَرْبًا وَطَعْنَا بِقَاتِ الْهَامِ وَالصُّلْفَا (٣١)  
كِتَابَةً مَا تَنبَى مَقْرُوءَةً أَبَدًا وَمَا خَطَطْتَ بِهَا لَامًا وَلَا أَلْفًا  
إِلَّا أَنْ أَبَا تَمَّامٍ مِثْلَ آثَارِ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ فِي الْوَجُوهِ بِالْكِتَابَةِ ، وَأَنَا مِثْلْتُ الْكِتَابَةَ  
وَإِعْجَامَهُ بِالضَّرْبِ وَالطَّعْنِ ، فَكَانَتْنِي عَكَسْتُ الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو تَمَّامٍ :  
وهذا مقصود في حلِّ الأبيات الشعرية حسنٌ ، فَإِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَعْنَى مِنْ عَكْسِهِ أَدْقُ  
مِنْ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقَدْ نَبَّهْتُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ مِنْ هَذَا الْبَابِ .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن فتحاً من فتوح الكفار ، وهو :

« وَأَقْبَلْتُ أَحْزَابُ الْكُفْرِ وَهِيَ مَعْتَصِمَةٌ بِصَلِيلِهَا ، وَرَفَعَتْهُ عَلَى أَعْوَادٍ عَالِيَةٍ كَهَيْئَةِ  
خَطِيلِهَا ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْهِ الْهَوَانَ بَعْدَ تِلْكَ الْكِرَامَةِ ، وَأَنَّهُ ذُو شُعْبٍ أَرْبَعٍ ،  
وَالْتَرْتِيبُ نَحْسٌ فِي حُكْمِ النُّجَامَةِ (٣٢) ، وَكَيْفَ تَرْجُو بِكُفْرِهَا ظَهُورًا ، وَلَهَا مِنْهُ مَعْنَى  
الْإِخْتِفَاءِ ، وَاللِّسْلَامِ مَعْنَى السَّلَامَةِ ، وَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ اصْطَفَقَتْ بَيْنَ وَشِمَالِ ،  
وَزَحَفَتْ جِبَالٌ إِلَى جِبَالٍ ، وَكَثُرَتْ النُّفُوسُ عَلَى الْمَنَابِإِ حَتَّى كَادَتْ لَا تَفْقَى بِالْأَجَالِ ،  
وَأَقْدَمَتْ الْحَيْلُ إِقْدَامَ فُرْسَانِهَا ، وَأَظْلَمَ النَّعْفُ فَلَا تَبْصُرُ إِلَّا بِأَذَانِهَا ، وَنَالَتْ النَّحُورَ ثَارَهَا  
مِنْ كُعُوبِ الرِّمَاحِ ، وَاشْتَكَّتِ الْأَسْنَةُ فَلَا طَرِيقَ بَيْنَهَا لِمَهَبِّ الرِّيَّاحِ ، وَاسْتَوْصَلَتْ شَجَرَةَ  
الْكَافِرِينَ بِالْقَطْعِ لَا بِالْجِدَادِ ، وَحَالَ حُدُّ السَّيْفِ دُونَ حَدِيدِ الْأَصْفَادِ ، وَنُقِلُوا إِلَى

(٢٩) الزجاج بكسر الزاى جمع زج بضمها : الحديدية في أسفل الرمح .

(٣٠) ديوان أبي تمام ٢٠٣ .

(٣١) المشق مد الحروف ، والصلف جمع صليف ، وهو عرض العنق .

(٣٢) أراد بها صناعة التنجيم . قال ابن أبي الحديد : إن لفظة « النجامة » رديئة مستغفلة على أنا لا نعرف

صحتها وجوازها . ولا سمعناها اسماً للتنجيم ولا مصدرأً - انظر الفلك الدائر على المثل السائر ٥٠ .

جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا وَبُئْسَ الْجِهَادِ ، وانقلبَ المسلمونَ وقد ملثوا الأعداءَ نصرًا ، والصحائفَ  
أَجْرًا ، والأيدىَ وَقْرًا ، والقلوبَ جَدَلًا ، والألسنةَ شُكْرًا وكان ذلكَ اليومُ في الأيامِ  
عَلَمًا ، وفي الأقسامِ قَسَمًا ، ولم يرهَ الزمانَ منسوبًا إليه إلا رَاجِعَ شَبَابًا بعدَ أن نَاهَزَ  
هَرَمًا .

في هذا الفصل شيءٌ من معاني الشعر ، وذلك من قولِ أبي الطَّيِّبِ المَتَنِيِّ (٣٣) .  
أَتَاهُمْ بِأَوْسَعٍ مِنْ أَرْضِهِمْ طِوَالَ السَّيْبِ قِصَارَ العُسْبِ (٣٤)  
تَغِيْبُ الشَّوَاهِقُ فِي جَيْشِهِ وَتَبْدُو صِغَارًا إِذَا لَمْ تَغِبْ  
وَلَا تَعْبُرُ الرِّيحُ فِي جَوِّهِ ذَا لَمْ تَخْطِ القَنَا أَوْ تَثِبْ  
ومن قولِهِ أَيضًا (٣٥) :

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ عُبَارُهُ فَكَانَمَا يُبْصِرُنَ بِالآذَانِ

ومن ذلك ما ذكرته في الإنجاد واجابة الصريح ، وهو :

إِذَا اسْتُصْرِحَ أَصْرَخَ بَعْزِمٍ غَدَّتْهُ صُحْبَةُ الجَيْشِ عَنِ لِدَّةِ العَيْشِ ، فَهُوَ يَسْتَعْدِبُ حَرَّ  
الثغورِ على بَرْدِ الثُّغُورِ ، وَيَلْهُوُ بِالْبَيْضِ الذُّكُورِ عَنِ بَيْضِ الحُدُورِ ، وَلَا طِيبَ عِنْدَهُ إِلَّا  
رِيحُ العَجَاجِ ، وَلَا عِنَاقُ إِلَّا أَطْرَافُ الرِّجَاجِ ، وَلَا أَرَبَ لَهُ فِي الرُّقَادِ ، إِلَّا عَلَى  
صَهَوَاتِ الجِيَادِ ، فَعَسَكَرُ قَلْبِهِ أَمْضَى فِي الوَعْيِ مِنْ عَسْكَرِ ، وَنَهْجِدَةُ بِأَسِهِ تَأْتِي لِقاءَ  
الأقْرَانِ فِي دِرْعٍ أَوْ مِغْفَرٍ (٣٦) وهذه المعاني مأخوذة من أبيات الحياصة ، ومن شعر مُسْلِمِ  
بن الوليدِ .

(٣٣) ديوان المتني ١٠١/١ .

(٣٤) السيب : شعر الناصية والعرف والذنب ؛ والعسب جمع عسيب ؛ وهو منبت الذنب من الجلد  
والعظم ؛ والعسيب من السعف ؛ فوق الكرب لم ينبت عليه خوص ، والعسيب : اسم جبل . يريد أن الدمستق  
ملك الروم أتاهم بخيل أوسع من الأرض ؛ والمستحب في الخيل ما ذكر : أن يطول شعر الذنب ، ويضم  
عظمه .

(٣٥) ديوان المتني ١٧٦/٤ . والجحفل الجيش العظيم ؛ مأخوذ من تحجفل القوم ، أى اجتمعوا .

(٣٦) المغفر على وزن منير : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح .

ون ذلك ماذكرته في وصف المخبر دون المنظر ، وهو :

« إِذَا سَمَوْتُ لِأَمْرٍ فَكُنْ وَاحِدًا فِي مَكَانِكَ ، وَلَا تَرْضَ بِكَثْرَةِ الشَّرَكَاءِ فَيُقَالُ : فُلَانٌ مِّنْ أَقْرَانِكَ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الْحَرْبَاءِ الَّذِي هُوَ دَوْبِيَّةٌ حَقِيرَةٌ الشَّانِ ، ضَعِيفَةٌ الْأَرْكَانِ . فَإِنَّهُ ارْتَفَعَ فِي هَوَاهُ عَنِ الْأَرْضِ وَأَنْسَاهَا ، إِلَى السَّمَاءِ وَشَمْسِيهَا ؟ وَقَالَ : لَا أُحِبُّ مَنْ تُفْسِدُ الْأَيَّامَ مِنْ حُسْنِهِ ، وَلَا مِنْ أَحَدٍ بِسَمَةِ خَلْمِهِ <sup>(٣٧)</sup> وَلَا خِدْنِهِ ، وَالهِمَمُ لَيْسَتْ مَنُوطَةً بِجَهَارَةِ الْعِنَاظِرِ ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَى الْخَبْرِ الْمُسْتَرِّ فِي الْأَفْعَدَةِ الْبَاطِنَةِ لَا عَلَى الظَّوَاهِرِ ، وَمِنْ هَاهُنَا قِيلَ إِنَّ وَضَاعَةَ النُّفُوسِ أَنْضَرُ مِنْ وَضَاعَةِ الْأَجْسَادِ ، وَرَقْمُ الشِّيمِ أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ الْأَبْرَادِ » وَأَخْرَجَ هَذَا الْفَصْلَ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ سُحَيْمِ عَبْدِ بَنِي الْحَسْحَاسِ <sup>(٣٨)</sup> :  
إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَفَنَفْسِي حَرَّةٌ كَرَمًا      أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنْ أَبْيَضَ الْخُلُقُ <sup>(٣٩)</sup>  
إِلَّا أَنَّ الْفَصْلَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى غَرِيبًا لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ .

ومن ذلك ماذكرته في الحسد في فصل من كتاب ، وهو :

« حَاسِدٌ سَيِّدِنَا يَنْظُرُ إِلَى زَهْرَةٍ دُنْيَاهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ ، وَهُوَ كَالنَّاظِرِ إِلَى الْأَطْوَاقِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْجِيدِ ، وَلَا يَدْرِي أَنَّ الْجِيدَ أَحْسَنُ مِنْ أَطْوَاقِهِ ، وَلَوْ قَاسَ الدُّنْيَا بِالْاسْتِحْقَاقِ لَذَهَبَ الْحَسَدُ مِنْ صَدْرِهِ ، وَقَالَ : مَالِي أَحْسَدُ مِنْ لَمْ يَنْتَهَ قَدْرُ دُنْيَاهُ إِلَى مِعْشَارِ قَدْرِهِ ؟ »

ومن ذلك ماذكرته في صدر كتاب يتضمن الإعذار عن تواتر المكاتبات ، وهو :

« إِذَا اعْتَذَرَ مِنْ انْقِطَاعِ الْكُتُبِ ، اعْتَذَرَ الْخَادِمُ مِنْ اتِّصَالِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ وَارِدَةً عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ الْبَابِ الْكَرِيمِ لَخَافَ مِنْ إِمْلَاطِهَا ، وَقَدْ عُدَّ احْتِمَالُ تَثْقِيلِهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَيَادِي

(٣٧) الخلم بالكسر الصديق والصاحب .

(٣٨) سحيم عبد بنى الحسحاس من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان أسود شديد السواد . وبنى الحسحاس من بنى أسد بن خزيمه . قال المبرد : كان عبد بنى الحسحاس يرتضخ لكنة حبشية . وقتل سحيم في خلافة عثمان رضي الله عنه . لما قيل من تغزله في امرأة من بنى عبد الحسحاس .

(٣٩) البيت في خزنة الأدب ٣٨٣/١ .

التي أنقلته ، وأراد أن يجرى معها بسوابق شكره فأعجلته وما أمهلته ، وهو الآن مرتهن بين قديم وجديد ، وأصبح كخرأش إذ تكاثرت عليه الطباء فلم يدّر لكثرتها ما يصيد ، فإن أمسك سيّدنا من أياديه ، وإلا فليفضل على الشكر بالأنظار ، وليعلم أن ذمة وفائه كذمة ديوان المال في الإعسار .

هذا فصل في هذا المعنى قلما يؤتى بمثله ، وفيه معنى واحد من قول الشاعر :

تكاثرتِ الطّباءُ على خِراشٍ فما يدري خِراشٌ ما يصيدُ

ومن ذلك ما ذكرته في استطلاع مودة ، فقلت :

« كنتُ عنده بالمنزلة التي آمنُ بها ما أجنبيهِ فصرتُ أخافُ ما لم أجنه ، وكان لا يقبلُ عليَّ شهادةَ عينه ، فأصبح الآن يقبلُ عليَّ شهادةَ أذنه ، لكن لم يجعل الله القلوبَ بين أصبعين من أصابعه إلا ليذهبَ بها كلَّ واد ، ومن هاهنا كانتُ تنتقلُ من وادٍ إلى قلى ، ومن قلى إلى وادٍ ، ولا شك أن لها بين الحالتين عمراً تنتهى إليه كما تنتهى أعمارُ الأجساد ، والصبرُ خيرٌ ما استعملُ في جفأ الإخوان ، والماء إذا جرى في مكانٍ ثم انحرفَ عنه فلا بدَّ أن يعودَ إلى ذلك المكان .»

وبعض هذا مأخوذٌ من شعر ابن الرومي :

عهدتُكَ لا تعتدُّ بالعينِ شاهداً عليَّ فلم أصبحتُ تعتدُّ بالأذن<sup>(٤٠)</sup>

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الملوك على يد بعض العفاة ،

وهو :

« الشيم الكريمة للإنسان ، بمنزلة المسك في سرر الغزلان ، غير أن طيب هذه يعبق بالأذنان ، وطيب هذه يعبق بالأذان ، وقد جعل تفاوت المزية بين هذين الطيبين فرقاً ، فأحدهما يبقى دائماً ولا يذهب ، والآخر يذهب ولا يبقى . ونصيب مولانا من الطيب الباقي نصيب زكت معادنه ، وكثرت خزائنه ، وسارت في الأرض محاسنه ،

(٤٠) ديوان ابن الرومي ٤٣١ ، وهو من قصيدة قالها مستعظفا ومستبطنا أبا الحسن محمد بن أبي سلافة في

مكاتبته إياه .

وَرَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ إِلَى مَحَلٍّ يَبْعُدُ شَأُوهُ عَلَى الطَّالِبِ ، وَلَا يُرَى إِلَّا فِي لِسَانِ خَاطِبٍ ، وَهُوَ مَا اسْتَشْنَى مِنْ خَلْقِ النَّاسِ الَّذِي هُوَ مِنْ طِينٍ لَا زَبَّ (٤١) . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُرَوَّنَ أَشْبَاهًا مَاعِدَاهُ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يُقَرُّ بِفَضْلِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ حُسَّادِهِ أَوْ عِدَائِهِ ، وَقَدْ أَصْبَحُوا وَهُمْ يَقُولُونَ لَدَيْهِ حِينَ يَكْتُمُونَ ، وَيَقُولُ كُلُّ مَنْهُمْ لِمُصَاحِبِهِ : « أَفَسِحِرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (٤٢) » .

هذا الفصل وإن تضمن شيئاً من القرآن الكريم ، فليس المراد هاهنا القرآن الكريم ، بل منه شيء مأخوذ من الشعر ، وهو قول المتنبي (٤٣) :

النَّاسُ مَالِمٌ يَرَوُّكَ أَشْبَاهُهُ      وَالذَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الخمر ، وهو :

« الخمر لا تفي لذة إسكارها [ إلا ] بتغيض خمارها . فهي خرقة البيان بذيئة اللسان . وتأنيثها يدلُّك أنها من ناقصات العقول والأديان . وقد عرف منها سنة الجور في أحكامها ، ولولا ذلك لما استأثرت من الرؤوس بجناية أقدامها » .

وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وأطف ، لأنه قال :

ذَكَرْتُ حَقَائِدَهَا الْقَدِيمَةَ إِذْ عَدْتُ      وَهَنًا تُدَاسُ بِأَرْجُلِ الْعَصَارِ  
لَأَنْتَ لَهُمْ حَتَّى انْتَشَوْا فَتَحَكَّمْتُ      فِيهِمْ فَنَادَتْ فِيهِمْ بِالنَّارِ

وكذلك قلت في وصفها أيضا ، وهو :

« مُدَامَةٌ تَبْقَى خَوَاطِرَ الْهُمُومِ ، وَتَسْرَى مَسْرَى الْأَرْوَاحِ فِي الْجُسُومِ ، وَتَشْهَدُ بَأَنَّ الْكَرْمَ مَسْتَمَدًّا مِنْ مَاءِ الْكَرُومِ . وَيَتَمَثَّلُ حَبِيبُهَا نَجُومًا ، إِلَّا أَنَّهَا مُضَلَّةٌ وَالْهِدَايَةُ لِلنُّجُومِ »  
وبعض هذا مأخوذ من قول أبي نواس :

(٤١) تضمين قول الله تعالى « فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب » سورة الصافات : آية ١١ ، واللازب : اللازق .

(٤٢) سورة الطور : آية ١٥ .

(٤٣) ديوان المتنبي ٢٦٣/٤ وهو مطلع قصيدة بمدح بها أبا العاثرة . وقد أراد سفيراً .

إِذَا هِيَ حَلَّتْ فِي اللَّهَاءِ مِنَ الْفَتَى دَعَا هَمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلٍ (٤٤)  
وما زال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى سُمج ، لكن الذي ذكرته بعد هذا  
المعنى من محاسن المعاني في وصفها .

وكذلك ما ذكرته في وصفها ، وهو :

« الخمر كالعذراء في نفورها ، وملازمة خدورها ، ولهذا تسمت من نكاح المزاج ،  
وتصخب لمس الماء صحب الأبقار لمس الأزواج ، ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف  
إكليلاً على رأسها ، وكذلك شأن العرائس عند زفافها إلى أعراسها » .  
وهذه الماثلة بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيري ، وإنما  
وُصِفَتْ بأنها بكر ، كقول أبي نواس (٤٥) :

فَقَلْتُ لَشَيْخٍ مِنْهُمْ مُتَكَلِّمٌ لَهُ دِينَ قَيْسٍ فِي نُطْقِهِ كُفْرٌ (٤٦)  
أَعِنْدَكَ بِكَرٍ مَرَّةً الطَّعْمِ قَرَفٌ صَنِيعَةٌ دِهْقَانٍ تَرَاحَى لَهُ الْعُمُرُ (٤٧)  
فَقَالَ عَرُوسٌ كَانَ كِسْرَى رَبِيهَا مُعْتَقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسُّتْرُ  
وَوُصِفَتْ بِالنِّكَاحِ وَالزَّوْجِ ، كَقَوْلِهِ أَيْضًا (٤٨) :

وَقَهْوَةٌ كَالْعَقِيقِ صَافِيَةٌ يَطِيرُ مِنْ كَاسِهَا لَهَا شَرٌّ  
زَوْجَتُهَا الْمَاءَ كَمَا تَدِلُّ لَهُ فَاْمْتَعَضَتْ حِينَ مَسَّهَا الذَّكْرُ

(٤٤) ديوان أبي نواس ٣١٠ ورواية الديوان . إذا ما أتت دون اللهاء من الفتى . واللهاء اللحمية المشرفة على  
الخلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم .

(٤٥) ديوان أبي نواس ٢٨٠ .

(٤٦) موضع هذا البيت في الديوان :

حططنا على خمارها جنح ليلة فلاح لنا فجر ولم يطلع الفجر

(٤٧) رواية الديوان . وأبرز بكراً مرة الطعم قرقفاً .

والقرقف : على وزن جعفر الخمر يرعد عنها صاحبها . والدهقان بالكسر والضم القوى على التصرف مع  
حدة ، والتاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم ، معرب . والجمع دهاقنة ودهاقين . والاسم الدهقنة .

(٤٨) ديوان أبي نواس ٢٨٩ . والبيت الثالث بعد هذين البيتين :

كذلك البكر عند خلوتها يظهر منها الحياء والخفر

ومن ذلك ما ذكرته في الخزم ، وهو :

« لا ينبغي للحازم أن يساور المورد المؤذن بمصيقه ، وإن أفضى الصدر إلى رحيبه ، فإن توفى الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه ، ولندع قول من يتعد على تل السلامة ، ثم يلبس الكتائب بالكتائب ويقول ليس للزم إلا تمام الصدور ، وليس انه تمام العواقب » .

بعض هذا مأخوذ من شعر أبي تمام (٤٩) :

وركب كأطراف الأسنه عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه  
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الرأى والكيد وهو :

« أخفى على العدو كيدَه حتى لم يدع كائداً ، وأعمى عليه سلوك الطريق حتى ظنه حائداً ، فسبوه تسطو على بعدها ، ولا تقطع إلا وهي في غمدها » .

وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبي تمام ، وهو (٥٠) :

سكن الكيد فيهم إن من أعظم م كيدٍ ألا تسمى أريباً

وكذلك قولى في هذا المعنى وهو :

« أخذ بسمع العدو وبصره ، وسد مطلع وزده وصدده ، فidah مغلوله مع أنها مطلقه السراح ، ومقاتله بادية على أنها شاكية السلاح » .  
وهذا المعنى ينظر إلى المعنى الذى قبله .

(٤٩) ديوان أبى تمام ٤٤ من قصيدة يمدح بها أبى العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

ومطلعها :

أهن عوادى يوسف وصواجه فعزماً فقدماً أدرك السؤل صاحبه

(٥٠) ديوان أبى تمام ٢٧ . ورواية الديوان « إن من أعظم إرب » والإرب الحاجة أو الدهاء والأريب :

العافل . والبيت من قصيدة يمدح بها أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى . وأولها :

من سجايا الطلول ألا تجيباً فصواب من مقلتى أن تصوبا



وكذلك قولى أيضاً ، وهو :

« بَيْتُ رَأْيِهِ الْعَدُوُّ قَبْلَ جَيْشِهِ وَتَلْقَاهُ يَطِيْشُ قَلْمَهُ ، الَّذِي كُلُّ الْحِلْمِ فِي طَيْشِهِ ، فَإِذَا أَطَلَّتْ وَجْوهَ الْآرَاءِ كَانَ رَأْيُهُ لَهَا صَبَاحًا ، وَإِذَا جُهِّزَتِ الْجَحَافِلُ لِحَرْبٍ كَانَ قَلْمُهُ لَهَا سِلَاحًا » .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البُحْتَرِيِّ :

وَهُوَ الْمَرْءُ مَا غَزَا بِلَدًّا بِالرَّأْيِ إِلَّا كَفَاهُ غَزَا الْجُنُودِ (٥١)

ومن ذلك ما ذكرته في وصف السير والركاب والخيول والقفار وما يتعلق بها فإنه ما يتعلق بالسير وهو :

رَكِبَ ظَهَرَ اللَّيْلِ يُبَارِي مَسِيرَ شَهْبِهِ بِمَسِيرِ أَشْهَبِهِ ، وَيَسْتَقْرِبُ بَعْدَ الْمَدَى فِي نَيْلِ مَطْلَبِهِ ، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ تَقْرِي أَدِيمَ الْغِيَاهِبِ ، وَهَذَا يَقْرِي أَدِيمَ السَّبَاسِبِ (٥٢) .

وهذا مأخوذ من قول المتنبي :

يُبَارِي نُجُومَ الْقَدْفِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُنَّ وَرَدٌ وَأَذْهَمٌ (٥٣)

ومن هذا المعنى أيضا قولى وهو :

« اتَّخَذَ اللَّيْلَ ظَهْرًا ، وَاسْتَلَانَ خُشُونَةَ الْمَسْرَى ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْدِفُ صَبْعَةَ سَوَادِهِ بِصَبْعَةِ جَوَادِهِ ، حَتَّى بَدَتْ فِي أَدِيمِ اللَّيْلِ شِيَاتٌ صَبَاحِهِ ، وَشَابَهُ الْأَذْهَمَ فِي غَرَّتِهِ وَأَوْضَاحِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَحْذَا أَحَدَهُمَا فِي رَجِيلِهِ ، وَأَحْذَا الْآخَرَ فِي نَزْوِهِ » .

وهذا المعنى ينظر إلى الذى قبله ، وفيه من شرف الصنعة مالا خفاء به .

(٥١) هو مثل قوله :

فهى من عزم رأيه فى جنود فى من حولها مقام الجنود

(٥٢) السباسب : جمع سبب . وهو المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة .

(٥٣) ديوان المتنبي ٣/٣٥٣ . ورواية الديوان « تبارى » بالناء . ونجوم القذف : هى التى تقذف بها

الشياطين . قال الله تعالى « ويقذفون من كل جانب دحورا » . والورد : الفرس الأحمر .

ومن ذلك ما ذكرته أيضا في فصل من كتاب وهو :

« سِرْتُ وَتَحْتِي بِنْتُ قَفْرَةَ لَا يَذْهَبُ السُّرَى بِجِمَاحِهَا ، وَلَا تَسْتَزِيدُ الْحَادِيَّ مِنْ مِرَاحِهَا ، فَهِيَ طَمُوحٌ بِأَثْنَاءِ الزَّمَامِ ، وَإِذَا سَارَتْ بَيْنَ الْإِكَامِ قِيلَ هَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنَ الْإِكَامِ . وَلَمْ تُسَمَّ « جِسْرَةٌ » (٥٤) « إِلَّا لِأَنَّهَا تَقْطَعُ عَرْضَ الْفَلَاةِ كَمَا يَقْطَعُ الْجِسْرُ عَرْضَ الْمَاءِ ، وَلَا سُمِّيَتْ « حَرْفًا » (٥٥) « إِلَّا لِأَنَّهَا جَاءَتْ لِمَعْنَى فِي الْعَزَائِمِ لِامْتِنَانِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ ، وَخَلْفَهَا جَنِيبٌ مِنَ الْخَيْلِ يُقْبَلُ بِجَذَعٍ وَيُدْبِرُ بِصَخْرَةٍ . وَيَنْظُرُ مِنْ عَيْنِ جَحْظَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأَذُنِ حَشْرَةٍ ، وَيَجْرِي مَعَ الرِّيحِ الزَّرْعَرِ ، فَيَدْرُهَا وَقَدْ ظَهَرَ فِيهَا أَثَرُ الْقَتْرِ ، وَمَا قِيدَ خَلْفَهَا إِلَّا وَهُوَ يَهْتَدِي بِهَا فِي الْمَسَالِكِ الْمُضِلَّةِ ، وَيَطُّ عَلَى أَثَرِهَا ، فَيَرْقُمُ وَجْهَ الْبَدْوَرِ بِأَشْكَالِ الْأَهْلَةِ ، هَذَا وَاللَّيْلُ قَدْ آتَى جِرَانَهُ » (٥٦) « فَلَمْ يَبْرَحْ ، وَالْكَوَاكِبُ قَدَرَكَدَتْ فِيهِ فَلَمْ تَسْبَحْ . وَأَنَا أَوْدُ لَوْ زَادَ طَوْلُهُ ، وَلَمْ تَظْهَرْ غَرَّةَ أَدْهَمِهِ وَلَا حَجُولَهُ ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ أَدْنَى لِلْبُعْدِ وَأَكْتَمُ لِلْأَسْرَارِ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ النَّبِيُّ بِأَنَّ الْأَرْضَ تَطْوَى فِيهِ مَا لَا تَطْوَى فِي النَّهَارِ . وَمَا زِلْتُ أُسِيرُ بِرَيْدِهَا تَنْوُّهُ بِهِ حَتَّى كَادَ يَنْضَوُلُونُ السَّوَادَ ، وَظَهَرَ لُونُ السَّرْحَانِ ، فَأَغَارَ عَلَى سَرْحِ السَّمَاءِ كَمَا يَغْيُرُ السَّرْحَانُ عَلَى سَرْحِ النَّقَادِ » (٥٧) ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَهَلَتْ الْعَيْنُ مِنَ الْكُرَى نَهْلَةَ الطَّائِرِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى الظَّهْرِ السَّائِرِ » .

في هذا الفصل كلُّ مليحةٍ من المعاني ، ولو لم يكن في هذا الكتاب سيواه ، لكان كافياً ، وبعضه مأخوذ من الشعر ، كقول أبي تمام :

طَمُوحٌ بِأَثْنَاءِ الزَّمَامِ كَأَنَّمَا يَخَالُ بِهَا مِنْ عَدْوِهَا طَيْفَ جِنَّةٍ (٥٨)  
وكقوله :

بِالشَّدَقِيَّاتِ الْعَتَاقِ كَأَنَّمَا أَشْبَاحُهَا بَيْنَ الْإِكَامِ إِكَامٍ (٥٩)

(٥٤) الجسرة : العظم من الإبل . (٥٥) الحرف : الناقة العظيمة .

(٥٦) جران البعير : مقدم عنقه من مذمحه إلى منحره .

(٥٧) النقاد جمع نقد جنس من الغنم قبيح الشكل .

(٥٨) ديوان أبي تمام ٦٠ والناقة الطموح التي ترفع يديها في السير .

(٥٩) ديوان أبي تمام ٢٨ . والشذقيات يراد بها النوق الكرام . والإكام التلال .

ومن ذلك ما ذكرته في النسب في فصل من كتاب وهو :

« لهُمْ نَسَبٌ لَا تَدْخُلُهُ لَامُ التَّعْرِيفِ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ لَا يَجْرِي عَلَى سَنَنِ التَّوْقِيفِ ، فَإِذَا ذُكِرَ أَوَّلُهُ وَقَفَّتْ مِنْ عَرَفَانِهِ عَلَى طَلَلٍ ، وَوَجَدْتَهُ مُهْمَلًا فِي جُمْلَةِ الْهَمَلِ ، وَإِنْ قِيلَ : إِنَّهُ مِنْ نَجْمِ السَّمَاءِ ، قُلْتُ . لَكِنَّهُ لَا يَجْرُجُ عَنِ الثَّوْرِ أَوْ الْحَمَلِ ، فَمَا أَزْهَفَ لَوْصِفِهِ لِسَانَ الْإِنْبَاءِ ، وَلَا اقْتَدَحَ لَهُ زِنَادٌ خَاطِرٍ إِلَّا كَبَا ، وَهُمْ مِنْهُ كَأَوَى الَّذِي يَرَى النَّاسَ لَهُ ابْنًا ، وَلَا يَرُونَ لِابْنِهِ أَبًا » .

وهذا مِنْ أَعْرَبِ مَا يُؤْتَى بِهِ فِي ذِمِّ النَّسَبِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَوْلِيدِ الْمَعَانِي الَّذِي يُسَمَّى الْكَيْمِيَاءِ ، وَبَعْضُهُ مُسْتَوْلِدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ فِي هِجَاءِ الْخَصِيبِ (٦٠) :

وَمَا خَبِرُهُ إِلَّا كَأَوَى يَرَى ابْنَهُ وَلَمْ يَرِ آوَى فِي حُزُونٍ وَلَا سَهْلٍ (٦١)

فَأَبُو نَوَاسٍ ذِمَّ خَبِرَ (٦١) الْخَصِيبِ فِي عَدَمِ رُؤْيَتِهِ ، وَأَنَا نَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَى النَّسَبِ ، فَجَاءَ اللَّطْفَ وَأَحْسَنَ وَاللَّيْقَ ، وَأَدْخَلَ فِي بَابِ الصَّنْعَةِ . وَإِذَا حُقِّقَ النَّظَرُ فِيمَا ذَكَرَهُ أَبُو نَوَاسٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَوْجَدْ مَنَاسِبًا ، فَإِنَّ الْخَبِرَ (٦٢) فِي عَدَمِ رُؤْيَتِهِ لَا يُحْمَلُ عَلَى ابْنِ آوَى . وَإِنَّمَا الْمَنَاسِبَةُ تَقَعُ فِي النَّسَبِ مِنْ أَجْلِ ذِكْرِ الْإِبْنِ وَالْأَبِ .

ومن ذلك ما ذكرته في ذم قوم وهو فصل من كتاب فقلت :

« تَرَكْتُ قَوْمًا لَمْ يَنْقَعُوا صَدَى ، وَلَمْ يَجْرُوا إِلَى مَدَى ، فَأَعْرَاضُهُمْ نَكْرَةُ الْعَارِفِ ، وَأَمْوَالُهُمْ حَنْظَلَةُ النَّاقِفِ ، وَلَا تُمْطِرُ سُحُبُهُمْ عَلَى كَثْرَةِ مَائِهَا ، وَلَا تَرَكُوا الزَّرِّيْعَةَ بَارِضِهِمْ عَلَى نَمَائِهَا » .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضي (٦٣) .

(٦٠) هكذا روى ابن الأثير . والذي في ديوان أبي نواس (ص ١٧١) أن هذا الشعر مهاجبه إسماعيل بن أبي سهل بن نوحته . وقبل هذا البيت :

على خبز إسماعيل واقية البخل فقد حل في دار الأمان من الأكل

وبعده :

وما خبزه إلا كعقواء مغرب تصور في بسط الملوك وفي المثل

(٦١) في الأصل « وما خيره » بالراء . وهو تصحيف .

(٦٢) في الأصل « خبر » بالراء ، وهو تصحيف .

(٦٣) هو أبو الحسن محمد بن الحسين الرضي العلوي الموسوي . نقيب أشراف بغداد . وأشعر بني هاشم .

توفى سنة ٤٠٦ هـ عن خمس وأربعين سنة .

تَرَكْتُ أَنَا سَاءَ لَمْ يَهْشُوا لِمِنَّةٍ      وَلَمْ يَنْقَعُوا عَلَّ الظَّمَاءِ الخَوَامِيسِ  
 عَلَى القُرْبِ فِيهِمْ إِنِّي غَيْرُ طَامِعٍ      وَمِنْكَ عَلَى بُعْدِ المَدَى غَيْرُ آيِسِ

ومن هذا الباب أيضا قولي وهو :

« تَرَكْتُ قَوْمًا يَسْأَلُونَ الحَبِيبَ ، وَيَمْلُونَ القَرِيبَ ، وَلَا يَرْعَوْنَ مَنْ يَرْعَاهُمْ ، وَلَا يَدِيرُ  
 اللَّبَنُ عَلَى مَرْعَاهُمْ ، فَتَوَالَهُمْ تَحَايَا ، وَأَعْرَاضُهُمْ ضَحَايَا ، وَمِنْ أَحْسَنِ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ  
 يَعَاقِبُونَ عَلَى الظَّنَّةِ ، وَلَا يَرْتَاخُونَ لِمِنَّةٍ ، فَالذَّرَائِعُ لَدَيْهِمْ مَدْفُونَةٌ ، وَالصَّنَائِعُ غَيْرُ  
 مَسُونَةٌ » .

وبعض هذه المعاني مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي (٦٤) :

رَأَيْتَكُمْ لَا يَصُونَ العَرَضَ جَارِكُمْ      وَلَا يَدِيرُ عَلَى مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ  
 جَزَاءَ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَلٌ      وَحِظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمْ ضَغْنٌ

ومن ذلك ما ذكرته في الحث على الاغتراب وهو :

« لَوْلَا التَّغْرِبُ لَمَا ارْتَقَتْ بَنَاتُ الأَصْدَافِ إِلَى شَرَفِ الأَعْنَاقِ ، وَلَا ارْتَقَى تَرَابُ  
 الأَحْجَارِ إِلَى نُورِ الأَخْدَاقِ » .

وكذلك قولي في هذا المعنى وهو :

« فِي الانتقالِ تَنْوِيهٌ لِحَامِلِ الأَقْدَارِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يُكْسَ الهَلَالُ حُلَّةَ الأَبْدَارِ ،  
 وَالمُهَنْدِلُ الرُّطْبُ حَطْبٌ فِي أوطَانِهِ ، وَالمِسْكُ دَمٌ فِي سُرْرِ غَزْلَانِهِ ، وَلَوْلَا فِرَاقُ السَّهْمِ  
 وَتَرَهُ لَمْ يَحِظَّ بِفَضْلِ الإِصَابَةِ ، وَلَوْلَا فِرَاقُ الوَشِيحِ (٦٥) مَنِتَبَهُ لَمْ يَتَحَلَّ بِعِزِّ اللِّسَانِ وَلَا  
 شَرَفِ الذُّوَابَةِ » .

وهذا الفصلُ فصلٌ من القولِ في مَعْنَاهُ ؛ وَمِمَّا لَمْ يُنْبِشْ لِلخَوَاطِرِ ابْتِنَاءُ مَبْنَاهُ ، فَهِنَّ  
 مَا هُوَ مَأخُودٌ مِنَ الشَّعْرِ ، وَمِنْهُ مَا سَنَحَ بِهِ الخَاطِرُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ، وَهُوَ يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ .

(٦٤) ديوان المتنبي ٢٣٦/٤ من قصيدته التي مطلعها :

بِمِ التَّلَلِ ؟ لَا أَهْلَ وَلَا وَطَنٍ      وَلَا نَدِيمٍ وَلَا كَأْسَ وَلَا سَكَنٍ

(٦٥) الوشيج : شجر الرماح .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الأيام وهو :

« أيام تعدُّ بأعوامٍ لِقَصْرِ أَعْمَارِهَا ، وشُهُورٌ لا يشعُرُ بِأَنصَافِهَا ولَأَسْرَارِهَا (٦٦)   
 فالأوقات بها أصائل ، والمحاسنُ فيها شمائل ، والمآربُ في سَاعَاتِهَا رِيَاضٌ فِي خَمَائِلِ ، فَمَا   
 أَدْرِي أَهْيَ خَيَالَاتُ أَحْلَامِ غَزَّتْ ، أَمْ أَحَادِيثُ أَمَانٍ مَرَّتْ ؟ »   
 وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة (٦٧) :

شُهُورٌ يَتَقْضِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِأَنصَافٍ لَهْنَ وَلَا سِرَارِ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الإخوان وهو :

« لَيْسَ الصَّدِيقُ مِنْ عَدَّ سَقَطَاتِ قَرِينِهِ ، وَجَازَاهُ بَغْتَهُ وَسَمِينِهِ ، بَلِ الصَّدِيقُ مِنْ   
 مَا شَى أَخَاهُ عَلَى عَرَجِهِ ، وَاسْتَقَامَ لَهُ عَلَى عَوَجِهِ ، فَذَلِكَ الَّذِي إِنْ رَأَى سَيْئَةً وَطِئَهَا   
 بِالْقَدَمِ ، وَإِنْ رَأَى حَسَنَةً رَفَعَهَا عَلَى عِلْمٍ . »   
 وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة (٦٨) .

إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرِحًا عَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا   
 إِلَّا أَنَّ الَّذِي ذَكَرْتَهُ ضِدُّ هَذَا الْمَعْنَى ، وَقَدْ يُسْتَخْرَجُ الْمَعْنَى مِنْ ضِدِّهِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ   
 مِمَّا يُسْتَخْرَجُ مِنْ نَفْسِهِ .

ومن هذا قولى أيضا وهو :

« لَيْسَ الصَّدِيقُ مِنْ صَرَّى (٦٩) أَحْلَافٍ وَوَدَّهْ ، وَغَشَّ فِي صَفْقَةِ عَهْدِهِ ، بَلِ   
 الصَّدِيقُ مَنْ لَا تُرَدُّ سِلْعُهُ وَوَدَّهْ بِإِقَالَةٍ وَلَا عَيْبٍ ، وَلَا تُخَصَّصُ مَحَافِظُهُ إِخْوَانِهِ بِشَهَادَةِ دُونِ   
 غَيْبٍ ، فَذَلِكَ أَنْخَى مِنْ غَيْرِ نَسَبٍ وَكَتَرَى مِنْ غَيْرِ نَسَبٍ (٧٠) »

(٦٦) السرار من الشهر آخر ليلة منه .

(٦٧) ديوان الحماسة ٦٦/٢ .

(٦٨) ديوان الحماسة ١٧٩/٢ ونسبه لقضب بن أم صاحب . وهو شاعر إسلامى كان في أيام الوليد بن عبد الملك .

(٦٩) صرى الشاة تصرية إذا لم يجلها أيامًا . حتى يجتمع اللبن في ضرعها . والشاة مصراة

(٧٠) النشب بفتحبتن المال والعقار .

وهذا مأخوذٌ من الفقه في تصرّية ضرع الشاة عند البيع . وذلك يُوجبُ الرّد .

ومما ينتظم بهذا السلك قولى وهو :

« الانتقال عن خلة الواد كالانتقال عن نسب الميلاد . وكما يحرم هذا في نصّ الحكم المشروع ، فكذا يحرم هذا في خلق الكرم المطبوع . على أن نسب الخلة الذى يُنميه القلب إلى القلب . أوصل من نسب الرحم الذى يُنميه الابن إلى الأب . ولهذا كانت مودة سلمان<sup>(٧١)</sup> قرى . ونسب أبى لهب سباً وتباً . »  
وبعض هذا مأخوذٌ من شعر أبى نؤاس ، وهو :  
كانت مودة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وإبنيه رحمٌ ؟

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الديار وهو :

« دار كانت مقاصر جنة ، فأصبحت وهى ملاعب جنة ، ولقد عميت أخبار قطنها ، وأنشاز أوطانها ، حتى شابهت إحداهما فى الخفاء الأخرى فى العفاء ، وكنت أظن أنها لا تستقى بعدهم بغمام ، ولا يُرفعُ عنها جلبابُ ظلام ، غير أن السحاب بكاهم فجرت بها سوافح دموعه ، والليل شق عليهم ثوبه ، فظهر الصباح من خلال صدوعه . »

وهذه معان لطيفة جداً ، وبعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضى ، رحمه الله

تعالى :

أمرّاع الغزلان غيرك البلى حتى غدوت مرّاع الغزلان

ومما يلتئم بهذا المعنى قولى أيضاً ، وهو :

« دار أصبحت مرّاع أذواد ، بعد أن كانت مناجع رواد ، فلوتصوّرت الآمال التى مثلت بفنائها ، كما تصوّرت الآثار الماثلة من بنائها ، لرأيت رسومها مع رسوم القباب ، وعلمت كم غار بها من بحر ، ونضب من سحاب . »

(٧١) يقصد سلمان الفارسى .

وهذا معنى حسنٌ ، له من نفسه مُثْنٍ وَحَامِدٍ ، وَمِنْ سَامِعِهِ يَمِينٌ وَشَاهِدٌ ، وَهُوَ مِنْ  
مَعَانِيَّ الْمُسْتَخْرَجَةِ .

ومن ذلك قولي أيضا ، وهو :

« النقصُ مُوَكَّلٌ بِكَمَالِ النَّعْمَاءِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْوَحْمُ مَقْتَرِنًا بِالْمَرْعَى وَالْمَاءِ ، وَقَلَمًا  
تَرَى ثَمْرَةَ إِلَّا وَمَعَهَا زُبُورٌ ، وَلَا لَذَّةَ إِلَّا وَإِلَى جَانِبِهَا شَيْءٌ مَحْدُورٌ » .

وكذلك قولي أيضا ، وهو :

« لَا يظْفَرُ الرَّجُلُ بِمَطَالِبِهِ شَفْعًا ، وَلَا تُؤْتِيهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ نَفْعًا ، بَلْ يَرَى مَرْعَى بِلَاءِ  
مَاءٍ وَمَاءٍ بِلَاءِ مَرْعَى ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ النَّحْلَةُ مَعَ الشَّهْدَةِ ، وَالشُّوكَةُ مَعَ الْوَرْدَةِ » .  
وبعض هذه المعاني مأخوذٌ من قول أبي تمام :

أَرْضٌ بِهَا عُشْبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَأُخْرَى بِهَا مَاءٌ وَلَا عُشْبٌ (٧٢)  
إِلَّا أَنَّ فِي الْكَلَامِ الْمَثُورِ زِيَادَةً عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ الشَّعْرُ ، وَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرًا بَعِيدًا .  
وَمِنْ سَبِيلِ الْمُتَصَدِّقِ لِهَذَا الْفَنِّ أَنْ يَأْخُذَ الْمَعْنَى مِنَ الشَّعْرِ ، فَيَجْعَلُهُ مِثْلَ الْإِكْسِيرِ فِي  
صِنَاعَةِ الْكِيمِيَاءِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهُ أَلْوَانًا مُخْتَلِفَةً مِنْ جَوْهَرٍ وَذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، كَمَا فَعَلْتُ فِي  
هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَإِنِّي أَخَذْتُ مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ مِنَ الشَّعْرِ ، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهُ مَا لَيْسَ مِنْهُ ،  
وَهَذَا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ فِي نَثْرِ الْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ . وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ،  
وَكشفتُ عَنْ دِفَاتِنِهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي وَسَمْتُهُ : ب ( الْوَشْيُ الْمَرْقُومُ ، فِي حَلِ  
الْمَنْظُومِ ) ، وَهُوَ كِتَابٌ مَفْرَدٌ لِهَذَا الْفَنِّ خَاصَّةً .

ومن هذا الضرب الذي هو الكيمياء في توليد المعاني ما ذكرته في وصف الربيع

فقلت :

« فَصْلُ الرَّبِيعِ هُوَ أَحَدُ مِيزَانِي عَامِهِ ، وَالْمُسْتَفِيدُ لِسَامِهِ مِنْ حَامِهِ ، وَقَدْ وُصِفَ  
بِأَنَّهُ مِيعَادُ نُطْقِ الْأَطْيَارِ ، وَمِيلَادُ أَجْنَةِ الْأَزْهَارِ ، وَالَّذِي تَسْتَوِي بِهِ حَوْلَهَا سَلَاكَةُ الْعُقَارِ ،

(٧٢) ديوان أبي تمام ٥٠ ورواية الديوان « أرض بها عشب جرف وليس بها » والجرف ما جرفته السيول  
وأكلته من الأرض .

فَإِذَا سَلَّتِ السَّحْبُ فِيهِ سَيُوفَهَا ، كَانَ ذَلِكَ لِلرُّضَا لَا لِلغَضَبِ ، وَإِذَا خَلَعَتْ عَلَى  
الْأَرْضِ غُلَاظَتَهَا الدَّكْنَاءَ لَبِسَتْ مِنْهَا دِيْبَاجَةً مَسْجُوجَةً بِالذَّهَبِ .

وهذا المعنى مُسْتَوْلَدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ السَّحَابِ :  
سَلَبَتْهُ الْجُنُوبُ وَالْدِينِ وَالذَّنْبِ سَيَا وَصَافِي الْحَيَاةِ فِي سَلْبِهِ (٧٣)  
إِلَّا أَنْ فِي الذِي ذَكَرْتَهُ مَعْنَيْنِ غَرِيبَيْنِ ، إِذَا أَمَعَنَ النَّاطِرُ نَظْرَهُ فَهَمَّهَا .

ومن ذلك ما ذكرته في لين القول واعداته ، وما يجرى مجراه ، كقولي في فصل من

كتاب ، وهو :

لَمْ أُعِدْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ لِأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَى مِيدَانِهِ ، إِلَّا بِتَحْرِيكِ سَوِّطِهِ وَعِنَانِهِ ، بَلْ أَخَذَ  
بَأَدَبِ اللَّهِ فِي أَذْكَارِ الْقُرْآنِ أَخَذًا ، وَاتِّبَاعًا لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فِي تَثْوِيبِ الْأَذَانِ (٧٤) .

وبعض هذا مأخوذٌ من شعر أبي تمام :

لَوْ رَأَيْنَا التَّكْيِيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ مَا شَفَعْنَا الْأَذَانَ بِالتَّثْوِيبِ (٧٥)

وكذلك قولي أيضا ، وهو :

« وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ لِينَ الْقَوْلِ أَنْجَعُ قَبُولًا ، وَهُوَ مِنْ أَدَبِ كَلِيمِ اللَّهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ  
رَسُولًا ، أَلَّا تَرَى أَنَّ الْحُدَاءَ يَبْلُغُ مِنَ الْمَطَايَا بُلُطْفِهِ ، مَا لَا يَبْلُغُهُ السَّوِّطُ عَلَى عُنْفِهِ .

وبعض هذا المعنى مأخوذٌ من شعر أبي تمام :

وَأَخَذَهُمُ بِالرُّقْمِيِّ إِنَّ الْمَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْحُدَاءُ (٧٦)

---

(٧٣) ديوان أبي تمام ٥٢ والذي في الديوان :

قد جلبته الجنوب فالدين والذنب يا وصافي الحياة من جلبه

وهو من قصيدة يمدح بها أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ، ومطلعها :  
إِنْ بَكَاءَ فِي الرَّبِيعِ مِنْ أَرْبِهِ فَشَايَعًا مَغْرَمًا عَلَى طَرَبِهِ

(٧٤) التثويب في أذان الفجر أن يقول المؤذن « الصلاة خير من النوم » .

(٧٥) ديوان أبي تمام ٣٨ ورواية الديوان « التوكيد » بالواو ، ومن معاني التثويب التردد .

(٧٦) ديوان أبي تمام ٣٩٤ ، والرقم جمع رقية ، والحذاء الغناء .



ومن ذلك ما ذكرته في ذم الدنيا ، وهو :

«أَنْكَادُ الدُّنْيَا مَشُوبَةٌ بِالأَشْيَاءِ الَّتِي جُبِلَتْ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّهَا ، وَكُلُّ مَا تَسْتَلِدُهُ الأَبْدَانُ مِنْ مَأْكَلِهَا فَإِنَّهُ يُضَرُّهَا مِنْ جِهَةٍ طَيِّبَةٍ ، وَلِهَذَا يُدَمِّمُ مِنْ مَنْفَعَةِ الهَلِيلِجِ (٧٧) ، وَمُضَرَّةِ اللُّوزِ بِنَجْ ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ مِنْ لَدَاتِهَا إِلَّا ضَرَّهُ مِنْ جِهَةِ ثَوَابِهِ وَهُوَ كَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِأَصْطِلَاءِ النَّارِ وَهِيَ مُحْرِقَةٌ لِأَثْوَابِهِ ، وَقَدْ ضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلٌ مِنَ الأَمْثَالِ ، وَقِيلَ : إِنَّ كُلَّ مَا يَنْفَعُ الكَيْدَ مُضِرٌّ بِالطَّحَالِ » .

وهذا مأخوذٌ من الأمثالِ العربيَّةِ والمولدة .

ومن ذلك ما ذكرته في الزهد ، وهو :

النَّاسُ فِي الدُّنْيَا أَبْنَاءُ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ، وَكَمَا أَنَّ النُّفُوسَ لَيْسَتْ فِيهَا بِقَاطِنَةٍ ، فَكَذَلِكَ الأَحْوَالُ لَيْسَتْ بِقَاطِنَةٍ ، وَلِهَذَا كَانَتْ المَاتَمُ بِهَا كَالأَعْرَاسِ ، يَتَفَرَّقُ نَدَى جَمْعِهَا ، فَهَذِهِ تَنْسَى مَا مَضَى مِنْ لَذَّةِ سُرُورِهَا ، وَهَذِهِ تَنْسَى مَا مَضَى مِنْ أَلْمِ فَجَعِهَا ، وَلَا شَيْبَةَ لَهَا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الأَحْلَامُ الَّتِي يَتَلَاشَى خِيَالَهَا عَاجِلًا ، وَتَجْعَلُ البِقِظَةَ حَقَّهَا بِاطِلًا ، وَمَا يَنْبَغِي حِينَئِذٍ أَنْ يُفْرَحَ بِهَا مُقْبِلَةٌ ، وَلَا يُؤَسَى عَلَيْهَا مُدْبِرَةٌ ، وَكُلُّ مَا تَرَاهُ العَيْنُ مِنْهَا ثُمَّ يَذْهَبُ فَكَأَنَّهَا لَمْ تَرَهُ ، وَغَايَةُ مَطْلُوبِ الْإِنْسَانِ مِنْهَا أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي مُدَّةِ عُمُرِهِ ، وَيُمْلَى لَهُ فِي امْتِدَادِ كُتْرِهِ ، أَمَا تَعْمِيرُهُ فَيَعْتَرِضُهُ المَشِيبُ الَّذِي هُوَ عَدَمٌ فِي وُجُودِ ، وَهُوَ أَخُو المَوْتِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي سُكْنَى اللُّحُودِ ، فَالْجَوَارِحُ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الشَّهَوَاتِ تَرَى وَكُلُّ مَنْهَا قَدْ تَحَوَّلَ ، وَأَصْبَحَ كَالطَّلَلِ الدَّارِسِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ مُعْوَلٍ ، فَلَا لَيْلَى بِلَيْلَى ، وَلَا النُّوَارُ بِالنُّوَارِ ، وَلَا الأَسْمَاعُ أَسْمَاعٌ ، وَلَا الأَبْصَارُ أَبْصَارٌ ، وَأَمَّا مَا لَهُ فَإِنَّ أَمْسَكَهُ فَهُوَ عَرُضَةٌ لِوَارِثٍ يَأْكُلُهُ ، أَوْ لِحَادِثٍ يَسْتَأْصِلُهُ ، وَإِنْ أَنْفَقَهُ كَانَ عَلَيْهِ فِي الحِلَالِ حِسَابًا ، وَفِي الحِرَامِ عِقَابًا فَهَذِهِ زَهْرَةُ الدُّنْيَا النَّاصِرَةَ ، وَهَذِهِ عُقْبَاهَا الخَاسِرَةَ » .

(٧٧) ذكره أكثر كتب اللغة باسم « الإهليلج » بفتح اللام الثانية وكسرها ، والواحدة بهاء ، ثم منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضج ، ذكر أنه يحفظ العقل ويزيل الصداع .

وبعض هذا المعنى مأخوذاً من شعرِ صالح بن عبد القدوس :  
 وَإِذَا الْجَنَازَةُ وَالْعَرُوسُ تَلَاقِيَا      أَلْقَيْتَ جَمْعًا كُلَّهُ يَتَفَرَّقُ  
 ومن قولِ أبي العتاهية :  
 إِنَّمَا أَنْتَ طَوَّلَ عُمُرِكَ مَاعَمَّرُ      تَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن تعزية ، وهو :

« كَيْفَ يُظْلِمُ ذَلِكَ اللَّحْدُ وَبِهِ مِنْ أَعْمَالٍ سَاكِنِهِ أَنْوَارٌ؟ أَمْ كَيْفَ يُجْدِبُ وَبِهِ مِنْ  
 فَيْضٍ يَمِينِهِ سَحَابٌ مِدْرَارٌ؟ أَمْ كَيْفَ تُوحِشُ أَقْطَارُهُ وَالْمَلَائِكَةُ دَاخِلَةٌ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ  
 الْأَقْطَارِ؟ أَمْ كَيْفَ يُخَفِّيه طَوْلَ الْعَهْدِ عَلَى زُورِهِ وَطَيْبُ تُرَابِهِ هَادٍ لِلزُّورِ؟ وَمَا أَعْلَمُ مَا  
 أَقُولُهُ فِي هَذَا الْخَطْبِ الْجَلِيلِ ، الَّذِي دَقَّ فِيهِ الْحَزَنُ الْجَلِيلِ ، وَسَمَحَتْ لَهُ النَفُوسُ  
 بِالْفِدْيَةِ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفِدَاءِ الْقَلِيلِ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يُخْلَقِ الدَّمْعُ إِلَّا  
 إِنْذَارًا بِأَنَّ نَوَائِبَ الزَّمَانِ سَتُتَوَّبُ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ دُخْرًا لِلْقَائِمِ ، وَإِنَّمَا يُدْخِرُ السَّلَاحَ لِلْقَاءِ  
 الْحُرُوبِ ، وَالَّذِي ذَخَرْتُهُ : لَمْ يَغْنِ عَنِّي فِي هَذِهِ النَّائِبَةِ ، وَأَيُّ جُنَّةٍ تَقُومُ فِي وَجْهِ سَهَامِهَا  
 الصَّائِبَةِ؟ لَا جَرَمَ أَنِّي أَصْبَحْتُ بَيْنَ يَدَيْهَا هَدَفًا لِلرَّمَاءِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنِّي إِلَّا ذَمَاءُ  
 الْحُشَاشَةِ (٧٨) ، وَمِنْ الْعَجَبِ بَقَاءُ الذَّمَاءِ . »

وشيء من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومي :

لَمْ يُخْلَقِ الدَّمْعُ لِأَمْرٍ عَيْشًا      اللَّهُ أَذْرَى بِلَوْعَةِ الْحَزَنِ (٧٩)

وكذلك ذكرت فصلا في كتاب آخر يتضمن تعزية ، وهو :

« فَيَا وَبِحَ أَيْدٍ أَسْلَمْتَهُ إِلَى الثَّرَى وَمَا كَانَ يُسَلِّمُهَا إِلَى الْإِعْدَامِ ، وَالْبَسْتَةُ ظُلْمَةُ اللَّحْدِ  
 وَطَالَ مَا جَلَا عَنْهَا غِيَابَةُ الظُّلْمِ وَالْإِظْلَامِ ، وَغَادَرْتُهُ بِوَحْدَتِهِ مُسْتَوْحِشًا ، وَقَدْ كَانَ يُؤَنِّسُهَا  
 بِنَوَافِلِ الْأَنْعَامِ ، وَمِثْلُهُ لَا يُوَارِي الْقَبْرَ مِنْهُ إِلَّا صُورَةٌ يُدْرِكُهَا النَّفَادُ ، وَتَبْلَى كَمَا يَبْلَى غَيْرُهَا

(٧٨) الرماء مصدر راماه مرامة ورماء ، والذماء بقية الروح في المذبوح ، والحشاشة بقية الروح في المريض

والجريح .

(٧٩) ديوان ابن الرومي ٤٨٠ .

من الأجساد ، ولكنه لا يستطيعُ مُؤاراةَ الذِّكْرِ الخالدِ الذي يَذْهَبُ بِشِبَاهَةِ الحُسَادِ ،  
ويتمثَّلُ في السماء بصورة الكواكبِ وفي الأرضِ بصُورَةِ الأَطْوَادِ .

وبعضُ هذا مأخوذ من قولِ بعضِ شعراءِ الحماسة<sup>(٨٠)</sup> :

فإن تَدْفِنُوا البَكْرَى لا تَدْفِنُوا اسْمَهُ      ولا تَدْفِنُوا مَعْرُوفَهُ في القَبَائِلِ<sup>(٨١)</sup>

ومن ذلك ما ذكرته في وصفِ كلامِ بالفصاحة ، وهو فصل من كتاب ، فقلت :

وله البيانُ الذي يغضُّ من نسقِ الفريدِ ، ولا يُخْلِقُ نَصْرَةَ لباسه الجديدِ ، وهو فوقَ  
كلامِ المُجيدِ ، ودونِ القرآنِ المَجِيدِ ، وإذا اختَصَرَ واصله قال : إنه يستميلُ سَمْعَ  
الطَّرُوبِ ، ويستحقُّ وقارَ القلوبِ ، ويتمثَّلُ آياتِ بيضاءَ ، من غيرِ ضَمٍّ إلى الجُيُوبِ ،  
ويُبرِّي في الأرضِ غيرَ لاغِبٍ إذا مَسَّ غيرَه فَتْرَةُ اللُّغُوبِ ، ولا تَزَالُ النَّاسُ في عِشْقِ  
معانيه ضرباً واحداً والعاشقُونَ ضُرُوبٌ ، ولما وقفتُ عليه قلتُ : سُبْحَانَ من أَعْطَى  
سيدنا فلم يَبْخُلْ ، وخصَّه بنبوةِ البيانِ إلا أنه لم يُرْسَلْ ، ولولا أَنَّ الوحيَ قد سُدَّ بآيةِ  
لَقيل : هذا كتابٌ مُنزَلٌ ، ولقد خَارَ اللهُ لأولىِ الفصاحةِ إذ لَمْ يَحْيُوا إلى عصرِه ، ولمْ  
يُتَلَّوا فيه بَداءِ الحسدِ الذي يُضْلِيهِم بِتوقدِ جَمْرِهِ ، ولئن سَلِمُوا من ذلكَ فما سَلِمَتْ  
أقوالُهُم من أقواله التي مَحَتْها مَحُو المِدَادِ ، وقد كانتُ باقيةً بعدَهُم فلما أتى صَارَتْ كما  
صارُوا إلى الأَلْحَادِ .

وفي هذا الفصلُ شيءٌ من المعانيِ الشعريةِ كقولِ البُحْتَرِيِّ :

مُسْتَمِيلٌ سَمْعَ الطَّرُوبِ المَعْنَى      عن أَغَانِي مَعْبَدٍ وَعَقِيدِ<sup>(٨٢)</sup>

(٨٠) هو أبو الشَّغْبِ العَبْسِيُّ ، قاله في خالد بن عبد الله القسري لما وقع خالد أسيراً في يد يوسف بن عمر

القفق .

(٨١) رواية ديوان الحماسة ١/٣٩١ :

فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه      ولا تسجنوا معروفه في القبائل

(٨٢) ديوان البُحْتَرِيِّ ٢/١٩٥ وهو من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات ، ومطلعها :

بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالحمود

وقد ورد الشطر الثاني في رواية الديوان هكذا عن أغن : . . .

ومخارق هو مخارق بن يحيى بن نائس الحزاز ، مولى الرشيد . وكان قبله لعاتكة بنت شهدة ، وهي من

الغنيات المحسنات المتقدّمات في الضرب ، ونشأ في المدينة ، وقيل كان منشؤه بالكوفة . وكان أبوه جزازاً مملوكاً ،

وكان مخارق وهو صبي ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم ، فلما بأن طيب صوته علمته مولاته طرفاً من الغناء ، ثم =

وقول الشَّريف الرِّضِيِّ - رحمه الله - :

عَشِيقْتُ وَمَالِي ، يَعْلَمُ اللهُ ، حَاجَةً سِوَى نَظْرِي وَالْعَاشِقُونَ ضُرُوبٌ (٨٣)  
وفيه أيضًا شيءٌ من معاني القرآنِ الكَرِيمِ ، إلا أنَّها جاءت ضِمْنًا وَتَبَعًا ، وموضعها يأتي بعد الأبيات الشعرية .

وكذلك ذكرت فصلًا آخر من هذا الأسلوب ، وهو :

« وَإِنَّ لِلْكَلِمَةِ طَعْمًا يُعْرَفُ مَذَاقُهُ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ ، وَخَفَّةُ الْأَرْوَاحِ مَعْلُومَةٌ مِنْ بَيْنِ ثِقَلِ الْأَجْسَامِ ، فَلَوْلَمْ نَعْرِفْهُ بِطَعْمِهِ ، عَرَفْنَاهُ بِوَسْمِهِ ، وَالصَّبَاحَ لَا يُتَبَارَى فِي اسْتِفَارِهِ ، وَلَا يُفْتَقَرُ إِلَى دَلِيلٍ عَلَى إِشْرَاقِ أَنْوَارِهِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْعِرْقَ يُعْرَفُ بِغُضْنِهِ ، وَأَنَّ الْقَوْلَ يُعْرَفُ بِلَحْنِهِ ، وَنَفَائِسُ هَذِهِ الْعُقُودِ لَا يُبْرَزُهَا إِلَّا أَنْفَاسُهُ ، فَدُرَّرُهَا لَفْظُهُ ، وَسُلُوكُهَا قَرَطَابُهَا » .

ومن هذا الباب قولي أيضًا وهو :

« أَلْفَاظٌ كَخَفَقِ الْبُنُودِ ، أَوْ زَارِ الْأَسُودِ ، وَمَعَانٍ تَدُلُّ بِإِزْهَافِهَا أَنَّهَا هِيَ السُّيُوفُ وَأَنَّ قُلُوبًا نَمَتْهَا هِيَ الْعُمُودُ ، فَيُخَالِفُهَا الْمُتَأَمِّلُ حَوْمَةَ طِعَانٍ ، أَوْ حَلَبَةَ رَهَانٍ » .  
وبعض هذا مأخوذ من شعر البحترى :  
يَقْظَانُ يَنْتَخِبُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ جَيْشٌ لَدَيْهِ بَرِيدٌ أَنْ يَلْقَى بِهِ (٨٤)

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدعى الكتابة وليس من أهلها ، فقلت :

« وَقَدْ نَيْطَ بَسِيدِنَا قَلَمًا الْخَطَّ لِلذَّانِ يُنْسَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى الْمِدَادِ ، وَيُنْسَبُ الْآخَرُ إِلَى الصَّعَادِ (٨٥) ، فَهُوَ يُدِيرُ هَذَا فِي مَعْرِكَةِ الْمَقَالِ ، وَهَذَا فِي مَعْرِكَةِ الطَّرَادِ ، وَثَرِيًّا صَهْلًا = أَرَادَتْ بِيَعَهُ ، فَاشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ الْمُوصِلِيُّ مِنْهَا ، وَأَهْدَاهُ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ بَيْحِي ، فَأَخَذَهُ الرَّشِيدُ ، ثُمَّ أَعْتَقَهُ .

(٨٣) ديوان الشَّريف الرِّضِيِّ ٤١٧/١ طبعة الحلبي .

(٨٤) ديوان البحترى ٩٣/٢ من قصيدة يعاتب بها إسماعيل بن شهاب .

(٨٥) الصَّعَادِ : الرِّمَاحِ .

أَحَدُ قَلَمِيهِ مِنْ فَوْقِ صَفْحَاتِ الدَّرُوجِ <sup>(٨٦)</sup> ، كَمَا تَصَهَّلُ الْجِيَادُ مِنْ تَحْتِ أَعْوَادِ السُّرُوجِ ، فَهُوَ احْتِفَالُ الْمَوَاطِنِ وَالْمَجَالِسِ ، وَإِلَيْهِ غَنَاءُ أَصْحَابِ الْعِمَامِ وَالْقَلَانِسِ ، لَا كَمَنْ لَا يُجَاوِزُ هَمَّهُ طَرْفَى رِدَائِهِ ، وَإِذَا نُودِيَ لِفَضِيلَةٍ قِيلَ إِنَّمَا يَسْمَعُ الْحَىُّ بِنْدَائِهِ . وَكَمْ فِي النَّاسِ مِنْ صُورٍ لَا تَجِدُ لِمَعْنَاهَا أَثْرًا ، وَإِذَا رَأَيْتَهَا قُلْتَ أَرَى خَالًا <sup>(٨٧)</sup> وَلَا أَرَى مَطْرًا ، وَأَيُّ جَمَالٍ عِنْدَ مَنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا جَمَالُ ثِيَابِهِ ، وَهَلْ يَنْفَعُ السِّيفُ الْكِهَامَ <sup>(٨٨)</sup> أَنْ يُجْعَلَ مِنَ الذَّهَبِ حَلِيَّةُ قَرَابِهِ . وَكُلُّ مَنْ هُوَ لَاءٌ ذَنْبٌ يَسْعَى بِغَيْرِ رَأْسٍ ، وَلَا لَهُ هَمٌّ إِلَّا فِي عَيْشَةِ الطَّاعِمِ الْكَاسِيِّ ، وَإِذَا اعْتَبَرَ حَالَهُ وَجِدَّ مِنَ الْبِهَاتِمِ وَإِنْ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى النَّاسِ ، وَالسِّيَادَةِ لَيْسَتْ فِي وَشَى الثِّيَابِ ، وَلَا فِي طَيْبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي شَيْئَيْنِ : إِمَّا شَهَامَةٌ قَلَمٌ تَفَرَّقُ لَهَا قُلُوبُ الْعُمُودِ ، أَوْ شَهَامَةٌ رُمحٌ تَفَرَّقُ لَهَا قُلُوبُ الْأَسُودِ . وَكَأَنِّي بِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ هَذَا وَكُلَّهُمْ يَتَعَضُّ امْتِعَاضَ الْمَغْضَبِ ، وَيَتَتَابِعُ نَفْسَهُ تَتَابِعُ الْمُتَعَبِ ، وَيَعْتَرِضُ الشَّجَى فِي حَلْقِهِ حَتَّى يَغْصَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْرَبَ . وَلَمْ يَزَلْ بِالْحَسَادِ مِنْ سَيِّدِنَا دَاءٌ يُورِثُهُمْ أَرْقًا ، وَيُوسِعُهُمْ شَرْقًا ، وَكَثِيرًا مَا تَعَرَّقُ لَهُمْ جِبَاهُهُمْ وَكَذَا الْمَيْتُ تَنْدَى جَيْبِيهِ عَرَقًا ، وَمَا أَرَى لَهُوَاءَ دَوَاءٍ إِلَّا أَنْ يَطْرُحُوا عَنْ مَنَاكِبِهِمْ ثِقْلَ الْمُسَاجِلَةِ ، وَالْحَسَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ يَجْرَى مَعَ صَاحِبِهِ فِي مِضْمَارِ الْمَائِلَةِ . وَكُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَامَ عَلَى الْكِتَابَةِ مُحْتَسِبٌ حَتَّى يَتَفَلَّسَ مِنْهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَتَسْتَرِيحَ جِيَادٌ كَثِيرَةٌ مِنْ رُكُوبِ حَمِيرٍ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا السُّوقِ يَظْهَرُ أَهْلُ الْخِلَابَةِ وَالنَّجْشِ <sup>(٨٩)</sup> ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ وَقَدْ أَجْلَسَ نَفْسَهُ قَائِمَةَ الْعَرْشِ ، وَنَارَ الْآلَةِ الْعُمَرِيَّةِ تَمِيزُ خَالِصَ النُّقُودِ مِنْ زَيْفِهَا ، وَلَا حَيْفَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى مَنْ أَسْرَفَتْ دَعْوَاهُ الْكَاذِبَةُ فِي حَتْفِهَا .

(٨٦) الدروج جمع درج بفتح الدال وسكون الراء ، أو بفتحها ، ما يكتب فيه .

(٨٧) الحال سحاب لا مطر فيه .

(٨٨) السيف الكهام - على وزن سحاب - الكليل الذي لا غناء فيه .

(٨٩) النجش أن تواطىء رجلا إذا أراد بيعا أن تمدحه ، أو أن يريد الإنسان أن يبيع بياعة فتساومه فيها

بشمن كثير ، لينظر إليك ناظر ، فيقع فيها .

وبعض هذا الفصل مأخوذ من شعر عبد السلام بن رُعبان ، عُرِفَ بِدِيكِ  
الْجِنِّ (٩٠) :

يُزْهِمِي بِهِ الْقَلَمَانِ إِلَّا أَنَّ ذَا لَدُنُ الْمَجَسِّ وَأَنَّ ذَا بِكُؤُبِ  
عُودَانٍ يَقْضِبُ ذَا الطَّلِي (٩١) بِلَعَابِهِ وَيَجُوبُ ذَا الْمُهَجَاتِ بِالْتَرَكِيبِ

ويكفيك أيها المتوشحُ لنثر الشعر أن تنظر إلى هذا الفصل ، وتأمل الوضع الذي  
أخذتُ معني هذين البيتين ، ووضعتهُ فيه ، فإن فيه غناءً ومقنعاً .

وأما حلُّ آياتِ القرآن العزيز فليس كثر المعاني الشعرية ، لأن ألفاظه ينبغى أن  
يُحَافَظَ عليها ، لمكانِ فصاحتها ، إلا أنه لا ينبغى أن يُؤخَذَ لفظُ الآيةِ بِجُمْلَتِهِ ، فإنَّ  
ذلك من باب ( التَّضْمِينِ ) ، وإِنَّا يُؤخَذُ بَعْضُهُ . فإِذَا أُنْجِغَلَ أَوَّلًا لِكَلَامٍ أَوْ آخِرًا  
عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ مَوْضِعُهُ وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُؤخَذُ مَعْنَى  
الآيةِ وَالخَبَرِ ، فَيُكْسَى لَفْظًا غَيْرَ لَفْظِهِ ، وَلَيْسَ لِدَلَالَتِهِ مِنَ الْحُسْنِ مَا لِلْقِسْمِ الْأَوَّلِ ،  
الْفَائِدَةُ الَّتِي أَسْرَنَّا إِلَيْهَا .

وقد سلكتُ في ذلك طريقاً اخترعتها ، وكنْتُ أَنَا بِنَ عَذْرَتِهَا ، وَعِنْدَ تَأْمَلِ مَا  
أوردتهُ منها في هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحَّةُ دَعَاوِي . وَلَئِنْ كَانَ مَنْ تَقَدَّمَ أُنِي  
بشيءٍ من ذلك ، فَإِنِّي رَكِبْتُ فِيهِ جَوَادًا وَرَكِبَ جَمَلًا ، وَنَالَ مِنْ مَوْرِدِهِ نَهْلَةً  
وَاحِدَةً ، وَنَلْتُ مِنْهُ نَهْلًا وَعَلَلًا .

ومن آتاهُ اللهُ في القرآن بَصِيرَةً فَإِنَّهُ يَسْبِكُ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ فِي كَلَامِهِ وَيَسْتَعْنِي بِهِ عَنِ  
غَيْرِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ صَوًّا غَا يَخْرُجُ مِنْهُ ضُرُوبُ الْمَصُوغَاتِ ، أَوْ صَرَّافًا  
يَتَجَهَّدُ فِي نَقْوَدِهِ الْمُخْتَلَفَةِ مِنَ الذَّهَبِ الْمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ ، وَلَا أَقُولُ مِنَ الْفِضَّةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ  
فِيهِ مِنَ الْفِضَّةِ شَيْءٌ وَهُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ يَكُونَ فِيهِ تَاجِرًا يَدِيرُهُ عَلَى يَدِهِ ،

---

(٩٠) ديك الجن هو عبد السلام بن رُعبان ، ولد في حمص ، وديك الجن لقب له ، وكان شديد التشعب  
والعصبية على العرب ، وهو شاعر مجيد ، لم يبرح نواحي الشام ، وكان متشيعاً لآل البيت ، وله مرث كثيرة في  
الحسين بن علي ، وكان مع ذلك خليعاً ماجناً عاكفاً على اللهو والقصف ، متلافاً لما ورث عن آبائه وما كتبه  
بشعره من أحمد وجعفر أبي علي الهاشميين . توفي ديك الجن سنة ٢٣٥ هـ .

(٩١) الطلي بالضم الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة بضم الطاء فيها .

ويتصرف في أرباحه ، ويُخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كلَّ غريبة عجيبة  
وكلُّ هذا يفهمه مَنْ عَرَفَ فَلَزِمَ ، وحكَمَ بما علم :  
وما كلُّ من قال القَرِيضُ بِشَاعِرٍ ولا كلُّ مَنْ عَانَى الْهَوَى بِمَيِّمٍ  
واعلم أن المتصدى لحل معاني القرآن يحتاجُ إلى كثرة الدرس ، فإنه كلما ديم على  
درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل .

وهذا شيء جربته وخبرته ، فإنني كنتُ أخذُ سورة من السور ، وأتلوها وكلما مررتُ  
معنى أثبتته في ورقة مفردة ، حتى أنتهى إلى آخرها ، ثم أخذتُ في حل تلك المعاني التي  
أثبتتها واحداً بعد واحدٍ ، ولا أقنعُ بذلك حتى أعاودَ تلاوة تلك السورة ، وأفعلَ مثلَ ما  
فعلته أولاً ، وكلما صقلتُها التلاوة مرةً بعد مرةً ظهر في كلِّ مرةٍ من المعاني ما لم يظهر في  
المرة التي قبلها .

وسأوردُ في هذا الموضع سورة من السور ، ثم أردفها بآيات أخرى من سورٍ  
متفرقة ، حتى يتبين لك أيها المتعلم ما فعلته ، فتحذو حذوه . وقد بدأتُ بالسورة أولاً ،  
وهي سورة يوسف عليه السلام ، لأنها قصة مفردة برأسها ، وفيها معان كثيرة .  
فالأول ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب ، وهو :

« وصل كتاب الحضرة السامية ، أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرهما ، وقضى من  
العلياء وطرها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة  
وشمسها وقرها » .

وهذا أول معنى في السورة ، وقد نقلته عن قصة المنام إلى الدعاء .

ثم أبرزت هذا المعنى في صورة أخرى ، وهو :

« أكرمُ النعم ما كان فيها ذكرى للعابدين ، وتقدمه أنى رأيت أحد عشر كوكباً  
والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير ، وتجلى  
ظلمة الخطب بالصباح المنير ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ،  
إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير » .

ثم تصرفت في هذا المعنى ، فأخرجته في معرض آخر ، وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء ، فقلت :

وقد علمه أمير المؤمنين ، فأدنى مجلسه من سائه ، وآسنه على وحدة الانفراد بحفل  
نعمائه ، ورفعته حتى ودت الشمس لو كانت من أترابه ، والقمر لو كان من ندمائه ،  
وذلك مقام لا تستطيع الجدود أن ترقى إلى رتبته ، ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ،  
ولا الشفاء أن تتشرف بتقبيل رتبته . فليزد إعجاباً بما نالته مواطئ أقدامه ، ولينظر إلى  
سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه .  
ومن ذلك ما ذكرته في ذم نجيل ، وهو :

« لم أر كموهب فلان ملأت أملى بطمع وعودها ، وفرغت يدي من انبل  
جودها ، فلم أخط إلا بلامع سرابها ، وكانت كدم القميص في كذابها . »

ومن ذلك ما ذكرته في تزكية إنسان مما رمى به ، وهو :

« لم ترم بذب إلا نابت البراءة له مناب الشهود ، وجيء من أهلها بشهادة  
القميص المقدود . »

ومن ذلك ما ذكرته في عذر الهوى ، وهو :

« لم يهو حبيباً إلا كان لأهل التقى فيه أسوة ، ولا ليم من أجله إلا اعتذر عذراً امرأة  
العزير إلى النسوة . »

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« إن كان الكلام كما قيل ذكراً والجواب أنثى ، فجوابي هذا عروس تجلى في حللها  
الحبرة ، وعودها المشدرة ، وتزهي بما آتاها الله من الحسن الذي ليس بالمجلوب ، ولا  
ترضى بتقطع الأيدي دون تقطيع القلوب . وها قد أرسلتها إلى سيدنا ، حتى يعلم أن  
نتائج خاطري على الفطرة ، وأنها معشوة الصورة ، فكل الناس في هواها بنو عذرة .  
وفي هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوي والبيت من الشعر . »



ومن ذلك ما ذكرت في ثقلب الأيام ، وهو :

« لَقِينَا أَيَّامًا ضَاحِكَاتٍ ، وَلَيْتَهَا أَيَّامٌ عَابَسَاتٍ ، فَكَانَتْ كَسْبَعٍ سُنْبَلَاتٍ خُضِرَ  
وَأَخَّرَ يَابَسَاتٍ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم ، وهو :

« لَيْسَ مِمَّنْ يَرْقُبُ عَجْفَ الزَّمَانِ ، فَيَذُرُ الْحَبَّ فِي سُنْبَلِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَأْنِفُ الصَّبْرَ فِي  
آخِرِهِ ، وَيَسْتَهْلِكُ الْمَالَ فِي أَوَّلِهِ ، فَلَا يُبْقِي مِنْ يَوْمِهِ لَعْدِهِ ، وَلَا يُتِّهِمُ رَبَّهُ فِيمَا بِيَدِهِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في حب الرشوة ، وهو :

« الرَّشْوَةُ تَحُلُّ عَقْدَ الْقُلُوبِ ، وَتَهْوِنُ فِرَاقَ الْمُحِبُّوبِ . أَلَا تَرَى أَنْ رَدَّ الْبِضَاعَةَ حَكْمَ  
عَلَى أَخِي يُوسُفَ بِالْإِضَاعَةِ ؟ » .

ومن ذلك ما ذكرته في الاستسلام لحكم الأقدار ، وهو :

« لَا تَحْتَرَسْ مِنْ جُنُودِ الْأَقْدَارِ بِالْآرَاءِ الْمُتَعَمِّقَةِ ، وَسِوَاءُ عِنْدَهَا الْبَابِ الْوَاحِدِ  
وَالْأَبْوَابِ الْمُتَفَرِّقَةِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في تتابع الإساءة ، وهو :

« لَمْ يَزَلْ يَرِشِقُنِي بِقَوَارِصِهِ حَتَّى تَكَاثَرَ النَّبْلُ ، وَاسْتَحْكَمَ النَّبْلُ (٩٢) ، وَلَمْ يَكْفِهِ  
الْإِلْقَاءُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ حَتَّى قَالَ : إِنَّ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

ومن ذلك ما ذكرته في التوكل ، وهو :

« إِذَا طَلَبَ أَمْرًا أَجْمَلَ فِي الْمَطْلُوبِ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى الَّذِي بِيَدِهِ مِفْتَاحُ الْغُيُوبِ ،  
وَتَأَسَّى فِي حَاجَتِهِ مِنْهُ بِالْحَاجَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ » .

(٩٢) من معاني التبل العداوة ، والدحل ، والإسقام ، وتبله ذهب بعقله ، وتبل الدهر القوم رماهم بصروفه  
وأفناهم ، وكل هذه المعاني تصح .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الكيد ، وهو :

« لم يأت أمراً إلا أخفى أسبابَ أُوَاحِيهِ ، وبدأ فيه بالأُوَعِيَةِ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ . »  
وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يُوسُفَ عليه السلام .

وأما الآياتُ التي هي من سُورٍ متفرقة فأولُّها ما كتبتُه في صدرِ كتابٍ إلى بعض الإخوانِ جواباً على كتابه وهو : « وَرَدَ كِتَابُهُ عَشِيَّةَ يَوْمٍ كَذَا فَعَرِضَ عَلَيَّ عَرَضَ الْجِيَادِ عَلَى سُلَيْمَانَ ، وتساوينا في الاشتغالِ منه ومنها بالاستحسان ، غير أنَّ الجيادَ وإن حَسُنَتْ فَإِنَّهَا لَا تَبْلُغُ فِي الْحُسْنِ مَبْلَغَ الْكِتَابِ ، لكنْ قَلْتُ كَمَا قَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . وَلَمَّا قَضَى الشَّغْلُ هُنَاكَ بِمَسْحِ سُوْقٍ وَأَعْنَاقٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقْضِ هَاهُنَا بِمَسْحِ سَطُورٍ وَلَا أَوْراقٍ ، وإنما اشغلتُ عن عِبَادَةِ بَعَادَةٍ ، ولو شِئْتُ لَقَلْتُ : عن إفادةٍ بإفادةٍ . »

وهذا مأخوذٌ من قصَّةِ سليمانَ عليه السلامُ في سورة (ص) وهي قوله تعالى : « وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ \* فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ \* رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٩٣) . »

فانظر كيف أخذتُ هذه القصَّةَ ، وقابلتُ بينها وبين الكتابِ ، ثم إنِّي تصرَّفتُ فيها بالموافقةِ بينهما تارة ، والمخالفةِ بينهما أُخرى .  
وهكذا ينبغي أن يُفعلَ فيما هذا سبيله .

ومن ذلك ما كتبه عن الملك الأفضل علي بن يوسف :

إلى الديوان العزيز النبويِّ ببغدادَ في فصل من كتاب ، وهو :  
« وقد علم أنَّ المالَ الذي يُخْتَرَنُ كالماء الذي يُحْتَقَنُ . فكما أن هذا يَأْجَنُ بتعطيل الأيدي عن امتياعِ مشاربه ، فكذلك يَأْجَنُ هذا بتعطيل الأيدي عن امتياعِ مواهبه ،

وأى فرقٍ بين وجوده وعدمه لولا أن تملك به القلوب . وتقل به الخطوب ، ويركب به ظهر العزم الذى ليس بركوب . ومن بسط الله يده فيه ، ثم قبضها بخله ، فإنه يقف دون الرجال مغموراً ، ويقعد عن نيل المعالى ملوماً محسوراً ، وإذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً .

ومذناط الله بيد الخادم ماناظة من أمر بلاده لم يدخر منها إلا مربط أشقره ومركز أسمره (٩٤) ، وما عداها فإنه مصروف إلى قوة الإسلام فى سد ثغوره ، وتكثير جنوده ، وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها ، واستباحة جمرها عند وقوده ، وما يفضل عن ذلك فإنه للناس يشتركون فى وشله وغمره (٩٥) ، والمسلم أخو المسلم يساويه فى حقه من بيت المال ، وإن خالفه فى مزية قدره ، ولا سبيل على هذا الخادم وهو يفعل مايفعله أن يدلس من هذا المال بتبعة المطلوب ، أو يلتحق بالقوم الذين يكتزونهم فيجزى عليه بكى الجباه والظهور والجنوب . ولم يأت به الله على فترة من مثله إلا ليمحوه سيئات الدين ، ويعيد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ، ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترقمها الدنيا فى ديوانه ، وتثقل بها فى الآخرة كفة ميزانه .

فى هذا الفصل معنى آيتين ، إحداهما : فى سورة « هل أتى » والأخرى فى سورة

« براءة » .

ومن ذلك ماكتبته عنه :

إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل

إليه ، وهو :

« من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوى الألباب ، وتمثل لهم الخطأ فى مثال الصواب ، ولولا ذلك لما زل الحكيم ، واعوجَّ المستقيم والمملوك يقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلة ، لا زال عرفها مأمولا وإحسانها عند الله مقبولا ، وفعلها فى المكرمات مبتدعاً إذا كان فعل الأيادى مفعولا ونستغيث إلى عفوها الذى يكفى فيه لفظه

(٩٤) المراد بالأشقر الفرس وبالأسمر الريح .

(٩٥) الوشل الماء القليل ، والغمر الماء الكثير .

الاعتذار ، ولا ينفد بمواظبة الإصرار . ولو عَرَفَ ذَنْبَهُ بادياً لَفَرَّعَ له سِنَّ الندامة ، وعادَ على نفسه بالملامة ، ولما كانَ عَجَبِيًّا أن يكونَ مُلْمِياً (٩٦) ، وأن يكونَ مولانا كريماً لكنه حُمِّلَ إِصْرَةَ الذَّنْبِ وهو يرى من حَمَلَهَا ، وخافَ أن تكونَ هذه كَأَخْوَاتِهَا التي سَلَفَتْ من قَبْلِهَا . والأمورُ المتشابهة يِقَاسُ البعضُ منها على البعضِ ، والموسعُ لا يستطيعُ أن يَرَى مَجْرَ حَبْلِ على الأَرْضِ . ولم يَجْتَرِمْ المملوكُ الآنَ جريمةَ سِوَى أن فرَّ إلى الاعتصامِ ، وألْقَى بيدهِ إلى أقوامٍ لم يكونوا له بأَقْوَامٍ ، وإِذَا ضاقَ على المرءِ أقرُّبه كانَ الأَبْعَدُ له من ذوى الأرحامِ ، وليسَ بأوَّلٍ مَنْ ذَهَبَ هذا المذهبُ ، ولا بأولٍ من حَمَلَ نفسه على رُكوبِ هَذَا المَرْكَبِ .

ولئن قال بعضُ الناسِ : إنه عَجَلٌ في اعتصامه وفراره ، وأنه لو صَبَرَ لحمدَ مَغَبَّةَ اصطباره ، فهذا قولٌ من لم يَعْرِفَ حالَ المملوكِ فيقيمَ له عذراً ، ولا ابتلى بما ابتلى به من قوارصِ مولانا مرةً بعد أُخْرَى . ولقد تكاثرتُ عليه هذه الأقوالُ المؤنبَةُ حتى ملأَ طَرْفَهُ كَحُلِّ السُّهَادِ ، وَجَنَّبَهُ شَوْكُ القَتَادِ . وأصبحَ وهو يرى أَنه زَلِقَ في خَطِيئَتِهِ زَلْقاً ، وَعَصَّ بندمه من أَجْلِهَا شَرْقاً ، وبدتُ له سَوَاتُهُ حتى طَفِقَ يَخْصِفُ عَلَيْهَا وَرَقاً (٩٧) . ومعَ هَذَا فَإِنَّهُ واثقٌ أن حِلْمَ مولانا لا يُوقِي من الزَّلَلِ ، وأن حِصَاةَ الذُّنُوبِ لا تحفُّ بوزنِ ذلكَ الجبلِ ، وها هو قد جاءَ نازِعاً ، وللنازِعِ العُتْبَى ، وعادَ مَسْتَشْفِعاً ، ولا شَفِيعَ أَكْرَمٍ من القُرْبَى .

ثم مضيت على هذا النهجِ إلى آخر الكتاب .

وفي الذي أوردته من هذا الفصلِ معنى آيةٍ من القرآنِ في سُورَةِ « الأعرافِ » وهي قوله تعالى : « بَدَتْ لَهُمَا سِوَأْتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » (٩٨) .

(٩٦) الملمم الداخلي في الملامة .

(٩٧) يجعل على عورته ورقة فوق ورقة ، ليستتر بها ، كما تخصف النعل .

(٩٨) سورة الأعراف : الآية ٢٢ ، وفي الأصل « فبدت » وصحة الآية « فدلهاها بغرور فلما ذاقا الشجرة

بدت لهما سوءاتها . . . » .

ومن ذلك ما كتبه عن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب

الموصل :

إلى الديوان العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل في التقليد ، وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة .

فمما جاء في صدر الكتاب بعد الدعاء قولي ، وهو :

« إذا توفى ولي من أولياء الدولة فمن السنة أن يعزى بفقده ، ويستخرج إذنها في سليله القائم من بعده ، حتى لا تخلو أرضها من رواسي الجبال ، ولا سماؤها من مطالع الكواكب التي تجلو ظلمة الليال ، وقد مضى والد العبد إلى رحمة الله ، وهو متزود من الطاعة خير زاد ، غير خائف من إحصاء الرقيب العتيد إذ جعلها له من العتاد ، وما عليه وقد ثقلت كفة ميزانه ما كان في الكفة الأخرى من السجلات الكثيرة الأعداد ، ومضمون وصيته التي عهدتها أن نمشي في الطاعة على أثره ، ونهتدي بالأوامر الشريفة في مورد الأمر ومصدره ، وقد جعلها العبد نجى فكره إذا قام وإذا قعد ، وسبحة صلاته إذا ركع وإذا سجد ، وهو يرى أنه لم يمض والده حتى أبقى للدولة من ثبت قدمه موضع قدمه ، وعند ذلك يقال إن غضن الشجرة كالشجرة في نبات أصله ، وقوة معجمه . وهذا مقام لا تمتاز فيه الآباء عن الأبناء ، وليست المزية لاكتهاال السن إنما هي لشبيبة الغناء . وقد أوتى يحيى الحكم قبل أن يجرى القلم في كتابه ، وشهد له بالتركية قبل أن يتصب في محرابه ، وكذلك قد أمر رسول الله ﷺ أسامة على فتاء عمره ، وشهد أنه خليق بما أسند إليه من أمره ، والعبد وإن بسط الاستحقاق لسانه ، فإن الأدب يحكم بانقباضه ، ويريه أن التفويض إلى إنعام الديوان العزيز أسرع في نجح أغراضه ، ولا شك أن منتهى الآمال لا يبلغ أدنى تلك المواهب ، ولو جمعت في صعيد واحد . ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك المطالب . »

وهذا الفصل من أول الكتاب ، وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام . أما

الأولى فقوله تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام « وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » (٩٩) وأما الثانية فقوله تعالى : « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرِزْقًا وَكَانَ تَقِيًّا » (١٠٠) .

وفي هذا الفصل أيضا معان ثلاثة من الأخبار النبوية ، وليس هذا موضعها ، وإنما جاءت ضمناً وتبعاً .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الغبار في الحرب ، وهو :

« وَعَقَدَ الْعَجَاجُ شَفَقًا فَانْعَقَدَ ، وَأَرَانَا كَيْفَ رَفَعُ السَّمَاءِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، غَيْرَ أَنَّهَا سَمَاءُ بُنِيَتْ بِسَنَابِكِ (١٠١) الْجِيَادِ ، وَزُيِّنَتْ بِنَجُومِ الصَّعَادِ (١٠٢) ، ففِيهَا مَا يُوعَدُ مِنَ الْمَنَائَا لَا مَا يُوعَدُ مِنَ الْأَرْزَاقِ ، وَمِنْهَا تُقَدَّفُ شَيَاطِينُ الْحَرْبِ لِشَيَاطِينِ الْأَسْتِرَاقِ » .  
وهذه المعاني مأخوذة من سورة « الرَّعْدِ » (١٠٣) « وَسُورَةِ « الصَّافَّاتِ » (١٠٤) « وَسُورَةِ « الذَّارِيَاتِ » (١٠٥) .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف طعام ، وهو فصل من كتاب ، فقلت :

« طَعَامٌ لَا يُمَلُّ إِذَا شِيِنَتْ الْأَطْعَمَةُ بِمَلَلِهَا ، وَكَأَنَّمَا تَوَلَّتْهُ يَدُ الْخَلْقَةِ وَلَمْ تَبَاشِرْهُ الْأَيْدَى بِعَمَلِهَا ، فَهُوَ مِنْ بَقَايَا الْمَائِدَةِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقَدْ طَابَ حَتَّى لَا يُحْتَاجُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ ، وَمَا رَأَاهُ ذُو شَيْعٍ إِلَّا رَأَى تَرْكُهُ غَبْنًا ، وَوَدَّ لَوْ زِيدَ إِلَى بَطْنِهِ بَطْنًا » .

وبعض هذا مأخوذ من سورة « المائدة » (١٠٦)

(٩٩) سورة مريم : الآية ١٢ (١٠٠) سورة مريم : الآية ١٣

(١٠١) السنايك جمع سنيك على وزن قنفذ ضرب من العدو ، وطرف الحافر .

(١٠٢) الصعاد الرماح .

(١٠٣) انظر سورة الرعد : الآية ٢ « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » .

(١٠٤) انظر سورة الصافات : الآيات ١٠٨ و ١٠٩ .

(١٠٥) انظر سورة الذاريات : الآية ٢٢ « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقَكُمْ وَمَا تَوَعَّدُونَ » .

(١٠٦) انظر سورة المائدة : الآية ١١٤ « قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا

عِيدًا لَأُولَانَا وَأَخْرَانَا وَأَيَّةَ مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو :

« قد تكاثرت وسائلُ الخادمِ حتى لا يَدْرِي ما يجعلُه لِطِلايِهِ سَفِيرًا ، وما منها إلا ما يُقالُ إِنَّهُ أَوْلُ و لَيْسَ فيها ما يُجْعَلُ أخيراً ، غيرَ أَنَّهُ لا يَدُكِّرُ منها إلا ما هُوَ تَوَعُّمُ إِيمانِهِ والذى لا يَنْظُرُ اللهُ من ابنِ آدَمَ إلا إلى مكانِهِ ، وفي ذلك كافٍ عن الوسائلِ التليدةِ والطَّرِيقَةِ ، وقولُ « لا إِلَهَ إلا اللهُ » لا يَعدِلُهُ شَيْءٌ من الحِسانِ المودعةِ في الصَّحيفةِ ، وقد تجددَ الآنُ للخادمِ مطلبٌ هو بالنسبةِ إلى مواهبِ الديوانِ العزيزِ يسيرٌ ، ولو قامتِ مطالبُ الناسِ في صعيدٍ واحدٍ لأعطى كلاً منها مَرامَهُ ولم يقلْ ذلكَ كثيرٌ ، وكتابُهُ هذا سائرٌ إلى تلكِ المواهبِ التي يضيقُ عنها صدرُ الأرضِ باتساعِهِ ، وليس الذي يَسأَلُهُ مَمْتَعًا ، فيحالَ على النظرِ إلى الجبلِ في امتناعِهِ ، وكما أنَّ عبيدَ الديوانِ العزيزِ أطوارٌ ، فكذلكَ مطالبُهمُ أطوارٌ ، وقد جعلَ اللهُ الأشياءَ متفاوتةً في مراتبِها ، وكلُّ شَيْءٍ عنده بمِقدارٍ » .

وهذا الفصل من أَحْسَنِ ما يُكْتَبُ في استنجازِ مطلوبٍ ، وفيه معاني ثلاثة أخبارِ نبويةٍ ، ومعنى آيتين من القرآن الكريم ، وليس هذا موضعَ الإخبارِ وإنما جاءَ ضِمْنًا وتبعًا ، فالآيةُ الأولى في سُورَةِ « الأعرافِ » والآيةُ الثانية في سورة « الرعد » (١٠٧) .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب ، وهو :

« إذا دَجَا ليلُ قلمِهِ ، وطلَّعتْ فيه نجومُ كلمِهِ ، لم يقعد لها شيطانُ بلاغةٍ مَقْعَدًا ، إلا وَجَدَ له شهابًا مُرْصَدًا ، فأسرَّارُها مَصُونَةٌ عن كلِّ خاطفٍ ، مطويةٌ عن كلِّ قائفٍ » .

وهذا المعنى مأخوذ من سُورَةِ « الجنِّ » (١٠٨) .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب أيضا ، فقلت :

« له بنتُ فكرٍ ما تمخَّضتْ بِمعنى إلاَّ أَنْتَجَتْهُ من غيرِ ما تَهْمِلُهُ ، وأتتْ به قَوْمَها

(١٠٧) سورة الرعد : الآية ٨ . (١٠٨) انظر سورة الجن : الآية ٩ .

تَحْمِلُهُ ، ولم يُعْرَضْ على مَلَأٍ مِنَ الْبَلْغَاءِ إِلَّا أَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَسْتَعِيرُهُ ، لَا أَيُّهُمْ يَكْفُلُهُ » .

في هَذَيْنِ السَّطْرَيْنِ آيَاتَانِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : الْأُولَى فِي سُورَةِ « مَرْيَمَ » وَقَصَّتْهَا وَقِصَّةٌ وَلِدَهَا عَلَيْهَا السَّلَامُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلُهُ » (١٠٩) ، وَالثَّانِيَةَ فِي سُورَةِ « آلِ عِمْرَانَ » فِي قَوْلِهِ : « إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » (١١٠) .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن وصف القلم ، فقلت :

« وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قَلَمِهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَى النَحْلِ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَأْوِي إِلَى الْمَكَانِ الْوَعْرِ ، وَهُوَ يَأْوِي إِلَى الْبَيَانِ السَّهْلِ ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْتَنِيَ مِنْ ثَمَرَاتِ ذَاتِ أَرْوَاحٍ لَا ذَاتِ أَكْمَامٍ ، وَيُخْرِجُ مِنْ نَفَثَاتِهِ شَرَابٌ مُحْتَلِفٌ طَعْمُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلْأَفْهَامِ . وَأَيْنَ مَا تَنْبَتَهُ كَثَافَةُ الْحَشَبِ مِمَّا تُنْبِتُهُ لَطَافَةُ الْمَعْنَى ؟ وَلَا تَسْتَوِي نَضَارَةُ هَذَا الثَّمَرِ وَهَذَا الثَّمَرِ ، وَلَا طِيبُ هَذَا الْمَجْنِيِّ وَهَذَا الْمَجْنِيِّ ، وَقَدْ أَرْحَصَ اللَّهُ مَا يَكْثُرُ وَجُودُهُ فَيَذْهَبُ فِي لَهَوَاتِ الْأَفْوَاهِ ، وَأَعْلَى مَا يَعْزُ وَجُودُهُ ، فَيَبْقَى خَالِدًا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْصَافِ لَا تَصِحُّ إِلَّا فِي قَلَمِ سَيِّدِنَا الَّذِي إِذَا خَلَا بِخَاطِرِهِ امْتَلَأَتْ بِجَدِيثِهِ الْمَحَافِلُ ، وَإِذَا حَلَا كِتَابَهُ وَجَدَتْ الْكُتُبَ الْحَالِيَةَ مِنْ قِبَلِهِ وَهِيَ عَوَاطِلُ ، فَلَهُ حَيْثُذِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى غَيْرِهِ بَعِينَ الْإِحْتِقَارِ ، وَلَوْلَا صِفَهُ أَنْ يُسَهَّبَ وَهُوَ قَائِمٌ مَقَامَ الْإِحْتِصَارِ » .

هذا الفصل غريبٌ عجيبٌ ، وقد جمعَ بين الأضدادِ فناله بعيدٌ ، وفهمه قريبٌ ، وهذا مأخوذ من سورة « النحل » .

ومن ذلك ما ذكرته في ذم بخيل ، وهو :

« لَهُ شِيْمَةٌ فِي الْجُودِ لَا يُشَامُ نَائِلَهَا ، وَإِذَا هَزَّهَا سَأَلَهَا قَالَ : إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » .  
وهذا مأخوذ من سورة « المؤمنین » (١١١)

(١٠٩) سورة مريم : الآية ٢٧ . (١١٠) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(١١١) سورة « المؤمنون » : الآية ١٠٠ .



ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب ، وهو :

« وصل كتابه ، فُوقَفَ منه على اللَّفْظِ الرَّحِيمِ ، والمعنى الَّذِي هُوَ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُ ، وقال : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي إِعْلَاءِ قَدْرِهِ ، وَتَنْوِيهِ ذِكْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَفْتِ الْمَلَأَ فِي الإِذْعَانِ لِأَمْرِهِ ، وَلَا أَهْدَى فِي قِبَالَتِهِ سِوَى هَدِيَّةٍ لِسَانِهِ وَصَدْرِهِ ، لَا جَرَمَ أَنَّهَا تُقْبَلُ وَلَا تَرَدُّ ، وَيُعْتَدُّ بِهَا وَلَا تُعَدُّ ، فَإِنَّهَا مَالٌ لَا يُنْفِئُهُ الإِنْفَاقُ ، وَجَوْهَرٌ تَحَلَّى بِهِ الأَخْلَاقُ ، لَا الأَعْنَاقُ . »

وهذا مأخوذ من قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِتَابِهِ إِلَى بَلْقَيْسَ ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي سُورَةِ « النَّمْلِ » (١١٢) وَفِي هَذَا مِنْ شَرَفِ الصَّنْعَةِ أَنَّهُ خُولِفَ بَيْنَ مَعَانِيهِ وَمَعَانِي مَا أَتَى بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار ، وهو :

« إِذَا خَطَبَ الْقَلَمُ عَنِ الرُّمْحِ الَّذِي هُوَ نَدِيدُهُ قَامَ مُحْتَفِلًا ، وَأَسْهَبَ مَتْرُوبًا وَمُرْتَجَلًا ، حَتَّى يَأْتِيَ فِي خَطَابَتِهِ بِالْمَعَانِي الأَخَائِرِ ، وَأَصْدَقُ الْقَوْلِ مَا صَدَرَ عَنْ شَهَادَةِ الضَّرَائِرِ لِلضَّرَائِرِ . وَكِتَابُنَا هَذَا يَصِفُ مَعْرَكَةً أَحْمَرَتْ ضَبَابُهَا ، وَضَاقَتْ بِالأَسْوَدِ غَابَتُهَا ، فَالطَّعْنَ بِهَا مُحْتَضِرٌ ، وَالمَوْتُ مُحْتَقَرٌ وَالنَّضْرُ مِنْ كِلَا الفَرِيقَيْنِ مُقْتَسَرٌ ، وَكَانَ الإِسْلَامُ هُنَاكَ زَجْرَ السَّنِيحِ (١١٣) ، وَفُوزَ القِدْحِ المَنِيحِ (١١٤) . وَليْسَ الَّذِي يَرْقُبُ المَعُونَةَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبُّ المَسِيحِ كَمَنْ يَرْقُبُهَا مِنَ المَسِيحِ ، وَلَقَدْ نَفَذَتْ الرَّمَاحُ فِي أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى اعْتَدَلَتْ مِنْ جَانِبِي الصُّدُورِ وَالمَظْهَرِ ، وَتَرَكْتَ النَّاجِيَ مِنْهُمْ وَهُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الصَّلِيبِ إِلا نَظَرَ الخَائِفِ المَدْعُورِ ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهَا جَيْشٌ يُجْمَعُ ، وَلَا

(١١٢) سورة النمل : انظر الآية (٢٩) وما بعدها من الآيات .

(١١٣) السنيح والسنيح : ما ولاك ميامنه . وكانوا يتفألون به . ومنه قولهم « من لى بالسائح بعد البارح » أى بالمبارك بعد الشؤم .

(١١٤) المنيح على وزن أمير قديح بلا نصيب . قد يستعار تيمنا بفوزه . أو قدح له سهم ( انظر القاموس المحيط ٢٥١/١ ) .

لواء يُرْفَع ، وقد كانت بلادهم من قبل مَمانعة ، وهى الآن لا تَدْبُ عنها ولا تَمْنَعُ ،  
وهذه معركة قَلَّتْ بها الرقابُ المأسورة ، وكثرت النفوسُ المقتولة ، وقربت بها القرايينُ  
التي تأكلها النارُ ، لا لأنها مقبولة .

ومعنى الآية فى هذا الفصل مأخوذٌ من سورة « آلِ عِمْرانِ » إلا أنها تخالفه ، وذلك  
أنَّ القربانَ كان يُقْبَلُ ، فتنزلُ النارُ تأكله ، وأجسادُ هؤلاء الكفار قربانُ تأكله النارُ ،  
ولكنها لا تأكله لأنه مقبول ، وباقى الفصل يتضمن معنى حسناً رقيقاً .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق بعض  
الإخوان ، وهو :

« ولقد صبرتُ على أخلاقه العائنة ، وعاملته بالخليقة الرائثة ، وعالجته بضروب  
المعالجات ، فلم تنفع فيه رُقَى الرَّاقية ، ولا نَفَثُ النافثة ، ولما أعيأ على إصلاحه  
أخذتُ بمقالة الخِضِرِ لموسى فى المرّة الثالثة . »

وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخِضِرِ فى سورة  
« الكهف » (١١٥) .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، وهو :

« تجمّعوا فى نارِ النَّدمِ يُعرَضون عليها غدواً وعشيّاً ، وصار الأمرُ الذى كانوا يَرَجُونه  
مَخْشِياً ، وأضحوا كأهلِ النارِ الذين صاروا أعداءً ، وكانوا شيعاً ، وقال ضعفاؤهم  
للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . »

وهذا مأخوذ من سورة « حم المؤمن (١١٦) » ومن سورة « سبأ (١١٧) » .

---

(١١٥) لعله يشير إلى قوله تعالى « . . . لاتصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » - الآية ٧٦ من سورة

الكهف ، وكان ذلك بعد المرة الثانية : بعد سؤاله عن خرق السفينة ، وعن قتل الغلام .

(١١٦) سورة غافر : الآية ٤٦ « النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد  
العذاب . »

(١١٧) انظر سورة سبأ : الآيات ٣١، ٣٢، ٣٣ .

ومن ذلك ما ذكرته في ذم غلام أبله :

كنت أقاسي من بلّهِ نكداً ، فكتبتُ يوماً من الأيام إلى بعض إخواني كتاباً ،  
وعرّضتُ فيه بذكره ، فقلت :

ولقد ملكهُ النسيانَ ، حتى كأنه يقظُ في صورةِ نائمٍ ، وحتى حققَ قولَ التناسخِ في  
نقلِ أرواحِ الأناسي إلى البهائمِ ، فما أُرسِلَ في حاجةٍ إلا ذهبَ عن قلبه يَمَنَةً وَيَسْرَةً ،  
ولا طَلِبَ منه ما استَحفظه إلا قال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ .

وهذا فصلٌ يشتملُ على عدة معانٍ منها ما هو مأخوذٌ من القرآن الكريم من سورة  
« الكهف » (١١٨) .

ومن ذلك ما ذكرته في تقليد قاضٍ ، وهو فصل منه ، فقلت .

« والفضائلُ ما بقيت موجودة ولم تفقد ، وهي حَيَّةٌ وَإِنْ أُوْدِيَ أَرْبَابُهَا وَلَا يَمُوتُ مَنْ  
لَمْ يُوَلَّدْ ، وَمِنْ أَكْرَمِ مَا أُوتِيَ مِنْهَا فَضِيلَةُ التَّقْوَى التي الكرمُ من شعارها ، والعاقبةُ  
والحسني كلاهما من آثارها . وما نقولُ إلا أَنَّهُ اتَّخَذَهَا حَارِساً يَمْنَعُ الْخِصْمَ مِنْ تَسْوُرِ  
مِحْرَابِهِ ، وَيُؤَمِّنُ قَلْبَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى اسْتِغْفَارِهِ وَمَتَابِهِ ، وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ لَهُ هَذِهِ  
الْفَضِيلَةَ بِالْعِلْمِ الَّذِي أَعْلَمَهُ بِعِلْمِهِ ، وَوَسَّمَهُ بِوَسَامَتِهِ ، وَقَدَفَ فِي رُوعِهِ مَا لَا يُسْأَلُ مَعَهُ  
عَنِ السَّقِينَةِ وَخَرْقِهَا ، وَالغِلَامِ وَقَتْلِهِ ، وَالجِدَارِ وَإِقَامَتِهِ ، وَعَلَى مَا بَلَغَهُ مِنْهُ فَإِنَّهُ فِيهِ أَحَدُ  
الْمُنْهُومِينَ اللَّذِينَ لَا يَشْبَعَانِ (١١٩) ، وَإِذَا كَانَ لِغَيْرِهِ فِيهِ نَظْرٌ وَاحِدٌ وَمَسْمَعٌ ، فَلَهُ فِيهِ  
نَظْرَانِ وَمَسْمَعَانِ » .

في هذا الفصل المختصر معاني عدّة آيات وخبر من الأخبار النبويّة :  
أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (١٢٠) .

(١١٨) انظر سورة الكهف : الآية ٦٣ .

(١١٩) إشارة إلى الخبر المأثور « منهومان لا يشبعان » طالب علم وطالب مال .

(١٢٠) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » (١٢١)

وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تُسَوِّرُوا الْمِحْرَابَ » (١٢٢)

وَأَمَّا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا » (١٢٣)

وكذلك إلى آخر القصة . وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب .

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء فقلت بعد

الابتداء بصدر الكتاب :

« وَقَدْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يُعَدُّ لِطَالِبِ فَضْلِهِ فَضْلاً ، وَيَرَى التَّبَرُّعَ بِمَعْرُوفِهِ فَرَضاً ، إِذَا رَأَاهُ غَيْرُهُ مَعَ الْمُسَاءَلَةِ تَفْلاً ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَزِيَّةِ خُلُقٍ تَوْحَّدَ بِطَيْبِ التَّرْبَةِ وَشَرَفِ الرَّتْبَةِ ، وَأَوْثَى مِنْ كِنُوزِ الْكِرْمِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ، وَهَذَا خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي زِينَتِهِ ، وَفَضَلَ الْخُلُقِ بِطَيْبَةٍ غَيْرِ طَيْبَتِهِ ، وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ يَسْأَلُ عَنِ السَّائِلِينَ ، وَيَحْتَالُ فِي اسْتِنْبَاطِ أَمَلِ الْآمِلِينَ . »

ثم مضيت على هذا النهج حتى أنهيت الكتاب .

والغرض أن تعلم أيها المتعلم كيف تضع يدك في أخذ ما تأخذه من بعض الآية ، ثم تضيف إليه كلاماً من عندك ، وتجعله مسجوعاً ، كما قد فعلت أنا في هذا الموضع .

ألا ترى أني أخذت بعض هذه الآية في قصّة من سورة ( القصص ) وهي قوله تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فِغْنَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكِنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » (١٢٤) . فهذه الآية أخذت بعضها ، وأضفت إليه كلاماً من عندي ، حتى جاء كما تراه مسجوعاً . وكذلك فعلت بالآية الأخرى من هذه السورة أيضاً وهي قوله : « فخرج على

(١٢١) سورة طه : الآية ١٣٢ .

(١٢٢) سورة ( ص ) : الآية ٢١ .

(١٢٣) سورة الكهف : الآية ٧١ .

(١٢٤) سورة القصص : الآية ٧٦ .

قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (١٢٥)

وهذا ينبغي لك إذا أردت أن تسلك هذه الطريق ، وقدّرت على سلوكها ، وهي من محاسن الصناعة البلاغية ، وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها ، لأنها ممزوجة بالقرآن ، لا على وجه التضمن ، بل على وجه الانتظام به ، والله يختص بها من يشاء من عباده .

وفيا ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم .

وأما الأخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل معانيها .

فإن قلت : إن الأخبار النبوية لا يجرى فيها الأمر مجرى القرآن ، إذ القرآن له حاصر وضابط ، وكل آياته تدخل في الاستعمال ، كما قال بعضهم : لو ضاع مني عقل لوجدته في القرآن الكريم ، وأما الأخبار فليست كذلك لأنها كثيرة لا تنحصر ، ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال ؛ ومنها ما لا يدخل . ولا بد من بيان يمكن الإحاطة به والوقوف عنده ؟

قلت في الجواب عن هذا : إنك أول ما تحفظه من الأخبار هو كتاب « الشهاب » فإنه كتاب مختصر ، وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكماً وآداباً ، فإذا حفظته ، وتدرّبت باستعماله كما أريتك ها هنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك تصفح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، وأهل مكة أخبر بشعابها ، والذي تأخذه إن أمكنك حفظه والدرس عليه فهو المراد ، لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة ، وإن كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ، ودواوين كثيرة من الشعر ، وما ورد من الأمثال السائرة ، وغير ذلك مما أشرنا إليه ، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار ، والإكثار من استعمالها في كلامك ، حتى ترقم على خاطرك ، فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته ، وسهل عليك أن تأتي به ارتجالاً . فتأمل ما أوردته عليك ، واعمل به .

(١٢٥) سورة القصص : الآية ٧٩ .

وكنْتُ جَرَّدَتٍ من الأخبارِ النبويَّةِ كتاباً يشتملُ على ثلاثةِ آلافِ خبرٍ ، كلُّها تدخلُ في الاستعمالِ ، ومازلتُ أواظبُ مطالعته مدة تزيد على عَشْرَ سنينَ ، فكنتُ أنهي مطالعته في كلِّ أسبوعٍ مرَّةً ، حتى دارَ على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائةِ مرَّةً ، وصارَ محفوظاً لا يشدُّ عني منه شيءٌ . وهذا الذي أوردته هاهنا في حلِّ معاني الأخبار هو من هناك .

وسأذكرُ ما دارَ بيني وبينَ بعضِ علماءِ الأدبِ في هذا الأسلوبِ الذي أنا بصدده هاهنا

وذاك أنه استوعره وأنكره ، وقال : هذا لا يتهيأ إلا في الشيءِ اليسيرِ من الأخبارِ النبويَّةِ .

فقلت : لا بل يتهيأ في الأكثرِ منها .

فقال : قد وردَ عن النبي ﷺ أنه اختصم إليه في جنينٍ ، فقضى على من أسقطه بغيره : عبد أو أمة ، فأين يستعملُ هذا ؟

فأفكرتُ فيما ذكره ، ثم أنشأتُ هذا الفصلَ من الكلامِ ، وأودعته فيه .

« قد كثر الجهلُ حتى لا يقال فلان عالمٌ وفلان جاهلٌ ، وضربَ المثل

ببَاقِلٍ (١٢٦) ، وكم في هذه الصَّورةِ الممثلةِ من باقِلٍ ، ولو عَرَفَ كلُّ إنسانٍ قدره لما مَشَى بَدَنَ إلا تحت رأسِهِ ، ولا انتصبَ رأسٌ إلا على بَدَنِه ، ولكانَ صاحبُ العمامةِ بعمامتهِ .

وصاحبُ الرِّسَنِ أحقُّ بِرِسْنِهِ وكنْتُ سمعتُ بكاتبٍ من الكتابِ كلمتهُ إلى غنَّائِهِ ، وقلمه بُغائِهِ لا يَسْتَنسِرُ (١٢٧) وأى بطشٍ لِبُغائِهِ ، وإذا وجبَ الوضوءُ على غيره بالخارجِ من

السَّيِّلينَ وجبَ عليه من سُبُلِ ثلاثةٍ . هذا وهو يدعى أنه في الفصاحةِ أمةٌ وحده ، ومن قُسِّ إيادٍ (١٢٨) وسحبانٍ وائلٍ (١٢٩) عنده ؟ وإذا كُشِفَ عن خاطره وُجِدَ بليداً ، لا يخرجُ

---

(١٢٦) رجل مشهور عندهم بالعي ، قالوا إنه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً ، فسئل عن شرائه ، ففتح كفيه وأخرج لسانه يشير إلى ثمنه . فانفلت الظبي ، وضرب به المثل في العي .

(١٢٧) البغاث من الطير ما لا يصيد ولا يرغب في صيده لأنه لا يؤكل ، وهو بطيء الطيران ، واستنسر البغاث صار نسرأ ، وعليه قولهم « إن البغاث بأرضنا يستنسر » أي أن الضعيف يصير قويا بأرضنا .

(١٢٨) هوقس بن ساعدة الإيادي ، أحد خطباء العرب المشهورين ، سمعه النبي ﷺ يخطب في الموسم .

(١٢٩) سحبان وائل ، مضرب المثل في الخطابة والفصاحة والبيان .

عن العمه والكمه ، وإن رام أن يستتجه في حين من الأحيان قضى عليه بغرة عبد أو أمة ، وكثيراً ما يتقدم ونقيصته هذه على الأفاضل من العلماء ؛ وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيض الأرض على هام السماء .

فلما أوردته عليه ظهرت أماره الحسد على صفحات وجهه وفتلت لسانه ، مع إعجابه به ، واستغرابه إياه ، ثم قال : وقد ورد عن النبي ﷺ هذا الحديث وهو : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال » فهذا أين يستعمل من المكاتبات ؟ فترويت في قوله تروياً يسيراً ، ثم قلت هذا يستعمل في كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأملت عليه الكتاب ، فجاء هذا الحديث في فصل منه ، وهو :

« إذا أفاض الخادم في وصف ولائه نكصت همم الأولياء عن مقامه ، وعلّموا أنه أخذ الأمر بزمامه ، فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والإيمان ، فهذا يظهر أثره في طاعة السر ، وهذا في طاعة الإعلان ، وما عداها فإن دخوله إلى قلبه من الأشياء المحظورة ، والملائكة تدخل بيتاً فيه تمثال ولا صورة ، فليعواء الديوان العزيز على سيف من سيوف الله يفرى بل ضارب ، ويسرى بلا حامل ، ولا يسر إلا بيد حق ، ولا يعمد إلا في ظهر باطل . وليعلم أنه كرشه وعيبته في تضمّن الأسرار ، وأنه أحد مسعديه إذا عدت مواقف الأنصار . »

فلما رأى هذا الفصل بهت له ، وأعجب منه ، ثم إنى لم أقنع بإيراد ذلك الحديث ، حتى قرنت به حديثاً آخر ، وهو قول النبي ﷺ « الأنصار كرشى وعيبتى » .  
وحيث عرفتك أيها المتعلم ما تقيدى به في هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة كثيرة تتدرّب بها .

فمن ذلك ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب ، وهو :

« أعاذ الله أيامه من الغير ، وبين يحظر مجده نقص كل خطر ، وجعل ذكره زاداً لكل ركب ، وأنساً لكل سمر ، ومنحه من فضله مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . »

وهذا المعنى مأخوذٌ من الحديث في وصفِ نعيمِ الجنةِ ، فنقلتهُ إلى الدعاءِ .

ومن ذلك ما ذكرته في وصفِ الحلم ، وهو :

« تركته حتى جال في الميدان ، وامتدَّ في الأَشْطَانِ (١٣٠) ، ولم أنتصرْ خوفاً من قيامِ المَلِكِ وقعودِ الشَّيْطَانِ ، والحَلِيمِ لا يظهرُ أثرُ حِلْمِهِ إلا عندَ تَلْدُدِهِ (١٣١) ، والكَظِيمِ (١٣٢) هو أشدُّ ما يُخَافُ من تَبْدُدِهِ . »

وهذا المعنى أخذته من قصَّةِ أبي بكرٍ - رضی الله عنه - في خصامه ، فإنه بُغِيَ عليه ثلاثَ مرَّاتٍ وهو ساكت ، ففي الثالثة انتصر . فقال النبي ﷺ : « كان المَلِكُ جالساً إلى جانبِ أبي بكرٍ يكذبُ خصمَهُ بما يقول ، فلَمَّا انتصرَ قامَ المَلِكُ وقعدَ الشَّيْطَانُ . »

ومن ذلك ما ذكرته في النصرة على العدو في موطن القتال ، وهو :

« أخذنا بسنة رسولِ الله ﷺ في النصرة الذي نرجوه ، ونبذنا في وجهِ العدوِّ وكفَّا من التراب ، وقلنا : شاهتِ (١٣٣) الوجوه ، فثبتَ الله ما تزلزل من أقدامنا ، وأقدمَ حيزومُ فأغنى عن إقدامنا . »

وهذان المعنيان أحدهما مأخوذٌ من حديثِ غزوةِ حُنينٍ ، وما فعله رسولُ الله ﷺ في أخذه قبضة من التراب ، وألقاها في وجوهِ الكُفَّارِ ، وقوله : « شاهتِ الوجوهُ » والمعنى الآخرُ مأخوذٌ من حديثِ غزوةِ بدرٍ ، وذلك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من الكُفَّارِ ، وأراد أن يضربه ، فخرَّ على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجلُ المسلمُ صوتاً من فوقه وهو يقول : « أقدمَ حيزومُ (١٣٤) » فجاء إلى النبي ﷺ وأخبره ، فقال : « ذاك من مدد السماء الثالثة . »

(١٣٠) الأَشْطَانُ جمع شطن وهو حبل البئر .

(١٣١) تلدد تلفت يمينا وشمالا ، وتحير ، وذلك عند اشتداد الخصومة .

(١٣٢) الكظيم الذي يكظم الغيظ ، أى يبقى على ما فى نفسه منه على صفع أو غيظ .

(١٣٣) شاهت الوجوه قبحت .

(١٣٤) حيزوم : فرس جبريل عليه السلام ، كما فى القاموس .



ومن ذلك ما ذكرته في ضيق مجال الحرب ، وهو :

« وضاق الضربُ بين الفريقين حتى اتصلت مواقعُ البيضِ الذكور ، وتصافحتِ الفورُ بالفورِ (١٣٥) ، والصُدُورُ بالصُدُورِ . واستُظِلَّ حينئذٍ بالسيوفِ لاشتباكِ مجالها ، وتبوَّئتُ مقاعدُ الجنةِ التي هيَ تحتَ ظلالِها »  
وهو مأخوذ من الحديث النبويِّ وهو قولُ النبيِّ ﷺ « الجنةُ تحتَ ظلالِ السُّيوفِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب أدم فيه الزمان ، فقلت :

« ولكنَّها الأيامُ تُبدى لنا من جوهرِها كلَّ غريبة ، وتَسوسُنَا سياسةَ العبدِ المُجدِّعِ الذي كانَ رأسه زبيبةً ، وليسَ للمرءِ فيما يلقاهُ من أحداثِها نُعمى كانتَ أوبُوسى ، إلاَّ أنْ يَكِلَ الأمورَ إلى وليها فيقولُ حاجَّ آدمُ موسى » .  
وهذا مأخوذٌ من الخبرِ النبويِّ في قوله ﷺ : « حاجَّ آدمُ موسى ، فقالَ له موسى : أنتَ أخرجتَ الناسَ بخطيتِكَ من الجنةِ ، وأشقيتَهُمْ . فقالَ له آدمُ : أنتَ الذي اصطفاك اللهُ تعالى برسالتهِ وكلامه ، أتلومُنِي على أمرِ كتبه اللهُ تعالى عليَّ قبل أنْ يخلُقَنِي ؟ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « فحجَّ آدمُ موسى » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف بعض الكتاب ، وهو فصل من كتاب كتبه إليه

فقلت :

« ولقد سُرِدَتُ عليه أحاديثُ البلاغَةِ ، فاستغنى عن بسطِ ردائه ، وهدي إلى جوامعِ كَلِمِها ، فافتدى الناسُ باهتدائه ، فإذا اشتبهتُ عنده مسالكُ طُرُقِها لم يملكه سلطانُ الحيرةِ ، وإنْ أعربَ في أساليبِها لم يُقل فيه ما قيلَ في روايةِ أبي هريرةَ » .  
وهذا الفصلُ من أحسنِ ما يُؤتَى به في صناعةِ نثرِ المعاني ، وهو مأخوذٌ من حديثِ أبي هريرةَ ، قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ أسمعُ منك أشياءَ فلا أحفظُها ، فقالَ : أبسطُ

(١٣٥) الفور وبهاء وقد تهمز رمع في رسع الفرس تنفش إذا مسحت وتجمع إذا تركت .

رداءك ، فبسطته ، فحدث حديثاً كثيراً ، فانسيت شيئاً حدثني به . وأما رواية أبي هريرة فشك فيها قوم لكثرتها .

وقد اجتمع في هذا الفصل معنى الحديث النبوي وغيره . ومثل هذا لا يتفطن له عند الوقوف عليه إلا من تبخر في الوقوف على الأخبار النبوية ومن أجل ذلك جعلته ركناً من أركان الكتابة في الفصل التاسع .

ومن ذلك ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة ، فقلت :

« ومن صفاتها أنها مدرة<sup>(١٣٦)</sup> مستوبلة الطينة ، مجموع لها بين حرمة ولاؤاء<sup>(١٣٧)</sup> المدينة ، إلا أنها لم يامن حرمها في الخطفة ، ولا نقلت حماها إلى الجحفة » .  
في هذه الكلمات القصار آية من القرآن الكريم وخبران من الأخبار النبوية . فالآية من سورة العنكبوت ، وهي قوله تعالى : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطفون الناس من حولهم »<sup>(١٣٨)</sup> . وهذا موضع يختص بالأخبار لا بالآيات ، غير أن الآية جاءت ضمناً وتبعاً .

وأما الخبران ، فالأول منها قول النبي ﷺ : من صبر على حرمة مكة ولاؤاء المدينة ضمننت له على الله الجنة . وأما الثاني فقوله ﷺ في دعائه للمدينة : « اللهم حببها إلينا كما حببت إلينا مكة ، وانقل حماها إلى الجحفة »<sup>(١٣٩)</sup> .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكلمات ، حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخبرين سواء بسواء .

وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكة لما اختلف على في الاعتراف به اثنان .

---

(١٣٦) المدرجة واحدة المدر ، وهي المدن والحواصر .

(١٣٧) اللاؤاء والشدة .

(١٣٨) سورة العنكبوت : الآية ٦٧ .

(١٣٩) الجحفة : كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة إلى مكة ، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يبروا على المدينة . وكان اسمها مهبة ، وسميت الجحفة لأن السيل جحفها ، وبينها وبين البحر ستة أميال .

ومن ذلك ما كتبه في كتاب إلى بعض الإخوان جواباً عن كتاب ورد منه :

وكان كتابه تأخر عني زماناً طويلاً ، فقلت :  
« وَلَمَّا تَأَمَّلْتُهُ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ وَالتَزَمْتُهُ ، ثُمَّ اسْتَلَمْتُهُ وَالتَّشَمُّتُهُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَعَارِفَ -  
وَإِنْ قَدَّمْتُ أَيَّامُهَا - أَنْسَابُ وَشَيْبَةَ ، وَتَأَسَّيْتُ بِالْحَلْقِ النَّبَوِيِّ فِي الْعَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ  
تَأْتِي فِي زَمَنِ خَدِيجَةَ » .

وهذا مأخوذٌ من الخبر المنقول عن عائشة رضي الله عنها ، وهو أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يَدْبَحُ الشَّاةَ فَيُعْضِبُهَا (١٤٠) أَعْضَاءً ، وَيُقَسِّمُهَا فِي أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ ، وَكَانَتْ تَأْتِيهِ عَجُوزٌ فَيَكْرِمُهَا وَيَسْطُرُ لَهَا رِءَاءَهُ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ « هَذِهِ كَانَتْ تَأْتِينَا فِي زَمَنِ خَدِيجَةَ ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كتاب ، وهو :

« كُلُّ سَطْرٍ مِنْهُ رَوْضَةٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْلٌ فِي صَبَاحٍ ، وَكُلُّ مَعْنَى مِنْهُ دُمِيَّةٌ ، غَيْرَ أَنَّ لَيْسَ عَلَى مُصَوَّرِهَا مِنْ جُنَاحٍ » .  
وهذا مأخوذ من الحديث في تحريم الصور .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كرم وهو :

« فَأَغْنِي بِجُودِهِ إِغْنَاءَ الْمَطَرِ ، وَسَمًا إِلَى الْمَعَالِي سُمُو الشَّمْسِ وَسَارًا فِي مَنَازِلِهَا مَسِيرَ الْقَمَرِ ، وَنُتِجَ مِنْ أَبْكَارِ فِضَائِلِهِ مَا إِذَا ادَّعَاهُ غَيْرُهُ قِيلَ : لِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ » .  
وهذا المعنى من قول النبي ﷺ : « الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الفصاحة ، فقلت :

« أَفْكَارُ الْخَوَاطِرِ لَا تُسْتَوْلَدُ عَلَى انْفِرَادِهَا ، وَغَايَتُهَا أَنْ يُتَنَاقَحَ فِي اسْتِنَاجِ أَوْلَادِهَا ، وَأَنَا أَنْكِحُ فِكْرِي لِفِكْرِي نِكَاحَ الْأَنْسَابِ ، وَلَا أَخَافُ أَنْ أَضْوَى ، فَأَمِيلُ إِلَى الْإِغْتِرَابِ » .

(١٤٠) غضبت الذبيحة بالتشديد جعلتها أعضاء .

وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ في الأمر بِنِكَاحِ البعيدةِ النَّسَبِ ، فقال : « غَرَّبُوا لَا تُضَوُّوا » يريدُ بذلك أن الإنسان إذا نكح المرأةَ القريبةَ إليه حصلَ بينهما حياءٌ يمنعُ من قضاءِ الشهوةِ كما ينبغي ، فيجىءُ الولدُ ضاويًا ، أى هزيلًا . وهذا معنى غريبٌ لى استخرجتهُ من الحديثِ النبويِّ .

### ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان :

جواباً عن كتابٍ ورد منه يتضمن الشكوى من شخصٍ جرت بينه وبينه مُحَاصَمةٌ ، فقلت :

« وَصَلَ كِتَابُهُ وَهُوَ كِتَابٌ مِنْ أَكْثَرِ الشُّكْوَى ، وَطَلَبَ الْعُدْوَى (١٤١) ، وَنَزَلَ مِنَ التَّظْلَمِ بِالْعُدْوَةِ (١٤٢) الدُّنْيَا ، وَأَنْزَلَ خَصْمَهُ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ، وَالْقَاضِي لَا يَحْكُمُ لِأَحَدٍ الْخَصْمِينَ حَتَّى يَخْضَرَ صَاحِبُهُ ، وَإِنْ فُقِّتْ عَيْنُ أَحَدِهِمَا فَرِيًّا فُقِّتَتْ عَيْنُ الْآخَرَ ، وَهُسِّمَ حَاجِبُهُ ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ اعْتَرَفَ أَنَّ كَلِيْمَهَا كَانَ لِلْحَمِّ أُخِيهِ آكِلًا ، وَعَلَيْهِ فِي حَالِ مَحْضَرِهِ جَاهِلًا ، وَسِيَابُ الْمُؤْمِنِ مَعْدُودٌ مِنْ فُسُوقِهِ ، وَإِطْرَاقُهُ عَنْ تَوَرُّدِ هَذَا الْمَقَامِ أَوْلَى مِنْ طُرُوقِهِ ، وَلَوْلَا تَغْلِيظُ التَّنْكِيرِ لَمَا جُعِلَ اللِّسَانُ وَالْيَدُ سِوَاءً فِيمَا جَرَحَا ، وَلَمَا أَخَّرَ اللَّهُ الْمَغْفِرَةَ عَنِ الْخَائِضِينَ فِيهَا حَتَّى يَصْطَلِحَا ، فَكُنْ أَنْتَ مِمَّنْ أَطَاعَ تَقْوَاهُ لَا هَوَاهُ ، وَاتَّبَعَ مِنْ عِلْمِ الْحَقِّ فَرَاهُ ، أَوْ سَمِعَهُ فَرَوَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ تَهَاجُرَ الْأَخْوَيْنِ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ مِنْ مَنَهَيَّاتِ الْحَرَامِ ، وَأَنَّ الْفَائِزَ بِالْأَجْرِ مِنْهَا هُوَ الْبَادِيُّ بِالسَّلَامِ ، وَدَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ يَجْعَلُ الْعُدْوَ وَليًّا حَمِيًّا ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْمُتَخَلِّقَ بِهَذَا الْخَلْقِ صَابِرًا ، وَجَعَلَ لَهُ حِظًّا عَظِيمًا ، وَالشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَحُومُ عَلَى آثَارِهِ مَوَاقِعَ الشَّنَّانِ ، وَلَا يَحْمَدُ مِنْ أَعْمَالِ بَنِيهِ شَيْئًا إِلَّا مَا زِيلَ (١٤٣) بَيْنَ الْإِخْوَانِ . »

في هذا الفصل معاني آياتٍ وأخبارٍ ، وهذا الموضوعُ مختصٌّ بذكر الأخبارِ دون الآياتِ .

(١٤١) العُدوى هنا طلب التقوية والنصرة . قال ابن فارس : العُدوى طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك . أى ينتقم منه باعتدائه عليك .

(١٤٢) عدوة الوادى جانبه . (١٤٣) زيل بينهم فرق .

فَأَوَّلُ الْمَعَانِي الْمَأْخُوذَةِ ، مِنَ الْأَخْبَارِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا أَتَاكَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ ،  
وَقَدْ فُقِّتَتْ عَيْنُهُ ، فَلَا تَحْكُمْ لَهُ ، فَرُبَّمَا أَتَى خَصْمَهُ وَقَدْ فُقِّتَتْ عَيْنَاهُ . »

وَأَمَّا الْمَعْنَى الثَّانِي فَقَوْلُهُ ﷺ : « سِيَابُ الْمُؤْمِنِ فَسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ . »

وَأَمَّا الْمَعْنَى الثَّلَاثُ فَقَوْلُهُ ﷺ : « إِنَّ الْأَعْمَالَ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ

الْخَمِيسِ ، فَيَغْفِرُ لِكُلِّ امْرَأٍ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَمْرًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ ،  
فَيَقُولُ : اتْرَكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا . »

وَأَمَّا الْمَعْنَى الرَّابِعُ فَقَوْلُهُ ﷺ : « لَا يَجِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ . »

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْخَامِسُ فَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا تَتَّقَى الْمُهَاجِرَانِ ، فَأَعْرَضَ هَذَا ،

وَأَعْرَضَ هَذَا ، فَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ . »

وَأَمَّا الْمَعْنَى السَّادِسُ فَقَوْلُهُ ﷺ : « إِنَّ إِبْلِيسَ لَهُ عَرْشٌ عَلَى الْبَحْرِ ، فَبِئْسَ بَيْنَهُ فِي

أَفَاقِ الْأَرْضِ فَيَأْتِي أَحَدَهُمْ ، فَيَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا ، وَفَعَلْتُ كَذَا . فَيَقُولُ : مَا فَعَلْتَ

شَيْئًا ، وَيَأْتِي أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : زَيْلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ ، فَيَقُولُ :

نَعَمْ الْوَالِدُ أَنْتَ ! »

فَانظُرْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَسْطُرِ الْيَسِيرَةِ مِنْ مَعْنَى خَيْرِ نَبِيِّ . هَذَا سُورَى مَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي

الْآيَاتِ ، وَإِذَا عَدَدْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْأَسْطُرِ وَجَدْتَهَا جَمِيعَهَا مُنْتَظِمَةً

مِنَ الْآيَةِ وَالْخَبْرِ .

وهذا مما يدل على الإكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجة إليها على الفور .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب ، وهو جواب عن كتاب يتضمن تهديدا

وتخويفا ، فقلت :

« وَرَدَ الْكِتَابُ مِضْمَنًا مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مَا آنَسَ نَفْسَ الْمَمْلُوكِ وَأَوْحَشَهَا ، وَتَقَعَّ

ضُلُوعَهُ وَأَعْطَشَهَا ، وَأَقَامَ لَهُ مِنَ الظُّنُونِ السَّيِّئَةِ جُنُودًا تُقَاتِلُهُ ، وَتَأْخُذُ عَلَيْهِ شُعْبَ الْأَفْكَارِ

فَلَا تَزَاوِلُهُ . وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ طَوَالًا ، وَأَوْرَاقُهُ ثِقَالًا ، وَمَا أَفَلْتُ سَطْرًا مِنْ سَطُورِهِ إِلَّا كَانَ

الْآخِرُ لَهُ عِقَالًا ، وَلَمَّا اسْتَكْمَلَ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ ثَقَلَتْ أَطْوَارُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مِنْ أَطْوَارِهِ ،

وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي قِرْطَاسِهِ ، كَمَا عُرِضَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَرْضِ

جداره ، ولولاً وتُوْفُهْ بَأَنَاةِ مَوْلَانَا لَذَهَبَتْ نَفْسُهُ فَرَقًا ، وَابْتغَى فِي السَّمَاءِ سُلْمًا ، وَفِي  
الْأَرْضِ نَفَقًا ، لَكِنَّهُ قَدْ تَوَسَّم فِي كَرَمِهِ مَحَابِلَ الصُّنْعِ الْوَسِيمِ ، وَغَرَّهُ مِنْهُ مَا غَرَّهُ مِنْ رَبِّهِ  
الْكَرِيمِ ، وَعَلِمَ أَنَّ خُلُقَ حِلْمِهِ يَغْلِبُ خُلُقَ غَضَبِهِ ، بِإِذْنِ هَذَا حَادِثٍ وَذَلِكَ قَدِيمٌ .  
فِي هَذَا الْفَصْلِ مَعْنَى خَيْرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ -  
يَخْطُبُ ، فَمَالَ بِيَدِهِ إِلَى الْجِدَارِ ، وَقَالَ : « عَرِضْتُ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي عَرَضِ هَذَا  
الْجِدَارِ ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ » .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« الْخَادِمُ يُوَاصِلُ بِالِدُّعَاءِ الَّذِي لَا يَزَالُ لِقَلْبِهِ زَمِيلًا ، وَلِللِّسَانِ رَسِيلًا (١٤٤) ، وَإِذَا  
رَفَعَ أَذَنَّهُ الْمَلَائِكَةَ قَرَبًا إِذَا تَبَاعَدَتْ عَنْ غَيْرِهِ مِيلًا ، وَلَا اعْتِدَادَ بِالِدُّعَاءِ إِلَّا إِذَا صَدَرَ  
عَنْ أَكْرَمِ مَصْدَرٍ ، وَوَجَدَ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَظْهَرًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ مَظْهَرٍ ، وَوَصَفَ  
بِاطْنِهِ بِأَنَّهُ الْأَبْيَضُ النَّاصِعُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْ ظَاهِرِ الْأَشْعَثِ الْأَغْبَرِ ، وَلَا يَعْمَلُ الْخَادِمُ  
أَهْلًا وَوَدَّهُ إِلَّا بِهَذِهِ الْمَعَامَلَةِ ، وَمِنْ خَلْقِهِ الْمَجَازِفَةُ فِي بَذْلِ الْمُوَدَّةِ إِذَا أَخَذَ النَّاسَ نِسْبَةَ  
الْمَكَابِلَةِ » .

فِي هَذَا مَعْنَى خَبْرَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّهُ إِذَا كَذَبَ الْكَاذِبُ تَبَاعَدَ الْمَلِكُ عَنْهُ مِيلًا لِيَتَنَّى  
كَذِبِهِ » .

وَالْآخَرُ : قَوْلُهُ ﷺ : « رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرٌ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ  
لَأَبْرَهُ » .

ومن هذا الباب ما ذكرته في كتاب يتضمن خطبة مودة :

فَابْتَدَأْتُ الْكَلَامَ فِيهِ بَعْدَ تَصَدُّرِهِ بِالِدُّعَاءِ ، فَقُلْتُ :

« لَوْلَا الْعَادَةُ لَرَفَعَ الْخَادِمُ كِتَابَهُ هَذَا أَنْ يَسْطُرَ فِي وَرْقَةٍ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِإِرْسَالِهِ فِي

خِطْبَةِ مَوَدَّةٍ رَأَى صَوْرَتَهَا فِي سَرَقَةٍ (١٤٥) ، وَلَمَّا تَأَمَّلَهَا قَالَ : إِنْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

(١٤٤) يُقَالُ رَاسَلَهُ فِي عَمَلِهِ إِذَا تَابَعَهُ فِيهِ فَهُوَ رَسِيلٌ .

(١٤٥) السَّرَقَةُ شِقَّةٌ حَرِيرٌ بِيضٌ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : كَانَتْهَا كَلِمَةٌ فَارْسِيَّةً ، وَالْجَمْعُ سَرَقٌ مِثْلُ قِصْبَةٍ وَقِصْبٍ .

يُمِضُهُ ، وَأَبْدَى لَهَا صَفْحَةَ الرِّضَا ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مَوْدَّةٍ لَمْ تُرْضِهِ ، وَخَيْرَ الْمَوْدَاتِ مَا لَيْسَ لَهَا ضَرَّةٌ تَشَارِكُهَا فِي وَسَامَتِهَا ، وَلَا تَضَاهِيهَا فِي دَرَجَةِ كَرَامَتِهَا . فَتِلْكَ الَّتِي تَزِدُّهَا ذَا الْهَمَّةِ أَبْوَةً وَجَمَالًا ، وَلَمْ يُغْلِهِ مَهْرُهَا وَلَوْ بَدَّلَ فِيهِ نَفْسًا لَا مَالَ ، وَمَا يَظُنُّهَا الْخَادِمُ إِلَّا هَذِهِ الْمَوْدَّةَ الَّتِي خَطَبَهَا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْ تَكُونَ رَاغِبَةً وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي أَرْغَبَهَا ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَرَشَّحْ لَهَا إِلَّا مِنْ هُوَ مِنْ أَكْفَانِهَا ، وَلَيْسَتْ الْكِفَاءَةُ هَاهُنَا إِلَّا مَا تَبْدُلُهُ الصَّائِرَاتُ مِنْ صَفَائِهَا ، وَقَدْ أَتَاكَ اللَّهُ لَهَا كُفْفَانًا يُكْثِرُ مِنْ إِيْنَانِهَا ، وَيَضَعُهَا مِنَ الْبِرِّ فِي مَحَلَّةٍ نَاسِيَهَا ، وَيَجْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهَا عُرْسًا ، حَتَّى تَتَّصَلَ مَوَاسِمُ أَعْرَاسِهَا .

ثُمَّ مَضَيْتُ عَلَى هَذَا النَّهْجِ إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ ، وَالْمَعْنَى الْمَأْخُودُ فِيهِ مِنَ الْخَبْرِ النَّبَوِيِّ فِي مَوَاضِعِينَ :

الأول : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَّضَ عَلَيَّ صُورَتَكَ فِي سَرَقَةٍ - وَالسَّرَقَةُ حَرِيرَةٌ بِيضَاءُ - وَقَالَ : هَذِهِ زَوْجُتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقُلْتُ : إِنْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمِضُهُ . فَأَخَذْتُ أَنَا هَذَا الْمَعْنَى ، وَنَقَلْتُهُ إِلَى خِطْبَةِ مَوْدَّةٍ ، وَلَا يَأْتِي فِي خِطْبَةِ الْمَوْدَاتِ شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَلَا أَلْطَفُ ، وَلَا أَشَدُّ مَقْصِدًا .

الْخَبْرُ النَّبَوِيُّ الثَّانِي : قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّمَا تَتَكَبَّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِحَسَبِهَا ، أَوْ لِدِينِهَا ، أَوْ لِمَالِهَا ، أَوْ لِجَمَالِهَا . » فَقُلْتُ أَنَا « فَتِلْكَ الَّتِي تَزِدُّهَا ذَا الْهَمَّةِ أَبْوَةً وَجَمَالًا » أَيْ قَدْ جَمَعْتَ الْحَسَبَ وَالْجَمَالَ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي سَبَبِ حُبِّ الْمَالِ ، وَهُوَ :

« بَيْنَ الْمَالِ عِلَاقَةٌ وَكِيدَةٌ وَبَيْنَ الْقُلُوبِ ، وَهِيَ لَهُ بِمِثْلَةِ الْحَبِّ وَهُوَ لَهَا بِمِثْلَةِ الْمَحْبُوبِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ اللَّهَ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَخَلَقَ آدَمَ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ ، وَيُوشِكُ حِينْتِذِ أَنْ صُورَةَ قَلْبِهِ تَكُونَتْ مِنْ مَعْدَنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ مِنْهَا عُنْصُرٌ إِبْدَائِهِ ، لَمَا جَعَلَهَا الْأَطْبَاءُ دَوَاءً مِنْ دَائِهِ ، فَلَا تَسْتَعْرِبُ إِذَنْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حُبِّهَا مَطْبُوعًا ، إِذْ كَانَ مِنْهُمَا مَصْنُوعًا . »

وَهَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ

الأرض ، فجاءَ بُنُو آدَمَ على قَدَرِ الأَرْضِ ، منهم الأَحْمَرُ والأَبْيَضُ والأَسْوَدُ ، وبينَ ذلك ، والحَزَنُ والسَّهْلُ والحَيِثُ والطَّيْبُ « غيرَ أَنِّي اسْتَبْتُ أَنَا حُبَّ المَالِ من هذا الحديثِ ، وهو معنى غريبٌ لم أُسْبِقْ إليه .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام ، وهو :

« ليس السَّحْرُ ما أُودِعَ في جُفِّ طَلْعَةٍ (١٤٦) ، بل ما أُودِعَ في صَوغٍ مَعْنَى أو نَظْمٍ سَجَعَةٍ ، ولذلك لَبِيدٌ (١٤٧) في شِعْرِهِ أُسْحِرُ من لَبِيدٍ (١٤٨) في سِحْرِهِ ، وكلا صُنْعِهِمَا مِنَ الغَرِيبِ العَجِيبِ ، غيرَ أن ما يُسْتَنْبَطُ مِنَ القَلْبِ أَعْجَبُ ممَّا يُدْفَنُ في القَلْبِ » .  
وهذا المعنى مأخوذٌ من قِصَّةِ لَبِيدِ بنِ الأَعْصَمِ في سِحْرِهِ النَّبِيِّ ﷺ ، ومن عرفَ القِصَّةَ وصَوَّرَهَا عِلْمَ ما قَدْ ذَكَرْتَهُ في نثر هذه الكلمات البديعة .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف المنجنيق من جملة كتاب ، فقلت :

« وَنُصِبَ المَنْجَنِيقُ فَجَنَّمْ بين يدي السُّورِ مَنَاصِيبًا ، وَبَسَطَ كَفَّهُ إِلَيْهِ مُؤَاتِيًا ، ثم تولى عُقُوبَتَهُ بِعِصَاهِ الَّتِي تَفْتِكُ بِأَحْجَارِهِ ، وَإِذَا عَصَى عَلَيْهَا بَلْدٌ أَخَذَتْ في تَأْدِيبِ أسْوَارِهِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ اسْتَمَرَّتْ عُقُوبَتُهَا عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ قَائِمُهُ حَصِيدًا ، وَعَاصِيَهُ مُسْتَقِيدًا ، وقال : أَلَمْ يَكُنْ نَهَى عَنِ المَدِّ والتَّجْرِيدِ فَمَالِي لَا أَرَى إِلَّا مَدًّا وَتَجْرِيدًا . وعند ذلك أَدْعَنَ لِفَتْحِ الأبْوابِ ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » (١٤٩) وكذلك لَمْ نَأْتِ صَعْبًا

(١٤٦) الحف بالضم وعاء الطلع . والحف أصل النخلة .

(١٤٧) هو لبيد بن ربيعة العامري أحد أصحاب المعلقات .

(١٤٨) هو لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ . وفي حديث عائشة قول النبي ﷺ : أتاني رجلان فقعده أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي . فقال أحدهما لصاحبه . ما وجع الرجل ؟ فقال : مطيوب . قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر . قال : وأين هو ؟ قال في بئر ذروان . فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه . فجاء فقال : يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء . أو كان رءوس نخلها رءوس الشياطين . قلت : يا رسول الله أفلا استخرجته ؟ قال : قد عافاني الله . ففكرت أن أثور على الناس فيه شرًا فأمر بها فدفنت .

(١٤٩) سورة الرعد : الآية ٣٨ .



إِلَّا اسْتَسْهَلْ ، وَلَا حَتْنًا مَطِيًّا إِلَّا اسْتَعْجَلْ ، وَلطالَمَا وَقَفَ غَيْرُنَا عَلَى هَذَا الْبَلَدِ ، فَشَفَّهَ طُولُ الْإِنْتِظَارِ ، وَلَمْ يَحْظَ مِنْهُ إِلَّا بِمُسَاءَلَةِ الْمُنْصَبِ أَحْجَارَ الدِّيَارِ .

فِي هَذَا الْفَصْلِ مَعْنَى خَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي النَّهْيِ عَنِ ضَرْبِ الْمَحْدُودِ : « لَا مَدَّ وَلَا تَجْرِيدَ » أَيْ لَا يَمُدُّ عَلَى الْأَرْضِ ، وَلَا يُجْرِدُ عَنْهُ ثَوْبُهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي صَدْرِ كِتَابِ إِلَى الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ النَّبَوِيِّ ، وَهُوَ :

« خَلَّدَ اللَّهُ دَوْلَةَ الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ النَّبَوِيِّ ، وَلَا زَالَتْ أَكْنَفُهَا وَادِعَةٌ ، وَعَلِيَاؤُهَا جَامِعَةٌ ، وَجُدُودُهَا كَالنَّجُومِ الَّتِي تَرَى فِي كُلِّ حِينٍ طَالِعَةً ، وَأَيَامُهَا كَاللَّيَالِي سَاكِنَةٌ . وَلِيَالِهَا كَالْأَيَّامِ نَاصِعَةٌ ، وَأَبْوَابُهَا كَأَبْوَابِ الْجَنَّةِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا ثَامِنٌ وَثَامِنَةٌ ، إِذَا قِيلَ فِي أَبْوَابٍ غَيْرِهَا سَابِعٌ وَسَابِعَةٌ . وَهَذَا الدُّعَاءُ قَدْ اسْتَجَابَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ تُرْفَعَ إِلَيْهِ يَدٌ ، أَوْ يَنْطَقَ بِهِ ضَمِيرٌ ، فَإِذَا دَعَا بِهِ الْخَادِمُ وَجَدَ صُنْعَ اللَّهِ قَدْ سَبَقَهُ أَوْلَا ، وَجَاءَ هُوَ فِي الزَّمَنِ الْأَخِيرِ فَلَيْسَ لَهُ حَيْثُذٌ إِلَّا أَنْ يَدْعُو مَا خَوْلَهُ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ بِالذَّوَامِ ، وَأَنْ يُعَيِّدَهُ مِنَ النَّقْصِ بَعْدَ التَّمَامِ ، ثُمَّ يَسْتَهْدِي مَا يُؤَهِّلُ لَهُ مِنَ الْخِدْمِ الَّتِي يَعْتَدُّهَا مِنْ لَطَائِفِ الْإِحْسَانِ ، وَإِذَا نُدِبَ لَتَكْلِيفِ أَمْرٍهَا قَالَ وَالْحَمْدُ وَالشُّكْرُ يَسْجُدَانِ . وَلَا شَكَّ أَنْ دَرَجَاتِ الْأَوْلِيَاءِ تَتَفَاوَتْ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ ، فَهِيَ مَا يَكُونُ بِيْطْنِ الْأَرْضِ ، وَمِنْهَا مَا يُرَى كَالْكَوْكَبِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا النَّهْيُ عَنِ تَرْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لِادَّعَى الْخَادِمُ أَنْ لَهُ أَعْلَاهَا ، وَجَاءَ بِالْأَوْلِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ : « وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا » (١٥٠) . لَكِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِمَا يَعْتَدُّهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ذَخَرِهِ ، وَسِرِّ الْوَلَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَكْرَمُ مِنْ جَهْرِهِ ، وَلَيْسَ الَّذِي يَمُنُّ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ كَالَّذِي يَمُنُّ بِسِرِّهِ وَقَرَفِي صَدْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَعْمَالِ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى الْقُلُوبِ ، وَفَرَقَ بَيْنَ الْمُطِيعِ بِمَحْضَرِ الشَّهَادَةِ ، وَبَيْنَ الْمُطِيعِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَلَوْ اطَّلَعَ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ عَلَى ضَمِيرِ الْخَادِمِ فِي الطَّاعَةِ لَسَرَّهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ الْأَشْعَثُ الْأَغْبَرُ الَّذِي لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ .

في هذا الفصل من الآيات والأخبارِ عدّة مواضع . وهذا الموضعُ مختصّ بالأخبارِ  
فلنذكرها دون الآيات .

وأما الأول منها فقولُ النبيّ ﷺ : « إنكم ترون أهلَ الدَّرَجَاتِ العُلَا في الجنّةِ كما  
تروُن الكواكب في أفق السماء » .

وأما الخبرُ الثاني فقولُه ﷺ : « ما فضلكم أبو بكر بصلاةٍ وصيام ، ولكن فضلكم  
بسِرٍّ وقرّ في صدره » .

وأما الخبرُ الثالث فقولُه ﷺ : « ربّ أشعثٍ أغيرٍ ذى طمرين لو أقسم على الله  
لأبْرَه » .

وفيا أوردته من حل المعاني الشعرية ، وحلّ آياتِ القرآن والأخبارِ النبوية ، طريقٌ  
واضحٌ لمن يقوى على سلوكه ، والله الموفق للصواب .

# المقالة الأولى

## في الصناعة اللفظية

وهي تنقسم قسمين :

### القسم الأول

#### في اللفظة المفردة

أعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء :

الأول منها : اختيار الألفاظ المفردة :

وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم .

الثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها :

لتلا يجيء الكلام قليلاً نافرماً عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها .

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه :

وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شفاً<sup>(١)</sup> في الأذن . ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

فهذه ثلاثة أشياء ، لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر .

(١) الشف : القرط .

فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المرادُ بالفصاحة . والثلاثة يجملتها هي المرادُ بالبلاغة .

وهذا الموضعُ يضلُّ في سلوكِ طريقةِ العلماءُ بصناعةِ صَوغِ الكلامِ من النَّظمِ والنَّثْرِ ، فكيفَ الجهَّالَ الذينَ لم تَنفَحَهُمُ رائحةُ ، وَمَنْ الَّذِي يُؤْتِيهِ اللهُ فِطْرَةَ ناصعةٍ ، يكادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ولو لم تَمَسَّهُ نارُ ، حتى ينظُرَ إلى أسرارِ ما يستعملُهُ من الألفاظِ ، فيضعُها في مواضعِها .

ومن عَجيبِ ذلكَ أنكَ ترى لفظَينِ تدلانِ على معنى واحدٍ ، وكلاهما حسنٌ في الاستعمالِ ، وهما على وَزن واحدٍ وعِدَّة واحدةٍ ، إلاَّ أنَّه لا يحسُنُ استعمالُ هذه في كلِّ موضعٍ تستعملُ فيه هذه ، بل يُفَرِّقُ بينهما في مواضعِ السَّبكِ ، وهذا لا يدركُهُ إلاَّ مَنْ دقَّ فهمُهُ ، وجلَّ نظَرُهُ .

فمن ذلكَ قولُهُ تعالى : « ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قَليينِ في جَوفِهِ »<sup>(٢)</sup> وقولُهُ تعالى : « ربِّ إِنِّي نذرتُ لكَ ما في بطني مُحَرَّرًا »<sup>(٣)</sup> . فاستعمل « الجوفُ » في الأولى ، و« البطنُ » في الثانية ، ولم يستعمل « الجوفُ » موضعَ « البطنِ » ولا « البطنُ » موضعَ « الجوفِ » . واللفظتانِ سواءٌ في الدَّلالةِ ، وهما ثلاثِيَّتَانِ في عددٍ واحدٍ ، ووزنُها واحدٌ أيضًا . فانظُرْ إلى سبكِ الألفاظِ كيفَ تفعلُ .

ومما يجرى هذا الجرى قولُهُ تعالى : « ما كذَبَ الفؤادُ ما رَأَى »<sup>(٤)</sup> . وقولُهُ : « إنَّ في ذلكَ لَذِكْرًا لِمَن كانَ له قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيدٌ »<sup>(٥)</sup> فالقلبُ والفؤادُ سواءٌ في الدَّلالةِ ، وإن كانا مختلفَينِ في الوزنِ ، ولم يستعمل في القرآنِ أحدهما في موضعِ الآخرِ

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٤ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٣٥ ومعنى « محررا » مخلصا للعبادة .

(٤) سورة النجم : الآية ١١ .

(٥) سورة (ق) : الآية ٣٧ .

وعلى هذا وَرَدَ قَوْلُ الْأَعْرَجِ (٦) مِنْ آيَاتِ الْحِمَاةِ :  
 نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلَ  
 الْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ (٧)

وقال أبو الطيب المتنبي :

إِذَا بِي مَشَتْ حَقَّتْ عَلَى كُلِّ سَابِحٍ رَجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ (٨)  
 فهاتان لفظتان هما « العسل » و « الشهد » وكلاهما حَسَنٌ مُسْتَعْمَلٌ ، لَا يُشَكُّ فِي  
 حَسَنِهِ وَاسْتِعْمَالِهِ . وَقَدْ وَرَدَتْ لَفْظَةُ « الْعَسَلِ » فِي الْقُرْآنِ دُونَ لَفْظَةِ « الشَّهْدِ » لِأَنَّهَا أَحْسَنُ  
 مِنْهَا ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ لَفْظَةَ « الشَّهْدِ » وَرَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ ، فَجَاءَتْ أَحْسَنَ مِنْ  
 لَفْظَةِ « الْعَسَلِ » فِي بَيْتِ الْأَعْرَجِ .

وكثيراً ما نجدُ أمثال ذلك في أقوال الشعراء المفلقين وغيرهم من بلغاء الكتاب  
 ومُصَفِّحِي الْخِطْبَاءِ ، وَتَحْتَهُ دَقَائِقُ وَرَمُوزٌ إِذَا عُلِمَتْ وَقِيَسَ عَلَيْهَا أَشْبَاهُهَا وَنَظَائِرُهَا كَانَ  
 صَاحِبُ الْكَلَامِ فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ قَدْ انْتَهَى إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى فِي اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ ،  
 وَوَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا اللَّائِقَةِ بِهَا .

(٦) قال التبريزي : قيل الصحيح إنها لعمر بن يثرب . وكلاهما من شعراء الإسلام . والأعرج منسوب إلى  
 معن طيئ . وقد أدرك الدولتين . وكان أحد الخوارج في زمن بني أمية وبني العباس .

(٧) لعل ابن الأثير اختصر الشعر على هذا النحو . والشعر كما ورد في الحماسة ( ١١٠/١ ) على هذا الترتيب :

أنا أبو برزة إذ جد الوهل خلقت غير زمل ولا وكل  
 ذا قوة وذا شباب مقبل لا جزع اليوم على قرب الأجل  
 الموت أحلى عندنا من العسل نحن بني ضبة أصحاب الجمل  
 نحن بنو الموت إذا الموت نزل ننعى ابن عفان بأسراف الأسل  
 \* ردوا علينا شيخنا ثم يجمل \*

الوهل : الفرع . والزمل : الضعيف . والوكل : الذي يتكل على غيره . والأصل : الرماح . ويجل بمعنى

حسب .

(٨) هكذا رواه ابن الأثير . ورواية الديوان ( ٣٧٤/١ ) :

إذا شئت حفت بي على كل سابع رجال كأن الموت في فمها شهد  
 والسابع : الفرس السريع الجري . كأنه يسبح في سيره . والشهد : العسل .

واعلم أن تفاوتَ التفاضل يقعُ في تركيب الألفاظ أكثر مما يقعُ في مُفرداتها ، لأن التركيبَ أعسرُّ وأشقُّ .

ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم - من حيث انفرادها - قد استعملتها العربُ ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوقُ جميعَ كلامهم ، ويعلو عليه ؟ وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب .

وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكَّرتَ في قوله تعالى : « وقيل يا أرضِ ابلعي ماءك ، وياسماءُ أَقْلعي ، وَغِيضَ الماءِ ، وقصِي الأمرُ ، واستوتِ على الجوديِّ ، وقيل بُعْدًا للقومِ الظالمينَ » (٩) ، أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظِ من المزية الظاهرة إلا الأمرُ يرجعُ إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحُسْنُ إلا من حيث لاقَتْ الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها .

فإن ارتبَّتْ في ذلك فتأمل ، هل ترى لفظَةً منها لو أُخِذَتْ من مكانها ، وأُفِرِدَتْ من بين أخواتها كانت لابسَةً من الحُسْنِ ما لبسَتْه في موضعها من الآية ؟ وما يشهدُ لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروك في كلام ، ثم تراها في كلامٍ آخر ، فتكرهها ، فهذا ينكره من لم يذُقْ طعمَ الفصاحةِ ولا عَرَفَ أسرارَ الألفاظِ في تركيبها وانفرادها (١١) .

وسأضربُ لك مثلاً يشهدُ بصحة ما ذكرته ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر ، فجاءت في القرآنِ جَزَلَةً مَبِينَةً ، وفي الشعرِ رَكِيكَةً ضَعِيفَةً ، فأثر التركيب فيها هَدَيْنِ الوصفين الضدِّين .

---

(٩) سورة هود : الآية ٤٤ .

(١٠) الرأي الذي قاله ابن الاثير في أن مجال التفاوت إنما هو في التراكيب دون الألفاظ هو رأي عبد القاهر الجرجاني الذي بسطه في كتابه « دلائل الإعجاز » بل إن ابن الأثير الذي يباهى دائماً بابتكاره نقل رأي عبد القاهر بأكثر كلماته ، وهو ما زال عينه هو الذي مثل به عبد القاهر وعلق عليه هذا التعليق بتفصيل أكثر - انظر دلائل الإعجاز : صفحة ٣٦ وما بعدها .

(١١) عبارة عبد القاهر الجرجاني : وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر . انظر دلائل الإعجاز صفحة ٣٨ .

أما الآيةُ فهي قوله تعالى : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » (١٢) .

وأما بيتُ الشعر فهو قولُ أبي الطَّيِّبِ المُنْتَسِي :  
تَلَدُّ لَهُ المَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الغَرَامُ (١٣)  
وهذا البيتُ من أبياتِ المعاني ، الشريفة ، إلا أن لفظه « تؤذى » قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن ، فحطت من قدر البيت ، لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية .

فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه واغرضه على طبعك السليم ، حتى تعلم صحته . وهذا موضعٌ غامضٌ يحتاجُ إلى فضلِ فِكْرَةٍ ، وإمعانِ نَظَرٍ وما تعرَّضَ للتنبيه عليه أحد قبلي (١٤) .

وهذه اللفظة التي هي « تؤذى » إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مُتَدْرِجاً مع ما يأتي بعدها ، متعلقة به ، كقوله تعالى : « إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ » وقد جاءت في قول المنبئى منقطعة . ألا ترى أنه قال : « تَلَدُّ لَهُ المَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي » ثم قال : « وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الغَرَامُ » فجاءَ بكلامٍ مستأنف .

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي ، وأُضِيفَ إليها كافُ الخِطَابِ ، فأزال ما بها من الضعف والرُّكَّة . وذلك أنه اشتكى النبي ﷺ ، فجاءه جبريلُ عليه السلام ، ورقاه ، فقال : « بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ » .

فانظر إلى السر في استعمال اللفظة الواحدة ، فإنه لما زيدَ على هذه اللفظة حرفٌ واحدٌ أَصْلَحَهَا وَحَسَّنَهَا .

ومن هاهنا تُرَادُ الهَاءُ في بعض المواضع ، كقوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ : هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ » (١٥) ثم قال : « مَا أَغْنَى

(١٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٣ . (١٣) ديوان المتنبي ٧٥/٤ .

(١٤) كذب ابن الأثير وغلط . وليح فيها قال رأى جديد لم يسبق إليه ، بل إنه نقل كلام عبد القاهر ورأيه

وأمثلته كما سبقت الإشارة إلى ذلك . (١٥) سورة الحاقة : الآيات ١٩ ، ٢٠ .

عَنِّي مَالِيهِ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ<sup>(١٦)</sup> » فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ كِتَابِي ، وَحِسَابِي ، وَمَالِي ، وَسُلْطَانِي ، فَلَمَّا أُضِيفَتِ الْمَاءُ إِلَيْهَا - وَتَسْمَى « هَاءُ السَّكْتِ » - أَضَافَتْ إِلَيْهَا حُسْنًا زَائِدًا عَلَى حُسْنِهَا ، وَكَسَتْهَا لَطَافَةٌ وَلِبَاقَةٌ .

وَكذَلِكَ وَرَدَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : « إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تَسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ »<sup>(١٧)</sup> فَلَفْظَةُ « لِي » أَيْضًا مِثْلَ لَفْظَةِ « يُؤْذِي » وَقَدْ جَاءَتْ فِي الْآيَةِ مَنْدَرَجَةً مُتَعَلِّقَةً بِمَا بَعْدَهَا ، وَإِذَا جَاءَتْ مَنْقُوعَةً لَا تَجِيءُ لَاتِّقَةَ ، كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ أَيْضًا :

تَمْسِي الْأَمَانِي صَرَعِي دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لَشَيْءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لِي<sup>(١٨)</sup>  
وَبِمَا وَقَعَ بَعْضُ الْجَهَّالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَدْخَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي بَأْنَ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِي<sup>(١٩)</sup>  
فَإِنَّ لَفْظَةَ « لِي » هَاهُنَا قَدْ وَرَدَتْ بَعْدَ « مَا » وَقَبْلَهَا « مَالَهُ » ثُمَّ قَالَ : « وَمَالِي » فَجَاءَ الْكَلَامُ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ . وَلَوْ جَاءَتْ لَفْظَةُ « لِي » هَاهُنَا كَمَا جَاءَتْ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لَكَانَتْ مَنْقُوعَةً عَنِ النَّظِيرِ وَالشَّيْبَةِ ، فَكَانَ يَعْלוها الضَّعْفُ وَالرَّكَّةُ .  
وَيَنْ وُورُودَهَا هَاهُنَا وَوُورُودِهَا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فَرَّقَ يَحْكُمُ فِيهِ الذَّوْقُ السَّلِيمُ .

وَهَاهُنَا مِنْ هَذَا النَّوْعِ لَفْظَةٌ أُخْرَى قَدْ وَرَدَتْ فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَفِي بَيْتٍ مِنْ شِعْرِ الْفَرَزْدَقِ ، فَجَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ حَسَنَةً ، وَفِي الْبَيْتِ الشَّعْرِ غَيْرَ حَسَنَةٍ ، وَتِلْكَ اللَّفْظَةُ هِيَ لَفْظَةُ « الْقَمْلُ » أَمَا الْآيَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ »<sup>(٢٠)</sup> . وَأَمَا بَيْتُ الشَّعْرِ فَقَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :  
مِنْ عِزِّهِ احْتَجَرَتْ كُلِّيبٌ عِنْدَهُ زَرْبًا كَانَتْهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ<sup>(٢١)</sup>

(١٦) سورة الحاقة : الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(١٧) سورة (ص) : الآية ٢٣ .

(١٩) ديوان المتنبي ٣/٣١١ .

(٢٠) سورة الأعراف : الآية ١٣٣ .

(٢١) هكذا في المثلي السائر ، ورواية ديوان الفرزدق (٧١٥) :

من عزمهم جحرت كليب بيتها زربا كأنهم لديه القمل

ومعنى جحرت دخلت جحرها ، واجتحر له جحرًا اتخذه ، واجتحر الأرض ضرب عليها منارًا ، واجتحر به التبعًا واستعاذ ، والزرب موضع الغنم ، والقمل الدبى ، وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ، أو البراغيث ، أو كبار القردان .



وإنما حَسُنَتْ هذه اللفظة في الآية دونَ هذا البيت من الشَّعر لآنها جاءتْ في الآية مُندرجة في ضِمْنِ كلام ، ولم يَنْقَطِعِ الكلامُ عندها ، وجاءتْ في الشَّعر قافية ، أُنِيَ آخراً انقطعَ الكلامُ عندها .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى حِكْمَةِ أَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ غُضْنَا مِنْهُ فِي بَحْرِ عَمِيقٍ لِأَقْرَارِ لَهُ .

فَمِنْ ذَلِكَ الْآيَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا ، فَإِنَّهَا قَدْ تَضَمَّنَتْ خَمْسَةَ أَلْفَاظٍ ، وَهِيَ : الطَّوْفَانُ ، وَالْجِرَادُ ، وَالْقُمَّلُ ، وَالضَّفَادِعُ ، وَالذَّمُّ . وَأَحْسَنُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْخَمْسَةِ هِيَ الطَّوْفَانُ ، وَالْجِرَادُ ، وَالذَّمُّ . فَلَمَّا وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الْخَمْسَةُ بِحَمَلَتِهَا قُدِّمَ مِنْهَا لَفْظَتَا « الطَّوْفَانُ » وَ « الْجِرَادُ » وَأَخْرَتْ لَفْظَةُ « الذَّمُّ » آخِراً ، وَجُعِلَتْ لَفْظَةُ « الْقُمَّلُ » ، وَالضَّفَادِعُ » فِي الْوَسْطِ ، لِيَطَّرِقَ السَّمْعَ أَوَّلًا الْحَسَنُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْخَمْسَةِ ، وَيَنْتَهِيَ إِلَيْهِ آخِراً . ثُمَّ إِنْ لَفْظَةُ « الذَّمُّ » أَحْسَنُ مِنْ لَفْظَتِي « الطَّوْفَانُ » وَ « الْجِرَادُ » وَأَخْفُ فِي الْاسْتِعْمَالِ ، وَمَنْ أَجَلُ ذَلِكَ جِيءَ بِهَا آخِراً . وَمُرَاعَاةٌ مِثْلُ هَذِهِ الْأَسْرَارِ وَالذَّفَاتِقِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَلْفَاظِ لَيْسَ مِنَ الْقُدْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ مِنْ تَقْدِيمِي مِنْ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ لِلأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ خِصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا . وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، وَاسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئاً ، فَخُولَفَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ اسْتَقْبَحَ الْآخَرُ شَيْئاً ، فَخُولَفَ فِيهِ .

وَلَوْ حَقَّقُوا النَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى السَّرِّ فِي اتِّصَافِ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ بِالْحَسَنِ وَبَعْضِهَا بِالْقَبِيحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا .

وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ (٢١) مِنْ مَقْدَمَةِ كِتَابِي الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ الْفَصَاحَةِ ، وَفِي الْوَقُوفِ عَلَيْهِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِ غِنَى عَنْ غَيْرِهِ ، لَكِنْ لَا بَدَّ أَنْ نَذَكَرَ هَاهُنَا تَفْصِيلاً لَمَا أَجْمَلْنَا هُنَاكَ ، لِأَنَّ ذِكْرَنَا فِي ذَلِكَ الْفَصْلِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ دَاخِلَةً فِي حَيْزِ الْأَصْوَاتِ ، لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ مِنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ ، فَمَا اسْتَلْذَهُ السَّمْعُ مِنْهَا فَهُوَ الْحَسَنُ ، وَمَا كَرِهَهُ وَنَبَأَ عَنْهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ .

وإذا ثبت ذلك فلا حاجة إلى ما ذكر من تلك الخصائص والهيئات التي أوردتها علماء البيان في كتبهم ، لأنه إذا كان اللفظ لذيذاً في السَّمع كان حسناً ، وإذا كان حسناً دخلت تلك الخصائص والهيئات في ضمن حسنه .

وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم : إن هذه اللفظة حسنة . وهذه قبيحة ، أنكروا ذلك ، وقال : كلُّ الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسناً ! ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة « العصن » ولفظه « العسلوج » وبين لفظة « المدامة » ولفظة « الإسفنت » وبين لفظة « السيف » ولفظه « الخنسليل » وبين لفظة « الأسد » ولفظة « الفدوكس » فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاوب ، بل يُترك وشأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل تجهله . ولو ألقى الجعمر<sup>(٢٢)</sup> في رحله ! وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السوداء شوهاة الخلق ، ذات عين محمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ، وشعرٍ قَطَط<sup>(٢٣)</sup> كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل<sup>(٢٤)</sup> ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح<sup>(٢٥)</sup> ، وطرة<sup>(٢٦)</sup> كأنها ليل على صباح .

فإذا كان بإنسانٍ من سُقمِ النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سُقمِ الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهذه . ولا فرق بين النظرِ والسَّمع في هذا المقام ، فإنه هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

فإن عاند مُعانداً في هذا . وقال : أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الأشياء ، وقد يعشق الإنسان صورة الزنجية التي دَمَمَتها ، ويفضلها على صورة الرومية التي وصفتها !

قلت في الجواب : نحن لانحکمُ على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال . بل

(٢٢) الجعمر ما يبس من العذرة في الجعمر أي الدبر . أو نحو كل ذات مخلب من السباع .

(٢٣) شعر قَطَط شديد الجعودة ، وفي التهذيب : القَطَط شعر الزنجي .

(٢٤) الأسيل من الحدود الطويل المسترسل . (٢٥) الأقاح والأقاحي جمع الأقحوان وهو البابونج .

(٢٦) الطرة الناصية .

نحکم على الكثير الغالب . وكذلك إذا رأينا شخصاً يجب أكل الفحْم مثلاً ، أو أكل الجص والتراب . ويختار ذلك على ملاذ الأطعمة : فهل نستجيد هذه الشهوة ، أو نحكم عليه بأنه مريض ، قد فسدت معدته ، وهو محتاج إلى علاج ومداواة ؟ ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيدة كنغمة أوتار ، وصوتاً مُنكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل . وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم .

ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذى غلب عليه غلظ الطبع وفجاجة الذهن بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا ، فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغي أن تعلم أن الذى نستحسنه نحن في زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مُستحباً ، والذى نستقبحه هو الذى كان عندهم مُستقبحاً .

والاستعمال ليس بدليل على الحسن ، فإنما نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن ، وإنما نستعمله لضرورة . فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال . وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه . ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر ، وما يجده صاحبها من الكلام في صنوع الألفاظ واختيارها فإنه معذور في أن يقول ما قال :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها

ومع هذا فإن قول القائل بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا ، وهذا دليل على أنه حسن ، قول فاسد ، لا يصدر إلا عن جاهل ، فإن استحسان الألفاظ واستقباحتها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه شئ ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شئ يدل على خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه . وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الفصاحة والبلاغة .

وأما الذى تقلد العرب فيه من الألفاظ فإنها هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها ، والأخذ بأقوالها في الأوضاع النحوية ، في رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، وجر المضاف إليه ، وجزم الشرط ، وأشباه ذلك ، وما عداه فلا .

وحُسْنُ الألفاظِ وقبحُها ليسَ إضافياً إلى زيدٍ دُونَ عمرو ، أو إلى عمرو دُونَ زيدٍ .  
لأنه وصفٌ ذَوِيٌّ لا يتغيَّرُ بالإضافة .

ألا تَرَى أن لفظه « المُرْتَنَة » مثلاً حسنةٌ عند الناسِ كافةً من العرب وغيرهم ، وهلمَّ  
جراً . لا يختلفُ أحدٌ في حُسْنِها . وكذلك لفظه « البُعاق » فإنها قبيحةٌ عند الناسِ كافةً  
من العرب وغيرهم ، فإذا استعملتها العربُ لا يكونُ استعمالهم إياها مُخرِجاً لها عن  
القُبْحِ ، ولا يُلْتَفَتُ إذن إلى استعمالهم إياها بل يعابُ مُستعملها ، ويُغْلَظُ له النَّكِيْرُ حيثُ  
استعملها .

وقد ذكر ابنُ سنانِ الخفاجيُّ ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف ، وقسمها إلى  
عدة أقسام : كتباعِدِ مخارجِ الحروف ، وأن تكون الكلمة جاريةً على العُرفِ العربيِّ  
غيرَ شاذةٍ ، وأن تكون مصغرةً في موضع يُعبَّرُ به عن شيء لطيف أو خفي أو ماجرى  
بجراه . وأن لا تكون مبتدلةً بين العامة ، وغير ذلك من الأوصاف . وفي الذي ذكره مالا  
حاجةً إليه .

أما تباعدُ المخارجِ فإنَّ معظمَ اللغة العربيةِ دائرٌ عليه ، لأنَّ الواضعَ قسمها في وضعه  
ثلاثة أقسامٍ : ثلاثياً ، ورباعياً وخماسياً .

والثلاثيُّ من الألفاظِ هو الأكثرُ ، ولا يوجدُ فيه ما يُكرَهُ استعماله إلا الشاذُّ النادرُ .

وأما الرباعيُّ فإنه وسطٌ بين الثلاثيِّ والخماسيِّ في الكثرة عدداً واستعمالاً .

وأما الخماسيُّ فإنه الأقلُّ ، ولا يوجدُ فيه ما يستعملُ وإلا الشاذُّ النادرُ .

وعلى هذا التقدير فإنَّ أكثرَ اللغةِ مستعملٌ على غيرِ مكروهٍ ، ولا تقتضي حكمة هذه

اللغةِ الشريفة التي هي سيدهُ اللغاتِ إلا ذلكَ . ولهذا أسقطَ الواضعُ حروفاً كثيرةً في

تأليفِ بعضها مع بعضٍ استثقلاً واستكراهاً ، فلم يؤلفْ بين حروفِ الحلقِ كالحاءِ

والحاءِ والعينِ . وكذلك لم يؤلفْ بين الجيمِ والقافِ ولا بين اللامِ والراءِ ولا بين الزاءِ

والسينِ . وكل هذا دليلٌ على عنايته بتأليفِ المتباعِدِ المَخارجِ دونَ المتقاربِ . ومن

العجب أنه كان يُخِلُّ بمثلِ هذا الأصلِ الكليِّ في تحسينِ اللغةِ ، وقد اعتنى بأموْرٍ آخرَ

جزئيةٍ . كمماثلته بين حركاتِ الفِعلِ في الوجودِ وبين حركاتِ المصدرِ في النطقِ

كالغليان ، والضربان ، والنقدان ، والتزوان ، وغير ذلك مما جرى مجراه ، فإن حروفه جميعها متحركات ، وليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظري حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق ، التي هي كالأطراف والحواشي ، فكيف كان يخل بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ، على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، وهل هي متباعدة أو متقاربة ، لطال الخطب في ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظم قصيداً ، ولا الكاتب ينشئ كتاباً إلا في مدة طويلة تمضي عليها أيام وليال ذوات عدد كثير . ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ ، وقبح ما يقبح .

وسأضرب لك في هذا مثلاً ، فأقول : إذا سُئِلت عن لفظ من الألفاظ ، وقيل لك : ماتقول في هذه اللفظة ، أحسنه هي أم قبيحة ؟ فإني لأراك عند ذلك لا تُفتي بحسنها أو قبحها على الفور ، ولو كنت لا تُفتي بذلك حتى تقول للسائل : اصبر إلى أن أعتبر مخارج حروفها ، ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح ، لصح لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطاً في اختيار الألفاظ ، وإنما شد عنه الأصل في ذلك ، وهو أن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج . فحسناً الألفاظ إذن ليس معلوماً من تباعد المخارج ، وإنما عُلِمَ قبل العلم بتباعدها .

وكل هذا راجع إلى حاسة السمع . فإذا استحسنْتَ لفظاً أو استقبحته وجد ما تستحسبه متباعد المخارج ، وما تستقبحه متقارب المخارج ، واستحسانها واستقبحها إنما هو قبل اعتبار المخارج ، لا بعده . على أن هذه قاعدة قد شد عنها شواذ كثيرة ، لأنه قد يجيء في المتقارب المخارج ، ما هو حسن رائق .

ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها «الشجرية» وإذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسناً رائقاً .

فإن قيل «جَيْش» كانت لفظة محمودة، أو قدّمت البشِينُ على الجيم، فقيل «شجى» كانت أيضاً لفظة محمودة، وممّا هو أقربُ مخرجاً من ذلك الباءُ والميمُ والفاءُ، وثلاثتها من الشّفةِ، وتسمّى «الشّفهية» فإذا نظّمَ منها شيءٌ من الألفاظِ كان جميلاً حسناً كقولنا «فم» فهذه اللفظةُ من حرفين هما: الفاءُ والميمُ، وكقولنا «ذُقته بيمى» وهذه اللفظةُ مؤلفة من الثلاثةِ بجملتها، وكلاهما حسنٌ لا عيبَ فيه.

وقد وردَ من المتباعدِ المخارجِ شيءٌ قبيحٌ أيضاً، ولو كان التباعداً سبباً للحسنِ لَمَا كان سبباً للقبحِ، إذ هُمَا ضِدَّانِ لا يَجْتَمِعَانِ. فنَ ذلكَ أَنَّهُ يُقَالُ «مَلَع» إِذَا عَدَا، فالميمُ مِنَ الشّفةِ، والعينُ من حُرُوفِ الحَلْقِ، واللامُ من وَسَطِ اللسانِ، وكلُّ ذَلِكَ متباعداً، ومعَ هذا فَإِنَّ هذه اللفظةَ مكروهةُ الاستعمالِ يَنبُو عنها الذوقُ السَلِيمُ، ولا يَسْتَعْمَلُهَا مَنْ عِنْدَهُ مَعْرِفَةٌ بِفَنِّ الفِصاحَةِ.

وهاهنا نكتةٌ غريبةٌ، وهو أَنَا إِذَا عَكَسْنَا حُرُوفَ هذه اللفظةِ صارتَ «عَلَم» وعندَ ذَلِكَ تَكُونُ حَسَنَةً لا مَزِيدَ على حُسْنِهَا.

وما ندرى كيف صارَ القبحُ حُسْنًا؟ لَأنَّهُ لم يَتَغَيَّرَ من مَخارجِها شيءٌ، وَذَلِكَ أَنَّ اللامَ لم تَزَلْ وَسَطًا، والميمُ والعينُ يَكْتَنِفَانِها من جَانِبَيْهَا، ولو كانَ مَخارجُ الحروفِ مُعْتَبَرًا في الحَسَنِ والقَبْحِ لَمَا تَغَيَّرَتْ هذه اللفظةُ في «ملع» و«علم».

فإن قيل: إن إخراجَ الحروفِ من الحلقِ إلى الشّفةِ أيسرُ من إدخالِها من الشّفةِ إلى الحلقِ، فإن ذلك انحدارٌ، وهذا صُعودٌ، والانحدارُ أسهلُ!

فالجوابُ عن ذلك أَنى أقولُ: لو استمرَّ لك هذا لَصَحَّ ما ذَهَبَتْ إليه، لكنَّا نرى من الألفاظِ ما إِذَا عَكَسْنَا حُرُوفَهُ من الشّفةِ إلى الحلقِ، أو من وَسَطِ اللسانِ أو من آخِرِهِ إلى الحلقِ لا يَتَغَيَّرُ كقولنا «غلب» فإنَّ العَيْنَ من حروفِ الحلقِ، واللامُ من وَسَطِ اللسانِ، والباءُ من الشّفةِ. وَإِذَا عَكَسْنَا ذلكَ صارَ «بلغ» وكلاهما حسنٌ مليحٌ.

وكذلكَ تقول: «حلم» من الحلمِ، وهو الأناةُ، وَإِذَا عَكَسْنَا هذه الكلمةَ صارتَ «مُلَح» على وزنِ فَعَلَ بفتحِ الفاءِ وضمِّ العينِ، وكلاهما أيضاً حسنٌ مليحٌ.

وكذلكَ تقول: «عقر» و«رقع» و«عرف» و«فرع» و«حلف» و«فلح»

و « قلم » و « ملق » و « كلم » و « ملك » ولو شئت لأوردتُ من ذلك شيئاً كثيراً تصديقُ  
عنه هذه الأوراقُ .

ولو كانَ ما ذكرته مطرداً لكننا إذا عكسنا هذه الألفاظَ صارَ حُسْنُهَا قُبْحًا ، وليسَ  
الأمرُ كذلكُ .

وأما ما ذكره ابن سنان من جريان اللفظة على العرف العربيّ فليس ذلك مما يوجبُ  
لها حُسْنًا . ولا قُبْحًا . وإنما يقدحُ في معرفة مُستعملها بما يتقله من الألفاظِ ، فكيف يعدُّ  
ذلك من جُملة الأوصافِ الحسنة ؟ .

وأما تصغيرُ اللفظة فيما يُعبر به عن شيء لطيفٍ أو خفيٍّ أو ما جرى مجراه فهذا ممَّا  
لا حاجة إلى ذكره . فإن المعنى يسوقُ إليه ، وليست معاني التصغيرِ من الأشياء الغامضة  
التي يُفتقرُ إلى التنبهِ عليها . فإنها مدونة في كتب النحو ، وما من كتابٍ نحوٍ إلا والتصغيرُ  
بابٌ من أبوابه . ومع هذا فإن صاحبَ هذه الصناعة محيرٌ في ذلك ، إن شاء أن يوردهُ  
بلفظِ التصغيرِ ، وإن شاء بمعناه ، كقول بعضهم .

لو كان يخفى على الرحمن خافيةٌ من خلقه خفيت عنه بنو لبدٍ  
فهل يمكنُ هذا الشاعر أن يصغرَ من هؤلاء القومِ ، ويحقرَ من شأنهم بالألفاظِ  
التصغيرِ ، وبجىء هكذا ، كما جاء بيته هذا ؟ فالوصيةُ به إذن مُلغاةٌ ، لا حاجة إليها .  
وأما الأوصافُ الباقية التي ذكرتُ ، فهي التي ينبغي أن يُنبهَ عليها .  
فإنها أن لا تكونَ الكلمة وحشيةً .

### [ الوحشى ] :

وقد خفى الوحشى على جماعةٍ من المتتمين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنوه المستقبَحُ  
من الألفاظِ ، وليس كذلك ، بل الوحشى ينقسم قسمين : أحدهما : غريبٌ حسنٌ .  
والآخرُ : غريبٌ قبيحٌ .

وذلك أنه منسوبٌ إلى اسمِ الوحشِ الذي يسكنُ القفارَ ، وليس بأنيس ، وكذلك  
الألفاظُ التي لم تكنْ مأنوسة الاستعمالِ . وليس من شرطِ الوحشِ أن يكونَ مُستقبَحًا .

بلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ الْإِنْسَ ، فَتَارَةً يَكُونُ حَسَنًا . وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا .  
وعلى هذا فإنَّ أحدَ قِسْمَي الْوَحْشِيِّ - وهو الْغَرِيبُ الْحَسَنُ - يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ  
النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ .

وَأَمَّا الْقِسْمُ الْآخَرُ مِنَ الْوَحْشِيِّ - الَّذِي هُوَ قَبِيحٌ - فَإِنَّ النَّاسَ فِي اسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ ،  
وَلَا يَخْتَلِفُ فِيهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ ، وَلَا قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ .

وَأَحْسَنُ الْأَلْفَازِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا مَتَدَاوِلًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفًا مَتَدَاوِلًا إِلَّا لِمَكَانِ  
حُسْنِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ . فَإِنَّ أَرْبَابَ الْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ  
نَظَرُوا إِلَى الْأَلْفَازِ ، وَنَقَّبُوا عَنْهَا ، ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَحْسَنِ مِنْهَا فَاسْتَعْمَلُوهُ ، وَتَرَكُوا  
مَا سِوَاهُ ، وَهُوَ أَيْضًا يَتَفَاوَتُ فِي دَرَجَاتِ حُسْنِهِ .

فَالْأَلْفَازُ إِذْنٌ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةً أَقْسَامٍ : قِسْمَانِ حَسَنَانِ ، وَقِسْمٌ قَبِيحٌ .  
فَالْقِسْمَانِ الْحَسَنَانِ :

أحدهما : ما تداوَلَ اسْتِعْمَالُهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ مِنَ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا ، وَلَا  
يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ .

وَالْآخَرُ : ما تداوَلَ اسْتِعْمَالُهُ الْأَوَّلُ دُونَ الْآخِرِ ، وَيُخْتَلَفُ فِي اسْتِعْمَالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى  
الزَّمَنِ وَأَهْلِهِ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي لَا يِعَابُ اسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ  
وَحْشِيًّا ، وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ . وَقَدْ تَضَمَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْهُ كَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٌ ، وَهِيَ الَّتِي  
يُطْلَقُ عَلَيْهَا « غَرِيبُ الْقُرْآنِ » وَكَذَلِكَ تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مِنْهُ شَيْئًا ، وَهُوَ الَّذِي  
يُطْلَقُ عَلَيْهِ « غَرِيبُ الْحَدِيثِ » .

وحضر عندي في بعض الأيام رجلٌ مُتَفَلِّسٌ ، فَجَرَى ذِكْرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ،  
فَأَخَذَتْ فِي وَصْفِهِ ، وَذَكَرَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ :  
فَقَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ : وَأَيُّ فَصَاحَةٍ هُنَاكَ ، وَهُوَ يَقُولُ « تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضِيْرَى (٢٧) » ؟  
فَهَلْ فِي لَفِظَةِ « ضِيْرَى » مِنَ الْحُسْنِ مَا يُوَصَفُ ؟



فقلتُ له : اعلمَ أنَّ لاستعمالِ الألفاظِ أسراراً لم تَقِفْ عليها أنتَ ولا أئمتُّكَ ، مثل ابنِ سيناَ والفارابيِّ ، ولا منَ أصلهمُ مثل أرسطاليس وأفلاطون . وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن ، وهي لفظة « ضيزى » فإنها في موضعها لا يسدُّ غيرها مسدّها . ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعةٌ على حرف الياء (٢٨) فقال تعالى « والنجم إذا هوى \* ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » (٢٩) وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكرت الأصنام وقسمة الأولاد ، وما كان يزعمه الكفار قال : « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى » (٣٠) فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسدُّ مسدّها في مكانها .

وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا إنَّ غير هذه اللفظة أحسنُ منها ، ولكنّها في هذا الموضع لا تردُّ ملائمةً لأحواتها ، ولا مناسبة : لأنّها تكون خارجةً عن حرفِ السورة .

وسأبينُ ذلك فأقولُ : إذا جئنا بلفظةٍ في معنى هذه اللفظة قلنا : قسمة جائرة ، أو ظالمة . ولاشكَّ أن « جائرة » أو « ظالمة » أحسنُ من « ضيزى » إلا أنا إذا نظمنا الكلام ، فقلنا : ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ظالمة ، لم يكن النظم كالنظم الأول ، وصار الكلام كالشيء المعوز ، الذي يحتاجُ إلى تمامٍ ، وهذا لا يخفى على من له ذوقٌ ومعرفةٌ بنظم الكلام .

فلما سمعَ ذلك الرجلُ ما أوردته عليه ربا لسانه في فمه إفحاما ، ولم يكن عنده في ذلك شيءٌ سوى العناد الذي مستندهُ تقليدُ بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهياً ، ويقولون ما يقولونه جهلاً ، وإذا حوققوا عليه ظهرَ عجزهم وقصورهم .

وحيثُ انتهى القولُ إلى هاهنا فإنني أرجعُ إلى ما كنت بصددِ ذكره ، فأقولُ : وأمّا القبيحُ من الألفاظِ الذي يعابُ استعماله ، فلا يسمّى « وحشياً » فقط بل يسمّى « الوحشياً الغليظاً » وسيأتي ذكره .

(٢٨) يبدو أن ابن الأثير نظر إلى الحرف المكتوب . والعبارة في هذا بالحرف المنطوق ، وهو هاهنا الألف المقصورة . (٢٩) سورة النجم . الآيتان ١ - ٢ . (٣٠) سورة النجم : الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ الْكَلَامِ وَجَدْنَاهُ سَهْلًا سَلِسًا ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْغَرِيبَةِ يَسِيرٌ جِدًّا .

هَذَا ، وَقَدْ أُنْزِلَ فِي زَمَنِ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ ، وَالْفَاضِلُ كُلُّهَا مِنْ أَسْهَلِ الْأَلْفَاظِ وَأَقْرَبِهَا اسْتِعْمَالًا ، وَكَفَى بِهِ قُدُورَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ مِثْلَ أَمِّ الْقُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي » ، يَرِيدُ بِذَلِكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَجَدْنَاهَا سَهْلَةً قَرِيبَةً الْمَأْخَذِ ، يَفْهَمُهَا كُلُّ أَحَدٍ حَتَّى صِبْيَانِ الْمَكَاتِبِ وَعَوَامِ السُّوقِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُوا مَا تَحْتَهَا مِنْ أَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَإِنَّ أَحْسَنَ الْكَلَامِ مَا عَرَفَ الْخَاصَّةَ فَضْلَهُ ، وَفَهَمَ الْعَامَّةُ مَعْنَاهُ .

وَهَكَذَا فَلْتَكُنْ الْأَلْفَاظُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي سَهُولَةٍ فَهْمَهَا ، وَقُرْبِ مَتَنَاوَلِهَا ، وَالْمُقْتَدَى بِالْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ يَكْتَفِي بِهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَلْفَاظِ الْمُنْتَوَرَةِ وَالْمَنْظُومَةِ .

وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنَ اللَّفْظِ الْوَحْشِيِّ فِي الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ فَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ حَدِيثُ طَهْفَةَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ النَّهْدِيِّ<sup>(٣١)</sup> ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَتْ وَفُودُ الْعَرَبِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ طَهْفَةُ بْنُ أَبِي زُهَيْرٍ ، فَقَالَ : أَتَيْتَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ غَوْرَى تِهَامَةَ<sup>(٣٢)</sup> عَلَى أَكْوَارِ الْمَيْسِ<sup>(٣٣)</sup> تَرْتَمِي بِنَا الْعَيْسِ ، نَسْتَحْلِبُ الصَّبِيرَ<sup>(٣٤)</sup> . وَنَسْتَجْلِبُ الْخَيْرَ<sup>(٣٥)</sup> ، وَنَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ<sup>(٣٦)</sup> . وَنَسْتَحْيِلُ الرَّهَامَ<sup>(٣٧)</sup> وَنَسْتَحْيِلُ الْجَهَامَ<sup>(٣٨)</sup> ، فِي أَرْضِ غَائِلَةِ النَّظَاءِ<sup>(٣٩)</sup> ، غَلِيظَةِ الْوَطَاءِ ، وَقَدْ نَشَفَ الْمُدْهَنُ<sup>(٤٠)</sup> ، وَبَيْسَ الْجَعْشِنُ<sup>(٤١)</sup> وَسَقَطَ الْأَمْلُوجُ<sup>(٤٢)</sup> ، وَمَاتَ

(٣١) نهد إحدى قبائل اليمن .

(٣٢) أصل الغور ما تداخل من الأرض وانهدط ، وقيل كل ما انحدر سبيله مغربا فهو الغور .

(٣٣) الميس شجر تتخذ منه الرحال للينة وقوته ، ويطلق على الرحال نفسها .

(٣٤) الصبير السحاب الكثيف . (٣٥) الخير : العشب .

(٣٦) استعضد الثمرة اجتنها . ويرى ثمر الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجذب لقلّة الزاد .

(٣٧) الرهام : جمع رهمة وهي المطر الضعيف الدائم . ونستحيل نخال ونظن .

(٣٨) الجهام : السحاب قد أراق ماءه . (٣٩) النظاء : البعيد أى بعيدة بعداً مهلكا .

(٤٠) المدهن : مستنقع الماء ، أو كل موضع حفره سيل .

(٤١) أصل النبات . (٤٢) ورق كورق السرو لشجر بالبادية .

العُسْلُوجُ (٤٣) وَهَلَكَ الْهَدْيِيُّ (٤٤) وَفَادَ الْوَدِيُّ (٤٥) بَرِّثْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثَنِ وَالْعَثَنِ (٤٦) ، وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ ، لَنَا دَعْوَةَ السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَى الْبَحْرُ ، وَقَامَ تِعَارٌ (٤٧) ، وَلَنَا نَعْمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ مَا تَبَضُّ بِلَالٌ (٤٨) ، وَوَقِيرٌ كَثِيرُ الرَّسْلِ قَلِيلُ الرَّسْلِ (٤٩) . أَصَابَتْنَا سُنِّيَةٌ حَمْرَاءٌ مُؤَزَّلَةٌ لَيْسَ لَهَا عَمَلٌ وَلَا نَهْلٌ (٥٠) .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا ، وَمَحْضِهَا وَمَذْقِهَا وَفَرْقِهَا (٥١) ، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ (٥٢) بِيَانِعِ الثَّمْرِ ، وَافْجِرْ لَهُ الثَّمَدَ (٥٣) ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَالِدِ . مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا ، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مَخْلَصًا ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكَ (٥٤) ، وَوَضَائِعُ الْمَلِكِ ، لَا تَلْطَطُ (٥٦) فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تَلْجِدُ (٥٧) فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَنَاقَلُ مِنَ الصَّلَاةِ .

وَكُتِبَ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى بَنِي نَهْدٍ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى بَنِي نَهْدٍ : السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ فِي الْوَضِيعَةِ الْفَرِيضَةِ (٥٨) وَلَكُمْ الْفَارِضُ (٥٩) »

(٤٣) مالان واخضر من القضبان وعسلجت الشجرة أخرجته .

(٤٤) الهدى : ما يهدى إلى مكة لينحر . (٤٥) الودى : الفسيل وهو النخل الصغير .

(٤٦) العثن الصنم الصغير ، (٤٧) جبل ببلاد قيس .

(٤٨) الحمل المهملة ، والأغفال جمع غفل بالضم ، وهو مالا سمة عليه من الدواب وبض الماء بيض سأل

قليلا قليلا والبلال المبلل : والمراد قلة اللبن .

(٤٩) الوقير القطيع من الغنم : والرسل القطيع من كل شيء . والرسل اللبن .

(٥٠) سنية تصغير سنة . وهى القحط والمجاعة . وحمراء أى شديدة . ومؤزلة ذات أزل لسكون الزاى ، وهو

الضيق والشدة .

(٥١) المحض اللبن الخالص ومحض اللبن أخذ زبده ، والمذق اللبن الممزوج بالماء ، والفرق القطيع من الغنم .

(٥٢) الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير من كل شيء .

(٥٣) الثمد : الماء القليل لامادة له . أو ما يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف .

(٥٤) أى الغنائم التى تضم من المشركين ، وتودع بيت مال المسلمين ، ليقبوا بها على شئونهم .

(٥٥) الوضائع جمع وضاعة ، وهى ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور .

(٥٦) يقال لظطت عنه حقه إذا جحدته . (٥٧) يقال أخذ إذا مال ومارى وجادل .

(٥٨) الوظيفة النصاب فى الزكاة ، وأصله الشيء والراتب ، والفريضة الهرمة المسنة ، والمراد أنها لا تؤخذ

منهم فى الزكاة ، بل تكون لهم ، ويروى « عليكم فى الوظيفة الفريضة » أى فى كل نصاب ما فرض فيه .

(٥٩) الفارض المسنة كالفريضة ، ويروى « العارض » بالعين وهى المريضة ، أو التى أصابها كسر .

والفريش<sup>(٦٠)</sup> وذو العنان الركوب<sup>(٦١)</sup> والفلو الضبيس<sup>(٦٢)</sup> ، لا يُمنع سرحكم<sup>(٦٣)</sup> ،  
ولا يعضد طلحكم<sup>(٦٤)</sup> ، ولا يحبس دركم<sup>(٦٥)</sup> ، ولا يؤكل أكلكم ، ما لم تضمروا  
الإماق<sup>(٦٦)</sup> وتأكلوا الرباق<sup>(٦٧)</sup> . من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء  
بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرتبة .

وفصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في  
كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها ، كهذا الحديث ، وما جرى مجراه . على أنه قد  
كان في زمنه متداولاً بين العرب ، ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيراً ، لأنه أعلم  
بالفصيح والأفصح .

وهذا الكلام هو الذى نعدّه نحن في زماننا وحشياً ، لعدم الاستعمال .  
فلا تظن أن الوحشى من الألفاظ ما يكرهه سمعك ، ويثقل عليك النطق به ، وإنما  
هو الغريب الذى يقل استعماله . فتارة يحف على سمعك ، ولا تجد به كراهة ، وتارة  
يثقل على سمعك ، وتجد منه الكراهة .

وذلك في اللفظ عيبان :

أحدهما : أنه غريب استعمال .

والآخر : أنه ثقیل على السمع ، كرية على الذوق

وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وهو الذى يسمى

(٦٠) هى التى وضعت حديثاً . فهى كالفساء من النساء . والفرس بعد نتاجها سبع ليال .

(٦١) ذو العنان الركوب الفرس الذلول .

(٦٢) الفلو المهر الصغير . وقيل العظم من جميع أولاد ذوات الحافر . والضبيس العسر الصعب الذى لم

يرض . (٦٣) السرح المواشى السائمة . أى أنها لا تمتع من المرعى .

(٦٤) يعضد يقطع . والطلع شجر عظام .

(٦٥) الدر اللبن . والمراد ذوات الدر من المواشى .

(٦٦) الإماق مخفف من الإماق . ترك الهمز منه ليوازن الرباق . والإماق نكت العهد من الأنفة .

(٦٧) الرباق جمع ربق بالكسر . وهو جبل فيه عدة عرى تشد به البهيمة من يدها أو عنقها . والمعنى تقطعوا

رباق العهد الذى فى أعناقكم وتنفصوه . واستعار الأكل لذلك . لأن البهيمة إذا أكلت الربقة خلصت من  
الشد .

«الوحشى الغليظ» ويسمى أيضاً «المتوعر». وليس وراءه في القبح درجة أخرى ، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلاً .  
فإن قيل : فما هذا النوع من الألفاظ ؟

قلت : قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك ، ونقل على لسانك التطق به .  
وسأضربُ لك في ذلك مثالا ، فنه ماورد لتأبط شراً في كتاب الحماسة :  
يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ (٦٨)  
فإن لفظه : « جَحِيش » من الألفاظ المنكرة القبيحة ، وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى « فريد » وفريد لفظه حسنة راقية ، ولو وضعت في هذا البيت موضع « جَحِيش » لما اختلَّ شيء من وزنه .

فتأبط شراً ملوم من وجهين في هذا الموضع :  
أحدهما : أنه استعمل القبيح .

والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله ، فلم يعدل عنه .  
ومما هو أقبح منها ما ورد لأبي تمام قوله :

قد قلت لما اطلختم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبسا دهاريساً (٦٩)  
فلفظه « اطلختم » من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة ، وأنها غليظة في السمع ، كرهة على الذوق ، وكذلك لفظه « دهاريس » أيضاً .

(٦٨) ديوان الحماسة ٣١/١ ورواية الديوان :

• ويعرورى ظهور المهالك •

والمومة المفازة لاماء فيها ، والجحيش المنفرد ، ويعرورى أى يرتكب المهالك ، والمعنى أنه كثير الجولان في الأرض مستأنس بنفسه ، يرتكب المهالك لشدة حماسته وجرأته .

(٦٩) ديوان أبي تمام ١٧١ وهو من قصيدة يمدح بها عياش بن لبيعة ، ومطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً ورم بالصبر عقلا كان مالوساً

ومعنى اطلختم أظلم ، والعشواء ضعيفة البصر ، والقبس جمع غباء وهى المظلمة ، والدهاريس الدواهي .

وعلى هذا وَرَدَ قوله من أبياتٍ يصفُ فرساً من جُمَلتها :

نَعَمْ متاعُ الدُّنيا حَبَاكَ به أَرَوَعُ لَا جَيْدَرٌ وَلَا جَبْسٌ (٧٠)  
فلفظة « جَيْدَرٌ » غليظة . وأغلظُ منها قول أبي الطيب المتنبي :

جَفَحْتَ وَهُمْ لَا يَجْفَحُونَ بِهَا بِهِمْ شِيمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَعْرَدِ لَا تَلُّ (٧١)

فإن لفظة « جَفَحَ » مرّة الطعم ، وإذا مرّت على السَّمعِ اقشعرّ منها . وأبو الطيب في استعمالها كاستعمالِ تَأَبَّطَ شَرًّا لفظة « جَحِيشٍ » فإن تَأَبَّطَ شَرًّا كانت له مندوحة عن استعمالِ تلكَ اللفظة ، كما أشرنا إليه فيما تقدّم . وكذلك أبو الطيب في استعمالِ هذه اللفظة التي هي « جَفَحْتَ » فإنّ معناها فَخَرْتُ ، والجَفْحُ الفَخْرُ ، يقال « جَفَحَ فلان » إذا فَخَرَ . ولو استعملَ عَوْضاً عن « جَفَحْتَ » « فَخَرْتُ » لاستقامَ وزن البيت ، وحطّي في استعماله بالأحسن .

وما أعلمُ كيفَ يذهبُ هذا وأمثاله على مثلِ هؤلاء الفحول من الشعراء ؟! . وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الألفاظِ هو الوحشِيُّ اللَّفْظُ الغليظُ الَّذِي لَيْسَ له مايدانيه في قُبْحِهِ وكراهيته . وهذه الأمثلةُ دليلٌ على ما أردناه ، .

والعربُ إِذَنْ لَا تُلَامُ على استعمالِ الغريبِ الحَسَنِ مِنَ الألفاظِ ، وإنما تُلامُ على الغريبِ القبيحِ . وَأَمَّا الحَضْرَى فَإِنَّهُ يُلامُ على استعمالِ القسمين معاً . وهو في أحدهما أشدُّ ملامَةً من الآخرِ .

على أَنَّ هذا الموضعَ يحتاجُ إلى قيدٍ آخر ، وذلكَ استخرُجتهُ أنا دونَ غيري ، فإني

---

(٧٠) ديوان أبي تمام ١٦٧ وهو من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب . ومطلعها :

هل أثر من ديارهم دعس حيث تلاقى الأجرع والوعس

ورواية اللديوان « حيدر » بالخاء المهملة وهو القصير . والجيدر بمعناه . والأروع الذي يعجب الإنسان . والجبس الجامد الثقيل الروح .

(٧١) ديوان المتنبي ٢٥٨/٣ من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الله الأنطاكي . ومطلعها

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أو اهل

جفحت تكبرت وفخرت . وفي البيت تقديم وتأخير . وتقديره : جفحت هم شيم وفخرت . وهم لا يفخرون

بها . وشيهم دلائل على حسيهم الظاهر .

وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ، ولايسوغ في الخطب والمكاتبات .  
وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ماوردته من الأمثلة ، ولربما أنكره بعد ذلك إما  
عناداً ، وإما جهلاً ، لعدم الذوق السليم عنده .

فمن ذلك قول الفرزدق (٧٢) :

ولولا حياءُ زدتُ رأسك شجةً إذا سبرتُ ظلت جوائبها تغلى (٧٣)

شرنبئة شمطاء من ير ما بها تشبه ولو بين الخاسي والطفل (٧٤)

فقوله : « شرنبئة » من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا  
غير مستكرهة ، إلا أنها لو وردت في كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على  
مستعملها .

وكذلك وردت لفظه « مُشمخِر » (٧٥) فإن بشراً قد استعملها في أبياته التي يصف

فيها لقاء الأسد ، فقال :

وأطلقت المهند عن يميني فقد له من الأضلاع عَشراً

فخر مضر جأ بدم كاني هدمت به بناء مُشمخراً

وعلى هذا ورد قول البُحترى في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى ، فقال :

مُشمخِر تعلق له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقديس (٧٦)

فإن لفظه « مشمخِر » لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها هاهنا في  
الشعر . وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب بن نباتة ، كقوله في خطبة يذكر فيها

(٧٢) ديوان الفرزدق ٧١٣/٢ من قصيدة مطلعها :

ألا استهزأت مني هندية أن رأيت أسيراً يداني خطوه حلق الحجل

(٧٣) رواية الديوان « هزمة » موضع « شجة » والهزمة الشق ، والسير تقدير الجراحة .

(٧٤) الشرنبث في الأصل الغليظ ، أراد أنها قبيحة منكرة ، في الأصل « . . من يرتعى بها يشبه . . » ويقال

« غلام خناسي » إذا كان طوله خمسة أشبار . ولا يقال سداسي ولا سباعي . لأنه إذا بلغ ستة أشبار فهو رجل ،  
والطفل هو الصغير أو المولود .

(٧٥) المشمخِر الجبل العالى .

(٧٦) شرفات القصر : ما أشرف من بنائه ، ورضوى جبل ، وقديس جبل بنجد ، يشبه القصر في ضخامته

وارتفاعه بهذين الجبلين .

أهوالَ يومِ القيامةِ ، فقال : « اِقْمَطِرْ (٧٧) وبألها ، اشمخِرْ نكالها ، فما طابَتْ ، ولا ساغَتْ » .

ومن هذا الأسلوب لفظة « الكنهور » في وصف السحاب ، كقول أبي الطيب (٧٨) :

يَالَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِي دَمْعُهَا      نظرت إليك كما نظرتُ فتَعَدَّرَا  
وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لِاتْرُدُّ فَضِيلَةَ      الشمسِ تُشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنَهَوْرًا (٧٩)

لفظة « الكنهور » لاتعابُ نظماً ، وتُعَابُ نثراً .

وكذلك يَجْرَى الأمرُ في لفظة « العرْمِس » وهي اسمُ الناقةِ الشديدة . فإن هذه اللفظة يَسُوغ استعمالها في الشعر ، ولا يعابُ مُستعملها ، كقول أبي الطيب أيضاً :

وَمَهْمَهُ جَبْتُهُ عَلَى قَدَمِي      تَعَجُّزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّلُّ (٨٠)

فإنه جَمَعَ هذه اللفظة ، ولأبأس بها ، ولو استعملت في الكلامِ المشهورِ لما طابَتْ ولا ساغَتْ . وقد جاءتُ موحدة في شعر أبي تمام (٨١) كقوله :

هِيَ الْعَرْمِسُ الْوَجْنَاءُ وَابْنُ مِلْمَةٍ      وَجَأَشُ عَلَى مَا يُحْدِثُ الدَّهْرُ خَافِضُ (٨٢)  
وكذلك وَرَدَ قوله أيضاً : « يَأْمُوضِعَ الشَّدْنِيَّةَ الْوَجْنَاءُ »\* (٨٣)

(٧٧) افطر: اشتد.

(٧٨) ديوان المتنبي ١٧١/٢ من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد . ومطلعها :

بادهواك صبرت أم لم تصبرا      وبكالك إن لم يجر دمك أو جرى

(٧٩) الكنهور: العظم المتكاثف.

(٨٠) ديوان المتنبي ٢١١/٣ ، والمهمة : ما بعد من الأرض واتسع ، جبته : قطعه . العرامس : النوق

الصلاب الشديدة ، الدلل : المذلة بالعمل . والبيت من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار . ومطلعها

أبعد نيل المليحة البخل في البعد مالا تكلف الإبل

(٨١) ديوان أبي تمام ١٨٤ من قصيدة يمدح بها دينار بن عبد الله . ومطلعها :

مهاة النقا لولا الشوى والمأبض      وإن محض الإعراض لي منك ما حض

(٨٢) في الأصل « وحاش » ، وفي الديوان « هي الحرّة الوجناء » والوجناء العظيمة الوجنتين .

(٨٣) صدر مطلع القصيدة وعجزه « ومصارع الإدلاج والإسراء » والإيضاع ضرب من السير أو التسيير .

والشدنية الناقة الكريمة ، نسبة إلى شدن بلد مشهور بالإبل الكرام .



فإن « الشَّدِيَّة » لانتعابُ شعراً ، وتُعابُ لو وردتْ في كتاب أو خطبة .

وهكذا يَجْرَى الحُكْمُ في أمثالِ هذه الألفاظِ المُشارِ إليها .

وعلى هذا فاعلم أن كلَّ مايسوغُ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظِ يسوغُ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كلُّ مايسوغُ استعماله في الكلام المنظوم يسوغُ استعماله في الكلام المنثور .

وذلك شيء استنبطته ، واطلعتُ عليه ، لكثرة مُمارستِي لهذا الفنِّ ، ولأنَّ الذوقَ الَّذِي عندي دَلَّنِي عليه ! فنَّ شاءَ أن يقلدني فيه ، وإلَّا فليدمنِ النَّظرَ حتى يطلعَ على ما اطلعتُ عليه ، والأذهانُ في مثل هذا المقامِ تتفاوت !

وقد رأيتُ جماعةً من مدعي هذه الصَّناعةِ يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعزُّ فهمه ، ويبعدُ متناوله ، وإذا رأوا كلاماً وحشياً غامضاً الألفاظِ يُعجبون به ، ويصفونه بالفصاحة ، وهو بالضدِّ من ذلك ، لأنَّ الفصاحة هي الظهورُ والبيانُ ، لا الغموضُ والخفاءُ .

وسأبين لك ما تعتمد عليه في هذا الموضعِ ، فأقول : الألفاظُ تنقسمُ في الاستعمالِ إلى جَزَلَةٍ ورَقيقَةٍ ، ولكلِّ منهما مَوْضِعٌ يَحسُنُ استعماله فيه .

فالجَزَلُ مِنْهَا يُستعملُ في وَصفِ مواقفِ الحُرُوبِ ، وفي قِوَارِعِ التَّهديدِ والتَّخويفِ ، وأشباهِ ذلك .

وأما الرقيقُ مِنْهَا فَإنه يُستعملُ في وَصفِ الأشواقِ ، وذِكْرِ أيامِ البِعادِ ، وفي استِجْلابِ الموداتِ ، ومُلائماتِ الاستِغْطافِ ، وأشباهِ ذلك .

ولستُ أعني بالجزلِ من الألفاظِ أن يكونَ وحشياً متوعراً ، عليه عَنجَبِيَّةُ البداوةِ ، بل أعني بالجزلِ أن يكونَ مَتِيناً على عُدُوبته في الفمِّ ، ولذاذته في السَّمعِ . وكذلك لستُ أعني بالرقيقِ أن يكونَ ركيكاً سَفْسَفاً<sup>(٨٤)</sup> وإنما هو اللطيفُ ، الرقيقُ

(٨٤) السفسف والفسفان الردي من كل شيء .

الحاشية ، الناعم الملمس ، كقول أبي تمام (٨٥) :

نَاعِمَاتِ الْأَطْرَافِ لَوْ أَنَّهَا تُدْبَسُ أَغْنَتْ عَنِ الْمَلَاءِ الرَّقَاقِ

وسأضربُ ، لك مثالا للجزل من الألفاظ والرقيق ، فأقول :

انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب ، والعذاب ، والميزان ، والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا . وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشى الألفاظ ، ولا متوعراً .

ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرفقة والمغفرة ، والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب المؤمنين ، والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ، ولا سفسفاً .

فتأمل الأول ، وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ \* وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَةِ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ \* وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ \* وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ \* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ \* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ \* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ \* (٨٦) »

فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ، وذكر النار والجنة .

وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة ؟

(٨٥) ديوان أبي تمام . من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن شهاب ويشكره . ومطلعها :

أيها البرق بت بأعلى البراق واغد فيها بوابل غيداق

والبراق أرض ذات حجارة ورمل وطين . والغيداق المنسكب .

(٨٦) سورة الزمر : الآيات ٦٩ - ٧٤ .

وكذلك وَرَدَ قوله تعالى : «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ \* (٨٧) .

وأما مثالُ الثاني : وهو الرقيقُ من الألفاظِ ، فقوله تعالى في مخاطبةِ النبي ﷺ : «والضحى \* والليل إذا سجى \* ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٨٨) \* ... إلى آخرِ السورة .  
وكذلك قوله تعالى في ترغيبِ المسألة : «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (٨٩) » .

وهكذا ترى سبيلَ القرآنِ الكريمِ في كِلا هذَيْنِ الحالين من الجزالةِ والرقةِ .  
وكذلك كلامُ العربِ الأولُ في الزمنِ القديمِ ، ممَّا ورد عنها نثرًا ، ويكفي من ذلك كلامُ قبيصةَ بنِ نعيمٍ لما قديمٍ على امرئِ القيسِ في أشياخِ بني أسدٍ ، يسألونه العفو عن دمِ أبيه ، فقال له :

«إِنَّكَ فِي الْمَحَلِّ وَالْقَدْرِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِتَصْرِفِ الدَّهْرِ ، وَمَا تَحْدِثُهُ أَيَّامُهُ ، وَتَنْتَقِلُ بِهِ أَحْوَالُهُ ، بَحِثْ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَذْكَيرٍ مِنْ وَعَظٍ ، وَلَا تَبْصِيرٍ مِنْ مَجْرَبٍ . وَلَكَ مِنْ سُودُدٍ مَنْصُوبِكِ ، وَشَرَفِ أَعْرَاقِكِ ، وَكَرَمِ أَصْلِكِ فِي الْعَرَبِ مَحْتَدٍ (٩٠) ، يَحْتَمِلُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنْ إِقَالَةِ الْعَثْرَةِ ، وَرَجُوعِ عَنِ الْهَفْوَةِ . وَلَا تَتَجَاوَزُ الْهَمَمُ إِلَى غَايَةِ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَيْكَ ، فَوَجَدْتَ عِنْدَكَ مِنْ فَضِيلَةِ الرَّأْيِ وَبَصِيرَةِ الْفَهْمِ ، وَكَرَمِ الصَّفْحِ مَا يَطُولُ رَغْبَاتِهَا ، وَيَسْتَعْرِقُ طَلِبَاتِهَا . وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ الَّذِي عَمَّتْ رَزِيَّتُهُ بَرَارًا وَالْيَمْنَ ، وَلَمْ تُخَصَّصْ بِذَلِكَ كِنْدَةُ دُونَنَا ، لِلشَّرَفِ الْبَارِعِ الَّذِي كَانَ لِحُجْرٍ . وَلَوْ كَانَ يُفْدَى هَائِلُكَ بِالْأَنْفُسِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ لَمَا بَخِلْتَ كِرَامَتِنَا بِهَا عَلَى مِثْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ مَضَى بِهِ سَبِيلٌ لَا يَرْجِعُ أُخْرَاهُ عَلَى أَوْلَاهُ ، وَلَا يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أَذْنَاهُ فَأَحْمَدُ الْحَالَاتِ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي إِحْدَى خِلَالَ ثَلَاثِ :

(٨٧) سورة الأنعام : الآية ٩٤ .

(٨٨) سورة الضحى : الآيات ١ - ٣ .

(٨٩) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

(٩٠) المختد الأصل والطبع .

إِذَا أَنْ اخْتَرْتَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا ، وَأَعْلَاهَا فِي بِنَاءِ الْمَكْرَمَاتِ صَوْتًا ، فَقَدْ نَاهُ  
إِلَيْكَ بِنِسْعَةٍ (٩١) تَذْهَبُ مَعَ شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِيَأْقِي قَصْرَتِهِ (٩٢) ، فَنَقُولُ : رَجُلٌ  
أَمْتَحِنُ بِهَالِكٍ عَزِيزٍ ، فَلَمْ يَسْتَلِّ سَخِيمَتُهُ (٩٣) إِلَّا تَمَكَّنَتْهُ مِنَ الْأَنْتِقَامِ .

أَوْ فِدَاءً بِمَا يَرْوَحُ عَلَى بَنِي أَسَدٍ مِنْ نَعْمِهَا ، فَهِيَ أَلُوفٌ تَجَاوِرُ الْحَسْبَةَ ، فَكَانَ ذَلِكَ  
فِدَاءً رَجَعَتْ بِهِ الْقَصَبُ إِلَى أَجْفَانِهَا ، لَمْ يُرَدِّدْهَا تَسْلِيْطُ الْإِحْنِ عَلَى الْبِرَاءِ .  
وَأَمَّا أَنْ وَادَعْتَنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الْحَوَامِلُ ، فَتُسَدَّلَ الْأُزْرُ ، وَتُعْقَدَ الْخُمُرُ فَوْقَ  
الرَّيَاطِ .

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال :  
« لقد علمت العرب أنه لا كفءٍ ليحجر في دمٍ ، وأني لن أعتاضَ جملاً ولا ناقةً ،  
فأكتسبَ به سبَّه الأبد ، وقتَّ العُضد .

وَأَمَّا النَّظْرَةُ فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الْأَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِهَا ، وَلَنْ أَكُونَ لِعَطْفِهَا سَبِيًّا  
وَسَتَعْرِفُونَ طَلَائِعَ كُنْدَةَ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَحْمِلُ فِي الْقُلُوبِ حَقًّا (٩٤) وَفَوْقَ الْأَسِنَّةِ  
عَلَقًا (٩٥) :

إِذَا جَالَتْ الْحَرْبُ فِي مَازِقِ تَصَافِحِ فِيهِ الْمَنَايَا النَّفُوسَا

أَتَقِيمُونَ أَمْ تَنْصَرِفُونَ ؟

قالوا : « بل نصرفُ بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروهٍ وأذيةٍ ، و حرب

وبليَّةٍ .

ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ ، وَقَبِيصَةٌ يَتَمَثَّلُ :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوَرْدَ إِنْ غَدَتْ كَتَائِبُنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ تُمْطِرُ

فقال امرؤ القيس : « لا والله ! ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرج لك دجاها من

(٩١) التسع بالكسر سير ينسج عريضا على هيئة أعة النعال تشد به الرجال . والفعلية منه لسعة .

(٩٢) القصرة أصل العنق .

(٩٣) السخيمة الحقد . (٩٤) الحنق الغيظ . أو شدته .

(٩٥) العلق محركة الدم عامة . أو الشديد الحمرة . أو الغليظ . أو الجامد .

فَرَسَانِ كِنْدَةَ وَكُنَائِبِ حَمِيرٍ ، وَلَقَدْ كَانَ ذِكْرٌ غَيْرَ هَذَا بِي أَوْلَى ، إِذْ كُنْتُ نَازِلًا  
بِرَبْعِي ، وَلَكِنَّكَ قُلْتَ فَاجَبْتَ « فَقَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ : هُوَ ذَلِكَ (٩٦) !

فلتنظر إلى هذا الكلام من الرجلين قبضة وامرئ القيس حتى يدع المتعمقون  
تعمقهم في استعمال الوحشى من الألفاظ ، فإن هذا الكلام قد كان في الزمن القديم  
قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه  
فليس بشيء.

وهذا المشار إليه هاهنا هو من جزل كلامهم ، وعلى ما تراه من السلاسة والعدوبة .  
وإذا تصفحت أشعارهم أيضاً وجدت الوحشى من الألفاظ قليلاً بالنسبة إلى  
المُسلسل في الفهم والسمع ، ألا ترى إلى هذه الأبيات الواردة للسموئل بن عاديا ،  
وهي (٩٧) :

فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ	إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ
فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ	وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمًا
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ	تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلُ عَدِيدُنَا
عَزِيزٌ وَجَارٌ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ	وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلُ وَجَارُنَا
وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ	يُقْرَبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا
وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ	وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ (٩٨)
لَوْ قَتِ إِلَى خَيْرِ الْبَطُونِ يَزُولُ	عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ (٩٩) وَحَطْنَا
كَهَامٌ (١٠٠) وَلَا فِيمَا يُعَدُّ بِخَيْلُ	فَنَحْنُ كِهَاءِ الْمَزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا
قَتُولُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ	إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ

(٩٦) صححنا بعض ألفاظ هذا النص بمقابلته على رواية القلقشندی [ انظر صبح الأعشى ٢٠٨/٢ ]

(٩٧) الأبيات في ديوان الحماسة ٣٦/١ .

(٩٨) قال « مات فلان حتف أنفه » إذا مات من غير قتل ولا ضرب - والمعنى أنه لامتوت . ولكن تقتل .

ودم القاتل منا لا يذهب هدرا .

(٩٩) يشير إلى صريح نسبهم وخلوصه بما يحط بشرفهم .

(١٠٠) كهاء المزن أى ماء السحاب - يشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر . والنصاب الأصل . والكهام

الكليل الحد .

وَأَيَّامَنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُونَا لَهَا عُرْرٌ مَشْهُورَةٌ (١٠١) وَحُجُولُ  
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ (١٠٢) فُلُولُ  
مُعَوَّدَةٌ إِلَّا تَسَلَّ نِصَالُهَا فَتُعَمَّدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَتِيلُ  
فإذا نظرنا إلى ماتصمته من الجزالة خِلناها زبراً من الحديد ، وهي مع ذلك سهلة  
مستعذبة ، غير فظة ، ولا غليظة .

وكذلك قد ورد للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما يكاد يدوب لرقته ، كقول  
عروة بن أذينة (١٠٣) :

إِنَّ التِي زَعَمْتَ فُوَادَكَ مَلَهَا خُلِقْتُ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا  
بِيضَاءُ بَاكِرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا بِلِبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا (١٠٤) وَأَجَلَّهَا  
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقَلْتُ لِصَاحِبِي : مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا  
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةَ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفُوَادِ (١٠٥) فَسَلَّهَا  
وكذلك ورد قول الآخر (١٠٦) :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوَى (١٠٧) بِنَائِينَ الْإِمْنِيفَةَ فَالضَّمَارِ (١٠٨)

(١٠١) رواية ديوان الحماسة « معلومة » . والحجول جمع حجل ، وهو هنا البيضاء يكون في قوائم الفرس ،  
والكلام على التشبيه .

(١٠٢) القراع والمقارعة المضاربة ، والدارعون أصحاب الدروع ، والفلول جمع فل ، وهو الثلم في حد  
السيف .

(١٠٣) اسمه يحيى بن مالك أحد بني ليث بن بكر بن عبد مناة ، وهو شاعر غزل مقدم من شعراء المدينة ،  
ومعدود في الفقهاء والمحدثين ، روى عنه مالك بن أنس . والأبيات في ديوان الحماسة ٦٣/٢ وفي أمالي القالي  
١٥٦/١ .

(١٠٤) رواية الأمالي « بلباقة فأرقها »

(١٠٥) الوسواس خطرات النفس - والمعنى أن النفس إذا حدثني بالسلو عنها كان ضميري الشفيق إلى  
إخراج وسواس السلو من نفسي . ورواية الأمالي « شفع الضمير لها إلى فسلاها » .

(١٠٦) الأبيات الخمسة الأولى في أمالي القالي ٣٢/١ وفي حماسة أبي تمام ٦٥/٢ وهي غير منسوبة فيها

(١٠٧) رواية الأمالي « نخدى »

(١٠٨) المنيفة ماء لبنى تميم ، والضمار اسم موضع ، قال التبريزي : وكان حق العطف في قوله « فالضمار » أن  
يكون نالوا ، لأن « بين » لاتدخل إلا بين شيئين متباينين ، إلا إذا أريد بين أجزاء المنيفة .

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارٍ نَجْدٍ      فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَّارٍ (١٠٩)  
 أَلَّا يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ      وَرِيًّا رَوْضِهِ غِبَّ الْقِطَارِ (١١٠)  
 وَأَهْلُكَ إِذْ يَحُلُّ الْحَيُّ نَجْدًا      وَأَنْتَ عَلَيَّ زَمَانِكَ غَيْرَ زَارٍ (١١١)  
 شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وَمَا شَعَرْنَا      بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَّارٍ (١١٢)  
 فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرٌ لَيْلٍ      وَأَطْيَبُ مَا تَكُونُ مِنَ النَّهَارِ  
 وَمِمَّا تَرَقُّصُ الْأَسْبَاحِ لَهُ ، وَبِرُّنْ عَلَى صَفْحَاتِ الْقُلُوبِ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الطَّرِيفَةِ فِي مَحَبُّوبَتِهِ مِنْ جَرْمٍ :

بِنَفْسِي مَنْ لَوْ مَرَّ بِرُدِّ بَنَانِهِ      عَلَى كَبْدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ  
 وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَيْبَتُهُ      فَلَا هُوَ يُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَأَلْتُهُ  
 وَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلَ سَاكِنٍ فِي الْفَلَاةِ لَا يَرَى إِلَّا شِيحَةً أَوْ قَيْصُومَةً ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا ضَبًّا أَوْ يَرْبُوعًا ، فَمَا بَالُ قَوْمٍ سَكَنُوا الْحَضَرَ ، وَوَجَدُوا رَقَّةَ الْعَيْشِ يَتَعَاطُونَ وَحَشِيَّ الْأَلْفَاظِ وَشَطَفَ الْعِبَارَاتِ ؟ وَلَا يَخْتَلِدُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا إِمَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ ، وَإِمَّا عَاجِزٌ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِمَّنْ شَدَا شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْأَدَبِ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْوَحْشِيِّ مِنَ الْكَلَامِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَلْتَقِطُهُ مِنْ كُتُبِ اللَّغَةِ ، أَوْ يَتَلَقَّه مِنْ أَرْبَابِهَا . وَأَمَّا الْفَصِيحُ الْمُتَّصِفُ بِصِفَةِ الْمَلَاةِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَمَا عَلِمَ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ فِي تَأْلِيفِهِ وَسَبِّكِهِ .

فَإِنْ مَارَى فِي ذَلِكَ مُمَارٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَشْعَارِ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ مِمَّنْ كَانَ مُشَارًّا إِلَيْهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ صِحَّةَ مَا ذَكَرْتُهُ : هَذَا ابْنُ دُرَيْدٍ (١١٣) قَدْ قِيلَ إِنَّهُ أَشْعَرُ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ ، وَإِذَا نَظَرْتَ

(١٠٩) الشميم مصدر، أراد به المشوم، والمراد وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة.  
 (١١٠) القطار جمع قطر، والفتح تضوع الرياح بالنسيم بالطيب.  
 (١١١) زرى عليه عابه - والمعنى ومحبوب إلى أيضاً منها زمان أهلك حين كانوا نازلين بنجد. وأنت راض منه لمساعدته إياك بما تهواه وتريده.  
 (١١٢) سرار الشهر آخره.

(١١٣) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ. وكان نابغة في اللغة والأدب والأنساب، وبرع في الشعر. حتى قيل فيه أشهر العلماء وأعلم الشعراء. وله عدة تصانيف منها كتاب «الجمهرة» في اللغة، توفي سنة ٣٢١ هـ.

إلى شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحطاً مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عشر معشار ما علمه .

هذا العباس بن الأحنف<sup>(١١٤)</sup> قد كان من أوائل الشعراء المجيدين ، وشعره كمرّ نسيم على عذبات أغصان ، وكلؤلؤات طلّ على طرر ریحان ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج إلى استخراجها من كتب اللغة ، فمن ذلك قوله :

وَإِنِّي لِيُرْضِينِي قَلِيلُ نَوَالِكُمْ      وَإِنْ كَانَ لَا أَرْضَى لَكُمْ بِقَلِيلٍ  
بِحُرْمَةِ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ      مِنْ الْوَدِّ إِلَّا عُدْتُمْ بِجَمِيلٍ  
وهكذا وردّ قوله في « فوز » التي كان يُشَبِّبُ بها في شعره :

يَا فَوْزُ يَا مُنِيَّةَ عَبَّاسٍ      قَلْبِي يُفَدِّي قَلْبَكَ الْقَاسِي  
أَسَاتُ إِذَا أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ      وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ  
يُقْلِقُنِي شَوْقِي فَاتِيكُمْ      وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وهلّ أعذب من هذه الأبيات ، وأعلق بالخطير ، وأسرى في السمع ؟ ومثلها تحفٌ رواجع الأوزان ، وعلى مثلها تسهر الأجناف ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان . ولم أجريها بلساني يوماً من الأيام إلا ذكرت قول أبي الطيب المتنبي<sup>(١١٥)</sup> :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِجِيَةِ أَحْمَقٍ      أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِ<sup>(١١٦)</sup>  
ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سهلة وعرة ، قرية بعيدة ! وهذا أبو العتاهية<sup>(١١٧)</sup> كان في عزة الدولة العباسية ، وشعراء العرب إذ ذاك موجودون

---

(١١٤) العباس بن الأحنف من بني عدى بن حنيفة ، وهو شاعر غزل مطبوع ، وله مذهب في الشعر جيد ، ولعانيه عذوبة ، وكان من شعراء بني العباس . وقدمه المبرد على نظرائه ، وأطنب في وصفه ، ولم يتجاوز الغزل إلى غيره من أغراض الشعر . توفي سنة ١٩٢ هـ .

(١١٥) ديوان المتنبي ٣١٤/٢ من قصيدة مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي      وللحب ما لم يبق مني وما بقي  
(١١٦) أسكن الواو من الفعل « يلهو » وهو منصوب ضرورة .

(١١٧) هو إسماعيل بن القاسم . نشأ بالكوفة يعالج الشعر مع إمام مذهب المتكلمين والفلاسفة . ويغلب على شعره الزهد والسهولة ، وقد توفي سنة ٢١١ هـ .



كثيراً ، وكانت مداخه في المهدي بن المنصور ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجارى : رقة ألفاظ ، ولطافة سبك ، وليس بريك ولاواه .

وكذلك أبو نواس ، وهذا قدم على شعراء عصره ، وناهيك بعصره ، وما جمعه من فحول الشعراء ، ويكنى منهم مسلم بن الوليد<sup>(١١٨)</sup> الذى كان فارس الشعر ، وله الأسلوب العجيب غير أنه كان يتعجبه فى أكثر ألفاظه .

ويحكى أن أبا نواس جلس يوماً إلى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء ، فاستسقى ماءً ، فلما شرب قال :

\* عَذَبَ الْمَاءُ وَطَابَا \*

ثم قال أجزؤه ، فأخذ أولئك الشعراء يترددون فى إجازته ، وإذا هم بأبى العتاهية فقال : ماشأنكم محتمعين ؟ فقالوا : هو كيت ، وكيت ، وقد قال أبو نواس :

\* عَذَبَ الْمَاءُ وَطَابَا \*

فقال أبو العتاهية :

\* حَبَّدَا الْمَاءُ شَرَابَا \*

فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث .

وكل شعر أبى العتاهية كذلك سهل الألفاظ ، وسأورد منه هاهنا شيئاً يستدل به على سلاسة طبعه ، وترويق خاطره .

فمن ذلك قصيدته التى يمدح فيها المهدي ، ويشبب فيها بجاريتته « عتب » :

أَلَا مَا لِسَيْدَتِي مَالَهَا تَدِلُّ فَأَحْمِلُ إِذْ لَالَهَا  
أَلَا إِنَّ جَارِيَةَ لِلْإِمَامِ مِ قَدْ سَكَنَ الْحُسْنَ سِرّاً بِهَا  
لَقَدْ أَتَعَبَ اللَّهُ قَلْبِي بِهَا وَأَتَعَبَ فِي اللَّوْمِ عَذَالَهَا  
كَأَنَّ بَعِيْنِي فِي حَيْثَمَا سَلَكْتُ مِنَ الْأَرْضِ تِمَالَهَا

(١١٨) هو صريح الغواني مسلم بن الوليد الأنصارى ، تأدب فى الكوفة : ونبه شأنه فى الشعر ، حتى صار من

مقدمى عصره ، وهو من متكلمى البديع ، وقد توفى بمرجان سنة ٢٠٨هـ .

فَلَمْ وَصَلَ إِلَى الْمَدِيحِ قَالَ مِنْ جَمَلْتِهِ :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مَنْقَادَةً      إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا  
فَلَمْ تَكْ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ      وَلَمْ يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا  
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ      لَزُلْزَلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا  
وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ (١١٩)      لَمَا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا

وَيَحْكِي أَنَّ بَشَارًا (١٢٠) كَانَ شَاهِدًا عِنْدَ إِنْشَادِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَدِيحَ قَالَ : انظُرُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، هَلْ طَارَ عَنْ أَعْوَادِهِ ؟ يُرِيدُ هَلْ زَالَ عَنْ سِرِّيهِ طَرَبًا بِهَذَا الْمَدِيحِ ؟

وَلَعَمْرِي إِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ بَشَارٌ ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا أَسْكَرَ السَّمْعَ ، حَتَّى يَنْقَلَهُ عَنْ حَالَتِهِ سَوَاءَ كَانَ فِي مَدِيحٍ أَوْ غَيْرِهِ .

وَقَدْ أَشْرَتْ إِلَى ذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَ ذِكْرِ (الاستعارة) فَلْيُؤَخِّذْ مِنْ هُنَاكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَشَارَ إِلَيْهَا هَاهُنَا مِنْ رَقِيقِ الشَّعْرِ غَزَلًا وَمَدِيحًا ، وَقَدْ أَدْعَنَ لِمَدِيحِهَا الشُّعْرَاءَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّكَ تَرَاهَا مِنَ السَّلَاسَةِ وَاللِّطَاقَةِ عَلَى أَقْصَى الْغَايَاتِ .

وَهَذَا هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يَسْمَى « السَّهْلُ الْمَمْتَنِعُ » فَتَرَاهُ يُطْمِعُكَ ، ثُمَّ إِذَا حَاوَلْتَ مِمَّا لَتَهُ رَاغَ عَنكَ كَمَا يُرْوَعُ الثَّعْلَبُ .

وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ خَاصِّ فِي كِتَابَةٍ أَوْ شِعْرٍ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ مَا دَخَلَ الْأُذُنَ بِغَيْرِ إِذْنٍ !

وَأَمَّا الْبِدَاوَةُ وَالْعَنْجَهِيَّةُ فِي الْأَلْفَاظِ فَتِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَّتْ ، وَمَعَ أَنَّهَا قَدْ خَلَّتْ

(١١٩) بَنَاتُ الْقُلُوبِ : حَيَاتُهَا ، وَالْمَعْنَى مِنْ لَمْ يَخْلُصَ لِلْخَلِيفَةِ لِأَيْتَقِلَ اللَّهُ عَمَلَهُ .

(١٢٠) هُوَ أَبُو مَعَاذٍ بَشَارُ بْنُ بَرْدِ الْعَقِيلِ وَوَلَدَهُ . الْفَارْسِيُّ أَصْلًا . أَخَذَ الْعَرَبِيَّةَ عَنْ أَعْرَابِ الْبَصْرَةِ ، وَنَبِغَ فِي

الشَّعْرِ ، لِشِدَّةِ ذِكَاثِهِ ، وَسَعَةِ خَيَالِهِ ، وَحَسَنِ ابْتِكَارِهِ . وَكَانَ هَجَاءَ مَا جَاءَتْ مَاتَ مَقْتُولًا سَنَةَ ١٦٧ هـ .

وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيّبت على مُسْتَعْمِلِهَا في ذلك الوقت ، فكيف الآن وقد غلبَ على الناس رِقَّةُ الْحَضَرِ؟

وَبَعْدَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَلْفَاظَ تَجْرِي مِنَ السَّمْعِ مَجْرَى الْأَشْخَاصِ مِنَ الْبَصَرِ .  
فَالْأَلْفَاظُ الْجَزَلَةُ تُتَخَيَّلُ فِي السَّمْعِ كَأَشْخَاصٍ عَلَيْهَا مَهَابَةٌ وَوَقَارٌ .  
وَالْأَلْفَاظُ الرَّقِيقَةُ تُتَخَيَّلُ كَأَشْخَاصٍ ذَوِي دِمَائَةٍ ، وَلِينِ أَخْلَاقٍ ، وَلَطَاقَةٍ مِزَاجٍ .  
وَهَذَا تَرَى الْفَاطِ أَيْ تَمَامٍ كَأَنَّهَا رِجَالٌ قَدْ رَكَبُوا خَيْولَهُمْ ، وَاسْتَلَمُوا سِلَاحَهُمْ ،  
وَتَأَهَّبُوا لِلطَّرَادِ . وَتَرَى الْفَاطِ الْبُحْتَرَى كَأَنَّهَا نِسَاءٌ حِسَانٌ عَلَيْهِنَّ غِلَاثِلُ مُصَبَّغَاتٍ ، وَقَدْ  
تَحَلَّيْنَ بِأَصْنَافِ الْحُلِيِّ .  
وَإِذَا أَنْعَمْتَ نَظْرَكَ فِيهَا ذَكَرْتَهُ هَاهُنَا وَجَدْتَنِي قَدْ دَلَلْتُكَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَضَرَبْتُ لَكَ  
أَمْثَالًا مُنَاسِبَةً .

واعلم أنه يجب على الناظم والنائر أن يجتنبوا ما يضيّق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين . فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها .  
والناظم في ذلك أشد ملامة ، لأنه يتعرض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة ، فيأتي في أكثرها بالبعش الكريه الذي يمجّه السمع ، لعدم استعماله ، كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها :

\* قِفْ بِالطُّدْلِ الدَّارِسَاتِ عَلَاثًا \* (١٢١)

وكما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته الشينية التي مطلعها :

\* مَيْتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشٍ \* (١٢٢)

وكما فعل ابن هانئ المغربي<sup>(١٢٣)</sup> في قصيدته الخائية التي مطلعها :

\* سَرَى وَجَنَاحُ اللَّيْلِ أَقْتَمُ أَفْتَحُ \*

(١٢١) ديوان أبي تمام ٦٣ . وعجز البيت : « أضحت جبال فطينهن رثانا »

(١٢٢) ديوان المتنبي ٢٠٧/٢ . وعجز البيت : حشاه لي بحر حشاي حاش »

(١٢٣) هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي ، أشعر شعراء الأندلس . والملقب بمتنبي المغرب :

نشأ في أشبيلية وأتهم بسوء العقيدة . فهرب إلى عدوة المغرب . وكانت في قبضة الفاطميين الأولين . فدح المعز =

والناظم لأيعاب إذا لم ينظم هذه الأحرف في شعره ، بل يُعاب إذا نظمها ،  
وجاءت كرهية مستبشعة .

وأما الناثر فإنه أقرب حالاً من الناظم ، لأن غاية ما يأتي به سجعتان ، أو ثلاث ،  
أو أربع على حرف من هذه الأحرف ، وما يندم في ذلك ما يروق ، إذا كان بهذه العدة  
اليسيرة .

فإن كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيئاً على هذه الحروف ، فقل هذه الحروف هي  
مقاتل الفصاحة ، وعذرى واضح في تركيبها ! فإن واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظاً  
تُعذب في الفم ، ولا تلذ في السمع ، والذي هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليل جداً .  
ولا يصاغ منه إلا مقاطيع أبيات من الشعر ، وأما القصائد المقصدة فلا تُصاغ منه .  
وإن صيغت جاء أكثرها بشعاً كريهاً .

على أن هذه الحروف متفاوتة في كراهية الاستعمال ، وأشدّها كراهية أربعة  
أحرف ، وهي : الحاء ، والصاد ، والطاء ، والغين ، وأما الناء ، والذال والشين ،  
والطاء ، فإن الأمر فيهن أقرب حالاً .

وهذا موضع ينبغي لصاحب الصناعة أن يُنعم نظره فيه . وفيما أشرنا إليه كفاية  
للمتعلم ، فليعرفه ، وليقف عنده !

### المتنزل من الألفاظ

ومن أوصاف الكلمة أن لا تكون مبتدلة بين العامة .

وذلك ينقسم قسمين :

الأول : ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وُضع له في أصل اللغة ، فغيرته العامة ،  
وجعلته دالاً على معنى آخر ، وهو ضربان :

الأول : ما يُكره ذكره ، كقول أبي الطيب (١٢٤) :

== قبل فتح مصر ، وفي أثنائه . ولما فتحت مصر وذهب المغز إليها تأهب للحاق به ، فات في الطريق سنة ٣٦٢ هـ ،  
ولم يناهز الأربعين . ويمتاز شعره بالغريب ، وفخامة اللفظ ، والأساليب البدوية ، وكثرة التشبيهات والمجاز .

(١٢٤) ديوان المتنبي ٥٥/٤ من قصيدة يمدح بها الحسين بن إسحاق التنوخي ، ومطلعها :

ملام النوى في ظلها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من الظلم

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنَهُ مَا أَذَاقَنِي وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي بِالصَّرْمِ (١٢٥)  
 فإن [ معنى ] لفظة « الصَّرْم » في وضع اللغة هو القطع . يُقال « صرّمه » إذا  
 قطعه ، فغيرتها العامة ، وجعلتها دالة على المحلِّ المخصوص من الحيوانِ دُونَ غَيْرِهِ .  
 فأبدلوا السين صاداً . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ اسْتَكْرَهَ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا لَكِنَّ  
 الْمَكْرُوهَ مِنْهَا مَا يُسْتَعْمَلُ عَلَى صِيغَةِ الْاسْمِيَّةِ ، كَمَا جَاءَتْ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَأَمَّا إِذَا  
 اسْتَعْمَلْتُ عَلَى صِيغَةِ الْفِعْلِ كَقَوْلِنَا « صَرَّمَهُ » وَ « صَرَّمْتُهُ » وَ « نَصَّرَمَهُ » فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ  
 كَرِيهَةً ، لِأَنَّ اسْتِعْمَالَ الْعَامَّةِ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ .

وهذا الضرب المشار إليه لا يعاب البدوى على استعماله ، كما يُعَابُ الْمُحْتَضِرُ ؛ لِأَنَّ  
 الْبَدَوِيَّ لَمْ تَتَغَيَّرِ الْأَلْفَاظُ فِي زَمَنِهِ ، وَلَا تَصَرَّفَتِ الْعَامَّةُ فِيهَا كَمَا تَصَرَّفَتْ فِي زَمَنِ الْمُحْتَضِرَةِ  
 مِنَ الشُّعْرَاءِ . فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَيَّبَ اسْتِعْمَالُ لَفْظَةِ « الصَّرْمِ » وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا عَلَى الشَّاعِرِ  
 الْمُحْتَضِرِ ، وَلَمْ يُعَبَّ عَلَى الشَّاعِرِ الْمُتَبَدِّئِ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهَدَلِيِّ (١٢٦) :  
 قَدْ كَانَ صَرْمٌ فِي الْمَاتِ لَنَا فَعَجَلَتْ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصَّرْمِ (١٢٧)

فإن هذا لا يعاب على أبي صخرٍ كما عيب على المتنبي قوله في البيت المقدم ذكره .  
 وقد صنّف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادي المعروف بابن الجوالين كتاباً في  
 هذا الفن ، ووسمه بـ « إصْلَاحِ مَا تَغَلَطُ فِيهِ الْعَامَّةُ » فنه ما هذا سبيله ، وهو الذي أنكر  
 استعماله لكرهته ، ولأنه ممّا لم يُثقل عن العرب فهذان عيبان .

وأما الضرب الثاني :

وهو أنه وُضِعَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ لِمَعْنَى ، فَجَعَلْتَهُ الْعَامَّةُ دَالاً عَلَى غَيْرِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ  
 بِمُسْتَقْبَحٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ .

(١٢٥) رواية الديوان « وعف فجازهن عنى بالصرم » وقد أسكن « الغواني » ضرورة لأنها مفعول « ذاق » .

(١٢٦) اسمه عبد الله بن سلم السهمي ، أحد بني هذيل بن مدركة . وهو شاعر إسلامي من شعراء الدولة  
 الأموية . وكان موالياً لبني مروان ، متعصباً لهم . وله في عبد الملك مدائح ، وقد كان حبسه ابن الزبير إلى أن  
 شفع له رجال من قريش ، فأطلقه بعد سنة . فلما ولي عبد الملك وحج لقيه أبو صخر ، فأدناه عبد الملك وقربه ،  
 فدحه ونال جائزته .

(١٢٧) من أبيات ثمانية في ديوان الحماسة ٦٢/٢

وذلك كتسميتهم الإنسان «ظريفاً» إذا كان دَمِتَ الأخلاقِ ، حَسَنَ الصُّورَةِ أو اللباسِ ، أو ما هذا سبيله «والظرفُ» في أصلِ اللغةِ مختص بالنتقِ فقط .  
 وقد قيل في صفاتِ خَلْقِ الإنسان ما أذكره ها هنا وهو : الصبَاحَةُ في الوجه ،  
 الوضَاءَةُ في البَشَرَةِ ، الجمالُ في الأنفِ ، الحلاوة في العينين ، الملاحَةُ في الفمِ ،  
 الظرفُ في اللسانِ ، الرَّشَاقَةُ في القَدِ ، اللَّبَاقَةُ في الشَّمائِلِ ، كمالِ الحُسْنِ في الشَّعْرِ .  
 فالظرفُ إنما يتعلَقُ بالنطقِ خاصَّةً ، فغَيَّرْتُهُ العامَّةَ عن بابِهِ . وممَّنْ غَلَطَ في هذا  
 الموضعِ أَبُو نُوَيْسٍ حيثُ قَالَ :

اِخْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالَ فَبِكَ فَصَارَا إِلَى جِدَالِ  
 فَقَالَ هَذَا يَمِينُهُ لِي لِلْعُرْفِ وَالْبَذْلِ وَالنَّوَالِ  
 وَقَالَ هَذَاكَ وَجْهُهُ لِي لِلظُّرْفِ وَالْحُسْنِ وَالْكَمَالِ  
 فَأَفْتَرَقَا فَبِكَ عَنْ تَرَاوِيحِ كِلَاهُمَا صَادِقُ الْمَقَالِ  
 وكذلك غلط أبو تمام فقال (١٢٨) :

لَكَ هَضْبَةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنْتَ أَجَأَ إِذْنٌ ثَقُلْتُ وَكَانَ خَفِيفَا  
 وَحَلَاوَةُ الشَّمِّ الَّتِي لَوْ مَازَجْتُ خُلِقَ الزَّمَانُ الْقَدَمَ عَادَ ظَرِيفَا

فأبو نواس غلط ها هنا في أنه وصفَ الوجهَ بالظرفِ ، وهو من صفاتِ النطقِ ،  
 وأبو تمام غلط في أنه وصفَ الخُلُقَ بالظرفِ ، وهو من صفاتِ النطقِ أيضاً ، إلا أن  
 هذا غلطٌ لا يوجب في اللفظةِ قبحاً ، لكنه جهلٌ بمعرفةِ أصلها في وَضْعِ اللغةِ .

القسم الثاني مما ابتدئته العامَّةُ ، وهو الذي لم تغيِّره عن وضعه :

وإنما أنكر استعماله لأنه مبتدل بينهم . لا لأنه مُسْتَقْبِحٌ ، ولا لأنه مخالفٌ لما وُضِعَ

له .

وفي هذا القسمِ نظرٌ عندي ، لأنه إن كانَ عبارةً عمَّا يكثرُ تداولُه بين العامَّةِ فإن

(١٢٨) ديوان أبي تمام ٣٠٩ من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

أطلحهم سلبت دماها الهيفا واستبدلت وحشاً بهن عكوفاً

من الكثير المتداول بينهم ألفاظاً فصيحة ، كالسَّاء ، والأرض ، والنار ، والماء .  
والحَجَر ، والطين ، وأشباه ذلك .

وقد نطقَ بها القرآن الكريمُ في مواضع كثيرة منه ، وجاءت في كلام الفصحاءِ  
نظماً ونثراً .

والذي ترجَّح في نظري أن المراد بالمتبدل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة  
الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة . فإِجاء منه قولُ أبي الطَّيب المتنبى (١٢٩) :

وَمَلْسُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبِيعَةٌ يَصْبِحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَّاحُ اللَّقَالِقِ (١٣٠)

فإن لفظة « اللقالق » مبتدلة بين العامة جداً ، وكذلك قوله (١٣١) :

وَمَنْ النَّاسِ مَنْ تَجُوزُ إِلَيْهِمْ شِعْرَاءُ كَأَنَّهَا الْحَازِبَاذُ (١٣٢)

وهذا البيتُ مِنْ مُضْحَكَاتِ الْأَشْعَارِ ، وهو من جملة « البرسام » الذي ذكره في

شعره حيثُ قال (١٣٣) :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هَرَاءٌ لَيْسَ شَيْئًا وَيَبْعُضُهُ أَحْكَامُ (١٣٤)

فِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَهْمَ فِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبِرْسَامُ (١٣٥)

(١٢٩) ديوان المتنبى ٢/٣٢٥ من قصيدة مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

(١٣٠) الملومة المكتيبة المجتمعة . وسيفية منسوبة إلى سيف الدولة . وربعية منسوبة إلى بيعة . وهي قبيلة سيف

الدولة . واللقالق جمع لقلق . وهو طائر كبير يسكن العمران في أرض العراق .

(١٣١) ديوان المتنبى ٢/١٨٣ من قصيدة في مدح أبي بكر علي بن صالح . ومطلعها :

كفرندي فريد سبقي الجرار لذة العين عدة للبراز

(١٣٢) رواية الديوان « ومن الناس من يجوز عليه » والحازباز حكاية صوت الذباب . ويسمى الذباب

« الحازباز » وقال الأصمعي هونبت . وقال قوم : الحازبازدء يأخذ الإبل في حلقها والناس . والمعنى : أنت ناقد

الكلام تعرف الشعر . وغيرك يجوز عليه شعراء يهدون . كأنهم طين الذباب في هذياتهم .

(١٣٣) ديوان المتنبى ٤/١٠١ من قصيدته التي مطلعها :

لا افتخار لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام

(١٣٤) رواية الديوان « هذاء » موضع « هراء » والهذاء والهذيان مصدر هذى يهذى إذا قال قولاً لا فائدة

له . والأحكام جمع حكم بمعنى الحكمة .

(١٣٥) رواية الديوان « الفضل » موضع « الفهم » . والبرسام علة يهذى فيها .

ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام وضعت من قدره ، ولو كان معنى شريفاً .

وهذا القسم من الألفاظ المتبدلة لا يكاد يخلو منه شعرُ شاعرٍ ، لكن منهم المقلُّ ومنهم الكثيرُ ، حتى أن العاربة قد استعملت هذا ، إلا أنه في أشعارها أقلُّ فمِن ذلك قولُ النَّابغةِ الذُّبياني في قصيدته التي أولها :

\* مِنْ آلِ مَيْهٍ رَائِحٌ أَوْ مُعْتَدٍ \* (١٣٦)

أَوْ دُمِيَّةٍ فِي مَرَمٍ مَرْفُوعَةٍ بِنَيْتٍ بِأَجْرٍ يُشَادُ بِقِرْمِدٍ (١٣٧)  
فلفظة «آجر» مبتدلةٌ جداً .

وإن شئتَ أن تعلم شيئاً من سرِّ الفصاحة التي تضمَّنها القرآنُ فانظرْ إلى هذا الموضعِ ، فإنه لما جيءَ فيه بذكرِ «الآجر» لم يذكرْ بلفظه ، ولا بلفظِ «القِرْمِدِ» أيضاً ، ولا بلفظِ «الطُّوب» الذي هو لغةُ أهلِ مِصرَ ؛ فإنَّ هذه الأسماءُ مبتدلةٌ ، لكنْ ذُكِرَ في القرآنِ على وجهِ آخرَ ، وهو قوله تعالى : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا » (١٣٨) فعبرَ عن الآجرِ بالوقودِ على الطِّينِ .

ومن هذا القسمِ المتبدلِ قولُ الفرزدقِ في قصيدته التي أولها :

عَرَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْرِفُ (١٣٩)

وَأَصْبَحَ مَبِيضٌ الصَّقِيعُ كَأَنَّهُ عَلَى سُرَّاتِ النَّيْبِ قَطْنٌ مُنْدَفٌ (١٤٠)

(١٣٦) ديوان النَّابغة بشرح الوزير أبي بكرِ عاصم بن أيوب البطليوسى ص ٢٧ وعجز البيت

عجلان ذا زاد وغير مزود .

(١٣٧) صفحة ٣٠ من الديوان ، والدمية التمثال والصورة . والمرمر الرخام الأبيض . ويشاد يرفع بالشيد وهو

الحص ، والقِرْمِدُ خزف مطبوخ . (١٣٨) سورة القصص . الآية ٣٨ .

(١٣٩) ديوان الفرزدق ٥٥١/٢ ، وهي إحدى نقائضه . وعجز البيت :

\* وَأَنْكَرْتُ مِنْ حُدْرَاءِ مَا كُنْتُ تَعْرِفُ \*

وفي الأصل «عرفت» و «تعرفت» بالراء فيها . والصواب عن الديوان .

(١٤٠) في الأصل «الضرب» موضع «الصقيع» و «البيت» موضع «النيب» والتصويب عن الديوان .

وسررات النيب أسنمة الإبل . يقول : وقع الثلج على أسنمها كأنه قطن مندف والصقيع الجليد .



فَقَوْلُهُ : « مُنَدَّفٌ » مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَامَّةِ ، وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ :  
 وَجْهُهُ حُسَادُكَ مَسُودَةٌ أَمْ صُبِغَتْ بَعْدَى بِالزَّاجِ  
 فَلَفْظَةُ : « الزَّاجِ » مِنْ أَشَدِّ الْأَفْظَانِ الْعَامَّةِ ابْتِدَالًا .

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ أَبُو نُوَاسٍ هَذَا النَّوْعَ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ (١٤١) :

يَا مَنْ جَفَانِي وَمَلَا نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا  
 وَمَاتَ مَرْحَبٌ لَمَّا رَأَيْتَ مَالِي قَلَا  
 إِنِّي أَظْنَكَ فِيهَا فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرْلِي (١٤٢)

وَكَقَوْلِهِ (١٤٣) :

وَأَنْمِرُ الْجِلْدَةَ صَيَّرْتَهُ فِي النَّاسِ رَاغًا وَشِقْرَاقًا (١٤٤)  
 مَا زِلْتُ أُجْرِي كَلْكَلِي فَوْقَهُ حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقَا  
 وَكَقَوْلِهِ :

وَمُلِحَّةٌ بِالْعَدْلِ تَحْسُبُ أَنِّي بِالْجَهْلِ أَتْرَكُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ  
 وَقَدْ اسْتَعْمَلَ لَفْظَةُ « الشَّاطِرِ » « والشَّاطِرَةُ » « والشُّطَارِ » « والشُّطَارَةُ » كَثِيرًا ، وَهِيَ مِنْ  
 الْأَلْفَاظِ الَّتِي ابْتَدَلَهَا الْعَامَّةُ حَتَّى سَنَسَتْ مِنْ ابْتِدَالِهَا .

وَهَذِهِ الْأَمْثَلَةُ تَمْنَعُ الْوَاقِفَ عَلَيْهَا مِنْ اسْتِعْمَالِ أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا .

\* \*

وَمِنْ أَوْصَافِ الْكَلِمَةِ أَنْ لَا تَكُونَ مَشْرُوكَةً بَيْنَ مَعْنَيْنِ أَحَدَهُمَا يُكْرَهُ ذِكْرُهُ ، وَإِذَا  
 وَرَدَتْ وَهِيَ غَيْرُ مَقْصُودٍ بِهَا ذَلِكَ الْمَعْنَى قُبِحَتْ ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ مَهْمَلَةً بغيرِ قَرِينَةٍ تَمَيِّزُ  
 مَعْنَاهَا عَنِ الْقُبْحِ .

(١٤١) دِيوَانُ أَبِي نُوَاسٍ ١٥٣ فِي عِتَابِ عَمْرِو الْوَرَّاقِ .

(١٤٢) الْقِرْلِيُّ كَزَمَكِي طَائِرٌ ذُو حَزْمٍ لَا يَرَى إِلَّا فِرْقًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ عَلَى جَانِبِ يَهُوَى بِإِحْدَى عَيْنَيْهِ إِلَى قَعْرِ الْمَاءِ  
 طَمَعًا ، وَيُرْفَعُ الْأُخْرَى فِي الْهَوَاءِ حَذْرًا ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ « أَحْزَمُ مِنْ قِرْلِي ، إِنْ رَأَى خَيْرًا تَدَلَّى ، وَإِنْ رَأَى شَرًّا تَوَلَّى » .

(١٤٣) دِيوَانُ أَبِي نُوَاسٍ ١٨٩ فِي هِجَاءِ زَنْبُورِ .

(١٤٤) الْأَمْثَرُ مَا فِيهِ نَمْرَةٌ أَوْ نَكْتَةٌ بِيضَاءٍ وَأُخْرَى سُودَاءٍ ، وَالزَّوْجُ غَرَابٌ صَغِيرٌ ، وَالشُّقْرَاقُ بَكْسَرَتَيْنِ وَرَاءَ  
 مَشْدَدَةٍ أَوْ كَقِرْطَاسٍ وَيُفْتَحُ طَائِرٌ مَرْقُطٌ بِحَضْرَةِ وَحْمَرَةٍ وَبِيَاضٍ ، وَيَكُونُ بَارِضَ الْحَرَمِ .

فَأَمَّا إِذَا جَاءَتْ وَمَعَهَا قَرِينَةٌ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ مَعِيَّةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٤٥) » . أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ « التَّعْزِيرِ » مُشْتَرَكَةٌ تُطْلَقُ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالْإِكْرَامِ ، وَعَلَى الضَّرْبِ الَّذِي هُوَ دُونَ الْحَدِّ ، وَذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الْهَوَانِ ، وَهِيَ مَعْنِيَانِ ضِدَّانِ . فَحَيْثُ وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ مَعَهَا قَرَانٌ مِنْ قَبْلِهَا وَمِنْ بَعْدِهَا ، فَخَصَّصَتْ مَعْنَاهَا بِالْحُسْنِ ، وَمَيَّزَتْهُ عَنِ الْقُبْحِ . وَلَوْ وَرَدَتْ مَهْمَلَةٌ بِغَيْرِ قَرِينَةٍ ، وَأُرِيدَ بِهَا الْمَعْنَى الْحَسَنَ لَسَبَقَ إِلَى الْوَهْمِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى الْقَبِيحِ .

مثال ذلك : لو قال قائلٌ : لَقَيْتُ فُلَانًا فَعَزَّزْتُهُ ، لَسَبَقَ إِلَى الْفَهْمِ أَنَّهُ ضَرَبَهُ وَأَهَانَهُ . ولو قال : لَقَيْتُ فُلَانًا فَأَكْرَمْتُهُ وَعَزَّزْتُهُ ، لَزَالَ ذَلِكَ اللَّبْسُ .

واعلم أنه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجب قبحه ، ولو لم تجئ معه لما استقبح ، كقول الشريف الرضي :

أَعَزَّزْتُ عَلَيَّ بِأَنَّ أَرَاكَ وَقَدْ خَلَا عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدَ الْعَوَادِ

وقد ذكر ابن سنان الحفاجي هذا البيت في كتابه ، فقال : إِنَّ إِبْرَادَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ صَحِيحٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا يَكْرَهُ ذَكَرَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ ، لَا سِيَّامًا وَقَدْ أَضَافَهُ إِلَى مَنْ يَحْتَمَلُ إِضَافَتَهُ إِلَيْهِ وَهُمْ الْعَوَادُ ، وَلَوْ انْفَرَدَ لَكَانَ الْأَمْرُ فِيهِ سَهْلًا . فَأَمَّا الْإِضَافَةُ إِلَى مَنْ ذَكَرَهُ فِيهَا قُبْحٌ لَا خَفَاءَ بِهِ . هَذَا حِكَايَةٌ كَلَامِهِ (١٤٦) ، وَهُوَ مَرْصِيُّ وَقَعَ فِي مَوْقِعِهِ .

ولنذكر نحن ما عندنا في ذلك فنقول : قد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر في القرآن الكريم ، فجاءت حسنة مرضية . وهي قوله تعالى : « وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ (١٤٧) » وكذلك قوله تعالى : « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا

(١٤٥) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(١٤٦) انظر سر الفصاحة ٩٣ ونص عبارة ابن سنان : فإيراد « مقاعد » في هذا البيت صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشأن . لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم وهم العواد . ولو انفرد كان الأمر فيه سهلا . فأما إضافته إلى ما ذكره فيها قبح لاخفاء به .

(١٤٧) سورة آل عمران : الآية : ١٢١ .

مِلْتُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهْبًا \* وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ  
شِهَابًا رَصَدًا (١٤٨) »

أَلَا تَرَى أَنَّهَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ غَيْرُ مِضَافَةٍ إِلَى مَنْ تَقْبَحُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ كَمَا جَاءَتْ فِي  
الشعر.

ولو قال الشاعر بدلًا من «مقاعد العواد» «مقاعد الزيارة» أو ما جرى مجراه لذهب  
ذلك القبح، وزالت تلك الهُجْنَةُ. ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من  
الحسن، وجاءت على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي.  
وعلى هذا ورد قولُ تَابَّطُ شَرًّا:

أَقُولُ لِلْحَيَّانِ وَقَدْ صَفَرْتُ لَهُمْ وَطَائِي وَيَوْمِي ضَيْقُ الْجُحْرِ مُعَوَّرٌ (١٤٩)  
فإنه أضاف الجُحْرَ إلى اليَوْمِ، فأزال عنه هُجْنَةَ الاشتباه، لأنَّ «البحر» يطلق على  
كل ثقبٍ كثقبِ الحيةِ واليربوعِ، وعلى المحلِّ المخصوص من الحيوانِ، فإذا ورد مُهملاً  
بغير قرينةٍ تخصَّصه سبقَ إلى الوهم ما يقبحُ ذِكرُهُ، لاشتهاره به دُونَ غيره.  
ومِنْ هَاهُنَا وَرَدَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لَا يُلْسَعُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»  
وحيثُ قال: «يُلْسَعُ» زال اللَّبْسُ. لأنَّ اللَّسْعَ لا يكونُ إلا للحيَّةِ وغيرها من ذواتِ  
السُّمومِ.

وأما ما وَرَدَ مُهملاً بغير قرينةٍ <sup>مختول</sup> فَتَطَّلَى أَبِي تَمَّامٍ (١٥٠):  
أَعْطَيْتَ لِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَليْسَ لِي عَقْلٌ وَلَا حَقَّ عَلَيْكَ قَدِيمٌ (١٥١)  
فقوله: «ليس لي عقل» يظنُّ أنه من «عقل الشيء» إذا علمه. ولو قال «ليس لي  
عليك عقل» لزال اللَّبْسُ.

(١٤٨) سورة الجن: الآيتان ٩ و٨.  
(١٤٩) ديوان الحامسة ٢٦/١، وحيان بطن من هذيل، وصفرت جلت، والوطاب جمع وطب وهو سقاء  
اللين، وقوله «ضيق البحر» مثل لضيق المنفذ، والمعور المنكشف العورة.  
(١٥٠) ديوان أبي تمام ٣٠١ من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم، ومطلعها:  
أسقى ظلهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم  
(١٥١) رواية الديوان «أعطيتني» موضع «أعطيت لي» والعقل الدية.

فيجبُ إذاً على صاحبِ هذه الصَّنَاعَةِ أن يُرَاعِيَ في كلامه مثلَ هذا الموضعِ ، وهو من جُمْلَةِ الألفاظِ المُشترَكةِ الَّتِي يُحْتَاجُ فِي إيرادِها إلى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُها ضَرُورَةً .

### [ عدد حروف الكلمة ]

ومن أوصافِ الكلمةِ أن تكونَ مؤلَّفةً من أقلِّ الأوزانِ تركيباً . وَهَذَا ممَّا ذَكَرَهُ ابنُ سنانٍ في كتابِهِ ، ثُمَّ مثَلَهُ بقولِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنِّي (١٥٢) :

إِنَّ الكِرَامَ بِلاَ كِرَامٍ مِنْهُمُ مِثْلُ القُلُوبِ بِلاَ سُوَيْدَاوَاتِهَا (١٥٣)  
وقال : إن لفظَةَ «سُوَيْدَاوَاتِهَا» طويْلَةٌ ، فلهذا قَبِحَتْ (١٥٤) .

وليسَ الأمرُ كما ذَكَرَهُ ، فَإِنَّ قُبْحَ هذه اللَّفْظَةِ لم يكنْ بسببِ طُولِها ، وإِنَّا هَوَّلْنَا فِي نَفْسِها قُبْحَةً ، وَقَدْ كانتْ - وهى مفردةٌ - حسنةً . فلَمَّا جُمِعَتْ قَبِحَتْ ، لا بسببِ الطُّولِ .

والدليلُ على ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ أَلْفَاظٌ طَوَالٌ ، وهى معَ ذَلِكَ حسنةٌ ، كقولِهِ تَعَالَى : «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ (١٥٥)» فَإِنَّ هذه اللَّفْظَةَ تَسَعَةُ أَحْرَفٍ وكقولِهِ تَعَالَى : «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ (١٥٦)» فَإِنَّ هذه اللَّفْظَةَ عَشْرَةُ أَحْرَفٍ ، وَكِلْتاهُما حسنةٌ رائقةٌ .

ولو كانَ الطُّولُ ممَّا يُوجِبُ قُبْحًا لَقَبِحَتْ هاتانِ اللَّفْظَتانِ ، وليسَ كذلك .  
ألا تَرَى أَنَّهُ لو أَسْقَطَ من لفظَةِ «سويداوتها» . الهاءَ والألفَ اللَّتَيْنِ هما عِوَضَ عن

---

(١٥٢) ديوان المتني ٢٣٠/١ وهو من قصيدة في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها . داني الصفات بعيد موصوفاتها

(١٥٣) سويداء القلب حبه ، وجمعه سويداوات . يقول : الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء المدوحين كالقلب إذا لم يكن فيه .. ويدا .

(١٥٤) عبارة ابن سنان : فسويداواتها كلمة طويلة جداً ، فلذلك لا أختارها ، وانظر سر الفصاحة ٩٥ -

٩٧ (١٥٥) سورة البقرة : الآية ١٣٧ . (١٥٦) سورة النور : الآية ٥٥ .

الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف ؟ ، ومع هذا فإنها قبيحة . ولفظة « لَيْسَتْخَلْفَنَّهُمْ » عشرة أحرف ، وهي أطول منها بحرفين ، ومع هذا فإنها حسنة راقية .

والأصل في هذا الباب ما أذكره : وهو أن الأصول من الألفاظ لا تحسن إلا في الثلاثي ، وفي بعض الرباعي ، كقولها « عذب » و « عسجد » . فإن هاتين اللفظتين إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية . وأما الخماسي من الأصول فإنه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن ، كقولنا « جحمرش » . و « صهصلق » ، وما جرى مجراهما .

وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الوردتان في القرآن قبيحتين . لأن تلك تسعة أحرف وعشرة ، وهاتان خمسة وخمسة . وترى الأمر بالضد مما ذكره . وهذا لا يُعتبر فيه طول ولا قصر ، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض . وقد تقدم الكلام على ذلك ولهذا لا يوجد في القرآن من الخماسي الأصول شيء إلا ما كان اسم نبي عُرِبَ اسمه ، ولم يكن في الأصل عربيًا ، نحو « إبراهيم » و « إسماعيل » .

ومما يدخل في هذا الباب أن تجنب الألفاظ المؤلفة من حروفٍ يثقل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة . ومثال ذلك قول امرئ القيس في قصيدته اللامية ، التي هي من جملة القصائد السبع الطوال (١٥٧) :

غداثره مُسْتَشْرَرَاتٌ إِلَى الْعَلَا تَصِلُ الْمَدَارَى فِي مُثْنَى وَمُرْسَلٍ (١٥٨)

لفظة « مُسْتَشْرَرَاتٌ » مما يقبح استعمالها ، لأنها تثقل على اللسان ، ويشق النطق

بها ، وإن لم تكن طويلة ، لأننا لو قلنا « مُسْتَنْكَرَاتٌ » أو « مُسْتَنْفِرَاتٌ » على وزن « مُسْتَشْرَرَاتٌ » لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة .

ولرئياً اعترض بعض الجهال في هذا الموضع ، وقال : إن كراهة هذه اللفظة إنما هو

لطولها .

(١٥٧) هي المشهورة باسم ( المعلقات ) .

(١٥٨) الغدائر جمع الغديرة ، وهي الخصلة من الشعر ، والاستشراز الارتفاع ، والمدارى جمع مدرى وهي

الشط - ويروى « تزل العقاص » والعقاص جمع عقبصة ، وهي الخصلة المجموعة من الشعر .

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّا لَوْ حَدَفْنَا مِنْهَا الْأَلْفَ وَالنَّاءَ ، وَقُلْنَا «مُسْتَشْرِزٌ» لَكَانَ ذَلِكَ ثَقِيلًا ، وَسَبَبُهُ أَنَّ الشَّيْنَ قَبْلَهَا تَاءٌ وَبَعْدَهَا زَايٌ ، فَثَقُلَ النَّطْقُ بِهَا ، وَإِلَّا فَلَوْ جَعَلْنَا عَوْضًا مِنَ الزَّايِ رَاءً ، وَمِنَ الرَّاءِ فَاءً ، فَقُلْنَا «مُسْتَشْرِفٌ» لَزَالَ ذَلِكَ الثَّقَلُ .

وَلَقَدْ رَأَى بَعْضُ النَّاسِ وَأَنَا أَعْيَبُ عَلَى أَمْرِي الْقَيْسَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ الْمُشَارَإِ إِلَيْهَا ، فَأَكْبَرَ ذَلِكَ ، لَوْ قُوفَهُ مَعَ شُهْرَةِ التَّقْلِيدِ فِي أَنْ أَمْرًا الْقَيْسَ أَشْعَرَ الشُّعْرَاءِ ، فَعَجِبْتُ مِنْ ارْتِبَاطِهِ بِمَثَلِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ الضَّعِيفَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ : لَا يَمْنَعُ إِحْسَانُ أَمْرِي الْقَيْسَ مِنْ اسْتِقْبَاحِ مَالِهِ مِنَ الْقَنْبِجِ ، وَمِثَالُ هَذَا كَمِثَالِ غَزَالِ الْمِسْكِ ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهُ الْمِسْكُ وَالْبَعْرُ ، وَلَا يَمْنَعُ طَيْبٌ مَا يَخْرُجُ مِنْ مِسْكِهِ مِنْ خُبْتِ مَا يَخْرُجُ مِنْ بَعْرِهِ ، وَلَا تَكُونُ لَدَاذَةَ ذَلِكَ الطَّيْبِ حَامِيَةً لِلْخُبْتِ مِنَ الِاسْتِكْرَاهِ ، فَأَسْكَتَ الرَّجُلُ عِنْدَ ذَلِكَ .

وحضر عندي في بعض الأيام رجلٌ من اليهود ، وكنْتُ إِذْ ذَاكَ بِالدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَكَانَ لِلْيَهُودِ فِي هَذَا الرَّجُلِ اعْتِقَادٌ ، لِمَكَانِ عِلْمِهِ فِي دِينِهِمْ وَغَيْرِهِ ، وَكَانَ لَعَمْرِي كَذَلِكَ ، فَجَرَى ذِكْرُ اللُّغَاتِ ، وَأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ سَيِّدَةُ اللُّغَاتِ . وَأَنَّهَا أَشْرَفُهُنَّ مَكَانًا ، وَأَحْسَنُهُنَّ وَضْعًا . فَقَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ : كَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ . وَقَدْ جَاءَتْ آخَرًا ، فَفَتَتِ الْقَبِيحَ مِنَ اللُّغَاتِ قَبْلَهَا ، وَأَخَذَتِ الْحَسَنَ ، ثُمَّ إِنَّ وَاضِعَهَا تَصَرَّفَ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ السَّالِفَةِ ، فَاخْتَصَرَ مَا اخْتَصَرَ ، وَخَفَّفَ مَا خَفَّفَ ، فَمِنْ ذَلِكَ اسْمُ الْجَمَلِ ، فَإِنَّهُ عِنْدَنَا فِي اللِّسَانِ الْعَبْرَانِيَّ «كُومِيلٌ» مُمَالًا عَلَيَّ وَزَنَ «فُوعِيلٌ» فَجَاءَ وَاضِعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَحَدَفَ مِنْهَا الثَّقِيلَ الْمُسْتَشْبَعَ ، وَقَالَ «جَمَلٌ» ، فَصَارَ خَفِيفًا حَسَنًا ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ فِي كَذَا وَكَذَا ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً ، وَلَقَدْ صَدَّقَ فِي الَّذِي ذَكَرَهُ وَهُوَ كَلَامٌ عَالِمٌ بِهِ .

### [ خفة الحركات ]

وَمِنْ أَوْصَافِ الْكَلِمَةِ أَنْ تَكُونَ مَبِينَةً مِنْ حَرَكَاتِ خَفِيفَةٍ ، لِيَخْفَ النَّطْقُ بِهَا . وَهَذَا الْوَصْفُ يَتَرْتَّبُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَلِمَةِ ، وَلِهَذَا إِذَا تَوَالَى حَرَكَتَانِ خَفِيفَتَانِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ تَسْتَقِلْ ، وَبِخِلَافِ ذَلِكَ الْحَرَكَاتِ الثَّقِيلَةِ ، فَإِنَّهُ إِذَا تَوَالَى مِنْهَا حَرَكَتَانِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ اسْتَقْبَلَتْ .

ومن أجل ذلك اسْتَثَقَلَتِ الضمة على الواو، والكسرة على الياء، لأنَّ الضمة من جنس الواو، والكسرة من جنس الياء، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان: ولنمثِّلْ لك مثلاً لتَهْتَدِيَ به في هذا الموضع، وهو أنا نقول: إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي - ج زع - فإذا جعلنا الجيم مفتوحة، فقلنا «الجَزَع» أو مكسورة، فقلنا «الجَزَع» كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا «الجزع»، وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا «الجَزَع» كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا «الجَزَع» ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيراً لمخارج حروفها، حتى يُنسب ذلك إلى اختلاف تأليف المخارج، بل وجدناها تارة تكتسى حسناً، وتارة يُسلب ذلك الحسنُ عنها، فعلمنا أن ذلك حادثٌ عن اختلاف تأليف حركاتها.

واعلم أنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ. ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلاً، كقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ» (١٥٩) وكقوله تعالى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» (١٦٠). وكقوله تعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ» (١٦١) فحركة الضم في هذه الألفاظ متواليّة، وليس بها من ثقلٍ ولا كراهة. وكذلك وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ (١٦٢):

نَفْسٌ	يَحْتَشُهُ	(١٦٣)	نَفْسٌ	وَدُمُوعٌ	لَيْسَ	تَحْتَبِسُ
وَمَعَانٍ	لِلْكَرَى	ذُرٌّ	عُطْلٌ	مِنْ	عَهْدِهِ	دُرُسٌ (١٦٤)
بَهْرَتْ	مَا	كَتُّ	أَكْتَمُهُ	نَاطِقَاتٌ	بِالْهَوَى	خُرُسٌ

(١٥٩) سورة القمر: الآية ٣٦. (١٦٠) سورة القمر: الآية ٤٧. (١٦١) سورة القمر: الآية ٥٢.

(١٦٢) بيان أبي تمام ٤٤٨ وهي أبيات في النسب.

(١٦٣) يحشّه على الخروج.

(١٦٤) المغاني المنازل. والكرى النعاس. والدثر البالية. والعطل الخالية. والدرس المحوّة.

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها ، وهي مع ذلك حسنة  
لا ثقل بها ، ولا ينبو السمع عنها ؟  
وهذا لا ينقض ما أشرنا إليه ، لأن الغالب أن يكون توالي حركة الضم مستقلاً ،  
فإذا شذ عن ذلك شيء يسير ، لا ينقض الأصل المقيس عليه .



## القسم الثاني

### فى الألفاظ المركبة

قد قَدَّمْنَا القولَ فى شرح أحوالِ اللفظةِ المفردةِ، وما يختصُّ بها. وأمَّا إذا صارتُ مركبةً، فإنَّ تركيبها حكمًا آخر. وذلكَ أنَّه يحدثُ عنه من فوائدِ التاليفاتِ والامتزاجاتِ ما يَحِيلُ للسَّمعِ أنَّ هذه الألفاظَ لَيْسَتْ تلكَ التي كانتَ مفردة.

ومثالُ ذلكَ كَمَنْ أَخَذَ لآلِيعَ لَيْسَتْ من ذواتِ القِيمِ العَالِيَةِ. فالْفِها، وأحْسَنَ الوضِعَ فى تَأْلِيفِها، فحِيلَ للنَّاظِرِ بحُسْنِ تَأْلِيفِها، وإتقانِ صَنَعَتِها، أنَّها لَيْسَتْ تِلْكَ التي كانتَ مَنثورَةً مَبَدَّدَةً.

وفى عكسِ ذلكَ مَنْ يَأْخُذُ لآلِيعَ من ذَوَاتِ القِيمِ العَالِيَةِ، فَيَفْسِدُ تَأْلِيفِها. فَإِنَّهُ يَضَعُ مِنْ حُسْنِها، وكذَلِكَ يَجْرِي حُكْمُ الألفاظِ العَالِيَةِ مع فَسادِ التَأْلِيفِ. وهذا مَوْضِعٌ شَرِيفٌ يَنْبَغِي الإلتفاتَ إليه، والعنايةَ به.

واعلمْ أنَّ صناعةَ تَأْلِيفِ الألفاظِ تَنقَسِمُ إلى ثمانيةِ أنواعٍ هى :

السَّجْعُ، ويختصُّ بالكلامِ المنثور.

والتصريحُ، ويختصُّ بالكلامِ المنظومِ، وهو داخلٌ فى بابِ السَّجْعِ، لأنه فى الكلامِ المنظومِ كالسَّجْعِ فى الكلامِ المنثور.

والتجنيسُ، وهو يعمُّ القِسْمَيْنِ جميعاً.

والتُرْصِيعُ. وهو يعمُّ القِسْمَيْنِ أيضاً جميعاً.

وَلزُومٌ مالا يَلزَمُ: وهو يعمُّ القِسْمَيْنِ أيضاً.

والموازنة: وتختصُّ بالكلامِ المنثور.

واختلافُ صيغِ الألفاظِ، وهو يعمُّ القِسْمَيْنِ جميعاً.

وتكريرُ الحروفِ، وهو يعمُّ القِسْمَيْنِ جميعاً.

## النوع الأول : المسجع

وحدهُ أَنْ يَقَالَ : تَوَاطَوْا الْفَوَاصِلَ فِي الْكَلَامِ الْمَثْوُورِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ .  
وقد ذمَّه بعضُ أصحابنا من أربابِ هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى  
عجزهم أَنْ يأتوا به ، والأفلوكان مذموماً لما وردَ في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه  
بالكثير ، حتَّى أنه لِيُوتَى بالسُّورَةِ جميعاً مسجوعاً ، كسورة الرَّحْمَنِ ، وسورة القَمَرِ ،  
وغيرهما . وبالجملة فلم تَخُلْ منه سُورَةٌ من السُّورِ .

فمن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً \* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً  
لَا يُجَادُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيْرًا <sup>(١)</sup> » .

وكقوله تعالى في سورة ( طه ) : « طه \* ما أنزلنا عليك القرآن لِيَتَشَقَّى \* إلا  
تذكرةً لِمَنْ يَخْشَى \* تَزِيْلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا \* الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ  
اسْتَوَى \* لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى \* وَإِنْ تَجَهَّرْ  
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى <sup>(٢)</sup> » .

وكذلك قوله تعالى في سورة ( ق ) : « بل كذَّبوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ  
مَرِيحٍ \* أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ \* وَالْأَرْضِ  
مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ <sup>(٣)</sup> » .

وكقوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا \* فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا \* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا \*  
فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا \* فَوسَطُنَّ بِهِ جَمْعًا <sup>(٤)</sup> » . وأمثال ذلك كثيرة .

وقد وردَ على هذا الأسلوب من كلامِ النبي ﷺ شيءٌ كثيرٌ أيضاً .  
فمن ذلك ما رواه ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :  
« اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قُلْنَا : إِنَّا لِنَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : « لَيْسَ

(١) سورة الأحزاب : الآيات ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) سورة طه : الآيات ١ - ٨ .

(٣) سورة ق : الآيات ٥ - ٧ .

(٤) سورة العاديات : الآيات ١ - ٥ .

ذلك ! ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والليل ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن سلام ، فقال : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمْتُ بِهِ أَنْ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامَ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » .

فإن قيل : إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبَعْضِهِمْ مُنْكَرًا عَلَيْهِ وَقَدْ كَلَّمَهُ بِكَلَامٍ مَسْجُوعٍ : « أَسْجَعًا كَسَجِعِ الْكُهَّانِ » ؟ وَلَوْلَا أَنَّ السَّجْعَ مَكْرُوهٌ لَمَا أَنْكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ ؟ .  
فالجوابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّا نَقُولُ : لَوْ كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ السَّجْعَ مُطْلَقًا لَقَالَ : أَسْجَعًا ؟ ثُمَّ سَكَتَ ، وَكَانَ الْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى إِنْكَارِ هَذَا الْفِعْلِ لِمَ كَانَ ، فَلَمَّا قَالَ : « أَسْجَعًا كَسَجِعِ الْكُهَّانِ » صَارَ الْمَعْنَى مَعْلُوقًا عَلَى أَمْرٍ ، وَهُوَ إِنْكَارُ الْفِعْلِ لِمَ كَانَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ .  
فَعَلِمَ أَنَّهُ إِذَا ذَمَّ مِنَ السَّجْعِ مَا كَانَ مِثْلَ سَجْعِ الْكُهَّانِ لَا غَيْرَ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَذُمَّ السَّجْعَ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهُوَ ﷺ قَدْ نَطَقَ بِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِ ، حَتَّى أَنَّهُ غَيَّرَ الْكَلِمَةَ عَنْ وَجْهِهَا أَتْبَاعًا لَهَا بِأَخَوَاتِهَا مِنْ أَجْلِ السَّجْعِ ، فَقَالَ لِابْنِ ابْنَتِهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : « أَعِيذُهُ مِنَ الْهَامَّةِ وَالسَّامَّةِ ، وَكُلُّ عَيْنٍ لَامَّةٌ » وَإِنَّمَا أَرَادَ « مُلَمَّةٌ » لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهَا مِنْ « أَلَمَّ » فَهُوَ « مُلِمٌ » .

وكذلك قوله ﷺ « ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرِ مَأْجُورَاتٍ » . وَإِنَّمَا أَرَادَ « مَوْزُورَاتٍ » مِنَ الْوِزْرِ ، فَقَالَ : « مَأْزُورَاتٍ » لِمَكَانِ « مَأْجُورَاتٍ » طَلَبًا لِلتَّوَازُنِ وَالسَّجْعِ ، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى فَضِيلَةِ السَّجْعِ .

على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن إنكار سجع الكهَّانِ عندي فيه نظر ، فإنَّ الوهم يسبق إلى إنكاره ، يُقَالُ : فَمَا سَجِعُ الْكُهَّانِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ الْإِنْكَارُ بِهِ ، وَنَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟

والجوابُ عن ذلك أن النهيَ لم يكن عن السَّجْعِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا النَّهْيُ عَنِ حُكْمِ الْكَاهِنِ الْوَارِدِ بِاللَّفْظِ الْمَسْجُوعِ أَلَّا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنِينِ بِغُرَّةِ عَبْدِ

أَوْ أَمَةٍ ، قال الرجلُ : أَدَى مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ ، ومثل ذلك  
يُظَلُّ ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ « أسجعاً كسجعِ الكُهَّانِ » أى اتَّبِعْ سَجْعاً كَسَجْعِ  
الْكُهَّانِ ؟

وكذلك كان الكهنة كلهم فإنهم كانوا إذا سُئِلُوا عن أمرٍ جاءوا بالكلامِ مسجوعاً ،  
كما فعلَ الكاهنُ في قصَّةِ هند بنتِ عُتْبَةَ ، فإنه قالَ لَمَّا امتَحِنَ قبلَ السؤالِ عن قصِّتها :  
« ثَمَرَةٌ فِي كَمَرَةٍ » . فقيلَ له نريدُ أبينَ مِن هذا ! فقالَ : « حَبَّةٌ بُرٌّ فِي إِحْلِيلِ مُهْرٍ »  
والحكايةُ مشهورةٌ ، فلهدأ اختصرناها هنا .

وكذلك قال سَطِيحٌ (٥) ، فإنه قالَ : « عبدُ المَسِيحِ ، جاءَ إلى سَطِيحِ ، وهو موفٍ  
على الضَّرِيحِ ، لرؤيا المؤبذانِ ، وارتجاسِ الإيوانِ » وأتمَّ الكلامَ إلى آخره مسجوعاً .  
والحكايةُ مشهورةٌ أيضاً ، فلهدأ اختصرناها .

فالسَّجْعُ إِذَا لَيْسَ بِمَنْهَى عَنْهُ ، وَإِنَّا الْمَنْهَى عَنْهُ هُوَ الْحُكْمُ الْمُتَّبَعُ فِي قَوْلِ الْكَاهِنِ ،  
فقالَ رسولُ الله ﷺ : « أسجعاً كسجعِ الكُهَّانِ » ؟ أى أَحْكُمَا كَحُكْمِ الْكُهَّانِ ، وَإِلَّا  
فالسَّجْعُ الَّذِي أَتَى بِهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ لَا بَأْسَ بِهِ ، لِأَنَّهُ قَالَ : « أَدَى مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا  
أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ (٦) ، وَلَا اسْتَهَلَ ، ومثل ذلك يُظَلُّ (٧) » ؟ وهذا كلامٌ حَسَنٌ مِنْ حَيْثُ  
السَّجْعُ ، وَلَيْسَ بِمَنْكِرٍ لِنَفْسِهِ . وَإِنَّا الْمُنْكَرُ هُوَ الْحُكْمُ الَّذِي تَضَمَّنَهُ فِي امْتِنَاعِ الْكَاهِنِ  
أَنْ يَدِيَ الْجَنِينَ بَغْرَةَ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ (٨)

واعلم أنَّ الأَصْلَ فِي السَّجْعِ إِنَّمَا هُوَ الْإِعْتِدَالُ فِي مَقَاطِعِ الْكَلَامِ ، وَالْإِعْتِدَالُ  
مَطْلُوبٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالنَّفْسُ تَمِيلُ إِلَيْهِ بِالطَّبَعِ .

ومع هذا فليس الوقوف في السَّجْعِ عند الاعتدالِ فقط ، ولا عند تواطؤِ الفواصلِ  
على حرفٍ واحدٍ - إذ لو كان ذلك هو المراد من السَّجْعِ لكان كلُّ أديبٍ من الأديابِ  
سَجَاعاً ، وما مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ - ولو شداً شيئاً يسيراً من الأدبِ - إلا ويمكنه أن يؤلِّفَ

(٥) سَطِيحُ أَحَدِ كُهَّانِ الْعَرَبِ ، وَهُوَ ابْنُ رَبِيعَةَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ مَازِنِ بْنِ ذَنْبِ .

(٦) رِوَايَةُ الْبَيَّانِ « وَلَا صَاحَ وَاسْتَهَلَ » . (٧) يَظَلُّ أَي يَهْدِرُ دَمَهُ .

(٨) قَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ بْنِ عَيْسَى الرَّقَاشِيُّ : لَوْ أَنَّ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ لَمْ يَرِدْ إِلَّا الْإِقَامَةُ لِهَذَا الْوِزْنِ لَمَا كَانَ

عَلَيْهِ بَأْسٌ . وَلَكِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَرَادَ إِبْطَالَ حَقِّ ، فَتَشَادِقُ فِي الْكَلَامِ وَانظُرِ الْبَيَّانَ وَالتَّيْنَ ٢٨٧/١ .

الفاظاً مسجوعة ، ويأتي بها في كلامه . بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانه رنانة ، لا غثة ولا باردة وأعني بقولي : « غثة باردة » أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن ، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف<sup>(٩)</sup> ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون .

وهذا مقام تزل عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً .

فإذا صُفِيَ الكلامُ المسجوع من الغثاة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مُمَوِّه ، على باطن مُشَوِّه ، ويكون مثله كغميد من ذهب على نصل من خشب . وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتية ذكرها من التجنيس والترصيع ، وغيرهما .

وسأبين لك في هذا مثلاً تتبعه ، فأقول : إذا صوّرت في نفسك معنى من المعاني ، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ، ولم يواتك ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ ، أو نقصان منه ، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا إلى النقصان ، وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه ، وإذا دلت بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً إلا أن تُصِفَ إليه شيئاً آخر ، أو تنقص منه ، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذي يذم من السجع ، ويُستفح ، لما فيه من التكلف والتعسف .

وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام ، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم ، يستعبد كرائمها ، ويستولد عقائمتها وفي مثل ذلك فليتأنس ، وعن مقامه فليتقاعس ، ولصاحبه أولى بقول أبي الطيب المتنبي<sup>(١٠)</sup> :

(٩) الكرسف القطن . (١٠) من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد ، ومطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجرد معك أو جرى

أَنْتَ الْوَحِيدُ إِذَا رَكِبْتَ طَرِيقَةً وَمَنْ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنَفْرًا (١١)  
 فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا كَانَ السَّجْعُ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْكَلَامِ عَلَى مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ  
 يَأْتِيَ الْقُرْآنُ كُلَّهُ مَسْجُوعًا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلْ مِنْهُ الْمَسْجُوعُ ، وَمِنْهُ غَيْرُ الْمَسْجُوعِ ؟  
 قُلْتُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ أَكْثَرَ الْقُرْآنِ مَسْجُوعٌ ، حَتَّى أَنْ السُّورَةَ لَتَأْتِي جَمِيعَهَا  
 مَسْجُوعَةً . وَمَا مَنَعَ أَنْ يَأْتِيَ الْقُرْآنُ كُلَّهُ مَسْجُوعًا إِلَّا أَنَّهُ سَلَكَ بِهِ مَسْلَكَ الْإِيْجَازِ  
 وَالِاخْتِصَارِ ، وَالسَّجْعُ لَا يُوَاتِي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَدِّ الْإِيْجَازِ وَالِاخْتِصَارِ ،  
 فَتَرَكَ اسْتِعْمَالَهُ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ لِهَذَا السَّبَبِ .

وَهَاهُنَا وَجْهٌ آخَرٌ هُوَ أَقْوَى مِنَ الْأَوَّلِ ، وَلِذَلِكَ نَبَّهْتُ أَنَّ الْمَسْجُوعَ مِنَ الْكَلَامِ أَفْضَلُ  
 مِنْ غَيْرِ الْمَسْجُوعِ ، وَإِنَّمَا تَضَمَّنَ الْقُرْآنُ غَيْرَ الْمَسْجُوعِ لِأَنَّ وُرُودَ غَيْرِ الْمَسْجُوعِ مُعْجَزًا  
 أَبْلَغُ فِي بَابِ الْإِعْجَازِ مِنْ وُرُودِ الْمَسْجُوعِ . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَضَمَّنَ الْقُرْآنُ الْقِسْمَيْنِ  
 جَمِيعًا .

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْسَّجْعِ سِرًّا هُوَ خِلَاصَتُهُ الْمَطْلُوبَةُ ، فَإِنْ عَرَى الْكَلَامُ الْمَسْجُوعَ مِنْهُ فَلَا  
 يَعْتَدُّ بِهِ أَصْلًا .

وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَنْبَغِ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرِي ، وَسَائِبِي هَاهُنَا ، وَأَقُولُ فِيهِ قَوْلًا هُوَ أَبْيَنُ مِمَّا  
 تَقَدَّمَ ، وَأَمْثَلُ لَكَ مِثَالًا إِذَا حَدَّثْتَهُ أَمِنْتَ الطَّاعِنَ وَالْعَائِبَ ، وَقِيلَ فِي كَلَامِكَ : لِيَبْلُغَ  
 الشَّاهِدُ الْغَائِبَ .

وَالَّذِي أَقُولُهُ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّجْعَتَيْنِ الْمَزْدَوَجَتَيْنِ مُشْتَمَلَةً  
 عَلَى مَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أُخْتُهَا ، فَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى فِيهَا سَوَاءً فَذَلِكَ هُوَ  
 التَّطْوِيلُ بَعَيْنِهِ ، لِأَنَّ ( التَّطْوِيلَ ) إِنَّمَا هُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى الْمَعْنَى بِالْفَاظِ يُمْكِنُ الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ  
 بِدُونِهَا . وَإِذَا وَرَدَتْ سَجْعَتَانِ تَدْلَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدَةٍ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا كَافِيَةً فِي الدَّلَالَةِ  
 عَلَيْهِ ، وَجَلَّ كَلَامُ النَّاسِ الْمَسْجُوعِ جَارٍ عَلَيْهِ .

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ كِتَابَةَ الْمُفْلِقِينَ مِمَّنْ تَقَدَّمَ ، كَالصَّابِي وَابْنِ الْعَمِيدِ وَابْنِ عَبَّادِ ، وَفُلَانِ

(١١) الديوان ١٦٧/٢ وروايته « ارتكبت » موضع « ركبت » يقول : أنت في كل أمر تفعله فرد لا يقدر أحد  
 أن يتبعك فيه ، كراكب الأسد لا يقدر أحد أن يتبعه ، ولا أن يكون رديفًا له .

وفلان ، فإنك ترى أكثر المسجوعِ مِنْهُ كذلك ، والأقلُّ مِنْهُ على ما أشرتُ إليه .  
ولقد تصفّحتُ المقاماتِ الحريريَّةَ والخطبَ النَّبائيَّةَ على غرامِ الناسِ بهما وإكبابِهِم  
عليها ، فوجدتُ الأكثرَ من السَّجعِ فيها على الأسلوبِ الذي أنكرتُه .

فالكلامُ المسجوعُ إذاً يحتاجُ إلى أربعِ شرائطِ :  
الأولى : اختيارُ مفرداتِ الألفاظِ على الوجه الذي أشرتُ إليه فيما تقدّم .  
الثانية : اختيارُ التركيبِ على الوجه الذي أشرتُ إليه أيضاً فيما تقدّم .  
الثالثة : أن يكونَ اللفظُ في الكلامِ المسجوعِ تابعاً للمعنى ، لا المعنى تابعاً للفظ .  
الرابعة : أن تكونَ كلُّ واحدةٍ من الفقرتينِ المسجوعتينِ دالةً على معنى غير المعنى  
الذي دلتُ عليه أختها .

فهذه أربعُ شرائطٍ لأبداً منها .  
وسأوردُ هاهنا من كلامي أمثلةً يُحذَى حذوها ، فإنني لما سلكتُ هذه الطريق ،  
وأنتيتُ بكلامي مسجوعاً توخيتُ أن تكونَ كلُّ سجعَةٍ مِنْهُ مختصّةً بمعنى غير المعنى الذي  
تضمنته أختها ، ولم أُخلِ بذلك في مكاتباتي كلها ، وإذا تأملتَها علمتَ صحّةَ ما قد  
ذكرتُه .

فمن ذلك ما كتبتُه في صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة ، وهو :

الخدّام واقفٌ موقفَ راجٍ هائبٍ ، لازمٌ بكتابه هذا وقارٌ حاضر عن شخص  
غائبٍ ، موجهٌ وجهه إلى ذلك الجنابِ الذي تُقسّمُ فيه أرزاقُ العبادِ ، ويتأدّبُ به  
الزّمانُ تأدّبَ ذوى الاستعبادِ ، وتستمدُّ الملوكُ من خدمته شرفَ الجدودِ ، كما تستغني  
بنسبها إليه عن شرفِ الأجدادِ ، ولو ملكَ الخدّامُ نفسَه لقصرَها على خدمةِ قصره ،  
وأخطأها من النّظرِ إليه ببردِ العيشِ الذي عمرها محسوبٌ من عمره ، وهذا القولُ يقوله  
وكل ماجدٍ فيه حاسدٍ ، ويتأمله راعٍ ساجدٍ . والديوانُ العزيزُ محسودُ الاقترابِ ، وهو  
موطنُ الرّغباتِ الذي الاغترابُ إليه ليس بالاغترابِ ، وما ينافسُ في القربِ من أبوابه

الكريمة إلا ذوو الهمم الكريمة ، وقد ودَّت الكواكبُ بأسرِها أن تكونَ له مُنادِمةً فضلاً  
عن نَدْمَانِي جَدِيمَةٍ» (١٢)

ومن ذلك ما كتبه من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس ، وهو :

« الكريمُ مَنْ أوجِبَ لسائِلِه حَقًّا ، وجَعَلَ كواذِبَ آمالِه صِدْقًا ، وكان خَرَقُ  
العطايا مِنْه خُلُقًا ، ولم يَرِيبَنَّ ذِمَمِه وبيَّن رَحِمِه فَرَقًا . وكلُّ ذلك موجودٌ في كرم مولانا  
أجرأه الله من فضله على وتيرة ، وجعل هممه على تمام كل نقص قديرة ، وأوطأه من  
كلُّ مجدٍ سريراً كما بَوَّأه من كلِّ قلبٍ سريرةً ، ولا زالت يدهُ بالمكارم جديرةً ، ومن الأيامِ  
مُجيرةً ، ولضرائرها من البحارِ والسحابِ مُعيرةً ، ولا برحتْ تَسْتَوْلِدُ عقائِمَ المعاني .  
وتستجدُّ أبنيتها ، حتى تشهدَ الناسَ منها في كلِّ يومٍ عَقِيقةً أو وكيرةً (١٣) ، ومن صفاتِ  
كرمه أنه يسبِكُ الأموالَ مائِثَرًا ، ويتخذُها عند السُّؤالِ ذخائِرًا ، فهي تَفْنَى لَدَيْهِمْ  
بالإنفاقِ ، وذكرها على مُرورِ الأيامِ باقٍ ، وَمَنْ أَرَبِحَ مِنْه صَفَقَةٌ وقد باعَ صامِتًا بناطِقَ ،  
وما هو مُرَضٌّ لحوادثِ السَّرقاتِ بما لا تَصِلُ إليه يدُ سارقٍ؟ ومثله مَنْ عَرَفَ الدُّنيا ،  
فرغِبَ عن اقْتنائِها ، وجدَّ في ابتناءِ المحامدِ بهدمِ بنائِها ، وعَلِمَ أنَّ مالها ليسَ عِنْدَ  
الضَّيْنِ بهِ إلا أَحجارًا ، وأنَّ غِناءَها مِنْها لا يزيدهُ إلا افتقارًا ، فهو لِمالهِ عَبْدٌ يُخَدِّمُه ولا  
يَسْتخدِمُه ، وأمُّ تُرَضِعُه بِسَعِيها ولا تَفطُمُه » :

(١٢) ندبما جذيمة ، يضرب بها المثل في طول الصحبة ، كما يضرب بالفرقدين وابني شام - جبلان في ديار  
بني تميم - وتختلي حلوان ، وكان جذيمة الوضاح الملك لا ينادم أحداً ذهاباً بنفسه وكان يقول : أنا أعظم من أن  
أنادم أحداً إلا الفرقدين ، وكان يشرب كأساً ، ويصب لكل منها كأساً . فلما أتاه مالك وعقيل باين أخته عمرو ،  
صاحب الطوق الذي استهوته الجن ، قال لها : ما حاجتكما ؟ قال : منادمتك ! فنادمتها أربعين سنة ، كانا  
يحادثانه ، وما أعادا عليه حديثاً قط ، حتى فرق بينهما الدهر ، وفيها يقول الشاعر :

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا ندبما صفاء مالك وعقيل

ويقول متمم بن نويرة في أخيه مالك وهو من الأمثال السائرة :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكنا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(١٣) العقيقة الشاة التي تذبح عند حلق شعر المولود ، أو الطعام الذي يدعى إليه حينئذ ، والوكيرة طعام

يعمل لفراغ البنيان .



ومنه ما كتبت في جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه ، فقلت :

« وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يفرُّ المهر من عليقه ، ويطيّر الفراش إلى حريقه ، وغير بعيد أن ينبو به مضجعه ، أو يكبو به مطمعه ، فيرجع وقد حمد من رجوعه مادمه من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة في إياه ، فاكل شجرة تحلو لذائقها ، ولا كل دار ترحب بطارقها ، ومن أبق عن مولاة مغاضبا ، وجانب محل إحسانه الذي لم يكن له مجانيا ، فإنه يجد من مفارقة الإحسان ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان . وهل أضل سعيًا ممن دفع في صدر العافية ، وغدا يسأل عن الأسقام ، وألقى الثروة من يده ومضى في طلب الإعدام؟ ومع هذا فإن الخادم يشكره على ذنب الإباق الذي أقدم على اجتراحه ، وليس ذلك إلا لأنه صار سببًا لافتتاح باب المكاتبة الذي لم يطمع في افتتاحه ، ولا جزاء له عنده إلا السعي في إعادته إلى الخدمة التي تقلب في إنشائها ، وهي أبره من أمه التي تقلب في أحشائها ، ومن فضلها أنها تلقاه من حلمها بوسيلة الشافع ، ومن كرمها بالوجه الصالح والفضل الواسع . »

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها ، وأعطها حق النظر ، حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس في أختها التي تليها . وكذلك فليكن السجع ، والأ فلا !

[ من سجع الصابي ]

وسأورد هاهنا من كلام الصابي ما ستره .

فمن ذلك تحميد في كتاب ، فقال (١٤) :

« الحمد لله الذي لا تدرُّكه الأعينُ بالحاظها ، ولا تحده الألسنُ بالفاظها ، ولا تخلفه العصورُ بمروها ، ولا تهزمه الدهورُ بكرورها (١٥) . »

(١٤) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ١٣/١ .

(١٥) اختصر ابن الأثير كلاما كثيرا ، وفي المختار « الفاعل لا عن مادة استمدها ، الصانع لا بآلة استعمالها ،

الذي لا تدرُّكه الأعين . . . الخ .

ثم انتهى إلى الصلاة على النبي ﷺ ، فقال : « لَمْ يَرِ لِلْكَفْرِ (١٦) أَثْرًا إِلَّا طَمَسَهُ  
ومحاه ، ولا رَسْمًا إِلَّا أزاله وعفاه » .

ولا فرق بين مرور العصور وكُرُورِ الدهُور . وكذلك لا فرق بين محو الأثر وعفاء  
الرَّسْم .

ومن كلامه أيضا في كتاب ، وهو (١٧) :

« وقد عَلِمْتَ (١٨) أَنَّ الدولة العباسية لم تزلْ على سالفِ الأيام ، ومتعاقب (١٩)  
الأعوام تَعْتَلُّ طَوْرًا وتصحُّ أَطْوَارًا ، وتَلْتَأُ (٢٠) مرَّةً ، وتَسْتَقِلُّ مِرَارًا ، من حيثُ أصلها  
راسخٌ لا يترعزع ، وبنيانها ثابتٌ لا يتضعضع » .

وهذه الأسجاعُ كلها متساوية المعاني ، فإنَّ الاعتلالَ ، والالتيات ، والطَّورَ ،  
والمرَّةَ ، والرُّسوخَ ، والثباتَ ، كلُّ ذلك سواءُ .

وكذلك ورد له في جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه جواباً عن كتاب وصله  
من الأمير عبد الكريم بن المطيع لله ، فقال :

« وصلني كتابه مفتتحاً من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين ، والتقلد لأُمور المسلمين بما  
أعراقه الزكية مجوزة لاستمراره ، وأرومته العلية مسوغة لاستقراره ، له ولكل نجيب أخذ  
يحظه من نسبه ، وضارب بسهم في منصبه ، إذ كان ذلك جارياً على الأصول المعهودة  
فيه ، والأسباب العاقدة له من إجماع المؤمنين كافة ، فإن تعذر اجتماعهم مع  
انبساطهم في الأرض ، وانتشارهم في الطول والعرض ، فلا بد من اتفاق أشراف كلِّ  
قُطرٍ وأفاضله ، وأعيان كلِّ صُقعٍ وأمائله » .

وهذا الكلام كله مماثل المعاني في أسجاعه ، فإن إمارة المؤمنين ، والتقلد لأُمور

(١٦) المختار ١٧/١ ، وفيه « . . ولا يرى للكفر أثراً . الخ » .

(١٧) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ٢١٦/١ .

(١٨) حذف ابن الأثير بعض العبارات . وفي المختار « وقد علمت وعلم غيرك ببيان ما أدركته الأعمار . وسماع

مانقلته الأخبار . أن الدولة العباسية التي رفع الله عماد الحق بها . وخفض منار الباطل . الخ .

(١٩) في الأصل « معاقب » والصواب عن المختار . (٢٠) تلتلت تختلط .

المسلمين سواء في المعنى . وكذلك الأعراق والأرومة ، والتجويز والتسويغ ، والأشرافُ والأفاضل ، والأعيانُ والأمثال ، والقَطْرُ والصُّقْع ، كلُّ ذلك سواء .

وعلى هذا جاء كلامه في كتاب آخر ، فقال :

« يَسَافِرُ رَأْيُهُ وَهُوَ دَانٍ لَمْ يَنْزَحْ ، وَيَسِيرُ تَدْبِيرُهُ وَهُوَ ثَائٍ لَمْ يَبْرَحْ » .  
وكِلَا هَذَيْنِ سَوَاءٌ أَيْضاً . وَمَا أَحْسَنَ هَذَا الْمَعْنَى لَوْ قَالَ : « يُسَافِرُ رَأْيُهُ وَهُوَ دَانٍ لَمْ يَبْرَحْ ، وَيُثَخِّنُ الْجِرَاحَ فِي عَدُوِّهِ وَسَيْفُهُ فِي الْغِمْدِ لَمْ يَجْرَحْ » . فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ مِثْلَ هَذَا سَلِمَ مِنْ هُجْنَةِ التَّكْرَارِ .

وأمثالُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الصَّابِي كَثِيرٌ ، وَعَلَى مِثَالِهِ نَسَجَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ

[ من سجع الصاحب بن عباد ]

فمن ذلك ما ذكره في وصف مهزومين ، فقال :

« طَارُوا وَاقِينَ بظهورهم صُدُورَهُمْ ، وَبأصْلَابِهِمْ نُحُورَهُمْ » .  
وكِلَا الْمَعْنِيَيْنِ سَوَاءٌ .

وكذلك قوله في هذا الكتاب يصف ضيق مجال الحرب :

« مَكَانٌ ضَنْكٌ عَلَى الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ ، ضَيْقٌ عَلَى الرَّامِحِ وَالنَّابِلِ (٢١) »

ومن كلامه في كتاب وهو :

« لَا تَتَوَجَّهُ هِمَّتُهُ إِلَى أَعْظَمِ مَرْقُوبٍ إِلَّا طَاعَ وَدَانَ ، وَلَا تَمْتَدَّ عَزِيمَتُهُ إِلَى أَفْخَمِ مَطْلُوبٍ إِلَّا كَانَ وَاسْتَكَانَ » .

وكلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ .

وله من كتاب ، وهو :

« وَصَلَ كِتَابُهُ جَامِعاً مِنَ الْفَوَائِدِ أَشَدَّهَا لِلشُّكْرِ اسْتِحْقَاقًا ، وَأَتَمَّهَا لِلْحَمْدِ اسْتِعْرَاقًا

(٢١) الرامح ذو الرمح . والنابل الذي يرمى بالنبل .

وتَعَرَّفْتُ مِنْ إِحْسَانِ اللَّهِ فِيهَا وَقَرَهُ مِنْ سَلَامَتِهِ ، وَهَنَاهُ مِنْ كِرَامَتِهِ ، أَنْفَسَ مَوْهُوبٍ وَمَطْلُوبٍ ، وَأَحْمَدَ مَرْقُوبٍ وَمَخْطُوبٍ .» .

وهذا كله مماثل المعاني ، متشابه الألفاظ .

وفيها أوردته هاهنا مُقْنَعٍ .

فَأَنعِمُ نَظْرَكَ أَيُّهَا الْوَاقِفُ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ فِيهَا بَيِّنَتُهُ لَكَ ، وَوَضَعْتُ يَدَكَ عَلَيْهِ ، حَتَّى تَعْلَمَ كَيْفَ تَأْتِي بِالْمَعَانِي فِي الْأَلْفَافِ الْمَسْجُوعَةِ . وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّكَ اشْتَرَطْتَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفِقْرَتَيْنِ فِي الْكَلَامِ الْمَسْجُوعِ دَالَّةً عَلَى مَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهِ أَحْتَهَا ، وَإِنَّمَا اشْتَرَطْتَ هَذِهِ الشَّرِيطَةَ فِرَارًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنِيَانِ شَيْئًا وَاحِدًا ، وَنَرَى قَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَفْظَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي آخِرِ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ الْمَسْجُوعَتَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٢٢) » . وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ؟ !

قلتُ في الجوابِ : لَيْسَ هَذَا كَالَّذِي اشْتَرَطْتَهُ أَنَا فِي اخْتِصَاصِ كُلِّ فِقْرَةٍ بِمَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّتِي اخْتِصَّتْ بِهِ أَحْتَهَا ، وَإِنَّمَا هَذَا هُوَ إِيرَادُ لَفْظَتَيْنِ فِي آخِرِ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ ، لِمَكَانِ طَلَبِ السَّجْعِ .

أَلَا تَرَى أَنْ أَكْثَرَ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي هِيَ سُورَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَسْجُوعَةٌ عَلَى حَرْفِ الْبَاءِ ، وَهَذَا يَجُوزُ لِصَاحِبِ السَّجْعِ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ ، وَهُوَ بِخِلَافِ مَا ذَكَرْتَهُ أَنَا ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ غَيَّرَ اللَّفْظَةَ عَنْ وَضْعِهَا طَلَبًا لِلْسَّجْعِ ، فَقَالَ « مَأْزُورَاتٌ » وَإِنَّمَا هِيَ « مَوْزُورَاتٌ » ؟ وَقَالَ : « الْعَيْنُ اللَّامَّةُ » وَإِنَّمَا هِيَ « الْمِلْمَةُ » ؟ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ زِيَادَةٌ مَعْنَى ، بَلْ يُفْهَمُ مِنْ لَفْظَةِ « مَأْزُورَاتٌ » أَنَّهَا قَائِمَةٌ مَقَامَ « مَوْزُورَاتٌ » ، وَكَذَلِكَ يُفْهَمُ مِنْ لَفْظَةِ « اللَّامَّةُ » أَنَّهَا بِمَعْنَى « الْمِلْمَةُ » ؟

فَالسَّجْعُ قَدْ أُجِيزَ مَعَهُ تَغْيِيرُ وَضْعِ اللَّفْظَةِ ، وَأُجِيزَ مَعَهُ أَنْ يُورَدَ لَفْظَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي آخِرِ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ . وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يُجْزَ فِي اسْتِعْمَالِهِ أَنْ يُورَدَ فِقْرَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، لِأَنَّهُ تَطْوِيلٌ مَحْضٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ .

وَبَيْنَ الَّذِي ذَكَرْتُهُ أَنْتَ وَبَيْنَ الَّذِي ذَكَرْتُهُ أَنَا فَرْقٌ ظَاهِرٌ .

وَالَّذِي قَدَّمْتُهُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ الْمَسْجُوعَةِ لِلصَّابِيِ وَالصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ رَمَّا كَانَتْ يَسِيرَةً أَتَمَّهُمْ فِيهَا بِالتَّعَصُّبِ ، وَيُقَالُ إِنِّي التَّقَطُّطُهَا التَّقَاطُطًا مِنْ جُمْلَةِ رَسَائِلِهَا !  
وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ عَهْدَةِ هَذِهِ التَّهْمَةِ ، وَذَلِكَ أَنِّي وَجَدْتُ لِلصَّابِيِ تَقْلِيدًا بِتَقَابَةِ الْأَشْرَافِ الْعَلَوِيِّينَ بِيَعْدَادٍ ، وَكَانَتْ أَنْشَأْتُ تَقْلِيدًا بِتَقَابَةِ الْأَشْرَافِ الْعَلَوِيِّينَ بِالْمَوْصِلِ ، وَقَدْ أوردتُ التَّقْلِيدَيْنِ هَاهُنَا ، لِيَتَأَمَّلَهُمَا النَّاطِرُ فِي كِتَابِي هَذَا ، وَيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا إِنْ كَانَ عَارِفًا ، أَوْ يَسْأَلُ عَنْهُمَا الْعَارِفَ إِنْ كَانَ مُقَلِّدًا .

[ تَقْلِيدُ الصَّابِيِ ] .

وَقَدْ أوردتُ تَقْلِيدَ الصَّابِيِ أَوْلَا ، لِأَنَّهُ الْمَقْدَمُ زَمَانًا وَفَضْلًا ، وَهُوَ :  
« هَذَا مَا عَهَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى الْعَلَوِيِّ الْمَوْسَوِيِّ حِينَ وَصَلْتَهُ بِهِ الْأَنْسَابِ ، وَتَأَكَّدْتُ لَهُ الْأَسْبَابِ ، وَظَهَرَتْ دَلَائِلُ عَقْلِهِ وَكِبَائِيَّتِهِ ، وَوَضَحَتْ مَخَايِلُ فَضْلِهِ وَنَجَابَتِهِ . وَمَهَّدَ لَهُ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ وَضِيَاءُ الْمَلَةِ أَبُو نَصْرِ بْنِ عَضَدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمَلَّةِ ، مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَكَّنَ لَهُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَحَلِّ الْمَكِينِ ، وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ الْحِلْمِ الرَّزِينِ ، وَأَشَارَ بِهِ فِيهِ مِنْ رَفْعِ الْمَنْزَلَةِ ، وَتَقْدِيمِ الْمُرْتَبَةِ وَالتَّأْهِيلِ لَوْلَايَةِ الْأَعْمَالِ ، وَالْحَمَلِ لِلْأَعْيَابِ الثَّقَالِ ، وَحَيْثُ رَغِبَ فِيهِ سَابِقَةُ الْحُسَيْنِ أَبِيهِ فِي الْخِدْمَةِ وَالتَّصِيْحَةِ ، وَالْمَوَاقِفِ الْحَمُودَةِ ، وَالْمَقَامَاتِ الْمَشْهُودَةِ ، الَّتِي طَابَتْ بِهَا أَخْبَارُهُ ، وَحَسُنَتْ فِيهَا آثَارُهُ . وَكَانَ مُحَمَّدٌ مُتَخَلِّقًا بِخَلَائِقِهِ ، وَذَاهِبًا فِي طَرَائِقِهِ ، عِلْمًا وَدِيَانَةً ، وَوَرَعًا وَصِيَانَةً ، وَعَقَّةً وَأَمَانَةً ، وَشَهَامَةً وَصِرَامَةً ، بِالْحِظِّ الْجَزِيلِ مِنَ الْفَضْلِ الْجَمِيلِ ، وَالْأَدَبِ الْجَزْلِ ، وَالتَّوَجُّهِ فِي الْأَهْلِ ، وَالْإِيْفَاءِ بِالْمُنَاقِبِ عَلَى لِدَائِهِ وَاتِّرَابِهِ ، وَالْإِبْرَارِ عَلَى قَرَائِبِهِ وَأَضْرَابِهِ ، فَقَلَدَهُ مَا كَانَ دَاخِلًا فِي أَعْمَالِ أَبِيهِ مِنْ نِقَابَةِ نِقَبَاءِ الطَّالِبِينَ أَجْمَعِينَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالْأَمْصَارِ ، شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَبُعْدًا وَقُرْبًا . وَاخْتَصَّهُ ذَلِكَ جَدْبًا بِصَنْعِهِ ، وَإِنَافَةً بِقَدْرِهِ ، وَقَضَاءً لِحَقِّ رَحْمِهِ ، وَتَرْفِيهَا لِأَبِيهِ ، وَاسْعَافًا لَهُ ، بِإِيثارِهِ فِيهِ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاسْتِخْلَافَهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَظَالِمِ ، وَتَسْيِيرِ الْحَجِيجِ فِي الْمَوَاسِمِ . وَاللَّهُ يُعَقِّبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَمَرَ وَدَبَّرَ حُسْنَ

العاقبة فيما قضى وأمضى . وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل ، وإليه يُنِيب  
وأمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين ، وسناء الصالحين ، وعصمة عباد الله  
أجمعين ، وأن يعتقدها سراً وجهراً ، ويعتمدها قولاً وفِعْلاً ، يأخذُ بها ويُعطى ،  
ويُسْر بها وينوي ، ويأتي ويذر ، ويورد ويصدر ، فإنها السبب المتين ، والمعقل  
الحصين ، والزاد النافع يوم الحساب ، والمسلك المُفضى إلى دار الثواب . وقد  
حَضَّ اللهُ أوليائه عليها ، وهداهم في محكم كتابه إليها ، فقال عز من قائل :  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (٢٣) » .

وأمره بتلاوة كتاب الله . مواظباً ، وتصفحهِ مداوماً ملازمًا ، والرجوع إلى  
أحكامه فيما أحل وحرّم ، ونقض وأبرم ، وأثاب وعاقب ، وبعَدَ وقارب . فقد  
صحَّ اللهُ برهانه وحجته ، وأوضح منهاجَه ومَحَجَّتَه ، وجعله نجماً في الظلمات  
طالِعاً ، ونوراً في المُشكلاتِ ساطِعاً ، فمن أخذَ به نَجَا وسَلِمَ ، ومن عدَل عنه  
هَوَى وَندَم . قال اللهُ تعالى : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا  
مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٢٤) .

وأمره تنزيه نفسه عما تدعو إليه الشبهات ، وتطلع إليه التبعات ، وأن يضبطها  
ضبط الحليم ، ويكفها كف الحكيم ، ويجعل عقله سلطاناً عليها ، وتمييزه أمراً ناهياً لها  
ولا يجعل لها عُذراً إلى صَبوة ولا هَفوة ، ولا يطلق منها عِناناً عند ثورة ولا فورة ،  
فإنها أمانة بالسوء ، مُنصبة إلى الغي ، فمن رَفَضَهَا نَجَا ، ومن اتَّبَعَهَا هَوَى . فالحازم  
متهم عند تحرك وطره وأريه ، واحتياج غيظه ، ولا بدع أن يغضها بالشكيم ،  
ويعركها عرك الأديم ويقودها إلى مصالحتها بالخزائم ، ويفتقدتها من مقارفة المآثم  
والمحارم ، كما يعز بتذليلها وتأديبها ويجل ، برياضها وتقويمها ، والمفرط تطمح به إذا  
طمحت ، ويجمع معها إذا جمحت ، ولا يلبث أن تورده حيث لا يُصدّر ، وتلجته  
إلى أن يعتذر ، وتقيمه مقام النادم الواجم ، وتتنكب به سبيل الراشد السالم .

(٢٣) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

(٢٤) سورة فصلت : الآيات ٤١ ، ٤٢ .

وأحقُّ مَنْ تحلى بالمحاسن ، وتصدَّى لاكتسابِ المحامدِ من ضربَ بمثلِ سهمه في نسبِ أميرِ المؤمنينَ الشريفِ ، ومنصبه المنيفِ ، واجتمع معه في ذُؤابة العِترَةِ الطَّاهرةِ ، واستظلَّ بأوراقِ الدَّوحةِ الفَاخِرةِ ، فذلكَ الذي تتضاعفُ به المآثرُ إن آثرها . والمثالبُ إنَّ أسفَّ إليها . ولا سبَّاً من كان مندوباً بالسياسةِ ، ومرشَّحاً للتقليدِ على أهله ، إذ ليسَ يَفِي بالصَّلاحِ لمن ولىَ عليه ، ولا يَفِي بإصلاحِ مابينِ جنبيهِ . ومن أعظمِ الهُجْنَةِ عليه أن يأمرَ ولا يَأْتَمِرَ ، ويَزُجِرَ ولا يَزِدْجِرَ ، قال اللهُ تعالى ذِكْرُه : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢٥) » .

وأمرُه أن يتصفَّحَ أحوالَ مَنْ ولىَ عليهم ، من استقراءِ مذاهبيهم ، والبحثِ عنِ بواطنهم ودخائلهم ، وأن يعرفَ لمن تقدمتْ قدمُه منهم وتظاهرَ فضلهُ فيهم منزلتهُ ، ويوفيه حقه وزينتهُ ، وينتهى في إكرامِ جماعتهم إلى الحدودِ التي تُوجبها أنسابهم وأقدارهم ، وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم ، فإنَّ ذلكَ يلزمُه لِشَيْئَيْنِ : أحدهما يَخْصُه ، وهو النسبُ الذي بينه وبينهم .

والآخرُ يعمُّه والمسلمينَ جميعاً ، وهو قولُ الله جلَّ ذِكْرُه : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » (٢٦) . فالموَدَّةُ لهم الإِعْظَامُ لأكابرهم ، والاشْتِهَالُ على أصاغرهم واجبٌ متضاعفٌ الوجوبِ عليه ، متأكدُ اللزومِ له ، ومن كان منهم في دونِ تلكَ الطبقةِ من أحداثٍ لم يَحْتَنِكُوا عليه ؛ وَجَدَعَانِ لَمْ يَقْرَحُوا ، ومُجْرِينَ إِلَى مَا يُزْرَى بِأَنْسَابِهِمْ ، وَيَغْضُ مِنْ أَحْسَابِهِمْ عَذْلَهُمْ ، وَأَنْبَهُمْ ، وَنَهَاهُمْ ، وَوَعظُهُمْ ، فإن نزعوا وأقلعوا فذاك المرادُ بهم ، والمقصودُ فيهم ، وإن أصروا وتتابعوا أَنَالَهُمْ من العقوبةِ بقدرِ ما يكفُّ ويردِّع ، فإن نفعَ وإلا تجاوزَه إلى ما يلدغُ ويوجع ، من غيرِ تطرُقٍ لأَعْرَاضِهِمْ ، ولا امتِهَانٍ لأَحْسَابِهِمْ ، فإنَّ الغرضُ منهم الصيانةُ لا الإِهَانَةُ ، والإِدَالَةُ لا الإِذَالَةُ . وإذا وجبتْ عليهم الحقوقُ ، أو تعلقَتْ بهم دواعي الخُصُومِ فَادَّهَمُوا إلى الإِغْفَاءِ بما يصحُّ منها ويحِبُّ ، والخُرُوجِ إلى سننِ الحقِّ فيما يَشْتَبِهُ وَيَلْتَبِسُ . ومتى لزمَتْهم الحدودُ أقامها عليهم بحسبِ ما أمره اللهُ تعالى فيها ، بعدَ أنْ تُثَبَّتَ الجرائمُ وتصحَّ . وَتَبَيَّنَ وَتَضَحَّحَ ، وَتَعَجَّرَدَ

(٢٥) سورة البقرة: الآية ٤٤ . (٢٦) سورة الشورى: الآية ٢٢ .

عن الشك ، وتنجلي من الظن والتهمة ، فإن الذي يستحب في حدود الله عز وجل أن تدرأ مع نقصان اليقين والصحة ، وأن تمضى عليهم مع قيام الدليل والبينة . قال الله عز وجل « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٢٧) .

وأمره بجياطة أهل النسب الأطهر ، والشرف لإفخر عن أن يدعيه الأذعياء ، أو يدخل فيه الدخلاء ، ومن انتمى إليه كاذباً ، أو انتحله باطلاً ، ولم يوجد له بيت في الشجرة ، ولا مصادق عند النسابين المهرة ، أوقع به كذبه وفسقه ، وشهره شهرة ينكشف بها غشه ولبسه ، ويزع بها غيره ممن تسول له ذلك نفسه .

وأن يحصن الفروج عن مناكحة من ليس كفواً لها في شرفها وفخرها ، حتى لا يطمع في المرأة الحسبية النسبية إلا من كان مثلاً لها مساوياً ، ونظيراً موازياً ، فقد قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » (٢٨) وأمره بمراعاة متبلى أهله ومتجديهم ، وصلحاتهم ومجاورهم ، وأرامليهم وأصاغريهم ، حتى تستد الخلة من أحوالهم ، وتدبر الموادع عليهم ، وتتعدل أقساطهم فيما يصل إليهم من وجوه أموالهم ؛ وأن يزوج الأيامى ، ويرى اليتامى ، وليزومهم المكاتب ، فيتلقوا القرآن ، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان ، ويتأدبوا بالآداب اللانقة بدوى الأحساب ، فإن شرف الأعراق محتاج إلى شرف الأخلاق ، ولا حمد لمن شرفه حسبه ، وسخف أدبه ، إذ كان لم يكتسب الفخر الحاصل بفضل سعي ، ولا طلب ولا اجتهاد ، بل يصنع الله تعالى ، ومزيد المنه عليه ، وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية ، والاعتداد بما فيها من المزية ، وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب ، والترفع عن الرذائل والمثالب .

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وأن يجلس للمترافعين إليه جلوساً عاماً ، ويتأمل كلامهم تأملاً تاماً ، فما كان منها متعلقاً بالحاكم دره إليه ليحمل الخصوم عليه وما كان من طريقة الغشم والظلم والتغلب والغضب قبض عنه اليد المبطلة ، وتبت



فيه اليد المستحقة، وتحرى في قضاياها أن تكون موافقة للعدل، ومجانبة للخذل، فإن عادة الحكام وصاحب المظالم واحدة، وهى إقامة الحق ونصرتة، وإبانتة وإثارته، وإنما يختلف سبيلهما في النظر إذا كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر، وصاحب المظالم يفحص عما غمض واستتر، وليس له مع ذلك أن يرد للحاكم حكومة، ولا يعل له قضية، ولا يتعقب ما يُنفذه ويمضيه، ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه، والله يهديه ويوفقه، ويسدده ويُرشده.

وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل إلى مقصدهم، ويخيمهم في بلداتهم وعودتهم، ويرتبهم في مسيرهم ومسلكهم، ويرعاهم في ليلهم ونهارهم، حتى لا تنالهم شدة، ولا تصل إليهم مصرة، وأن يريحهم في المنازل، ويوردهم المناهل، وينأوب بينهم في النهل والعلل، ويمكنهم من الارتواء والاكتفاء، مُجتهداً في الصيانة لهم، ومُعذراً في الذب عنهم، وملوماً على متأخرهم ومُتخلفهم، ومنهضاً لضعيفهم ومهيضهم، فإنهم حجاج بيت الله الحرام. وزوار قبر رسوله ﷺ: قد هجرُوا الأهل والأوطان، وفارقوا الجيرة والإخوان، وتشموا المغارم الثقال، وتعسفوا السهولة والجبال، يلبون دعاء الله، ويُطيعون أمره. ويؤدون فرضه، ويرجون ثوابه وحقيق على المسلم أن يحرسهم متبرعاً، ويحوظهم متطوعاً. فكيف من تولى ذلك وضمينه، وتقلده واعتقبه؟ قال الله تعالى: « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » (٢٩) وأمره أن يراعى أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها وأقطارها وأكنافها، وأن يجي أموال وقفها، ويستقصى جميع حقوقها، وأن يلم شعنها، ويسد خللاً بما يتحصل من هذه الوجوه قبله، لا يُزيل رسماً جرى، ولا ينقص عادة كانت لها، وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يمر منه، ويذكر اسمه بعده، بأن عمارتها جرت على يده، وصلاح أداؤه قول أمير المؤمنين في ذلك، تنوياً باسمه، وإشادة لذكوره وأن يولى ذلك من قبله من حسنت أمانته، وظهرت عفته وصيانتة، فقد قال الله جل من قائل: « إنما

يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ  
فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» (٣٠)

وأمره أن يَسْتَخْلِفَ على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال في الأمصار الدانية  
والنائية، والبلاد القريبة والبعيدة مَنْ يَتَّقُ به مِنْ صَلَحَاءِ الرِّجَالِ ذَوِي الْوَفَاءِ  
والاستقلال، وَأَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِمْ مِثْلَ مَا عْهَدَ إِلَيْهِ، ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه،  
وَيَسْتَقْصِي فِي ذَلِكَ آثَارَهُمْ، ويتعرف أخبارهم، فمن وجدته محموداً قربه، ومن  
وجدته مذموماً صرفه ولم يمهله، واعتاض مَنْ تُرْجَى الأمانة عنده، وتكون الثقة  
معهودة منه، وَأَنْ يَخْتَارَ لِكِتَابَتِهِ وَحِجَابَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا قُرْبَ مَنْهُ وَبَعْدَ عَنْهُ مَنْ يَزِينُهُ وَلَا  
يَشِينُهُ، وينصح له ولا يغشه، وَيُجَمِّلُهُ وَلَا يُهَجِّنُهُ، من الطبقة المعروفة باللطف،  
الْمُتَّصِنَةُ عَنِ النَّطْفِ (٣١)، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية والأجرة الوافية ما يصددهم  
عن المكاسب الذميمة، والمآكل الوحيمة. فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء  
الحاجة، قال الله تعالى: « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ \* وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَىٰ \* ثُمَّ  
يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْاَوْفَىٰ » (٣٢)

وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِمَنْ تَقَوْمَ بَيْنَتَهُ عِنْدَهُ، وتكشف له حُجَّتَهُ إِلَى أَصْحَابِ الْمَعَارِفِ  
بِالشَّدِّ عَلَى يَدِهِ، واتصال حقه إليه، وحسَمِ الطَّمَعِ الْكَاذِبِ فِيهِ، وَقَبْضِ الْيَدِ الظَّالِمَةِ  
عَنْهُ، إِذْ هُمْ مَنْدُوبُونَ لِلتَّصَرُّفِ بَيْنَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، والوقوف عند رسمه وحده.  
وهذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته لك وعليك، قد أبان منه سبيلك، وأوضح  
دليلك، وهذاك لرشدك. وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به، ولا تخالفه. وائتبه  
إليه، ولا تجاوزه، وإن عرّض لك عارض يُعْجِزُكَ الْوَفَاءُ بِهِ، وَيَسْتَبِيهُ عَلَيْكَ الْخُرُوجُ  
مِنْهُ أَنْهَيْتَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُبَادِرًا، وكنْتَ إِلَى مَا يَأْمُرُكَ بِهِ صَائِرًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(٣٠) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٣١) يقال نطف أى اتهم بريية ونلطف بعبب وفسد، ويقال نطف فلانا فذفه بفجور أو لطفه بعبب .

(٣٢) سورة النجم : الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

## [ التقليد بأسلوب ابن الأثير ]

وأما التقليد الذي أنشأته أنا فقد أوردته بعد هذا التقليد ، وهو :  
 « أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَجْذَمٌ ، وَكُلُّ كِتَابٍ لَا يُرْقَمُ  
 بِاسْمِهِ فَلَيْسَ بِمُعْلَمٍ ، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ حَمْدَهُ يَنْتَزَلُ مِنَ الْكَلَامِ مَنْزِلَةَ الْأَعْضَاءِ مِنَ  
 الْأَجْسَامِ ، وَاسْمُهُ يَنْتَزَلُ مِنَ الْكِتَابِ مَنْزِلَةَ الرَّقُومِ مِنَ الثِّيَابِ ، وَقَدْ جَمَعْنَا فِي كِتَابِنَا هَذَا  
 بَيْنَ التَّسْمِيَةِ وَالتَّحْمِيدِ ، وَجَعَلْنَا إِحْدَاهُمَا مِفْتَاحًا لِلتَّيْمَنِ ، وَالْآخَرَ سَبِيًّا لِلزَّمِيدِ ، ثُمَّ  
 رَدَفْنَاهُمَا بِالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَيْدَهُ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَجَعَلَ شَهَادَتَهُ قَبْلَ كُلِّ  
 شَهِيدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ .  
 وَمَا يَقْتَرِنُ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ فِي ثَوَابِهَا ، وَيَجِيءُ عَلَى أَعْقَابِهَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ الْأُسْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي  
 وَصَلَ وَوَدَّهَا بَوَدُّهُ ، وَجَعَلَهَا إِحْدَى الثَّقَلَيْنِ الْمَخْلُفَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ (٣٣) . وَقَدْ تَقَادَمَ الْآنَ  
 زَمَانُهَا . وَتَشَعَّبَتْ أَغْصَانُهَا ، وَنُسِيَ مَالُهَا فِي الرَّقَابِ مِنْ عَهْدَةِ الْأَمَانَةِ ، وَلَمْ تَوْضَعْ فِيهَا  
 وَضَعَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ مِنَ الْمَكَانَةِ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِهَا مِنْ أَضْمَرٍ وَلَا عَاهَا حَقًّا ،  
 وَأَوْجَبَ أَنْ يَرِدَ مَعَهَا الْحَوْضُ حِينَ يُقَالُ لَوَارِدِهِ سُحْقًا ، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْهَا بَارًّا  
 رَفِيقًا ، حَتَّى لَا يَسْأَلَهُ بَرًّا وَلَا رَفِيقًا . وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَفُوزَ بِفَضِيلَةِ هَذِهِ الْحَسَنَةِ ، وَأَنْ يَسْبِقَ  
 إِلَيْهَا سَبْقَ الْمُتَقَرَّبِ فِي الْجُمُعَةِ بِيَدِنَا .

ومن أهم أمورها أن يختار لها زعيمٌ يرأفُ بها رأفةَ الوالدِ بولده ، ويقومُ بأمرها قيامَ  
 الرأسِ بجسده ، حتى تأتلف أصولها كلها في مغرسها ، ولا يحكم عليها من ليس من  
 أنفسها . وقد اخترنا لها مَنْ وَفَّقْنَا فِي اخْتِيَارِهِ ، وَأَخَذْنَا فِيهِ بَيَانَ الرَّأْيِ وَحَزْمِهِ ، لَا بِشِبْهِةِ  
 الْهَوَى وَاغْتِرَارِهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ وُلُّوْهَا لَكَانَ اسْتِحْقَاقُهَا لَهَا بَيْنَنَا ، وَالتَّعْوِيلُ  
 عَلَيْهِ تَعْيِيًّا ، فَكَيْفَ وَقَدَمُهُ فِيهَا قَدِيمَةُ الْمِيلَادِ ، وَوَرَائَتُهُ إِيَّاهَا عَنْ سِيَادَةِ الْجُدُودِ سُودُودِ  
 الْأَجْدَادِ ، وَهُوَ أَنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَجَلُ الشَّرِيفُ الْحَسِيبُ النَّسِيبُ : « فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ

(٣٣) روى عن النبي ﷺ أنه قال في آخر عمره : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » قالوا : وسأها  
 ثقلين إعظاماً لقدرها ، لأن العرب تقول لكل شيء نفيس مصون ثقل ، وأصله في بيض النعام الصون ، ويقال  
 للسيد العزيز ثقل .

« الحُسَيْنِي » ولو شِئْنَا لَأَسْنَدْنَا هذه النسبةَ كَابِرًا عن كَابِرٍ ، وَنَضَدْنَاهَا آخِرًا بعدَ أَوَّلٍ عَنَ أَوَّلٍ قَبْلَ آخِرٍ ، حتَّى وصلنا هذا الفرعَ بشجرته الطيبة ، وهذا القطرُ بسحابته الصَّيِّبة وشرفُ الأنسابِ أَصْدَقُهُ ما كان الدهرُ به شهيدًا ، وأجدُّه ما كان قديمًا ، وأخلقه ما كان جديدًا ، وما تولى الروح الأمينُ مدحه قرآنًا أكرمُ مما تولى الشعراءُ مدحه قصيدًا ، ولا فضلٌ للمعترى إلى هذا النسبِ حتَّى تلحقَ البِنُوَّةُ بالأبُوَّةُ ، ويُضيفَ درجةَ الفضيلةِ إلى مَحْتَدِ النَّبُوَّةِ ، وحينئذٍ يُقالُ : ما أقربَ الشَّبهِ على قِدَمِ عَهْدِهِ ، وهذا ماءُ الوَرْدِ بعدَ ذهابِ وَرْدِهِ .

وأنتَ ذلكَ الرَّجُلُ الَّذِي تَرَدَّدَ الشَّرْفُ في مَناسِبِهِ ، تَرَدَّدَ القَمَرُ في مَنازِلِهِ ، وَزَهَا المَجْدُ بِمَنابِقِهِ زَهْوُ الرُّوضِ في خَمائلِهِ ، فَلالِجُ حَسَبِكَ تُغْنِيكَ عَن سَؤالِ مَنْ وَمَا ، وتَمَلُّأُ بِوَدِّكَ وَحَمْدِكَ قَلبًا وَقَمًا . والحسبُ ما حفظتُ أو آخِرُهُ أوائلُهُ ؛ وأوضحتُ الليلَى والأيامُ دَلالَتَهُ ، وأقرتُ به الأعداءُ فما رَدَّتْ فضائلُهُ . وهذه هي المآثرُ التي إِذَا نَظِمْتَ غاراتِ الشعراءُ عليها من الشعرِ ، وَإِذَا نَثَرْتَ وَجِدْتَ في مُحْكَمِ الذِّكْرِ ، وأنتَ صاحبُها وابنُ صاحبِها ، ومن لم يرثها عن أباعِدها بل عَن أَقاربِها ، ولو جانبَت رياسَتُها مُصانِعًا ، ومَشِيَّتْ بِها الضَّرَاءُ متواضِعًا ، لَدَلَّ عَلَيْكَ وَضْفُها ، وعَرَفَ مِنْكَ عَرْفُها . ولو قلَدناكَ أَمْرَ هذه الأُسرةِ الطَّاهِرةِ التي هي أَسْرَتُكَ ، وَأَمْرُناكَ عَلَيْها ، وَأَمْرُتُها إِمْرُتُكَ ، فَتَوَلَّيْها تَوَلَّيَ مَنْ خَفَضَ لها جِناحَهُ ، وأفاضَ عَلَيْها سَماحَهُ ، وَأَنْضَى فيها غَدوهُ وَرِواحَهُ ، حتَّى يُقالَ إِنَّكَ الرَّاعِي الَّذِي تَناولَ ثُلثَهُ ، فأراحَ حَسيرَها ، وَجَبَرَ كَسيرَها ، وازتادَها خِصْبًا ، وَأَوْرَدَها رِفهاً لاغِيًا ، وأذكى في كَلالَتِها عَيْنًا وَقَلْبًا .

وَمِنْ حَقِّها عَلَيْكَ أَنْ تَنظَرَ إلى ذاتِ شِمالِها ، وَذاتِ يَمينِها ، وتصفحَ أَحوالَها في أمرِ دُنياها وَدِينِها ، فأولُ ذَلِكَ أَنْ تَعَلِّمَها كِتابَ اللَّهِ تَعالَى الَّذِي في تَعليمِهِ نَهْجُ الصَّوابِ ، وفي تِلاوَتِهِ مُضاعِفَةُ حَسَناتِ الثَّوابِ ، وقد مُثِّلَ قارِنَهُ بِالبيتِ العامِرِ ، وتارِكُهُ بِالبيتِ الخرابِ . وهو كِتابُ اِمتازَ عَن الكِتابِ بِنُجومِ التَّنزيلِ ، وتولَّى اللَّهُ حِفْظَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ ، وافتتَحَهُ بِالسَّبعِ المِثانيِ التي لَمْ يَنْزِلْ مِثلُها في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ . وهو الموصوفُ بِأنَّهُ النورُ المستضاءُ بِهِ في غِيايَةِ الظلِّماءِ ، والحبلُ الممدودُ مِنَ الأَرْضِ إلى السَّماءِ

والبحرُ الذي لا يستخرج لؤلؤه ومرجانه إلا الراسخون من العلماء.

وكذلك فخذ هذه الأسرة بتعليم الفضائل التي تتفاوت بها القيم ، وسنها بريضة الآداب وتهذيب الشيم ، ولا تركها فوضى لا يتسم أحدها بسمه القدر المنيف ؛ ولا يرجع إلى حسب تليد ، ولا إلى سعى طريف ، وتكون غاية ما عنده من الفضيلة أن يُقال فلان الشريف .

ومن حفظ رسول الله ﷺ فيها أن توفى فضل مكانها ، وتحالف بين شأن غيرها من المسلمين وبين شأنها ، فلا تبدل بمجالس الولاية في انتزاع ظلامة ، ولا في إقامة حد يُسلب معه رداء الكرامة ، وأنت تتولى ذلك منها ، فما وجب عليها من حق فخذها باقتضائه ، وأمض فيها حكم الله الذي أمر بامضائه . وليكن ذلك على وجه الرفق الذي يُسلس له القياد ، ويتوطأ له المهاد ، وإن أمكنك افتداء شيء من هذه الظلمات التي تتوجه عليها ففاد ، وقد أتم الله فضلها بمنع كرائمها إلا من كفاء لا دناءة في عنصره ، ولا غضاضة في مخبره ، وهو الذي إن فاته شرف النبوة في مغرسه فلم يقته شرف النباهة في معشره ، وإذا تباينت الأقدار فلا فرق بين المناكح المخطوبة ، وبين الأسلاب المسلوبة .

فاحفظ لأسرتك حرمة هذه المنزلة ، واجعلها في كتاب الوصايا التي وصيت بها مكان البسمة .

وكما أمرناك بالنظر في صون أقدارها ، فكذلك نأمرُك بالنظر في حفظ مادة درهمها ودينارها . وقد علمت أن لها أوقافا وقفها قوم فحظوا بأجرها واسمها ، وستحظى أنت بالعدل في قسمها ، فأجر على كل منها رزقه ، وأعط كل ذي حق حقه .

وفي الناس طائفة أدياء يرومون إلحاق الرأس بالذنب ، والتبغ بالغرب (٣٤) ويلحقون أبا لغير ابن ، وابناً لغير أب . كل ذلك رغبة في سحت (٣٥) يأكلونه ، لا في

(٣٤) التبغ شجر للقسى وللشهام ينبت في قلة الجبل ، والنابت منه في السفح الشريان ، وفي الحضيض الشوحت ، ويقال أصابه سهم غرب أى لا يدرى راميهِ .

(٣٥) السحت هو كل حرام قبيح الذكر ، أو ما خبث من المكاسب وحرم ، فلزم عنه العار .

نسب يوصلونه. فنقب عن حال هؤلاء تنقياً، واجعل النسب نسيباً، والغريب غريباً. حتى تخلص السلالة من طرقيها، وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها. ومن علمت كذبه فازجره بأليم الأزديجار، وأعلمه بأنه قد تبوأ مقعده من النار، واشهره في الناس حتى ينتهى وينتهى غيره بذلك الاشتهار.

وها هنا وصية هي أهم من هذه الوصية أمراً، وأعظم أجراً، وأجدراً بأن تكون هي الأولى، وتكون هذه الأخرى، وهي الأخذ على السنة السفهاء من الخوض فيما شجرين آل النبي ﷺ وأصحابه، وإظهار العصبية التي تزخر الحق عن نصابه، وترجمه على أعقابه، وليس مستنداً إلا مقالات ذوى الجهل. ورأياً نشأ منها فتنة، والفتنة أشد من القتل. فوكل بهؤلاء عرباً قاطعاً، ونهياً قامعاً، وكُنْ في ذلك شارعاً لما كان الله شارعاً. فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيهم كان الاقتداء كان به الاهتداء، وقصارى المحسنين في هذا الزمان أن يتعلق منها سبباً، ويأخذ عنهم ديناً أو أدباً، ولا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه (٣٦)، ولو أنفق مثل أحد ذهباً.

ونحن نعلم أنك واقف على سنن اقتصادك، وأن هذه الوصية هي محض اعتقادك، والمُنْصِفُ في هذا المقام من رَمَقَهُ بنظر جلي، ووفى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما حقهما، وإن كان من نسل على، فكل قد ذكره رسول ﷺ بفضل، وهؤلاء من صحابته، وهذا من أهله ونعوذ بالله من الأهواء الزائغة، والأقوال التي ليست بسائغة. ولا حجة إلا بالحق، والله الحجة البالغة.

وقد جعلنا لك في مالنا عطاءً داراً تستعين به على لوازم النفقات، وتخرج نافلة في وقاية عرضك التي هي محسوبة من الصدقات، فإن من ساد قوماً يفتقر إلى تحمل أثقالهم، والإفاضة من حاله على أحوالهم، وهذا بر يكون من أصله، ومنك فرعه، وثواب يكون لك قصده، ولنا شرعه، وصاحب الإحسان من سن سبيل الإحسان، ولم نرض أن أريناك مكانه حتى أمددناك فيه بالإمكان، فأعط مالنا، وتعلم من سنة أفضالنا، ولدولتنا بذلك ثوب جمال كلما لبس زاد جدة، وعمر ذكر كلما مضت عليه

(٣٦) المد المدى، يقال قدر مد البصر أى مداه، والنصيف هو النصف أحد شق الشيء.

مُدَدَ الْأَيَّامِ طَالَ مُدَّةً ، وَلَا مُلْكَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَجْعَلْ مَلَكُهُ حَدِيثًا حَسَنًا ، وَيَشْتَرِ  
 الْحَامِدَ فَيَجْعَلُهُ لِهَلْمِنَا وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ الثَّنَاءِ جَدًّا فِي تَحْصِيلِهِ ، وَلَوْ أَنْفَقَ الْكَثِيرَ فِي قَلْبِهِ ،  
 فَكَمْ مِنْ دَوْلَةٍ أُعْدِمَتْ مِنْهُ فَدَرَسَتْ آثَارُ مَعَالِمِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْهُ مَثْرِبَةٌ لَمَا ذَهَبَتْ مَعَ  
 بَقَاءِ مَكَارِمِهَا »

وَإِذْ ذَكَرْنَا هَذَا فَلنَخْتِمُهُ بِمَا يَكُونُ قَلَادَةً لِصَاحِبِ هَذَا التَّقْلِيدِ ، وَهُوَ أَنْ نَجْرِدَ الْعِنَايَةَ  
 بِوَجَاهَتِهِ ، حَتَّى يَلْبَسَ تَقْدِمًا بِذَلِكَ التَّجْرِيدِ . وَفَحْوَى ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ مَا لَهُ فِي  
 الدَّوْلَةِ مِنْ مَنزِلَةِ الْكِرَامَةِ ، وَيَعْرِفُوا أَنَّهُ فِيهَا ابْنُ جَلَّالٍ (٣٧) ، غَيْرَ مَحْتَاجٍ إِلَى وَضْعِ الْعِمَامَةِ ،  
 وَنَحْنُ نَأْمُرُ نَوَابِنَا وَوُلَاتِنَا وَأَصْحَابِنَا أَنْ يُؤْفُوهُ حَقَّ أَبَوْتِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَفَضِيلَتِهِ الَّتِي رَدَّقَتْهَا  
 فَأَضْحَتْ وَهِيَ لَهَا رَدِيفَةٌ ، وَأَنْ يُعْطُوهُ مَا شَاءَ مِنْ إِعْلَاءِ شَأْنِهِ ، وَيُمْضُوا فِعْلَ يَدِهِ وَقَوْلَ  
 لِسَانِهِ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

\* \* \*

وَقَدْ وَجَدْتُ لِلصَّابِي أَيْضًا تَقْلِيدًا أَنْشَأَهُ لِفَخْرِ الدَّوْلَةِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ أَبِي  
 عَلِيٍّ بْنِ بُيُوتِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ الطَّائِعِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَهُوَ مَثْبُتٌ هَاهُنَا عَلَى صُورَتِهِ ، وَكَانَ  
 عُرِضَ عَلَيَّ تَقْلِيدٌ كُتِبَ لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ مِنَ الْخَلِيفَةِ  
 الْمُسْتَضِيِّ بِاللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، فَوَجَدْتُ فِيهِ كَلَامًا  
 نَازِلًا بِالْمَرَّةِ ، وَسَأَلْنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ أَنْ أَعَارِضَهُ ، فَعَارَضْتُهُ بِتَقْلِيدِي فِي  
 مَعْنَاهُ ، وَهُوَ مَثْبُتٌ هَاهُنَا أَيْضًا . وَكِلَا التَّقْلِيدَيْنِ بِاسْمِ مَلِكٍ كَبِيرٍ ، وَفِيهِمَا يَظْهَرُ مَا يَظْهَرُ  
 مِنْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ .

### [ تَقْلِيدُ آخِرٍ لِلصَّابِي ]

فَأَمَّا التَّقْلِيدُ الَّذِي أَنْشَأَهُ الصَّابِي فَهُوَ :

هَذَا مَا عَهَدَ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الطَّائِعُ لِلَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى فَخْرِ الدَّوْلَةِ أَبِي  
 الْحَسَنِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ أَبِي عَلِيٍّ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ عَرَفَ غِنَاهُ وَبَلَاهُ ، وَاسْتَصَحَّ

(٣٧) ابن جلا الواضح الأمر، وفي خطبة الحجاج المشهورة في أهل العراق :

أنا ابن جلا وطلاع النقايا متى أضع العامة تعرفوني

دينه ويقينه ، ورعى قديمة ، وحديثه واستنجب عوده ونجاره ، وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين عليه ، وأشار بالمزيد في الصنيعة إليه ، وأعلم أمير المؤمنين اقتدائه به في كل مذهب ذهب فيه من الخدمة ، وغرض رمى إليه من النصيحة ، دخولا في زمرة الأولياء المنصورة ، وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة ، وتصرفاً على موجبات البيعة التي هي بعز الدولة أبي منصور منوطة ، وعلى سائر من يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة ، فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار والضياغ والجهذة (٣٨) والصدقات والجوالى (٣٩) ، وسائر وجوه الجبايات والعرض والعتاء ، والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة بكور همدان ، واستراباذا ، والدينور ، وتوريز ، والأمعارين ، وأعمال أذربيجان ، وأران ، والسحانين ، وموقان (٤٠) واثقا منه باستقبال استدامتها ، والاستزادة بالشكر منها (٤١) ، والتحبب لغمطها وجحودها ، والتنكب لإيحاشها وتغييرها ، والتعمد لما يمكن له الحظوة والزلفى ، وحرس عليه الأثرة والقرنى ، بما يظهره ويضميره من الوفاء الصحيح ، والولاء الصريح ، والغيب الأمين ، والصدر السليم ، والمقاطعة لكل من قطع العصمة ، وفارق الجملة ، والمواصلة لكل من حمى البيضة ، وأخلص النية ، والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ، مع عز الدولة أبي منصور وفي حوزته . والله جل اسمه يعرف لأمر المؤمنين حسن العقى فيما أبرم ونقض ، وسداد الرأي فيمن رفع وخفض ، ويجعل عزائمهم مقرونة بالسلامة ، محجوبة عن موارد الندامة ، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة ، والجنة الحصينة ، والطود الأرفع ، والمعاد

(٣٨) الجهذة : الخبرة ، والجهذ هو التناد الخبير .

(٣٩) الجوالى : جمع جالية ، وهى جزية أهل الذمة ، وأصلها أن الإمام عمر رضى الله عنه جلى أهل الذمة عن جزيرة العرب ، فسموا جالية ، ثم لزمهم هذا الاسم أين حلوا ، وأطلق على الجزية المأخوذة منهم . (٤٠) الذى فى المختار ٩٩ « بكور همدان واستراباذا والدينور وقرماسين والأيعارين وأعمال اذربيجان والسحانين وموقان » .

(٤١) الذى فى المختار « واثقا منه باستبقاء النعمة واستدامتها ، والاستدامة بالشكر منها » .



الأمنع ، والجانبُ الأعزُّ ، والملجأُ الأحرز ، وأنْ يَسْتَشْعِرَهَا سِرًّا وَجَهْرًا ، ويستعملها قولاً وفِعْلاً ، ويتخذها دُخْرًا ، دافعاً لنوائبِ القَدَر ، وكهفًا حامياً من حوادثِ الغَيْر ، فإنَّها أوجبُ الوسائِلِ ، وأقربُ الذرائعِ ، وأعوذُها على العبدِ بمصالحه ، وأدعاها إلى كلِّ مناجحه ، وأولأها بالاستمرارِ على هدايته ، والنجاةِ من روايته ، والسلامةِ في دنياه حين تُوْبِقُ موبقاتها ، وتُرْدَى مُردياتها ، وفي آخرته حين تَرُوعُ رائعاتها ، وتُخِيفُ مُخيفاتها . وأنْ يتأدَّبَ بأدبِ الله في التواضعِ والإخباتِ والسكينةِ ، وصدقِ اللهجةِ إذا نطق ، وغَضُّ الطرفِ إذا رَمَقَ ، وكظْمِ الغَيْظِ إذا أَحْفِظَ ، وضبطِ اللسانِ إذا أَلْصَبَ ، وكفِّ اليدِ عن المآثمِ ، وصَوْنِ النفسِ عن المحارمِ .

وَأَنْ يَذْكَرَ المَوْتَ الذي هو نازل به ، والموقفَ الذي هو صائرٌ إليه ، ويعلمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا اكْتَسَبَ ، مجزئٌ عمَّا تَزَمَلُ واحتقَبَ<sup>(٤٢)</sup> ، ويتزوَّدُ مِنْ هَذَا المَرِّ لَدَلِكِ المَقَرِّ ، ويستكثرُ مِنْ أَعْمَالِ البِرِّ لِنَتْفَعَهُ ، وَمِنْ مَسَاعِيِ الخَيْرِ لِتَنْقِذِهِ ، وَيَأْتَمِرَ بِالصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِهَا ، وَيَزْدَجِرَ عَنِ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ أَنْ يَزْجُرَ عَنْهَا ، وَيَبْتَدِئُ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ قَبْلَ إِصْلَاحِ رَعِيَّتِهِ ، فَلَا يَبْعَثُهُمْ عَلَى مَا يَأْتِي ضِدَّهُ ، وَلَا يَنْهَاهُمْ عَمَّا يَقْتَرِفُ مِثْلَهُ ، وَيَجْعَلُ رَبَّهُ رَقِيبًا عَلَيْهِ فِي خَلَوَاتِهِ ، وَمُرُوءَتَهُ مَانِعًا لَهُ مِنْ شَهَوَاتِهِ ، فَإِنَّ أَحَقَّ مِنْ غَلْبِ سُلْطَانِ الشَّهْوَةِ ، وَأَوْلَى مِنْ ضَرَعِ لِعِذَاءِ الحِمِيَةِ مِنْ مَلِكِ أَرْمَةِ الأُمُورِ ، وَاقْتَدِرَ عَلَى سِيَاسَةِ الجُمهُورِ ، وَكَانَ مَطَاعًا فِيمَا يَرَى ، مُتَّبِعًا فِيمَا يَشَاءُ ، يَلِي عَلَى النَّاسِ وَلَا يُلُونَ عَلَيْهِ ، وَيَقْتَصُّ مِنْهُمْ ، وَلَا يَقْتَصُّونَ مِنْهُ ، فَإِذَا اطَّلَعَ اللهُ مِنْهُ عَلَى نِقَاءِ جَبِيهِ ، وَطَهَارَةِ ذَنْبِهِ ، وَصِحَّةِ سِرِّرَتِهِ ، وَاسْتِقَامَةِ سَبِيلَتِهِ ، أَعَانَهُ عَلَى حِفْظِ مَا اسْتَحْفَظَهُ ، وَأَنْهَضَهُ بِثِقَلِ مَا حُمِّلَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ مَخْلَصًا مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَمَخْرَجًا مِنَ الحَيْرَةِ ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »<sup>(٤٣)</sup> . وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »<sup>(٤٤)</sup> وَقَالَ : « اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ

(٤٢) احتقَب : ارتكب .

(٤٣) سورة الطلاق : الآية ٣ .

(٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

الصَّادِقِينَ» (٤٥) إلى آى كثيرة حَضَّنَا بِهَا عَلَى أَكْرَمِ الْخَلْقِ ، وَأَسْلَمَ الطَّرِيقَ ، فَالْسَّعِيدُ مِنْ نَصَبِهَا إِزَاءَ نَازِرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مِنْ نَبْذِهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَشَقَىٰ مِنْهُمَا مَنْ بَعَثَ عَلَيْهَا ، وَهُوَ صَادِفٌ عَنْهَا ، وَأَهَابٌ إِلَيْهَا ، وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْهَا ، وَلَهُ وَلَا مِثَالَهُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٤٦)

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا مُتَّبِعًا وَطَرِيقًا مُتَوَقَّعًا ، وَيَكْثُرُ مِنْ تَلَاوْتِهِ إِذَا خَلَا بِذِكْرِهِ ، وَيَمْلَأُ بِتَأْمِيلِهِ أَرْجَاءَ صَدْرِهِ ، فَيَذْهَبُ مَعَهُ فِيهَا أَبَاحٌ وَحِظْرٌ ، وَيَقْتَدِي بِهِ إِذَا نَهَىٰ وَأَمَرَ ، وَيَسْتَبِينُ بَيِّنَاتِهِ إِذَا اسْتَعْلَقَتْ دُونَهُ الْمُعْضَلَاتُ ، وَيَسْتَضِيُّ بِمَصَابِيحِهِ ، إِذَا عَظُمَتْ عَلَيْهِ الْمَشْكَالَاتُ ، فَإِنَّهُ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ الْوُثْقَىٰ ، وَمَحْجَتُهُ الْوُسْطَىٰ ، وَدَلِيلُهُ الْمُقْنَعُ ، وَبُرْهَانُهُ الْمُرْشِدُ ، وَالْكَاشِفُ لِظُلْمِ الْخُطُوبِ ، وَالشَّافِي مِنْ مَرَضِ الْقُلُوبِ : وَالْهَادِي لِمَنْ ضَلَّ وَالْمُتَلَفِّي لِمَنْ زَلَّ ، فَمَنْ نَجَّاهُ فَقَدْ فَازَ وَسَلِمَ ، وَمَنْ لَهَا عَنْهُ فَقَدْ خَابَ وَنَدِمَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : « وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزًا \* لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٤٧)

وَأَمْرُهُ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَيَدْخُلَ فِيهَا فِي حَقَائِقِ الْأَوْقَاتِ ، قَائِمًا عَلَى حُدُودِهَا ، مُتَّبِعًا لِرُسُومِهَا ، جَامِعًا فِيهَا بَيْنَ نَيْتِهِ وَلَفْظِهِ ، مُتَوَقَّعًا لِمَطَامِحِ سَهْوِهِ وَلِحِظِّهِ ، مُنْقَطِعًا إِلَيْهَا عَنْ كُلِّ قَاطِعٍ لَهَا ، مَشْغُولًا بِهَا عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ عَنْهَا ، مُثَبَّتًا فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، مُسْتَوْفِيًا عِدَدَ مَفْرُوضِهَا وَمَسْنُونِهَا ، مُوَفِّرًا عَلَيْهَا ذِهْنَ ، صَارِفًا إِلَيْهَا هَمَّهُ ، عَالِمًا بِأَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ ، وَمَحْيِيهِ وَمُحْيِيَتِهِ ، وَمَعَاقِبِهِ وَمُثْبِتِهِ ، لَا تُسْتَرْدُونَهُ خَائِنَةٌ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ . فَإِذَا قَضَاهَا عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ ، مُنْذُ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ إِلَى خَاتَمَةِ التَّسْلِيمِ أَتْبَعَهَا بِدَعَاءٍ يَرْتَفِعُ بَارْتِفَاعِهَا ، وَيُسْتَمَعُ بِاسْتِمَاعِهَا ، لَا يَتَعَدَّى فِيهِ مَسَائِلَ الْأَبْرَارِ وَرَغَائِبِ الْأَخْيَارِ ، مِنْ اسْتِصْفَاحٍ وَاسْتِغْفَارٍ وَاسْتِقَالَةٍ وَاسْتِرْحَامٍ وَاسْتِدْعَاءٍ

(٤٥) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

(٤٦) سورة البقرة : الآية ٤٤ .

(٤٧) سورة فصلت : الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

لمصالح الدين والدنيا ، وعوائد الآخرة والأولى ، فقد قال الله تعالى : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » (٤٨) . وقال تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » (٤٩)

وأمره بالسَّعى في أيامِ الجُمعِ إلى المساجِدِ الجامعةِ ، وفي الأعيادِ إلى المصلَّياتِ الضَّاحيةِ ، بعد التَّقدُّمِ في قَرَشِهَا وكُسُوتِهَا ، وَجَمْعِ القُومِ المؤذنين والمكبرين فيها ، واستِسْعَاءِ النَّاسِ إِلَيْهَا ، وَحَضُّهُمْ عَلَيْهَا ، أَخْذِينَ الأُهْبَةَ ، مُنْتَظِفِينَ فِي البِزَّةِ ، مُؤدِّينَ لفريضةِ الطَّهَّارةِ ، وَبَالِغِينَ فِي ذَلِكَ أَقْصَى الاستِقْصَاءِ ، مُعْتَقِدِينَ خَشْيَةَ اللهِ وَخِيفَتَهُ . مَدْرَعِينَ تقواه ومراقبته ، مُكْثِرِينَ مِنْ دُعَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسُؤَالِهِ ، مَصَلِّينَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى آلِهِ ؛ بقلوبٍ على اليقينِ موقوفةٍ ، وَهَمَمٍ إِلَى الدِّينِ مَصْرُوفَةٍ ، وَالسَّنِّ بالتقديسِ وَالتَّسْبِيحِ فَصِيحَةٍ ، وَأَمَالٍ فِي المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ فَسِيحَةٍ ، فَإِنَّ هَذِهِ المصلَّياتِ وَالمُتَعَبِّدَاتِ بِيوتِ اللهِ الَّذِي فَضَّلَهَا ، وَمَنَاسِكُهُ الَّتِي شَرَفَهَا ، وَفِيهَا يُتْلَى القُرْآنُ الكَرِيمُ وَيَتَعَوَّذُ العَائِذُونَ ، وَبِتَعَبُّدِ المَتَعَبِّدُونَ ، وَيَتَهَجَّدُ المَتَهَجِّدُونَ . وَحَقِيقٌ عَلَى المَسْلَمِينَ أَجْمَعِينَ مِنْ وَالٍ وَمَوْجِبٍ عَلَيْهِ أَنْ يَصُونَهَا وَيَعْمُرَهَا ، وَيُواصِلَهَا وَلَا يَهْجُرَهَا ، وَأَنْ يُقِيمَ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِهَا لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ عَلَى الرَّسْمِ الجَارِي فِيهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَّيْعَ » (٥٠) « وَقَالَ فِي عِمَارَةِ المَسَاجِدِ : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ » (٥١) .

وأمره أن يُراعى أحوالَ مَنْ يَلِيهِ مِنْ طبقاتِ جُنْدِ أميرِ المُؤْمِنِينَ وَمَوَالِيهِ ، وَيَطْلُقَ لَهُمُ الأَرْزَاقَ ، فِي أَوْقَاتِ الوُجُوبِ وَالاستِحْقَاقِ ، وَأَنْ يُحْسِنَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ وَيُجَمِّلَ فِي

(٤٨) سورة النساء : الآية ١٠٣ .

(٤٩) سورة العنكبوت : الآية ٤٥ .

(٥٠) سورة الجمعة : الآية ٩ .

(٥١) سورة التوبة : الآية ١٨ .

اسْتَحْدَامِهِمْ ، وَبِتَصَرُّفِ فِي سِيَاسَتِهِمْ بَيْنَ رَفَقٍ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَخُشُونَةٍ فِي غَيْرِ عُنْفٍ ،  
 مُثَبِّبًا لِمُحْسِنِهِمْ مَا زَادَ بِالْإِثَابَةِ فِي حُسْنِ الْأَثْرِ ، وَسَلِّمَ مَعَهَا مِنْ دَوَاعِي الْأَشْرِ ، وَمَتَعَمِّدًا  
 لِمُسِيئِهِمْ مَا كَانَ التَّعَمُّدُ لَهُ نَافِعًا ، وَفِيهِ نَاجِعًا ، فَإِنْ تَكَرَّرَتْ زَلَّاتُهُ ، وَتَتَابَعَتْ عَثْرَاتُهُ ،  
 تَنَاوَلَتْهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ مَا يَكُونُ لَهُ مُصْلِحًا ، وَلِغَيْرِهِ وَاعِظًا وَأَنْ يَخْتَصَّ أَكْبَاهَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ وَأَهْلَ  
 الرَّأْيِ وَالْخَطَرِ مِنْهُمْ بِالْمَشَاوَرَةِ فِي الْمُلِمِّ ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى بَعْضِ أَلْمَمِهِمْ ، مُسْتَخْلِصًا مَخَابِلَ  
 صُدُورِهِمْ بِالْبَسْطِ وَالْإِدْنَاءِ ، وَمُسْتَشْحِدًا بِصَائِرِهِمْ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِحْتِبَاءِ ، فَإِنَّ فِي  
 مَشَاوَرَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ اسْتِدْلَالَ عَلَى مَوَاقِعِ الصَّوَابِ ، وَتَحَرُّزًا عَنْ غَلَطِ الْاسْتِبْدَادِ ، وَأَخْذًا  
 بِمَجَامِعِ الْحِزَامَةِ ، وَأَمَانًا مِنْ مُفَارَقَةِ الْاسْتِقَامَةِ . وَقَدْ حَضَّ اللَّهُ عَلَى الشُّورَى حَيْثُ قَالَ  
 لِرَسُولِهِ ﷺ « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » (٥٢) .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَضُمَّدَ بِمَا يَتَّصِلُ بِنَوَاحِيهِ مِنْ تُغُورِ الْمُسْلِمِينَ وَرِبَاطِ الْمُرَابِطِينَ ، وَيَقْسِمَ لَهَا  
 قِسْمًا وَافِرًا مِنْ عِنَايَتِهِ ، وَيَصْرِفَ لَهَا طَرَفًا بَلْ شَطْرًا مِنْ رِعَايَتِهِ ، وَيَخْتَارَ لَهَا أَهْلَ الْجَدَلِ  
 وَالشَّدَّةِ ، وَذَوِي الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، مِمَّنْ عَجَمَتَهُ الْخَطُوبُ ، وَعَرَكَتَهُ الْحُرُوبُ ، وَاكْتَسَبَ  
 ذُرِّيَّةَ بَخْدَعِ الْمُتَنَازِلِينَ ، وَتَجْرِبَةَ بِمَكَائِدِ الْمُتَقَارِعِينَ ، وَأَنْ يَسْتَظْهِرَ بِكَشْفِ عَدَدِهِمْ  
 وَاعْتِبَارِ عُدَدِهِمْ ، وَانْتِخَابِ خَيْلِهِمْ ، وَاسْتِجَادَةِ أَسْلِحَتِهِمْ غَيْرَ مُجَمَّرٍ (٥٣) بَعَثًا إِذَا بَعَثَهُ ،  
 وَلَا مُسْتَكْرَهَهُ إِذَا وَجَّهَهُ ، بَلْ يُنَاوِبُ بَيْنَ رِجَالِهِ مُنَاوِبَةً تُرِيحُهُمْ وَلَا تَمْدُهُمْ ، وَتُرْفَهُهُمْ  
 وَلَا تُتَوِّدُهُمْ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ فَائِدَةِ الْإِجَامِ ، وَالْعَدْلِ فِي الْاسْتِحْدَامِ زِينًا ، فَلْيُسَوِّبِ  
 رِجَالَ النَّوْبِ فِيهَا عَادَ عَلَيْهِمْ بَعْزُ الظَّفَرِ وَالنَّصْرِ ، وَبُعْدُ الصَّيْتِ وَالذِّكْرِ ، وَاحِرَازِ النَّفْعِ  
 وَالْأَجْرِ ، مَا يَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْوَالَاةُ بِهِ عَامِلِينَ ، وَلِلنَّاسِ عَلَيْهِ حَامِلِينَ ، وَأَنْ يَكْرُرَ فِي  
 أَسْمَاعِهِمْ ، وَيَثْبِتَ فِي قُلُوبِهِمْ مَوَاعِيدَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ صَبَرَ وَرَابَطَ ، وَسَامَحَ بِالنَّفْسِ ، مِنْ  
 حَيْثُ لَا يَقْدُمُونَ عَلَى تَوَرُّطِ غَرَّةٍ ، وَلَا يُحْجِمُونَ عَنْ انْتِهَازِ فُرْصَةٍ ، وَلَا يَنْكُصُونَ عَنْ  
 تَوَرُّدِ مَعْرَكَةٍ ، وَلَا يُلْقُونَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى خَلْقِهِ ، وَالْمَرْءُ  
 أَمِينٌ عَلَى دِينِهِ .

(٥٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩ .

(٥٣) التجمير: حبس الجيش في أرض العدو .

وَأَنْ يُرِيحَ الْعَمَلَةَ فَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ رَاتِبٍ نَفَقَاتِ هَذِهِ الثُّغُورِ وَحَادِثُهَا ، وَبِنَاءِ حُصُونِهَا وَمَعَاقِلِهَا ، وَاسْتِطْرَاقِ طُرُقِهَا وَمَسَالِكِهَا ، وَإِفَاضَةِ الْأَقْوَاتِ وَالْعُلُوفَةِ فِيهَا لِلْمُرْتَبِينَ بِهَا ، وَالْمُرْتَدِّدِينَ إِلَيْهَا ، وَالْحَامِلِينَ لَهَا .

وَأَنْ يَبْذَلَ أَمَانَةً لِمَنْ طَلَبَهُ ، وَيَعْرِضَهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَطْلُبْهُ ، وَيَقْبِضَ بِالْعَهْدِ إِذَا عَاهَدَ ، وَبِالْعَقْدِ إِذَا عَاقَدَ ، غَيْرَ مُخْفِرِ ذِمَّةٍ ، وَلَا جَارِحِ أَمَانَةٍ ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » (٥٤) وَنَهَى عَنِ النَّكْثِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا يَنْكُثُ عَلَيْهِ نَفْسِهِ » (٥٥) .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْرِضَ مَنْ فِي حُبُوسِ عَمَلِهِ عَلَى جَرَائِمِهِمْ ، فَمَنْ كَانَ إِقْرَارُهُ وَاجِبًا أَقْرَهُ ، وَمَنْ كَانَ إِطْلَاقُهُ سَائِعًا أَطْلَقَهُ ، وَأَنْ يَنْظُرَ فِي الشَّرْطَةِ وَالْأَحْدَاثِ نَظْرَ عَدْلٍ وَإِنصَافٍ ، وَيَخْتَارَ لَهَا مِنْ يَخَافُ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ ، وَلَا يَجَاهِي وَلَا يِرَاقِبَ فِيهِ ، وَيَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِقَمْعِ الْجَهَّالِ ، وَرَدْعِ الضَّلَالِ ، وَتَتَبِعِ الْأَشْرَارَ ، وَطَلِبِ الزُّعَارِ (٥٦) ، مُسْتَدَلِّينَ عَلَى أَمَاكِنِهِمْ ، مُتَوَعِّلِينَ إِلَى مَكَامِنِهِمْ ، مُتَوَلِّجِينَ عَلَيْهِمْ فِي مَظَانِّهِمْ ، مُتَوَقِّفِينَ مِمَّنْ يَجِدُونَهُ مِنْهُمْ ، مُنْفِذِينَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، بِحَسَبِ الَّذِي يَتَبَيَّنُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَيُصَحُّ مِنْ فِعْلِهِمْ ، فِي كَبِيرَةٍ ارْتَكَبُوهَا ، وَعَظِيمَةٍ احْتَقَبُوهَا (٥٧) ، وَمُهْجَةٍ إِنْ أَغَاظُوهَا وَاسْتَهْلَكُوهَا ، وَحُرْمَةٍ إِنْ اسْتَبَاحُوهَا وَانْتَهَكُوهَا . فَمَنْ اسْتَحَقَّ حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ الْمَعْلُومَةِ أَقَامُوهَ عَلَيْهِ ، غَيْرَ مُخَفِّفِينَ مِنْهُ ، وَأَحْلُوهُ بِهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ عَنْهُ ، بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ فِي الَّذِي يَأْتُونَهُ حُجَّةٌ ، وَلَا يَعْتَرِضُهُمْ فِي وَجْهِهِ شُبْهَةٌ ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ فِي الْحُدُودِ أَنْ تُقَامَ بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْ تُدْرَأَ بِالشُّبُهَاتِ ، فَأَوْلَى مَا تَوَخَّاهُ رُعَاةُ الرَّعَايَا فِيهَا أَنْ لَا يُقَدِّمُوا عَلَيْهَا مَعَ نَقْصَانٍ ، وَلَا يَتَوَقَّفُوا عَنْهَا مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ ، وَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِتْلُ احْتِاطًا بِمَا يُحْتَاطُ بِهِ عَلَى مِثْلِهِ مِنَ الْحَبْسِ الْحَصِينِ ، وَالتَّوَقُّقِ الشَّدِيدِ ، وَكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِخَبْرِهِ ، وَشَرَحَ جِنَايَتَهُ

(٥٤) سورة المائدة: ١ الآية .

(٥٥) سورة الفتح: الآية ١٠ .

(٥٦) الزُّعَارُ: ذُو الشَّرَاسَةِ وَسُوهُ الْخَلْقِ .

(٥٧) احْتَقَبُوهَا: ارْتَكَبُوهَا .

وثبوتها بإقرار يكون منه ، أو بشهادةٍ تقع عليه ، ولينتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه ، فإن أمير المؤمنين لا يُطلق سَفْكَ دم مسلمٍ أو مُعَاهِدٍ إلا ما أحاط به علماً ، وأتقنه فهماً ، وكان ما يُضِيه فيه عن بصيرةٍ لا يخالجه شكٌّ ، ولا يشوبها ريب .

ومن ألمِّ بصغيرةٍ من الصغائر ، ويسيرةٍ من الجرائر من حيث لم يُعرف له مثلها ، ولم يتقدم له أختها ، وعظه ، وزجره ، ونهاه ، وحذره ، واستتابه ، وأقاله ، ما لم يكن عليه خصمٌ في ذلك يطالب بقصاص منه ، وجزاءٍ له ، فإن عاد تناوله من التقويم والتهديب ، والتعزير والتأديب ، بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ، ووفى بما قدم ، فقد قال الله تعالى : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٨) » .

وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحاناتِ والمواخير ، وأن يطهرها من القبائحِ والمناكير ، ويمنع من يجمع أهلَ الخنا فيها ، ويؤلفُ شملهم بها ، فإنه شملٌ يصلحه التشيتُ ، وجمعٌ يحفظه التفريق ، وما زالت هذه المواطنُ الذميمةُ والمطارحُ الدنية داعيةً من يأوى إليها ، ويعكفُ عليها إلى تركِ الصَّلواتِ ، وإهمالِ المُفترَضاتِ ، وركوبِ المنكراتِ ، واقترافِ المحظوراتِ ، وهى بيوتُ الشيطانِ التي في عمارتها لله معصيةٌ ، وفي إخراجها للخيرِ مجلبةٌ ، والله يقولُ لنا معشرَ المؤمنين : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (٥٩) ويقولُ عزُّ من قائلٍ لغيرنا من المذمومين : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا » (٦٠)

وأمره أن يؤلَّى الحماية في هذه الأعمالِ أهلَ الكفايةِ من الرجال ، وأن يضمَّ إليهم كلَّ من خفَّ ركابُه ، وأسرعَ عند الصَّريخِ ، مرتباً لهم في المسالِحِ (٦١) ، وسادداً بهم ثغرِ المسالكِ ، وأن يُوصيهم بالتيقُّظِ ، ويأخذهم بالتحفُّظِ ، ويُزيحَ عنهم في علوفةِ

(٥٨) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

(٥٩) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٦٠) سورة مريم : الآية ٥٩ .

(٦١) المسالِح : الثغور واحداً مسلحة ، والمرقب يكون فيه أرساد يرقبون العدو لئلا يطرقتهم على غفلة .

خيلهم ، والمقرّر من أزوادهم وميرهم ، حتى لاتنقل لهم عن البلاد وطاعة ، ولا يدعّوهم إلى تحنّهم وثلّمهم حاجة ، وأن يحوطوا السابلة بادثةً وعائدةً ، ويبدّرُقوا<sup>(٦٢)</sup> القوافل صادرةً وواردةً ، ويحرسوا الطريق ليلاً ونهاراً ، ويتقصّوها رواحاً وغدوّاً ، وينصبوا لأهل العبث الأرزاد ، ويتكمنوا لهم بكل واد ، ويتفرّقوا عليهم حيث يكون التفرّق مضيقاً لفضائهم . ومؤدياً إلى انفصاضهم ، ويجمعوا حيث يكون الاجتماع مطفناً لجرمتهم ، وصادعاً لرؤيتهم ؛ ولا يُخلّوا هذه السبل من حماة لها ، وسيارة فيها ، يتردّدون في جوادها ، ويتعسّفون في عوادها ، حتى تكون الدماء محقونةً ، والأموال مَصونة ، والفتن محسومة ، والغارات مأمونة . ومن حصّل في أيديهم من لصّ خاتلٍ ، وصعلوك خارب ، ومخيفٍ لسبيلٍ ، ومتهكٍ لحريمٍ ، امثل في أمره أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله عزّ وجلّ : « إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »<sup>(٦٣)</sup>

وأمره بوضع الرصد على من يجتاز في أعماله من أباقي العبيد ، والاحتياط عليهم ، وعلى ما يكون معهم ، والبحث عن الأماكن التي فارّقوها ، والطرق التي استطرّقوها ، ومواليهم الذين أبقوا<sup>(٦٤)</sup> منهم ، ونشروا عنهم ، وأن يردّوهم عليهم قهراً ، ويعيدوهم إليهم صغراً ، وأن ينشدوا الضالة ما أمكن أن تُشَدَّ ، ويحفظوها على ربّها بما جاز أن تُحفظ ، ويتجنبوا الامتطاء لظهورها ، والانتفاع بأوبارها ، وألبان ما يجزُّ ويحلب ، وأن يعرفوا اللقطة ، ويتبعوا أثرها ، ويشيعوا خبرها ، فإذا حضر صاحبها ، وعلم أنّه مستوجبها سلّمت إليه ، ولم يُعترض فيها عليه ، والله عزّ وجلّ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا »<sup>(٦٥)</sup> ويقول رسوله ﷺ : « ضالّة المؤمن حرّق النار »<sup>(٦٦)</sup> .

(٦٢) يبدّرُقوا : البذرقة الخفارة ، فارسية معربة معناها والمبذرق الخفير .

(٦٣) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

(٦٤) في الأصل « أنفوا » والصواب عن المختار ١٠٨ .

(٦٥) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٦٦) قاله النبي ﷺ لمن سأله عن ضوال الإبل ، فنهاه عن أخذها ؛ وحذره النار إن تعرض لها .

وأمره أن يُوصىَ عمَّاله بالشدُّ على يد الحكَّام ، وتنفيذ ما يصدرُ عنهم من الأحكام ، وأنَّ يحضُّروا مجالسهم حضورَ المؤقَّرين لها ، الذَّاين عنها ، المقيمين لرسومِ الهَيْبَةِ ، وحدود الطَّاعَةِ فيها ؛ ومن خرجَ عن ذلك من ذِي عَقْلِ ضَعِيفٍ ، وحُلْمٍ سَخِيفٍ ، نالوه بما يردُّعه ، وأحلُّوا به ما يَزَعُه (٦٧) ، ومتى تقاعَسَ مُتقاعِسٌ عن حضورٍ مع خَصْمٍ يَسْتَدْعِيه ، وأمرٌ يوجِّهه الحاكِمُ إليه فيه (٦٨) ، أو التَّوى مُلتوِّجِحٌ يَحْصُلُ عليه ، ودَيْنٌ يَسْتَقِرُّ في ذِمَّتِه ، قَادُوهُ إلى ذلك بأزْمَةِ الصَّغارِ ، وخِزَامِ (٦٩) الاضطرارِ ، وأنَّ يُحْجَبُوا ويُطْلَقُوا بأقوالهم ، ويثبِّتوا الأيدي في الأملاكِ والفُروجِ ، ويتزَعُوا بقضاياهم ، فإنَّهم أمناءُ الله في فصلِ ما يَقْضُونَ ، وبِتِّ ما يَبْتُونَ (٧٠) ، وعن كتابِه وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ يوردون ويُصدِّرون . وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « يادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٧١) » .

وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمَّال الخراج في استيفاء حُقوق ما استعملوا عليه ، واستنظاف بقاياهم فيه ، والرِّياضَةِ لمن تسوءُ طاعته من معاملهم ، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم ، فمن آدابِ الله تعالى للعبدِ الذي يحقُّ عليه أن يتخذها ، ويجعلها للرِّضا عنه سبباً قوله تعالى : « وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧٢) » .

وأمره أن يجلس للرعِيَّة جلوساً عامًّا ، وينظرَ في مظالمِها نظراً تامًّا ، يساوى في الحقِّ بين خاصِّها وعامِّها ، ويوازي في المجالسِ بين عزيزِها وذليلِها ، ويُنصفَ المظلومَ من

(٦٧) في الأصل « ما يزعُه » .

(٦٨) في الأصل « بأمر يوجهه الحكم إليه » .

(٦٩) في الأصل « وخِزَامِ » بالخاء الممهلة وهو تصحيف ، والخِزَامُ جمع خِزَامَةٍ ، وأصل الخِزَامَةُ حلقة من شعر تجعل في ورة أنف البعير يشدُّها الزمام .

(٧٠) في المختار « ما يفضلون » .

(٧١) سورة (ص) : الآية ٢٦ .

(٧٢) سورة المائدة : الآية ٢ .



ظالمه ، والمغصوب من غاصبه ، بعد الفحص والتأمل ، والبحث والتبين ، حتى لا يحكم إلا بعدلٍ ، ولا ينطق إلا بفضل ، ولا يُثبت يداً إلا فيما وجب تثبتها فيه ، ولا يقبضها إلا عملاً وجب قبضها عنه ، وأن يُسهل الإذن لجماعتهم ، ويرفع الحجاب بينه وبينهم ، ويوليهم من حصانة الكنف ، ولين المنعطف ، والاشتمال والعناية ، والصون والرعاية ، ما تتعادل به أقسامهم ، وتتوازي منه أفساطهم ، ولا يصل الركين منهم إلى استِضامة ما تأخر عنه ، ولا ذو السلطان إلى هزيمة من حلّ دونه ، وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق ، ويحضهم على أحمد المذاهب والطرائق ، ويحمل عنهم كُله ، ويمد عليهم ظلّه ، ولا يسومهم عسفاً ، ولا يلحق بهم حيفاً ، ولا يكلفهم شططاً ، ولا يجشمهم مضليلاً ، ولا يثلم لهم معيشة ، ولا يُدأخلهم في جريمة (٧٣) ، ولا يأخذ بريئاً بسقيم ، ولا حاضرًا ببعيد (٧٤) ، فإن الله عز وجل ينهى أن ترزوا رزة وزر أخرى ، ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سنّ عليها من سنة ظالمة ، وسلك بها من محجة جائزة ، ويستقرى آثار الولاة قبله عليها ، فيما رجوه من خير أو شر إليها ، فيقر من ذلك ما طاب وحسن ، ويُريل ما خبث وقبح ، فإن من غرس الخير يحظى بمعسول ثمره ، ومن زرع الشر يبصلي بمرور ريعه ، والله تعالى يقول : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » (٧٥) .

وأمره بأن يصون مال الخراج ، وأثمان الغلات ، ووجهه الجبايات موفراً ، ويزيد ذلك ثمراً مما يستعمله من الإنصاف لأهلها ، وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها ، فإنه مال الله الذي به قوة عباده ، وحماية بلاده ، ودور حله ، واتصال مدده وبه يحاط الحريم ، ويُدفع العظيم ، ويحمى الذمار ، ويبدأ الأشرار . وأن يجعل افتتاحه آية بحسب إدراك أصنافه ، وعند حضور مواقته وأحيانه ، غير متسلف شيئاً قبلها ، ولا مؤخرًا لها عنها . وأن يخص أهل الطاعة والسلامة بالترفيه لهم ، وأهل

(٧٣) رواية المختار « ولا يداخلهم في حرفة » .

(٧٤) رواية المختار « ولا حاضرًا بغائب » .

(٧٥) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .

الاستضعاب والامتناع بالتشديد عليهم ، لثلا يَقَعُ إِرْهَاقٌ لِمُدْعِينِ ، أو إِهْمَالٌ لَطَامِعِ .  
وعلى المتوَلَّى لذلك أن يَضَعَ كُلاًّ من الأمرين موضعَه ، ويوقَعَه موقعَه ، متجنباً إِحْلالِ  
الغلْطَةِ فيمن لا يستحقُّها ، وإعطاءَ الفُسْحَةِ مَنْ لَيْسَ أهلها ، واللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ :  
« وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى \* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى \* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ  
الْأَوْفَى (٧٦) » .

وأمرُه أن يتخيَّرَ عُمَّالَه على الخِراجِ وَالْأَعْشَارِ وَالضَّيَاعِ وَالْجِهْدَةِ وَالصَّدَقَاتِ  
وَالْجَوَالِي من أهلِ الظَّلْفِ (٧٧) والنزاهة ، وَالضَّبْطِ وَالصَّيَانَةِ ، والجِزَالَةِ والشَّهَامَةِ ، وأن  
يَسْتَظْهَرِ مع ذلكَ عليهم بوضيعةٍ تَعَبِيّاً أَسْمَاعَهُمْ ، وَعُهُودٍ يَقْلُدُهَا أَعْنَاقَهُمْ ، بأن لا  
يضيَعُوا حقاً ، ولا يأكلوا سُحْتاً ، ولا يستعملوا ظُلماً ، ولا يُقَارِفُوا غَشْماً (٧٨) ، وأن  
يُقيِمُوا العِمَارَاتِ ، ويحتاطُوا [ على الغلات ] (٧٩) ويتحرَّزُوا من إِتْوَاءِ (٨٠) حقٍ لازمٍ ،  
أو تعطيلِ رَسْمٍ عادِلٍ ، مؤدِّينَ في جميع ذلك الأمانة ، مجتنبين للخيانة ، وأن  
يأخذُوا جهابذتهم بِسْتِيفَاءِ وَزَنِ المَالِ على تمامه ، واستجدادِ نَقْدِه على عياره ،  
واستعمالِ الصِّحَّةِ في قبض ما يقبضون ، وإطلاقِ ما يُطلقون ، وأن يُوعِزُوا إلى سَعَاةِ  
الصدقاتِ في أخذِ الفرائضِ من سائمةِ مواشِي المسلمين ، دون عاملتها ، وكذلك  
الواجب فيها ، وأن لا يجمعُوا فيها متفرِّقاً ، ولا يفرِّقُوا مجتمعاً ، ولا يُدْخِلُوا فيها خارجاً  
عنها ، ولا يضيفُوا إليها ما ليس منها من فحلِ إِبِلٍ ، وأكولةِ رَاعٍ ، أو عقيلةِ مالٍ ،  
فإذا اجْتَبَوْهَا على حقِّها ، واستوفوها على رسمها ، أخرجوها في سبيلها ، وقسّموها  
على أهلها الذين ذكرهم الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيزِ إِلَّا المَوْلُفَةَ قلوبُهُم الذين ذكرهم  
الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريمِ ، وسقط سَهْمُهُم (٨١) ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : « إِنَّا

(٧٦) سورة النجم : الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . (٧٧) الظلف : منع النفس وكفها عما لا يحسن .

(٧٨) الغشم : الظلم . (٧٩) زيادة عن المختار . (٨٠) الإِتْوَاءُ : الإهلاك .

(٨١) المَوْلُفَةُ قلوبُهُم قوم من سادات العرب أمر الله نبيه في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم  
ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، فلا تحملهم الحمية مع ضعف نيابتهم أن يكونوا ألبا مع الكفار على المسلمين ،  
فلما دخل الناس في دين الله أفواجا ، وظهر أهل دين الله على جميع أهل الملل سقط سهمهم ، كما في نص هذا  
العهد .

الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ « (٨٢)

وإلى جُباةِ أهلِ الذمَّةِ أن يأخذُوا منهم الجزيةَ في المُحَرَّمِ من كلِّ سنةٍ بحسَبِ منازلهم في الأحوال ، وذات أيديهم في الأموال ، وعلى الطبقات المطبقة فيها ، والحدود المعهودة لها ، وأن لا يأخذوها من النساءِ ، ولا ممن لم يبلغ الحُلُمُ من الرجال ، ولا من ذى سِنٍ عالية ، ولا ذى علةٍ بادية ، ولا فقير مُعَدَم ، ولا مترهبٌ مُتَبَتِّل .

وَأَنْ يُرَاعَى جَمَاعَةُ هَؤُلَاءِ الْعُمَّالِ مِرَاعَاةَ يُسْرِهَا وَيُظَهِّرُهَا ، وَيَلَاحِظُهَا مِلَاحِظَةً يُخْفِيهَا وَيُبْدِيهَا ، لثَلَا يُزُولُوا عَنِ الْحَقِّ الْوَاجِبِ ، أَوْ يَعْدُلُوا عَنِ السَّنَنِ اللَّاحِبِ « (٨٣) ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » (٨٤) .

وَأَمْرُهُ بِأَنْ يَنْدَبَ لِعَرَضِ الرِّجَالِ وَإِعْطَانِهِمْ ، وَحَفْظِ جَرَايَاتِهِمْ وَأَوْقَاتِ إِطْعَامِهِمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالثِّقَةِ فِي مُتَصَرِّفِهِ ، وَالْأَمَانَةِ فِيمَا يَجْرَى عَلَى يَدِهِ ، وَالْبُعْدَ عَنِ الْإِسْفَافِ إِلَى الدُّنْيَةِ ، وَالِاتِّبَاعَ لِلدِّعَاءَةِ ، وَأَنْ يَتَّعَثَ عَلَى ضَبْطِ الرِّجَالِ ، وَشِيَاتِ الْخَيْلِ ، وَتَحْدِيدِ الْعَرَضِ بَعْدَ الْاِسْتِحْقَاقِ ، وَإِيقَاعِ الْاِحْتِيَاطِ فِي الْاِئْتِاقِ ، فَتَنْ صَحَّ عَرَضُهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْهُمْ مِنْ شَكِّ يَعْزُضُ لَهُ ، أَوْ رِيْبَةٍ يَتَوَهَّمُهَا ، أَطْلَقَ أَمْوَالَهُمْ مَوْفُورَةً ، وَحَصَّلَهَا فِي أَيْدِيهِمْ غَيْرَ مَثْلُومَةٍ ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ أَرْزَاقَ مَنْ سَقَطَ بِالْوَفَاةِ وَالْإِخْلَالِ ، نَاسِبًا ذَلِكَ إِلَى جِهَتِهِ ، مُورِدًا لَهُ حَقِيقَتَهُ ، وَأَنْ يَطَالِبَ الرِّجَالَ بِإِحْضَارِ الْخَيْلِ الْمُخْتَارَةِ ، وَالْآلَاتِ الْمُسْتَكْمَلَةِ ، عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِمَبَالِغِ أَرْزَاقِهِمْ وَبِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ ، فَإِنْ أَخَّرَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، قَاصَّهَ بِهِ مِنْ رِزْقِهِ ، وَأَزَمَهُ مِثْلَ قِيَمَتِهِ ، فَإِنَّ الْمَقْصَرِ فِيهِ خَائِنٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُخَالَفٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِذْ يَقُولُ سُبْحَانَهِ : « وَأَعَدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ « (٨٥) .

(٨٤) سورة الإسراء : الآية ٣٤ .

(٨٢) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

(٨٥) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٨٣) السنن اللاحب ، الطريق الواضح .

وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات من ثقة ودراية ، وعلم وكتابة ، ومعرفة ورواية ، وتجربة وحكمة وحصانة ومُسكّة ، فإنها أحوال تضارع الحكم وتناسبه ، وتدانيه وتقاربه . وأن يتقدّم إلى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يُطلقون بيعه ، ويمضون أمره ، والتحرّز من وقوع تخون فيه ، أو إهمال له ، إذ كان ذلك عائدا بتحسين الفروج ، وتطهير الأنساب ، وأن يُبعدوا عنه أهل الريبة ، ويقربوا أهل العفة ، ولا يُمضوا بيعاً على شبهة ، ولا عقداً على تهمّة .

وإلى ولاة العيار بتخليص عين الدرهم والدينار ، ليكونا مضروبين على البراءة من الغش ، والنزاهة من المش<sup>(٨٦)</sup> وبحسب الإمام المقدّر بمدينة السلام ، وحراسة السكك من أن تتداوئها الأيدي المدغلة<sup>(٨٧)</sup> ، وتتناقلها الجهات الظنينة<sup>(٨٨)</sup> ، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يُضرب ذهباً ، وإجراء ذلك على الرسم والسنة وإلى ولاة الطرز<sup>(٨٩)</sup> أن يُجرّوا الاستعمال في جميع المناسج على أتمّ النيقة<sup>(٩٠)</sup> وأسلم الطريقة ، وأحكم الصنعة ، وأثبت<sup>(٩١)</sup> الصّحة ، وأن يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكُسا والقُرش والأعلام والبنود .

وإلى ولاة الحسبة بتصفّح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم ، ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم ، وأن يعايروا الموازين والمكاييل ويفرزوها على التعديل والتكميل ، ومن أطلعوا منه على حلية أو تلبيس ، أو غيلة أو تدليس ، أو بخس ما يوفيه ، واستفضال فيما يستوفيه ، نألوه بغليظ العقوبة وعظمتها ، وخصّوه بوجيعها وألمها ، وأقفين في ذلك عند الحد الذي يروونه لذنبه ، مُجازياً ، وفي تأديبه كافياً ، فقد قال الله تعالى :

(٨٦) المش : هو أخذ المال شيئاً بعد شيء .

(٨٧) المدغلة : من الدغل وهو الفساد ، وفي الأصل « المزرغة » بالزاي .

(٨٨) الظنينة المنهمة ، وفي الأصل « المينة » .

(٨٩) الطرز : الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيدة ، والنمط ، وثوب ينسج للسلطان .

(٩٠) النيقة : التجويد والمبالغة .

(٩١) في الأصل « وأفضل » والصواب عن المختار ١١٣ .

« وَيَلُ لِّلْمُطَفِّينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ \* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (٩٢) .

هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك ، وَحَجَّتُهُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ وَقَفَكَ عَلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَأَرْشَدَكَ إِلَى وَاضِحِ الدَّلِيلِ ، وَأَوْسَعَكَ تَعْلِيمًا وَتَفْهِيمًا ، وَلَمْ يَأْثُرْ جُهْدًا فِيهَا عَصَمَكَ ، وَعَصَمَ عَلَى يَدِكَ ، وَلَمْ يَدْخِرْكَ مُمَكِّنًا فِيهَا أَصْلَحَ بِكَ وَأَصْلَحَكَ وَلَا تَرَكَ عُذْرًا فِي غَلَطٍ تَغْلَطُهُ ، وَلَا طَرِيقًا إِلَى تَوَرُّطِهِ تَتَوَرَّطُهُ ، بِالْفَائِثِ فِي الْأُمُورِ وَالرَّوَاجِرِ إِلَى حَيْثُ يَلْزَمُ الْأُمَّةَ أَنْ يَنْدَبُوا النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيَحْتَوِهِمْ عَلَيْهِ ، مَقِيًا لَكَ عَلَى مُنْجِيَاتِ الْمَسَالِكِ ، صَارِفًا لَكَ عَنْ مُرَدِّيَاتِ الْمَهَالِكِ ، مَرِيدًا فِيكَ مَا يُسَلِّمُكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ وَيَعْبُدُ بِالْحِظِّ عَلَيْكَ فِي آخِرَتِكَ وَأَوْلَاكَ ، فَإِنْ اعْتَدَلْتَ وَعَدَلْتَ فَقَدْ فُزْتَ وَغَنِمْتَ وَإِنْ تَخَانَفْتَ وَاعْوَجَجْتَ فَقَدْ فَسَدْتَ وَنَدِمْتَ ، وَالْأَوْلَى بِكَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَغْرَسِكَ الرَّكِي ، وَمَنْبِتِكَ النَّامِي ، وَعُودِكَ الْأَنْجَبِ ، وَعُنْصُرِكَ الْأَطِيبِ ، أَنْ تَكُونَ لَظَنَّهُ مُحَقَّقًا . وَلَمَخِيلَتَهُ فِيكَ مُصَدِّقًا ، وَأَنْ تَسْتَزِيدَهُ بِالْأَثَرِ الْجَمِيلِ قَرَبًا وَثَوَابًا يَوْمَ الدِّينِ وَزُلْفَى عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَثَنَاءً حَسَنًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فَخُذْ مَا نَبَذَ إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ ، وَأَمْسِكْ بِيَدِكَ عَلَى مَا أُعْطِيَ مِنْ مَوَائِقِهِ ، وَاجْعَلْ عَهْدَهُ مِثْلًا تَحْتَذِيهِ ، وَإِمَامًا تَقْتَضِيهِ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ يُعِينِكَ ، وَاسْتَهْدِهِ يَهْدِكَ ، وَأَخْلِصْ إِلَيْهِ فِي طَاعَتِهِ يُخْلِصْ لَكَ الْحِظَّ فِي مَعُونَتِكَ وَمَهْمَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ مِنْ خُطْبٍ ، أَوْ أَعْضَلَ عَلَيْكَ مِنْ صَعْبٍ ، أَوْ بَهَرَكَ مِنْ بَاهِرٍ ، أَوْ بَهْظَكَ مِنْ بَاهِظٍ ، فَارْتَبِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [ بِهِ ] مِنْهُنَّ ، وَكُنْ إِلَى مَا يَرُدُّ مِنْ جَوَابِهِ مُتَطَلِعًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

### [ التَّقْلِيدُ بِأَسْلُوبِ ابْنِ الْأَثِيرِ ]

وَأَمَّا التَّقْلِيدُ الَّذِي أَنْشَأْتَهُ أَنَا فَهُوَ هَذَا :

« أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَبْدَأُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي يَكُونُ لِكُلِّ خُطْبَةٍ قِيَادًا ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مِهَادًا ، وَيَسْتَزِيدُهُ مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ التَّقْوَى لَهُ زَادًا ، وَحَمَلَتْهُ عِبَاءَ الْخِلَافَةِ

(٩٢) سورة المطففين: الآيات ١ و ٢ و ٣ .

فلم يَضْعَفْ عنه طَوْقًا ، ولم يَأُلْ فيه اجتهادًا ، وصَغَّرَتْ لديه أمر الدنيا فما تَسَوَّرَتْ له  
مِحْرَابًا ، ولا عَرَضَتْ عليه جِيَادًا ، وَحَقَّقَتْ فيه قول الله تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ  
نَجَعْنَاهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا (٩٣) » . ثم يَصَلَّى على مَنْ أُنزِلَتْ  
الملائكة لِنَصْرِهِ إِمْدَادًا وَأَسْرَى به إلى السَّمَاءِ حتى ارتقى سَبْعًا شِدَادًا ، وَتَجَلَّى له ربه فلم  
يُزِغْ منه بَصْرًا ولا أَكْذَبَ فَوَادًا ، ثم مِنْ بعده على أُسْرَتِهِ الطاهرة التي زَكَتْ أوراقًا  
وأعوادًا ، وَوَرِثَتْ النُّورَ المين تِلَادًا ، وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ هداية وإرشادًا ،  
وخصوصاً عمه العباس المدعُوْله بأن يحفظ نفسه وأولادها ، وأن تَبْقَى كلمة الخلافة فيهم  
خالدة لا تخاف دَرْكًا ولا تَخْشَى نَفَادًا . وإذا استوفى القلم مداده من هذه الْحَمْدَةَ ،  
وَأُسْنَدَ الْقَوْلِ فيها عن فصاحته الْمُرْسَلَةَ ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ فِي إِنْشَاءِ هَذَا التَّقْلِيدِ الَّذِي جعله  
حليفًا لقرطاسه ، واستدامَ سَجُودُهُ على صفحته حتى لم يكد يرفعُ من رَأْسِهِ ، وليس  
ذلك إلا لِإِفَاضَتِهِ فِي وَصْفِ المُنَاقِبِ التي كَثُرَتْ ، فَحَسَّنَ لَهَا مَقَامَ الإِكْتَارِ ، واشتبه  
التطويلُ فيها بالاختصار وهي التي لا يَفْتَقِرُ وَاصِفُهَا إلى القولِ المُعَاد . ولا يستوعر سلوك  
أطوادها ومن العجبِ وَجُودِ السَّهْلِ فِي سُلُوكِ الأَطْوَادِ . وتلك مناقبك أيها الملكُ الناصر  
الأجلُّ السَّيِّدُ الكَبِيرُ العَالِمُ العَادِلُ المِجَاهِدُ المِرابِطُ صلاحُ الدين أبو المظفر يوسفُ بنُ  
أيوب والديوانُ العزيرُ يتلوها عليك تحدثًا بِشُكْرِكَ ، وَيُبَاهِي بِكَ أوليائه تنزيهاً بِذِكْرِكَ ،  
ويقولُ أَنْتَ الَّذِي نستكفي فتكونُ للدولِ سَهْمَهَا الصَّائِبَ ، وشهابها الثاقبَ ، وكتَرها  
الَّذِي تذهبُ الكِنُوزُ وليسَ بذاهبِ ، وماضرها وقد حَضَرَتْ فِي نُصْرَتِهَا إِذَا كانَ غيرُكَ  
هو الغائبُ ، فاشكر إِذَا مَسَاعِيكَ التي أَهْلَتِكَ لِمَا أَهْلَتَكَ ، وَفَضَّلْتَكَ على الأولياءِ بما  
فَضَّلْتَكَ وَلَئِنْ شُورَكَ فِي الوِلاءِ بِعَقِيدَةِ الإِضْمارِ ، فلم تُشَارَكَ فِي عَزْمِكَ الَّذِي انتصر  
للدولةِ فَكانَ لَهُ بَسْطَةُ الانتصارِ ، وَفَرَقُ يَنْ مِنْ أَمَدٍ بقلبه وَبَيْنَ مَنْ أَمَدَ بِيَدِهِ فِي  
درجاتِ الإِمْدَادِ ، وما جعلَ اللهُ القاعِدِينَ كالَّذِينَ قالُوا : لَوْ أَمَرَ بنا لَضَرْبنا أَكْبَادَها إلى  
بِرْكِ الغَمَادِ (٩٤) .

(٩٣) سورة القصص : الآية ٨٣ . (٩٤) قال صاحب القاموس : وبرك الغماد بالكسر ويفتح موضع  
بالين ، أو وزراء مكة بخمس ليل ، أو أقصى معمور الأرض .

وقد كفاك من المساعي أنك كفيت الخلافة أمر مُنازِعِها ، وطمست على الدَّعوة الكاذبة التي كانت تدعيها ، ولقد مضى عليها زمنٌ ومِحْرَابٌ حقها محفوفٌ من الباطل بمحرايين ، ورأت ما رآه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من السَّوارين اللذين أولها كذايين ، فبمصر منها واحدٌ تاهَ بمجرى أنهارها من تحته ، ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجيته ، ولعبَ بالدين حتى لم يدر يومَ جمعته من يومٍ أحده ولا يومَ سنّيته ، وأعانه على ذلك قومٌ رمى الله بصائرهم بالعمى والصَّمَمِ ، واتخذوه صنماً بينهم ، ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجلٍ أو صنمٍ ، فقمت أنت في وجه باطله ، حتى قعدت وجعلت في جيده حبلاً من مسدٍّ ، وقلت ليد تبتُّ ، فأصبح وهو لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمنِ ناجمته ، وسامت فيه سائمته ، فوضع بينة موضع الكعبة اليمانية ، وقال هذا ذو الخلصة الثانية (٩٥) ، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه ، أم أيها يقوم بأداء حقه ؟

وها هنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد ولم يحظ بهذه الزية إلا لأنه أصبح لك صاحباً ، وفخر بك حتى طال فخرًا عما عز جانباً ، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً ، لما كان حده قاضياً . وقد قللك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمانية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعيةً وجنداً ، وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً ، وما يستنقذ من مجاوريها مسألة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحتوى عليه من المدن الممدنة ، والمراكز المحصنة مستثياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو « حلب » وأعمالها ، فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين ، وتخلفه في عقبه في الغابرين ، وولده هذا قد هدبته الفطرة في القول والعمل ، وليست هذه الرَبوة إلا من ذلك الجبل . فليكن له منك جارٌ يدنونه وداداً كما دنا أرضاً ، ويصبح وهو له كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً .

والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد ، ولفتك عن

(٩٥) ذو الخلصة محرقة بفتحين وبضمين بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخنم كان فيه صنم اسمه الخلصة .

فضيلة الازدياد ، فأياك أن تنظر سعيك بالإعجاب ، وتقول هذه بلادُ أنا فتحتها بعد أن أَضْرَبَ عنها كثيرٌ من الأضراب ، ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله ، ثم لخليفته من بعده ، ولا منة للعبدِ بإسلامه ، بل المنَّةُ لله بهداية عبده ، وكم سلف من قبلك من لورام ما رُمته لدنا شاسعُه ، وأجاب مانعُه ، لكن ذخره الله لك لتحظى في الآخرة ، بمفاذه وفي الدنيا برقم طرازه ، فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم ، وقل : لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وقد قرنَ تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الاسم شعاعاً ، وفي الوسم فخاراً ، وتناسب محل قلبك وبصرِكَ ، وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوباً وأبصاراً ، ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطفاء الأطاوق بالأعناق ثم إنك خوطبت بالملك ، وذلك خطاب يقضى لصدرِكَ بالانسراح ، ولأممك بالانفساح ، وتؤمَّر معه بمديدك إلى العليا لا بضمها إلى الجناح .

وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكملُ بها أقسام السيادة ، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان ، فيقال إنها الحسنى وزيادة ، فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب ، واجعله لها عيداً ، وقل هذا عيدُ الخلعة والتقليد والخطاب .

هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضراً وأنت ناء عن الحضور ، وتضمن أن تكونَ مشتركةً بينك وبين غيرك ، والضئنة من شيم الغيور . وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها ، وما نقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ، فاحرسها عليك حراسة تفضى بتقدميها ، واعمل لها فإن الأعمال بخواتيميها .

واعلم أنك قد تقلدتَ أمراً تعين به نفى الحلوم ، ولا ينفكُ صاحبه عن عهدة الملووم ، وكثيراً ما يرى حسناته يوم القيامة وهي مقتسمة بأیدی الخصوم ، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبّة الحذار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار ، وعلم أن الولاية ميزانٌ إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار قال النبي صلى الله عليه وسلم :



« يا أباذر ، إني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسى ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تولين مالَ يتيمٍ »  
فانظر إلى هذا القول النبوىَّ نظر من لم يُخدعْ بمحدثِ الحرص والآمال ، ومثل الدنيا  
وقد سيقَتْ إليك بِحَدَافِيرِها ، أليس مصيرُها إلى الزوال ؟ والسعيدُ إذا جاءته قضيُّ بها  
أربَ الأرواح لا أربَ الجُسوم ، واتخذ منها - وهى السَّم - دواء ، وقد تتخذ الأدويةُ  
من السُّموم . وما الاغتباط بما يَخْتَلِفُ على تلاشيه المساء والصُّباح ، وهو كما أنزلناه من  
السَّاء ، فاختلطَ به نباتُ الأرضِ ، فأصبحَ هشيمًا تذرُّوه الرياح .  
واللهُ يعصمُ أميرَ المؤمنين وولادةَ أمره من تباعثها التى لا بستهم ولا بسوها ، وأحصاها  
اللهُ عليهم ونسوها ، ولك أنت من هذا الدعاءِ حظٌّ على قدرِ محلِّك من العناية التى  
جذبت بِعَسِيكَ (٩٦) ، ومحلِّك من الولاية التى بسطتْ من دِرْعِكَ . فخذْ هذا الأمر  
الذى تقلدته أخذَ من لم يتعقبه بالنسيان ، وكُنْ فى رعايته ممن إذا نامتْ عيناه كان  
قلبه يقظان .

وملاكُ ذلك كله فى إسباغِ العدل الذى جعله اللهُ ثالثَ الحديثِ والكتابِ ،  
وأغنى بثوابه وحده عن أعمالِ النَّوَابِ ، وقد رويًا منه بعبادةِ ستين عاماً فى الحسابِ ،  
ولم يأمر به أمرٌ إلا زِيدَ قُوَّةً فى أمره ، وتحصَّنَ به من عدوِّه ومن دهره ، ثم يُجاءُ به يوم  
القيامةِ وفى يديه كتاباً أمان ، ويجلسُ على منبرٍ من نور عن يمينِ الرحمن . ومع هذا  
فإنَّ مركبه صعبٌ لا يستوى على ظهره إلا مَنْ أمسكَ عِنانَ نفسه قبل إمساكِ عِنايه ،  
وغلبتْ لمةُ ملكه على لمةِ شيطانه ، ومن أوكد فُرُوضِهِ أَنْ يَمْحَى السُّننَ السيئةَ التى  
طالتْ مددَ أيامها ، وَيَسَسَ الرَّعايا من رفعِ ظلاماتها ، فلمْ يجعلوا أمداً لانحسارِ ظلامها  
وتلك السُّننُ هى المكوسُ التى أنشأتها الهممُ الحَقيرةُ ؛ ولا غنى للأيدى الغنية إذا  
كانتْ ذاتَ نفوسٍ فقيرة . وكلما زِيدت الأموالُ الحاصلةُ منها قدرًا زادها اللهُ مَحَقًّا ،  
وقد استمرتْ عليها العوائدُ حتى ألحقها الظالمونَ بالحقوقِ الواجبةِ ، فسموها حقًا ، ولولا  
أنَّ صاحبها أعظمُ الناسِ جرماً لما أغلظَ فى عقابه ، ومثَّلتْ توبةَ المرأةِ الغامديةِ

(٩٦) الضبعُ العُضدُ كلها ، وأوسطها يلحمها ، أو ما بين الإبط إلى نصفِ العُضدِ من أعلاه .

بمثابة وهل أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً ويُضج وهو مطالبٌ بهم بما يعلم  
 وبما لم يحط به علماً؟ وأنت مأمورٌ بأن تأتي هذه الظلمات فتنجي على إبطائها ،  
 وتلحق أسماءها في المحو بأفعالها ، حتى لا يبقى لها في العيان صورٌ منظورة . ولا في  
 الألسنة أحاديثٌ مذكورة . فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضي سنةً سوء  
 سنتها يدها . وعن الآتي متابعة ظلم وجدته نهجاً مسلوكة . فجرى على مداه ، فبادر  
 إلى ما أمرت به بمبادرة من لم يضق به ذرعاً . ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه فرآها في  
 الآخرة متاعاً . واحمد الله على أن قيض للإمام هدى يقف بك على هُداك ، ويأخذ  
 بحجزتك عن خطوات الشيطان ، الذي هو أعدى عداك . وهذه البلاد المنوطة  
 بطرفك تشتمل على أطراف متباعدة ، وتفتقر في سياستها إلى أيدٍ متساعدة . ولهذا  
 يكثر بها قضاة الأحكام ، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام . وكل من هؤلاء ينبغي أن  
 يقف على باب الاختبار ، ويسلط عليه شاهداً عدل من أمانة الدرهم والدينار ، فما  
 أضل الناس شيء كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد  
 والإخوان . وكثيراً ما نرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان فإذا استعنت  
 بأحد منهم على شيء من أمره فاضرب عليه بالأرصاد . ولا ترض بما عرفته من مبدأ  
 حاله فإن الأحوال تنتقل منتقل الأجساد ، وإياك أن تُخدع بصلاح الظاهر كما خدع  
 عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بالربيع بن زياد . وكذلك أوامر هؤلاء على  
 اختلاف طبقاتهم بأن يأمرُوا بالمعروفِ مواظبين ، وينهوا عن المنكر محاسنين ، ويعلمُوا  
 أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالين . وليبدؤوا أولاً بأنفسهم ،  
 فيعدلوا بها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرُونَ به سواها ، ولا يكونوا ممن هدى إلى طريق  
 البر وهو عنه حائد . وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج إلى طبيبٍ وعائد ، فما تنزل  
 بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه . وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ،  
 وإذا صلحت الولاية صلحت الرعية بصلاحهم . وهم لهم بمنزلة المصاييح ، ولا  
 يستضىء كل قوم إلا بمصباحهم ، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً في  
 الاصطحاب ، وجيراناً في الاقتراب ، وأعاوناً في توزع الحمل الذي يثقل على

الرقاب ، فالمسلمُ أخو المسلمِ ، وإن كانَ عليه أميرًا ، وأولى الناسِ باستعمال الرِّفق من كانَ فضل الله عليه كثيرًا ، وليست الولايةُ لمن يستجدُّ بها كثرة اللِّيف ، ويتولَّأها بالوطء العنيف ، ولكنَّها لمن يُمالُ على جوانبه ، ويؤكل من أطايه ، ولمن إذا غَضِبَ لم يرَ للغضبِ عنده أثر ، وإذا الحِفَ في سؤاله لم يلقَ الإلحافَ بخلق الصُّجر ، وإذا حضر الخصومُ بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر ، فذلك الذى يكون في أصحابِ اليمين ، والذى يُدعى بالحفيظ العليم ، والقوى الأمين .

ومن سعادة المرء أن تكونَ ولاته متأدِّين ، وجارين على نهج صوابه . وإذا تطايرت الكتبُ يوم القيامة كانوا حسناتٍ مُثبتة في كتابه .

وبعدَ هذه الوصية فإنَّ هاهنا حسنةٌ هي للحسناتِ كالأمِّ الوؤود ، ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود ، وتيقَّظت لنصره والعيون رُقود ، وهى التى تسبِّغ لها الآلاءُ ، ولا يتخطَّأها البلاءُ .

ولأمير المؤمنين بها عنايةٌ تبعثها الرحمةُ الموضوعَةُ في قلبه ، والرغبةُ في المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هى الصِّدقة التى فضَّل الله بها بعضَ عباده لمزية أفضالها ، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها ، وهو يأمرُك أن تتفقَّد أحوالَ الفقراء الذين قدِرتَ عليهم مادَّة الأرزاق ، وألبسهم التعفُّف ثوبَ الغنى وهم في ضيقٍ من الإملاق ، فأولئك أولياءُ الله الذين مسَّتهم الضراء فصبروا ، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذ نظروا ، وينبغى أن يهبَّع لهم من أمرهم مرفقا ، ويضربَ بينهم وبين الفقرِ موبقاً .

وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاماً بأنَّها من المهيم الذى يُستقبلُ ولا يُستدِير ، ويُستسكِّر منه ولا يُستكِّر ، وهذا يعدُّ من جهاد النفس في بذلِ المال ، ويتولَّوه جهادُ العدو الكافر في مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعلُ السيفَ في ملازمته أخصاً ، وتسخوله بنفسك إن كان أحدٌ بنفسه سخاً ، ومن صفاته أنه العمل المحبُّ بفضل الكرامة الذى يُنمى أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة ، وبه تُمتحنُ طاعةُ الخالق على المخلوق ، وكل الأعمال عاطلة لاخلاق لها وهو المختصُّ دونها برتبة

الخُلُوق ، ولولاً فضله لما كان محسوباً بشطرِ الإيمان ، ولما جعل الله الجنة له ثمناً وليست  
 لغيره من الأثمان ، وقد علمتُ أنَّ العدوَّ وهو جارُّك الأذنى ، والذي يبلغُك وتبلغُه عيناً  
 وأذناً ، ولا تكونُ للإسلامِ نِعَمَ الجارِّ حتَّى تكونَ له بِئْسَ الجارُّ ، ولا عُذْرَ لك في تركِ  
 جهادِهِ بنفسِكَ وما لك إذا قامتْ لغيرِكَ الأعذارُ . وأميرُ المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاهُ  
 مكافحاً ، أو تطرُقَ أرضه مُماسياً أو مصابحاً ، بل يريدُ أن تقصِدَ البلادَ التي في يده  
 قَصْدَ المستنقِذِ لا قَصْدَ المُغِيرِ ، وأن تحكَمَ فيها بحكَمِ الله الذي قضاهُ على لِسَانِ سَعْدِ في  
 بَنِي قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ ، وعلى الخصوصِ البيتِ المقدسِ ، فإنه تِلَادُ الإسلامِ القديمِ ، وأخو  
 البيتِ الحرامِ في شَرَفِ التعظيمِ والذي توجَّهتْ إليه الوجوهُ من قبلُ بالسُّجُودِ والتسليمِ ،  
 وقد أصبحَ وهو يشكو طولَ المدةِ في أسرِ رقبته ، وأصبحتْ كلمةُ التَّوْحِيدِ وهي تشكو  
 طولَ الوحشةِ في غربتها عنه وغربته ، فانهضْ إليه نهضةً توغلُ في قَرْحِه ، وتبدلِ صَعْبَ  
 قيادَةِ بِسَمَحِه ، وإن كان لهُ عامُ حُدَيْبِيَّةَ فاتبعه بعامِ فتحِه ، وهذه الاستزادة وإنما تكونُ  
 بعد سدادِ ما في اليد من ثغرٍ كان مهملاً فحميت موارِدَه ، أو مُسْتَهْدَماً فرفعتْ  
 قواعِدَه ، ومن أهمِّها ما كان حاضِرَ البحرِ فإنه عورةٌ مكشوفةٌ ، وخُطَّةٌ مخوفةٌ ، والعدوُّ  
 قريبٌ منه على بُعْدِه ، وكثيراً ما يأتيه فجأةً حتى يُسْبِقَ بَرْقُهُ بَرَعْدَه ، فينبغي أن يرتبَ  
 بهذه الثغورِ رابطةً تكثرُ شجاعَتُها ، وتقلُّ أقرانُها ، ويكونُ قتالُها لأن تكونَ كلمةُ الله  
 هي العليا ، لا لأن يُرى مكانها ، وحينئذٍ يصبحُ كلُّ منها وله من الرِّجالِ أسوار ، ويعلمُ  
 أهله أن بناءَ السَّيْفِ أَمْنُ من بناءِ الأحجارِ ، ومع هذا لا بدُّ لها من أسطولٍ يكثرُ عددهُ ،  
 ويقوى مددُه ، فإنه العُدَّةُ التي تستعينُ بها على كشفِ العَمَاءِ ، والاستكثارِ من سبايا  
 العبيدِ والإماءِ ، وجيشُه أخو الجيشِ السُّلْماني ، فذاك يسيرُ على متنِ الريحِ ، وهذا على  
 متنِ الماءِ ، ومن صفاتِ خيله أنها جمعتْ بين العَومِ والمِطارِ<sup>(٩٧)</sup> ، وتساوتْ أقدارُ  
 خلقها على اختلافِ مدةِ الأعمارِ ، فإذا أشرعتْ قِبلَ جبالٍ متلفعةٍ يقطعُ من الغيومِ ،  
 وإذا نظرتْ إلى أشكالها قيل إنها أهلةٌ غيرُ أنها تهتدى في مسيرها بالنُّجومِ ، ومثلُ هذه الخيلِ  
 ينبغي أن يُعالَى في جِيادها ، ويُستكثرَ من قيادها ، وليؤمَّرَ عليها أميرٌ يلقي البحرَ بمثلِه من

(٩٧) العوم سير الإبل ، والمطار سرعة سير الخيل .

سَعَةَ صَدْرِهِ ، ويسلك طريقه سلوكاً من لم تقتله يجهلها ، ولكن قتلها بخبره ، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه : وزحمتها مناكبه ، وممن يذل الصعب إذا هوساسه وإن لآن جانبه ، وهذا هو الرجل يرأس على القوم فلا يجد هزة بالرياسة ، وإن كان في الساقة<sup>(٩٨)</sup> ، ففي الساقة أو كان في الحراسة في الحراسة ، ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه ، وأيقنت بالنصر من رأته كما أيقنت بالنصر من رأيه واعلم أنه قد أحل من الجهاد بركن يقدح في عمله ، وهو تمامه الذي يأتي في آخره ، كما أن صدق النية تأتي في أوله ، وذلك هو قسم الغنائم ، فإن الأيدي قد تناولته بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكفاف . والله قد جعل الظلم في تعدى حدوده المحدودة ، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشرط الساعة الموعودة . ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا زمانه ، وبأسه شرباس ، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله إهمال مضيق ، ولا إهمال ناس .

والذي نأمرك به تجرى هذا الأمر على المنصوص من حكمه ، وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الإكلة التي تكون غداً أنكالا وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً .

فتصفح ماسطرنا لك في هذه الأساطير التي هي عزائم مبرمات ، بل آيات محكمات ، وتجنب إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كلماتها ، وابن لك منها مجداً يبقى في عقبك إذا أصيبت البيوت في أعقابها . وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها ، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ثم أنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التي تنتزل من كل أمر بمنزله نظامه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَى مَنْ قَلَدْتَهُ شَهَادَةَ تَكُونُ عَلَيْهِ رَقِيَّةً ، وَلَهُ حَسِيَّةٌ . فَإِنِّي لَمْ أَمْرِهِ إِلَّا بِأَوَامِرِ الْحَقِّ الَّتِي فِيهَا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى ، وَهِيَ لِمَنْ تَبِعَهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ

وَبُشْرَى ، وَإِذَا أَخَذَ بِهَا بَلَجَ بِحُجَّتِهِ يَوْمَ يُسْأَلُ عَنِ الْحُجَجِ ، وَلَمْ يَخْتَلِجْ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَوْضِ فِي جُمْلَةٍ مِنْ يَخْتَلِجُ ، وَقِيلَ لَأَحْرَجَ عَلَيْكَ وَلَا إِثْمَ إِذْ نَجَوْتَ مِنْ وَرَطَاتِ الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ ، وَالسَّلَامِ » .

[ ثناء على الصَّابِي ، ومترلته من فن الكتابة ]

وهذا الذي ذكرته من كلامي وكلامِ الصَّابِي فِي هَذِهِ التَّقَالِيدِ الْأَرْبَعَةِ لَمْ أَقْصِدْ بِهِ الْوَضْعَ مِنَ الرَّجُلِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتُهُ لِيَبَانَ مَوْضِعَ السَّجْعِ الَّذِي يَثْبُتُ عَلَى الْمَمْحُكِّ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ الْمَشَارَ إِلَيْهِ فِي فِقْرِ الْأَسْجَاعِ لَمْ يَكُنْ مَقْصُوداً فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، إِمَّا الْمَكَانَ عُسْرَةَ ، أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَبَّهُ لَهُ .

وَكَيْفَ أَضْعُ مِنَ الصَّابِي وَعِلْمُ الْكِتَابَةِ قَدْ رَفَعَهُ وَهُوَ إِمَامُ هَذَا الْفَنِّ ، وَالْوَاحِدُ فِيهِ ؟ ، وَلَقَدْ اعْتَبِرْتُ مُكَاتِبَاتِهِ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ أَجَادَ فِي السُّلْطَانِيَّاتِ كُلِّ الْإِجَادَةِ ، وَأَحْسَنَ كُلِّ الْإِحْسَانِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ عَنْ عَزِّ الدَّوْلَةِ بِخَيْرِ ابْنِ بُوَيْهِ (٩٩) إِلَى سَبِكْتِكِينَ (١٠٠) عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِ ، وَجَاهِرْتَهُ إِبَاهُ بِالْعَصِيانِ ، لِاسْتِحْقَاقِهِ بِهَذَا الْوَضْعِ التَّقَدُّمَ ، كَيْفَ وَلَهُ مِنَ السُّلْطَانِيَّاتِ مَا أَتَى فِيهِ بِكُلِّ عَجَبِيَّةٍ ؟ لَكِنَّهُ فِي الْإِخْوَانِيَّاتِ مَقْصُرٌ ، وَكَذَلِكَ فِي كُتُبِ التَّعَازِي .

وَعِنْدِي فِيهِ رَأْيٌ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ غَيْرِي ، وَلِي فِيهِ قَوْلٌ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ سِوَايَ : وَذَلِكَ أَنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ فِي كِتَابَتِهِ زَائِدٌ عَلَى فَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ ، وَسَائِبِيٌّ ذَلِكَ فَأَقُولُ : لِيَنْظُرِ النَّاطِرُ فِي هَذَيْنِ التَّقْلِيدَيْنِ اللَّذَيْنِ أَوْرَدْتُهُمَا لَهُ ، فَإِنَّهُ يَرَى وَصَايَا وَشُرُوطاً وَاسْتِدْرَاكَاتِ

---

(٩٩) هُوَ أَبُو مَنْصُورٍ بِخَيْرِ الْمَلِكِ عَزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ مَعزِ الدَّوْلَةِ أَبِي الْحَسَنِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِي ، وَوَلِي مَمْلَكَةِ أَبِيهِ يَوْمَ مَوْتِهِ ، وَتَزَوَّجَ الْإِمَامَ الطَّائِعَ ابْنَتَهُ « شَاهِ زَمَانِ » عَلَى صَدَاقٍ مَبْلُغُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَكَانَ عَزِّ الدَّوْلَةِ مَلِكًا سَرِيًّا ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَمْسِكُ الثَّوْرَ الْعَظِيمَ بِقَرْنَيْهِ قَيْصِرَهُ . وَكَانَتْ بَيْنَ عَزِّ الدَّوْلَةِ وَابْنِ عَمِّهِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ مَنَافَسَاتٍ فِي الْمَالِكِ أَدَّتْ إِلَى التَّنَازُعِ وَالْحَارَبَةِ ، فَالْتَقِيَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ثَامِنَ عَشَرَ شَوَالِ سَنَةِ ٣٦٧ هـ . فَقَتَلَ عَزِّ الدَّوْلَةَ ، وَحَمَلَ رَأْسَهُ فِي طَسْتٍ وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، فَلَمَّا رَأَى وَضَعَهُ مَنَدِبِلَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ وَبَكَى ، رَحِمَهَا اللَّهُ .

(١٠٠) نَصُّ الْكِتَابِ فِي الْخِتَارِ مِنْ رِسَائِلِ الصَّابِي ٢٢٧/١ .

وأوامر مابين أصل وفرع ، وكلّ وجزء ، وقليل وكثير ، ولا ترى ذلك في كلام غيره من الكتاب ، إلا أنه عير عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات عبارة في بعضها مافيه من الضعف والركّة وقد قيل : إن زيادة العلم على المنطق هُجْنَةٌ ، وزيادة المنطق على العلم خُدْعَةٌ .

ومع هذا فإني أقرُّ للرجل بالتقدم ، وأشهد له بالفضل .

### [ أقسام السجع ]

وإذا فرغتُ مما أردتُ تحقيقه في هذا الموضوع فإني أرجعُ إلى ما كنتُ بصددِ ذكره من الكلام على السجع ، وقد تقدّم من ذلك ما تقدّم : وبقي ما أنا ذاكره هاهنا ، وهو أنّ السجع قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون الفضلان متساويين ، لا يزيدُ أحدهما على الآخر ، كقوله تعالى : « فَأَمَّا الَّتِيَمَ فَلَا تَقْهَرُ \* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ » (١٠١) . وقوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا \* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا \* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا \* فَأَنْزِلْنَاهُ نَقْعًا \* فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا » (١٠٢) .

ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء ، حتّى كأنها أفرغت في قالب واحد ؟ وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة ، وهو أشرفُ السجع منزلة ، للاعتدال الذي فيه .

القسم الثاني : أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا طولاً يخرجُ به عن الاعتدالِ خروجاً كثيراً ، فإنه يقبح عند ذلك ، ويُستكره ، ويعدُّ عيباً ، فمما جاء من ذلك قوله تعالى : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَاَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا \* إِذَا رَأَتْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا \* وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا » (١٠٣)

(١٠١) سورة الضحى : الآيتان ٩ و ١٠ .

(١٠٢) سورة العاديات : الآيات ١ - ٥ .

(١٠٣) سورة الفرقان : الآيات ١١ و ١٢ و ١٣ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْفَصْلَ الْأَوَّلَ ثَمَانِ لَفْظَاتٍ ، وَالْفَصْلَ الثَّانِيَّ وَالثَّلَاثَ تِسْعَ تِسْعٍ :  
 وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ  
 شَيْئًا إِدًّا ۗ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٠٤) »  
 وأمثالُ هذا في القرآنِ كثيرة .

وَيُسْتَنَى مِنْ هَذَا الْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ السَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقْرٍ ، فَإِنَّ الْفَقْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ  
 يُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ بَاقِي الثَّلَاثَةِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةٌ طَوِيلًا يَزِيدُ عَلَيْهَا ،  
 فَإِذَا كَانَتِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ تَكُونُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَ لَفْظَاتٍ ، أَوْ  
 إِحْدَى عَشْرَةَ .

مِثَالُ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي وَصْفِ صَدِيقٍ ، فَقُلْتُ : « الصَّدِيقُ مَنْ لَمْ يَعْتَضِ عِنكَ  
 بِخَالِفٍ ، وَلَمْ يَعَامِلْكَ مَعَامِلَةَ خَالِفٍ ، وَإِذَا بَلَغْتَهُ أُذُنُهُ وَشَايَةَ أَقَامَ عَلَيْهَا حَدَّ سَارِقٍ أَوْ  
 قَازِفٍ » .

فَالأُولَى وَالثَّانِيَةُ هَاهُنَا أَرْبَعُ لَفْظَاتٍ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ ، لِأَنَّ الْأُولَى : « لَمْ يَعْتَضِ عِنكَ  
 بِخَالِفٍ » وَالثَّانِيَةُ « وَلَمْ يَعَامِلْكَ مَعَامِلَةَ خَالِفٍ » وَجَاءَتِ الثَّلَاثَةُ عَشْرَ لَفْظَاتٍ ، وَهَكَذَا  
 يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .

وَإِنْ زَادَتِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ عَنْ هَذِهِ الْعِدَّةِ فَتَرَادُ الثَّلَاثَةَ بِالْحِسَابِ ، وَكَذَلِكَ إِذَا  
 نَقَصَتْ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ عَنْ هَذِهِ الْعِدَّةِ . فَافْهَمْ ذَلِكَ ، وَقِيسْ عَلَيْهِ .  
 إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَهُ قِيَاسًا مُطْرَدًا فِي السَّجْعَاتِ الثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنْ  
 الْكَلَامِ ، بَلْ تَعْلَمْ أَنَّ الْجَوَازِ يَعْمُ الْجَانِبَيْنِ مِنَ التَّسَاوِي فِي السَّجْعَاتِ الثَّلَاثِ ، وَمِنْ  
 زِيَادَةِ السَّجْعَةِ الثَّلَاثَةِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجْعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :  
 « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ \* فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ \* وَطَلْحٍ مَنضُودٍ \* وَظِلِّ  
 مَمْدُودٍ » (١٠٥) .

(١٠٤) سورة مريم : الآيات ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ .

(١٠٥) سورة الواقعة : الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ .



فهذه السجعات كُلُّها من لفظتين لفظتين ، ولو جعلت الثالثة منها خمسَ لفظاتٍ أو سِتِّمًا كان ذلك مَعِيًّا .

القسم الثالث : أن يكونَ الفصلُ الآخرُ أَقْصَرَ من الأوَّل ، وهو عندى عَيْبٍ فَاحِشٍ وسببُ ذلك أن السَّجْعَ يكونُ قد استوفى أمدَه من الفصلِ الأوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ ، ثمَّ يَجِيءُ الفصلُ الثاني قَصرًا عن الأوَّلِ ، فيكونُ كالشيءِ المُبْتَوَّرِ ، فيبقى الإنسانُ عند سماعه كمن يريدُ الانتهاءَ إلى غايةٍ فيعُثِرُ دُونَهَا .

\* \* \*

وإذا انتهينا إلى هاهنا وبيننا أقسامَ السَّجْعِ ولَبَّهَ وقُشُورُهُ فسنقولُ فيه قولًا كَلِمًا ، وهو أن السَّجْعَ على اختلافِ أقسامِهِ ضربان : أحدهما : يسمى ( السَّجْعُ القَصرِ ) وهو أن تكونَ كُلُّ واحدةٍ من السَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً من ألفاظٍ قليلة ، وكلما قلتَ الألفاظَ كانَ أَحْسَنَ ، لِقُرْبِ الفواصِلِ المسجوعةِ من سَمْعِ السَّامِعِ .

وهذا الضربُ أوعَرَ السَّجْعَ مذهبًا ، وأبعدهُ متناولًا ، ولا يكادُ استعمالُهُ يقعُ إلا نادرًا والضربُ الآخرُ : يسمى ( السَّجْعُ الطويل ) وهو ضدُّ الأوَّلِ لآنه أسهلُّ متناولًا . وإنما كانَ القَصرُ من السَّجْعِ أوعَرَ مَسْلُكًا من الطويلِ لأنَّ المعنى إذا صيغَ بالألفاظِ قصيرةٍ عَزَّ مواتاةُ السَّجْعِ فيه . لِقَصرِ تلكِ الألفاظِ ، وضيقِ المجالِ في استجلابِهِ ، وأما الطويلُ فإنَّ الألفاظَ تطولُ فيه ، ويُستجلبُ له السَّجْعُ من حيثُ وليس كما يقالُ ، وكان ذلك سهلًا .

وكل واحد من هذين الضريين تتفاوتُ درجاتُهُ في عِدَّةِ ألفاظٍ : أما السَّجْعُ القَصرُ فأحسُّهُ ما كانَ مُؤَلَّفًا من لفظتين لفظتين ، كقوله تعالى : **والمُرْسَلَاتِ عُرْفًا \* فالعاصِفَاتِ عَصْفًا (١٠٦)** وقوله تعالى : **« يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ \* وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ \* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ \* والرُّجْزَ فَاهْجُرْ » (١٠٧)** .

(١٠٦) سورة المرسلات : الآيات ١ و ٢ . (١٠٧) سورة المدثر : الآيات ١ - ٥ .

ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظٍ وأربعةٍ وخمسةٍ ، وكذلك إلى العشرة ، وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل ، فما جاء منه قوله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ \* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ \* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ » (١٠٨) وقوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ \* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ \* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ » (١٠٩)

وأما السجع الطويل فإن درجاته تتفاوت أيضاً في الطول .  
فنه ما يقرب من السجع القصير ، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة لفظة إلى اثني عشرة لفظة ، وأكثره خمس عشرة لفظة ، كقوله تعالى : « وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ \* وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهٍ لِيُقُولَنْ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ » (١١٠) فالأولى إحدى عشرة لفظة ، والثانية ثلاث عشرة لفظة ، وكذلك قوله تعالى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » (١١١)

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها كقوله تعالى :  
« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمُورِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* وَإِنْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّنُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » (١١٢)  
ومن السجع الطويل أيضاً ما يزيد على هذه العدة المذكورة ، وهو غير مضبوط .

### [ التصريح في الشعر ]

واعلم أن ( التصريح ) في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور ،

(١٠٨) سورة النجم : الآيات ٣٠١ و٣٠٢ .

(١٠٩) سورة القمر : الآيات ٣٠١ و٣٠٢ .

(١١٠) سورة هود : الآيات ١٠٩ و١١٠ .

(١١١) سورة التوبة : الآيات ١٢٨ و١٢٩ .

(١١٢) سورة الأنفال : الآيات ٤٣ و٤٤ .

وفائده في الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تُعلم قافيتها ، وشبه البيت المصْرَعُ بباب له مصراعان مُتَشَاكِلان ، وقد فعل ذلك القدماء والمُحدَثون ، وفيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام .

فأما إذا كثر التصريح في القصيدة فلست أراه مُختاراً إلا أن هذه الأصناف من التصريح والترصيع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها في الكلام ما قلَّ وجرى مجرى العرَّة من الوجه ، أو كان كالطراز من الثوب .

فأما إذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية ، لما فيها من أمارات الكلفة (١١٣) .

وهو عندى (١١٤) ينقسم إلى سبع مراتب ، وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه

أحدٌ غيرى !

فالمرتبة الأولى : - وهي أعلى التصريح درجة - أن يكون كلُّ مصراعٍ من البيت مستقلاً بنفسه في فهم معناه ، غير محتاجٍ إلى صاحبه الذي يليه ويُسمى « التصريح الكامل » وذلك كقول امرئ القيس :

أفأطم مهلاً بعض هذا التدلُّلِ وإن كنت قد أزمعت هجرًا فأجملِي  
فإن كلَّ مصراعٍ من هذا البيت مفهومٌ المعنى بنفسه ، غير محتاجٍ إلى ما يليه ،  
وعليه ورد قول المتنبي :

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدمُ أَكْلٌ فصيحٌ قالَ شعراً مُتِمُّمٌ (١١٥)  
المرتبة الثانية : أن يكون المصراعُ الأولُ مستقلاً بنفسه ، غير محتاجٍ إلى الذي يليه

فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به ، كقول امرئ القيس :

فَقَاتَبَكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَسِطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(١١٣) نقل ابن الأثير في كلامه عن ( التصريح ) رأى ابن سنان الخفاجي ، قال « في سر الفصاحة ٢٢٢ » .

فأما إذا تكرر التصريح في القصيدة فلست أراه مُختاراً ، وهو عندى يجري مجرى تكرر الترصيع والتجنيس والبطاق وغير ذلك . وإن هذه الأشياء إنما يحسن منها ما قلَّ وجرى منها مجرى اللمعة واللحمة ، وأما إذا تواتر وتكرر ، فليس ذلك عندى مرضياً .

(١١٤) يقصد التصريح .

(١١٥) ديوان المتنبي ٣/٣٥٠ وهو مطلع قصيدة بمدح بها سيف الدولة .

فالمصراعُ الأوَّلُ غيرُ محتاجٍ إلى الثَّانِي في فهمِ معناه ، لكنَّ لَمَّا جَاءَ الثَّانِي صارَ مرتبطاً به ، وكذلك وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُرَوَى الظَّاءُ الحَوَائِمُ وَأَنْ يَنْظِمَ الشَّمْلَ المُبَدَّدَ نَاطِمُ (١١٦)

وعليه وَرَدَ قَوْلُ المُنْتَبِي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي (١١٧)

المرتبةُ الثالثةُ : أن يكونَ الشَّاعِرُ مُخَيَّرًا في وَضْعِ كُلِّ مِصْرَاعٍ مَوْضِعَ صَاحِبِهِ ، وَيُسَمَّى « التَّصْرِيعُ المَوْجَّهَ » وَذَلِكَ كَقَوْلِ ابْنِ الحِجَّاجِ البَغْدَادِي (١١٨) :

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فِي المِهْرَجَانِ خِفَّةُ الشَّرْبِ مَعَ خُلُوعِ المَكَانِ

فَإِنَّ هَذَا البَيْتَ يُجْعَلُ مِصْرَاعُهُ الأوَّلُ ثَانِيًا ، وَمِصْرَاعُهُ الثَّانِي أَوَّلًا ، وَهَذِهِ المَرْتَبَةُ كَالثَّانِيَةِ فِي الجَوْدَةِ .

المرتبةُ الرَّابِعَةُ : أن يكونَ المِصْرَاعُ الأوَّلُ غيرَ مُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ . وَلَا يَفْهَمُ معناه إِلَّا بِالثَّانِي ، وَيُسَمَّى « التَّصْرِيعُ النَاقِصُ » ، وَلَيْسَ بِمَرْضِيٍّ وَلَا حَسَنٍ ، فَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ قَوْلُ المُنْتَبِي :

مَعَانِي الشَّعْبِ طِيْبًا فِي المَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ (١٢٠)

فَإِنَّ المِصْرَاعَ الأوَّلَ لَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فِي فَهْمِ معناه دُونَ أَنْ يذْكَرَ المِصْرَاعُ الثَّانِي .

(١١٦) ديوان أبي تمام ٢٨٥ ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دواد .

(١١٧) ديوان المنتبي ١٧٤/٤ وهو مطلع قصيدة في مدح سيف الدولة .

(١١٨) هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج ، ذكره الثعالبي في بيتمة الدهر ، قال : وقد اتفق من رأيتهم وسمعتهم من أهل البصرة في الأدب وحسن المعرفة بالشعر على أنه فرد زمانه في فنه الذي شهر به ، وأنه لم يسبق إلى طريقته ، ولم يلحق شأوه في نمطه ، ولم يركاقتداره على ما يرد من المعاني التي تقع في طرزه . مع سلاسة الألفاظ وعضويتها ، وانتظامها في سلك الملاحظة والبلاغة ، وإن كانت مفصحة عن السخافة . ولكنه على علاته تنفكه الفضلاء بئار شعره ، وتستملح الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف الأدياء أرواح نظمه ، ويحتمل الحثمتيون فرط رفقه وقذعه ، ومنهم من يغلو في الميل إلى ما يضحك ويمنع من نوادره .

(١١٩) بيتمة الدهر ٦٥/٣ ، ورواية الثعالبي للشطر الثاني « خفة الشغل مع خلو المكان » .

(١٢٠) ديوان المنتبي ٢٥١/٤ وهو مطلع قصيدة يمدح بها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، ويذكر طريقه بشعب بوان ، وهو موضع كثير الشجر والمياه يعد من جنان الدنيا .

المرتبة الخامسة : أن يكون التصريحُ في البيتِ بلفظةٍ واحدةٍ وسطاً وقافيةً .  
ويسمى « التصريحُ المكرر » ، وهو ينقسم قسمين ، أحدهما أقربُ حالا من الآخر :  
فالأول : أن يكون بلفظةٍ حقيقيةٍ لا مجازَ فيها ، وهو أنزلُ الدرَجَتينِ كقولِ عبيد بن  
الأبرص (١٢١) .

فكلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبِ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ  
القسمُ الآخرُ : أن يكون التصريحُ بلفظةٍ مجازيةٍ يختلفُ المعنى فيها ، كقولِ أبي تمامٍ :  
فَتَى كَانَ شَرِباً لِلْعَفَاةِ وَمُرْتَعَى فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْضِ مِرْتَعَاً (١٢٢)  
المرتبةُ السادسةُ : أن يذكرَ المصراعُ الأولُ ، ويكونُ معلقاً على صِفَةٍ يأتي ذكرُها  
في أولِ المصراعِ الثاني ، ويسمى « التصريحُ المعلق » فمَّا وَرَدَ مِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ  
الْقَيْسِ :

أَلَّا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَّا أَنْجَلِ بِصَبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ  
فإنَّ المصراعَ الأولَ معلقٌ على قوله : « بِصُبْحٍ » ، وهذا مَعِيبٌ جِدًّا ، وعليه  
وَرَدَ قَوْلُ الْمُتَنَبِّ :

قَدْ عَلَّمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا تَدْمَى وَالْفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا (١٢٣)  
فإنَّ المصراعَ الأولَ معلقٌ على قوله : « تَدْمَى » .

المرتبةُ السابعةُ : أن يكونَ التصريحُ في البيتِ مخالفاً لقافيته ، ويسمى « التصريحُ  
المشطور » وهو أنزلُ درجَاتِ التصريحِ وأقبحُها ، فمن ذلك قولُ أبي نُوَاسٍ :

(١٢١) أحد شعراء الجاهلية ، وهو معدود عند بعض الرواة من أصحاب المعلقات ومطلع معلقته :

أفقر من أهله ملحوب فالقطيبات فالذنوب

(١٢٢) ديوان أبي تمام ٣٧٤ من قصيده يرقى بها أبا نصر محمد بن حميد الطائي ، ومطلعها :

أصم بك الناعي وإن كان أسعما وأصبح مغنى الجود بعدك بلقما

والعفاة : السائلون ، والمرعى موضع الرعى ، والهندية السيوف ، والمرع المسرح .

(١٢٣) ديوان المتنبى ٢٢٠/٤ وهو مطلع قصيدة في مدح أبي سهل سعيد بن عبد الله ، ومعناه أن الفراق قد

علم أجفاننا الفراق ، فما تلتقى سهراً ، وجعل الفراق يؤلف الحزن .

أَقْلَبِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى ذُنُوبٍ وَإِلَافِرَارٍ عُدْتُ مِنَ الْجُحُودِ (١٢٤)  
 فَصَرَخَ بِحَرْفِ الْبَاءِ فِي وَسْطِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ قَفَّاهُ بِحَرْفِ الدَّالِ ، وَهَذَا لَا يَكَادُ يُسْتَعْمَلُ  
 إِلَّا قَلِيلًا نَادِرًا (١٢٥) .

## النوع الثاني

### في التجنيس

اعلم أنَّ التَّجْنِيسَ غَرَّةٌ شَادِحَةٌ وَجْهَ الْكَلَامِ ، وَقَدْ تَصَرَّفَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَرْبَابِ هَذِهِ  
 الصَّنَاعَةِ فِيهِ ، فَغَرَّبُوا وَشَرَّفُوا ، لِاسِيَّائِ الْمُحَدِّثِينَ مِنْهُمْ ، وَصَنَّفَ النَّاسُ فِيهِ كِتَابًا كَثِيرًا .  
 وَجَعَلُوهُ أَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً ، وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، وَأَدْخَلُوا بَعْضُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ فِي بَعْضٍ .  
 فَهَنِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَرِّ ، وَأَبُو عَلِيٍّ الْحَاتِمِيُّ ، وَالْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ (١) الْجُرْجَانِيُّ ، وَقَادِمَةُ  
 ابْنِ جَعْفَرِ الْكَاتِبِ ، وَغَيْرِهِمْ .

وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْكَلَامِ مُجَانَسًا لِأَنَّ حُرُوفَ الْفَافِظِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جَنَسٍ  
 وَاحِدٍ .  
 وَحَقِيقَتُهُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ وَاحِدًا وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفًا .

وَعَلَى هَذَا فَإِنَّهُ هُوَ اللَّفْظُ الْمَشْتَرَكُ ، وَمَا عَدَاهُ فَلَيْسَ مِنَ التَّجْنِيسِ الْحَقِيقِيِّ فِي شَيْءٍ ،  
 إِلَّا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ مَا يُسَمَّى تَجْنِيسًا ، وَتِلْكَ تَسْمِيَةٌ بِالمُشَابَهَةِ ، لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى  
 حَقِيقَةِ الْمَسْمِيِّ بِعَيْنِهِ .

وَعَلَى هَذَا فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي التَّجْنِيسِ وَمَا شَبَّهَ بِهِ فَأَجْرَى مَجْرَاهُ ، فَوَجَدْتُهُ يَنْقَسِمُ إِلَى  
 سَبْعَةِ أَقْسَامٍ ، وَاحِدٌ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى حَقِيقَةِ التَّجْنِيسِ ، لِأَنَّ لَفْظَهُ وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ ، وَسِتَّةٌ  
 أَقْسَامٌ مُشَبَّهَةٌ .

(١٢٤) ديوان أبي نواس ١٧٩ وهو أحد بيتين كتب بهما إلى الفضل بن الربيع ، والبيت الآخر :

وإن تصفع فأحسان جديد سبقت به إلى شكر جديد

وفي الأصل « الذنوب » و « عن » موضع « من » .

(١٢٥) هذا عيب من عيوب القوافي سماه قدامة بن جعفر ( التجميع ) وعرفه بأن تكون قافية المصراع الأول

من البيت على روى من بيتي لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه ، فتأتي بخلافه .

(١) في الأصل « أبو الحسين » . وهو القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتني

فأما القسم الأول : فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها ، كقوله تعالى :  
« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ »<sup>(٣)</sup> وليس في القرآن الكريم سوى  
هذه الآية ، فاعرفها .

ويروى في الأخبار النبوية أن الصحابة نازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمامه ، فقال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَلُّوا بَيْنَ جَرِيرٍ وَالْجَرِيرِ » أى : دَعُوا زِمَامَهُ .  
ومما جاء منه في الشعر قول أبي تمام :

فَأَصْبَحَتْ غُرُّ الْإَيَّامِ مُشْرِقَةً بِالنَّصْرِ تَضْحَكُ عَنْ أَيَّامِكَ الْغُرِّ  
« فالغُرُّ » الأولى استعارة من غرِّ الوجه ، « والغُرُّ » الثانية مأخوذة من غرّة الشيء  
أكرمه ، فاللفظ إذاً واحداً والمعنى مختلفٌ . وكذلك قوله :

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَيْضُ الْوَجْهِ وَالنَّدَى وَلَيْسَ بِنَانٌ يُجْتَدَى مِنْهُ بِالْجَعْدِ<sup>(٣)</sup>  
فالجعدُ : السيد ، والبَّانُ الجعدُ : ضدُّ السَّبَطِ<sup>(٤)</sup> ، فأحدهما يوصفُ به السخِيُّ  
والآخرُ يوصفُ به البَخِيلُ . وكذلك قوله :

بِكَلِّ فَتَى ضَرْبٌ يُعْرَضُ لِلْقَنَا مُحِيًّا مُحَلِي حَلِيهِ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ<sup>(٥)</sup>  
فالضَّرْبُ : الرجلُ الخفيفُ ، والضَّرْبُ بالسَّيْفِ : في الحرب ، وكذلك قوله :  
عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْخَصْبِ<sup>(٦)</sup>

(٢) سورة الروم : الآية ٥٥ .

(٣) ديوان أبي تمام ١٣١ من قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدي ، ومطلعها :

عفت أربع الخلات للأربع الملد لكل هضم الكشح مجدولة القد  
(٤) في الأصل « البسيط » والسبط المرسل .

(٥) ديوان أبي تمام ٣٣ وهو من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، ومطلعها :  
لقد أخذت من دار ماوية الحقب انحل المغاني للبلبي هي أم نهب  
والحقب الدهور ، والنحل العطاء بلا عوض ، والمغاني المنازل .

(٦) ديوان أبي تمام ١٠ من قصيدته التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية ، والتي مطلعها :  
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فالثغور جمع ثغر ، وهو واحد الأسنان ، وهو أيضاً البلد الذي على تخوم العدو . ثم

قال في هذه القصيدة :

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضْبُ الْهِنْدِيِّ مُصَلَّتَةً تَهْتَرُ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَرُ فِي كَثْبِ  
بَيْضٍ إِذَا انْتَضَيْتَ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعْتُ أَحَقُّ بِالْبَيْضِ أَبْدَانًا مِنَ الْحُجْبِ  
فَالْقُضْبُ : السُّيُوفُ ، وَالْقُضْبُ : الْقُدُودُ عَلَى حَكْمِ الْإِسْتِعَارَةِ ، وَكَذَلِكَ الْبَيْضُ

السُّيُوفُ ، وَالْبَيْضُ : النِّسَاءُ . وَهَذَا مِنَ النَّادِرِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ أَحَدٌ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ :

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسَطَلَ الْحَرْبِ صَدَعُوا صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكُتَّابِ (٧)

فلفظ «الصدور» في هذا البيت واحد والمعنى مختلف . وكذلك قوله :

عَامِي وَعَامُ الْعَيْسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنْوَفَةٍ صَيْهُودِ

حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَيْلِ لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ (٨)

فالعِيدُ : فحلٌّ من فحول الإبل ، والعِيدُ : اليومُ المعروفُ من الأيام .

وقد أكثر أبو تمام من التَّجْنِيسِ فِي شِعْرِهِ ، فَمِنْهُ مَا أَغْرَبَ فِيهِ فَأَحْسَنَ ، كَالَّذِي ذَكَرْتُهُ ،

وَمِنْهُ مَا أَتَى بِهِ كَرِيهًا مُسْتَقْبَلًا ، كَقَوْلِهِ :

وَيَوْمَ أَرَشِقُ وَالْهِجَاءُ قَدْ رَشَقْتُ مِنَ الْمَنِيَةِ رَشَقًا وَأَبْلًا قَصَفًا (٩)

---

(٧) ديوان أبي تمام ٤٢ من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

ومعنى جابت قطعت ، والقسطل الغبار ، وصدعوا شققوا ، والعوالي الرماح ، والكتائب الجيوش .

(٨) ديوان أبي تمام ٨٢ من قصيدة مطلعها :

أرأيت أي سوائف وخذود عنت لنا بين اللوى وبرود

والعيس النوق ، والوديقة شدة الحر ، والمسجورة الموقدة ، والتنوفة الفلاة البعيدة الأطراف ، والصيهود الفلاة

لا ينال ماؤها ، وبنات العيد النوق .

(٩) ديوان أبي تمام ٢٠٢ من قصيدة في مدح أبي دلف ، ومطلعها :

أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا فلا تكفن عن شانيك أو يكفا

وأرشق اسم جبل ، والوابل المطر الكثير .



وكقوله :

يَا مُضْغِنًا خَالِدًا لَكَ التُّكْلُ إِنْ خَلَدَ حِقْدًا عَلَيْكَ فِي خَلْدِهِ (١٠)

وكقوله :

وَأَهْلُ مُوقَانَ إِذْ مَاقُوا فَلَا وَزَّرَ أَنْجَاهُمْ مِنْكَ فِي الْهَيْجَا وَلَا سَنَدُ (١١)

وكقوله :

مَهْلًا بَيْنِي مَالِكٍ لَا تَجْلِبَنَّ إِلَى حَيِّ الْأَرَاقِمِ دُوْلُولُ ابْنَةِ الرَّقْمِ (١٢)

ثم قال فيها :

مِنَ الرَّدْدِيَّةِ اللَّائِي إِذَا عَسَلَتْ تَشْمُ بَوَّ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ (١٣)

وكقوله :

قَرْتُ بِقِرَانَ عَيْنِ الدِّينِ وَاشْتَرَّتْ بِالْأَشْتَرِينَ عِيُونَ الشَّرْكِ فَاصْطَلِمَا (١٤)

وله من هذا الغث البارد المتكلف شيء كثير لاجابة إلى استقصائه ، بل قد أوردنا منه قليلاً يُستدلُّ به على أمثاله .

---

(١٠) ديوان أبي تمام ٩٤ من قصيدة مطلعها :

مالكئيب الحمي إلى عقده مابال جرعائه إلى عقده

والمضغن الحاقدا ، والنكل الفقد ، والخلد القلب والنفس .

(١١) ديوان أبي تمام ٩٩ من قصيدة مطلعها :

يأبعد غاية دمع العين إن بعدوا هي الصباية طول الدهر والسهد

ماقوا حمقوا ، والوزر الملجأ ، والهيجاء الحرب .

(١٢) ديوان أبي تمام ٢٦٩ من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق ، ومطلعها :

سلم على الربيع من سلمى بذى سلم عليه وسم من الأيام والقدم

وحى الأرقام بنو تغلب ، والدوْلُول والرغم من أسماء الداهية .

(١٣) الرددية الرماح ، وعسلت اشتد اهتزازها ، والبو ولد الناقة ، أو جلد يحشى تبا فيقرب من أمه إذا

فقده فتشمه فتدر ، والشمم ارتفاع الأنف .

(١٤) ديوان أبي تمام ٣٠٢ من قصيدة في مدح إسحاق بن إبراهيم المصعبى مطلعها :

أصغى إلى الين مغترأ فلا جرماً إن النوى أسارت في عقله لما

وقران محل ، واشتترت انشقت ، واصطلم قطع من أصله .

ومن الحسنِ في هذا الباب قولُ أبي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٍ إِذَا احْتَدَمَ الْوُغَى وَالْفُضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعٌ (١٥)  
وكذلك قوله :

فَقُلْ لِأَبِي الْعَبَّاسِ إِنْ كُنْتُ مُدْنِيًّا فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَخْذِ بِالْفُضْلِ  
فَلَا تَجْحَدُونِي وَدَّ عِشْرِينَ حِجَّةً وَلَا تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْفُضْلِ (١٦)  
وعلى هذا النهجِ وَرَدَ قولُ البُحْتَرِيِّ :

إِذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهِيَ عَيْنٌ عَلَى الْجَوَى فَلَيْسَ بِسَرٍ مَا تُسِرُّ الْأَضَالِعُ (١٧)  
فالعينُ : الجاسوس ، والعينُ : معروفةٌ ، وكذلك ورد قولُ بعضهم :

وَتَرَى سَوَابِقَ دَمْعِهَا فَتَوَاكُفْتُ سَاقٌ تُجَابِبُ فَوْقَ سَاقٍ سَاقًا  
فالساقُ : ساق الشجرة ، والساقُ : القمريُّ من الطُّيور .

وعلى هذا الأسلوبِ جاء قولُ بعضِ المتأخِّرين ، وهو الشاعرُ المعروفُ بالمعريِّ في  
قصيدةٍ قصدَ بها التَّجْنِيسَ في كثيرٍ من أبياتها ، فمن ذلك ما أوردَهُ في مطلعها :

لَوْ زَارَنَا طَيْفُ ذَاتِ الْخَالِ أَحْيَانًا وَنَحْنُ فِي حُفْرِ الْأَجْدَاثِ أَحْيَانًا  
ثم قالَ في أبياتها :

تَقُولُ أَنْتَ امْرُؤٌ جَافٍ مِغَالِطَةٌ فَقُلْتُ لَاهَوَمَتْ أَجْفَانُ أَجْفَانًا  
وكذا قالَ في آخرها :

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ إِنْسَانًا يُلَادُّ بِهِ فَلَاحَتْ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إِنْسَانًا

(١٥) ديوان أبي نواس ٩٦ .

(١٦) ديوان أبي نواس ١١٠ وقبل البيتين :

أَسْلَمْتَنِي يَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي الْفُضْلِ فَن لِي إِذَا أَسْلَمْتَنِي يَا أَبَا الْفُضْلِ  
وَأَيُّ فِتْنَى فِي النَّاسِ أَرْجُو مِقَامَهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ وَأَنْتَ أَخُو الْفُضْلِ

وأبو الفضل الربيع بن بونس وزير المنصور ، والفضل في قافية البيت الأول الكرم ، والفضل في الثاني ابن الربيع ، وفي الثالث السباحة ، وفي الرابع ضد النقص .

(١٧) ديوان البحتري ٤٥/١ من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان مطلعها :

الْمَتُّ وَهَلْ إِيْمَانُهَا لَكَ نَافِعٌ وَزَارَتْ خِيَالًا وَالْعَيْنُ هَوَاجِعٌ  
وفي الأصل «لهوى» موضع «الجوى» .

ورأيت الغانمي قد ذكر في كتابه باباً وسمّاه (ردّ الأعجاز على الصدور) خارجاً عن باب التجنيس ، وهو ضربٌ منه ، وقسمٌ من جملة أقسامه كالذي نحنُ بصدد ذكره هاهنا ، فمّا أوردّه الغانمي من الأمثلة في ذلك قول بعضهم :

ونشري يجميل الصند ع ذكراً طيب النشري  
ونفري بسيف الهذد من أسرف في النفري  
وبحري في شري الحمد على شاكلة البحر

وكذلك قول بعضهم في الشيب :

يا بياضاً أدرى ذموعي حتى عاد منها سواد عيني بياضاً

وكذلك قول البحري<sup>(١٨)</sup> :

وأعز في الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل  
كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل

وليس الأخذ على المعاني في ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن ينصب نفسه لإيراد علم البيان ، وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التي ذكرناها داخلاً في الآخر ، فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه ، وهو أشهر من فلق الصباح .  
وربما جهل بعض الناس ، فأدخل في التجنيس ما ليس منه ، نظراً إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى ، فمن ذلك قول أبي تمام<sup>(١٩)</sup> :

أظن الدمع في خدي سيقى رؤوماً من بكائي في الرؤوم

وهذا ليس من التجنيس في شيء ، إذ حدّ التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف

المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً .

وهذا ممّا ينبغي أن ينبّه عليه ليعرف .

ومن علماء البيان من جعل له اسماً ساء به وهو (الترديد) أي أن اللفظة الواحدة

(١٨) ديوان البحري ٢/٢١٧ من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب ، ومطلعها :

أهلاً بذلك الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل

(١٩) ديوان أبي تمام ٢٨٨ من قصيدة يمدح بها بعض بني عبد الكرم الطائين ، ومطلعها :

أرامة كنت مألّف كل رم لو استمتعت بالأنس المقيم

رَدَّتْ فِيهِ . وَحَيْثُ نَبَّهْتُ عَلَيْهِ هَاهُنَا فَلَا أَحْتَاجُ أَنْ أَعْقِدَ لَهُ بَابًا أُفْرِدُهُ بِالذِّكْرِ فِيهِ .

[ ما يشبهه بالتجنيس ] .

وأما الأقسامُ الستة المشبهةُ بالتجنيس :

فالقسمُ الأولُ منها : أن تكون الحروفُ متساويةً في تركيبها ، مختلفة في وزنها ، فمما جاء من ذلك قولُ النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي حَسِّنْ خَلْقِي » ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان في التركيب مختلفتان في الوزن : لأن تركيب الخلق والخلق من ثلاثة أحرف ، وهى الخاء واللام والقاف ، إلا أنها قد اختلفتا في الوزن ، إذ وزن « الخلق » فعل بفتح الفاء ، ووزن « الخلق » فعل بضم الفاء .

ومن هذا القسم قولُ بعضهم « لا تُنَالُ غُرُرُ المعالي إلا بِرُكُوبِ الغررِ واهْتِبَالِ الغررِ » وقال البحرى :

وَفَرَّ الخَائِنُ المَغْرُورُ يَرْجُو      أَمَانًا أَيَّ سَاعَةٍ مَا أَمَانِ  
يَهَابُ الِائْتِنَاتِ وَقَدْ تَهَيَّأ      لِلْحِظَّةِ طَرْفِهِ طَرْفُ السَّنَانِ (٢٠)

وكذلك وَرَدَ قول الآخر :

قَدْ ذُبْتُ بَيْنَ حُشَاشَةٍ وَذِمَاءِ      مَا بَيْنَ حَيٍّ وَحَيٍّ وَحَرٍّ هَوَاءِ

القسم الثاني : من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ، وإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس . فمما جاء منه قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ » إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢١) فإن هاتين اللفظتين على وزن واحدٍ ، إلا أن تركيبهما مختلف في حرف واحد . وكذلك قوله تعالى : « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » (٢٢) .

(٢٠) ديوان البحرى ١/٩٣ من قصيدة يمدح بها المعتز بالله ومطلعها :

رويدك إن شأنك غير شانى وقصرك لست طاعة من نهائى

وفى الأصل « الخائن » موضع « الخائن » ، ورواية الديوان « لفتة طرفه » موضع « للحظة طرفه » .

(٢١) سورة القيامة : الآيتان ٢٢ و ٢٣ .

(٢٢) سورة الأنعام : الآية ٢٦ .

وكذلك قوله تعالى : « ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ » (٢٣)

وعلى نحو من هذا وَرَدَ قولُ النبي ﷺ : « الخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ » وقال بعضهم : « لَأَتَنَا الْكَارِمُ إِلَّا بِالْمَكَارِهِ »  
وقال أبو تَمَّام :

يَدُونُ مِنْ أَيْدِ عَوَّصِ عَوَاصِمِ      تَصُولُ بِأَسْيَافِ قَوَاصِ قَوَاصِبِ (٢٤)  
وقال البحتري :

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرْفِ أُعِيدَ أَجِيدِ      ومهفهِفِ الكَشْحَيْنِ أَحْوَى أَحْوَرِ (٢٥)

وكذلك قوله :

شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تَقَطَّعَ بَيْنَهُمْ      شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٌ قُطِعَها (٢٦)  
القسم الثالث : من المشبه بالتجنيس : وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ مُخْتَلِفَةً فِي الْوِزْنِ  
والتركيب بحرف واحد ، كقوله تعالى : « وَالتَّفَّتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ \* إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ  
الْمَسَاقُ » (٢٧)

وقوله تعالى : « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » (٢٨)

(٢٣) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٢٤) ديوان أبي تمام ٤٢ من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي ، ومطلعها :  
على مثلها من أربع وملاعب      أدبيلت مصونات الدموع السواكب  
وفي الأصل « قواضم » موضع « قواضب » وهو تحريف .

(٢٥) ديوان البحتري ١٩/١ وهو ثاني أبيات قصيدة في مدح المتوكل مطلعها :

إن الظباء وغداة سفع محجر      هيجن حرجوى وفرط تذكر

(٢٦) ديوان البحتري ٣/١ من قصيدة في مدح المتوكل مطلعها :

متى النفس في أسماء لو تستطيعها      بها وجدها من غادة وولوعها

ويقال شجره بالرمح أى طعنه . وشواجر الأرحام روايتها ، وهى رواية الديوان ، وفى الأصل « شواجن » .  
وعلى رواية الديوان لا يكون فى البيت محل شاهد على هذا القسم .

(٢٧) سورة القيامة : الآيتان ٢٩ و٣٠ .

(٢٨) سورة الكهف : الآية ١٠٨ .

وكذلك وَرَدَ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ».  
 ودخلَ ثَعْلَبُ صاحبَ كتابِ « الفصيح » على أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى  
 ومجلسُهُ غاص ، فجلسَ إلى جَانِبِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وقال : « أَخَافُ أَنْ أَكُونَ ضَيِّقْتُ  
 عَلَيْكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَضِيقُ مَجْلِسُ بِمَتَحَائِنٍ ، وَلَا تَسَعُ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا مِتْبَاعِغِضِينَ » فقالَ له  
 أَحْمَدُ : « الصِّدِيقُ لَا يَحَاسِبُ ، وَالْعَدُوُّ لَا يُحْتَسَبُ لَهُ . » وهذا كِلامٌ حَسَنٌ مِنْ كِلامِ  
 الرَّجُلَيْنِ . والتجنيسُ في كِلامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ في قَوْلِهِ : « يَحَاسِبُ » و « يُحْتَسَبُ  
 لَهُ » .

وقد جاءني شيءٌ من ذلك عليه خِفةُ الطَّبَعِ لِاثْقَلِ التَّطْبَعِ .  
 فنه ما ذكرتُه في فصلٍ من كتابِ إِي دِيوانِ الخِلافَةِ يتضمَّنُ ذِكرَ الجِهادِ فقلتُ :  
 « وَخَيْلُ اللهِ قَدْ اشْتَاقَتْ أَنْ يُقَالَ لَهَا أَرْكَبِي ، وَسُيُوفُهُ قَدْ تَطَلَّعَتْ أَنْ يُقَالَ لَهَا  
 اضْرِبِي ، وَمِوَاطِنُ الجِهادِ قَدْ بَعُدَ عَهْدُهَا بِاسْتِسْقَاءِ شَأْيِبِ النُّحُورِ ، وَإِنْبَاتِ رَبِيعِ  
 الذِّبابِ والنَّسُورِ ، وما ذاكَ إِلَّا لِأَنَّ العَدُوَّ إِذَا طَلَبَ تَقَمَّصَ ثُوبَ إِذْلالِهِ ، وَتَنَصَّلَ مِنْ  
 صِحَّةِ نِصَالِهِ ، وَاعْتَصَمَ بِمِعاقلِهِ الَّتِي لِإِفرقِ بَيْنِها وَبَيْنَ عِقالِهِ » .

ومن ذلك ما ذكرتُه في وصفِ كَرِيمِ ، فقلتُ :  
 « وَقَدْ جَعَلَ اللهُ حَرَمَهُ مَلَقَى الجِيفانِ ، وَمُلَّتَقَى الأَجفانِ ، فَهو حِمَى لَمَنْ جَنَّبِي عَلَيْهِ  
 زَمَانَهُ ، وَجارٌ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ جِيرانُهُ »

ومن ذلك ما ذكرتُه في فصلٍ من كتابِ إِي دِيوانِ الخِلافَةِ ، وَهو :  
 « وَلقدِ اسْتَبانَ الخادِمُ مِنْ بَرَكَةِ طاعَتِهِ ما يَعْمي عَنْهُ غَيْرُهُ فَمَا يَرَاهُ ، وَوَجَدَ مِنْ أَثَرِهِ فِي  
 صِلاحِ دُنْيائِهِ ما اسْتَدلَّ بِهِ عَلَى صِلاحِ أَخْراهِ ، فَهو المَرْكَبُ المَنْجِيُّ وَالْعَمَلُ المَرْجُو لا  
 المَرْجِي . وَالْمَعْنى المَرادُ بِهَدْيَةِ الصِّراطِ المَسْتَقِيمِ ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فليحذرِ الَّذِينَ  
 يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . » (٢٩)

ومن ذلك ما ذكرتُه في أثناء كتابِ إِي بعضِ الإِخوانِ ، وَذلكَ وَصَفُ بعضِ  
 المَنعَمينِ ، فقلتُ :

(٢٩) سورة النور: الآية ٦٣ .

« نحنُ من حُسْنِ شِيمِهِ وفواضِلِ إِحْسَانِهِ بَيْنَ هِنْدٍ وَهِنْدَةٍ ، وَمِنْ يَمَنِ نَقِيَّتِهِ وَأَمَانَةِ  
عَيْبِهِ بَيْنَ أُمِّ مَعْبَدٍ وَأَبِي عُيَيْدَةَ . »

ومن ذلك ما ذكرتهُ في مطلعِ كتابِ إلی بعضِ الإخوانِ فقلتُ :  
« الكُتُبُ وَإِنْ عَدَّهَا قَوْمٌ عَرَضاً مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَتَقَالُوهَا حَتَّى قَالُوا هِيَ سَوَادٌ فِي  
بِياضٍ ، فَإِنَّ لَهَا عِنْدَ الْإِخْوَانِ وَجْهًا وَسِيمًا ، وَمَحَلًّا كَرِيمًا ، وَهِيَ حَمَائِمُ الْقُلُوبِ إِذَا  
فَارَقَ حَمِيمٌ حَمِيمًا . وَمِنْ أَحْسَنِهَا كِتَابُ سَيِّدِنَا ... » .

ثم مضيتُ على هذا النهجِ إلی آخرِ الكتابِ .  
ومن هذا القسمِ قولُ أبي تمامٍ :

أَيَّامَ تُذَمِّي عَيْنَهُ تَلِكَ الدَّمِي فِيهَا وَتَقْمَرُ لَبَّهُ الْأَقْمَارُ (٣٠)

وكذلك قوله :

بِيضٌ فَهَنْ إِذَا رُمِقْنَ سَوَافِرًا صُورٌ وَهَنَّ إِذَا رُمِقْنَ صَوَارُ (٣١)

وكذلك قوله :

بَدْرٌ أَطَالَتْ فِيكَ بَادِرَةَ النَّوَى وَلَعَا وَشَمْسٌ أُولَعَتْ بِشِمَاسِ (٣٢)

وكذلك قوله :

كَادُوا النَّبْوَةَ وَالْهَدَى فَتَقَطَّعَتْ أَعْنَاقَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمِضْمَارِ  
جَهَلُوا فَلَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ طَاعَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِعَارَةِ الْأَعْمَارِ (٣٣)

(٣٠) ديوان أبي تمام ١٤٥ من قصيدة في مدح أبي سعيد الثغري ، ومطلعها :

لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار

ومعنى تقمر تغلب ، واللب العقل .

(٣١) من القصيدة السابقة ، ومعنى رمقن أطيل النظر إليهن ، والسوافر المكشوفات ، والصوار قطع بقر  
الوحش .

(٣٢) ديوان أبي تمام ١٧٣ من قصيدة في مدح أحمد بن المعتصم ، ومطلعها :

مافي وقوفك ساعة من باس تقضى ذمام الأربع الأدراس  
ورواية الديوان « خطأ » موضع . . . والبادرة الخطأ ، والنوى الفراق ، والشباس العصيان .

(٣٣) ديوان أبي تمام ١٥٤ من قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفسنين ، ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وكذلك قوله :

إِنَّ الرِّمَاحَ إِذَا غُرِسْنَ بِمَشْهَدٍ فَجَنَى العَوَالِي فِي ذَرَاهُ مَعَالِي (٣٤)

وكذلك قوله :

إِذَا أَحْسَنَ الأَقْوَامُ أَنْ يَتَطَاوَلُوا بِلا نعمةٍ أَحْسَنْتَ أَنْ تَتَطَوَّلَا (٣٥)

وكذلك قوله :

أى رُبْعٍ يَكْذِبُ الدَّهْرُ عَنْهُ وَهُوَ مُلْقَى عَلَى طَرِيقِ اللَّيَالِي  
بَيْنَ حَالِ جَنَّةٍ عَلَيْهِ وَحَوْلٍ فَهُوَ نِضْوُ الأَحْوَالِ والأَحْوَالِ  
شَدًّا مَا اسْتَنْزَلْتِكَ عَنْ دَمْعِكَ الأَظْمَ عَانَ حَتَّى اسْتَهَلَّ صُوبُ الغَزَالِي  
أى حُسْنٍ فِي الذَّاهِبِينَ تولى وَجَمَالَ عَلَى ظُهُورِ الجِمَالِ  
وَدَلَالٍ مُخَيِّمٍ فِي ذُرَا الخِ سِيمَ وَحِجْلٍ مَعْصَمٍ فِي الحِجَالِ (٣٦)

فالبيت الثاني والخامس هما المقصودان بالتمثيل هاهنا ، والأبيات الباقية جاءت

تبعاً .

(٣٤) ديوان أبى تمام ٢٦٤ من قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، ومطلعها :

آلت أمور الشرك شر مآل وأقر بعد تحبط وصيال  
والتخبط التكبر ، والصيال التسلط ، والجنى الثمر ، والعوالى الرماح ، وذراه ظله .

(٣٥) ديوان أبى تمام ٢٥٢ من قصيدة فى مدح محمد بن عبد الملك الزيات ، مطلعها :

هأن عليها أن تقول وتفعلنا ونذكر بعض الفضل منك ففضلاً  
ورواية الديوان « بلامنة » موضع « بلانعة » .

(٣٦) رويت هذه الأبيات فى الديوان (ص ٤٥٨) على النحو الآتى :

شدا ما استنزلتك من ربعك الأظم  
أى حسن فى الداهيين تولى  
ودلال مخيم فى ذرا الخيب  
ومهامن مها الخندور وآجا  
عادك الزور ليلة الرمل من رم  
ثم فما زارك الخيال ولكنك  
عنان حتى استهل دمع الغزال  
وجمال على ظهور الجمال  
م وحجل معذب فى الحجال  
ل ظباء يسر عن فى الآجال  
للة بين الحمى وبين المطال  
لك بالفكر زرت طيف الخيال

والأظمان الهوادج فيها نساء ، واستهل سكب ، الذرى فناء الدار ، والخيم جمع خيمة ، والحجل الخللخال ،  
والحجال جمع حجلة وهى موضع يزين بالثياب والستور للعروس ، والغزالي جمع عزلاء وهو مصب الماء من  
الراوية .



وممّا جاء من ذلك قولُ عليّ بن جبلة (٣٧) :  
وكمّ لك من يومٍ رفعت بناءه بذاتِ جفونٍ أو بذاتِ جفانٍ  
وكذلك قول محمد بن وهيب الحميريّ :

قسّمت صُروفَ الدهرِ بأساً وناثلاً فالك موتورٌ وسيفك واطر  
وهذا من المليح النادر .

ومن هذا القسم قولُ البُحترى :

جديرٌ بأن تنشق عن ضوء وجهه ضبابةٌ تقع تحتها الموتُ ناقعٌ (٣٨)  
وكذلك قوله :

نسيمُ الرّوض في ربيعٍ شماليٍّ وصوبُ المُرّن في راحِ شمولٍ (٣٩)  
وذمّ أعرابي رجلاً فقال : « كان إذا سألَ الحفّ ، وإذا سُئلَ سوف . يحسُدُ على  
الفضّل ، ويُرهدُ في الإفضال » .

القسم الرابع : من المشبه بالتجنيس : ويسمى ( المعكوس ) .

وذلك ضربان : أحدهما عكسُ الألفاظِ ، والآخر عكسُ الحروفِ .

فالأول : كقول بعضهم : « عاداتُ السّاداتِ ساداتُ العاداتِ » وكقول الآخر :  
« شيمُ الأحرارِ أحرارُ الشيمِ » .

ومن هذا النوع ممّا وردَ شعراً قولُ الأصبطِ بنِ قريع (٤٠) من شعراء الجاهليّة :

---

(٣٧) علي بن جبلة هو المشهور بالمعكوك ، ولد سنة ١٦٠هـ وتوفى سنة ٢١٣هـ ، وكان ضريراً مسرفاً في  
المدح مغالياً في معانيه .

(٣٨) ديوان البحترى ٤٦/١ من قصيدة مطلعها :

ألت وهل إلامها لك نافع  
وزارت خيالا والعيون هواجع

(٣٩) ديوان البحترى ٣٠/١ من قصيدة مطلعها :

أكنت معني يوم الرحيل  
وقد لجت دموعي في الهمول

(٤٠) هو من بني عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبيرقان بن بدر ، وكان قومه أساءوا مجاورته ، فانتقل  
عنه إلى آخرين ، فأساءوا مجاورته ، فانتقل عنهم إلى آخرين ، فأساءوا مجاورته ، فرجع إلى قومه ، وقال : بكل  
واد بنو سعد ، قال ابن قتيبة : وهو قديم ، وكان أغار على بني الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر وجدع ، ثم  
بنى أطما ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء

قد يجمعُ المالَ غيرَ آكلِهِ ويأكلُ المالَ غيرَ مَنْ جَمَعَهُ  
ويقطعُ الثوبَ غيرَ لابسِهِ ويلبسُ الثوبَ غيرَ مَنْ قَطَعَهُ (٤١)

وكذلك وَرَدَ قولُ أبي الطيبِ المتنبي :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ  
وكذلك قولُ الشريفِ الرضِيِّ مِنْ أبياتٍ يذم فيها الزمان :

أَسْفَ بِيَمَنْ يَطِيرُ إِلَى المَعَالِي وَطَارَ بِمَنْ يُسِفُّ إِلَى الدَّنَايَا  
وكذلك قول الآخر :

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ تُطَوَّى وَتُنشَرُ بَيْنَهَا الأَعْمَارُ  
فَقَصَّارُهُنَّ مِنَ الهُمومِ طَوِيلَةٌ وَطَوَالُهُنَّ مِنَ السُّرورِ قِصَارُ  
وأحسنُ من هذا كله وألطفُهُ قولُ ابنِ الزقاقِ الأندلسي :

غَيَّرْتَنَا يَدُ الزَّمَانِ نِ فَقَدْ شَبَّتُ وَالتَّحَى  
فَاسْتَحَالَ الضَّحَى دُجَى وَاسْتَحَالَ الدُّجَى ضُحَى

وهذا الضربُ من التجنيسِ له حلاوة ، وعليه رَوْنِق ، وقد سَمَّاهُ قدامَةُ بنُ جعفرِ  
الكاتب ( التبدیل ) وذلك اسمٌ مناسبٌ لمسمَّاه ، لأنَّ مؤلفَ الكلامِ يأتي بما كان  
مقدِّمًا في جزءِ كلامه الأولِ مؤخَّرًا في الثاني ، وبما كان مؤخَّرًا في الأولِ مقدِّمًا في  
الثاني ، ومثله قدامَةُ بقول بعضهم : « اشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ  
شَكَرَكَ » (٤٣) .

ومن هذا القسمِ قوله تعالى : « يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ  
الحَيِّ » (٤٤) .

(٤١) من أبيات مطلعها :

يا قوم من عاذرى من الخدعة والمسى والصبح لا فلاح معه  
وانظر الشعر والشعراء ٣٤٣/١ .

(٤٢) ديوان المتنبي ٢٣/٢ من قصيدة في مدح كافر مطلعها :

أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

(٤٣) كتاب « جواهر الألفاظ » لقدامة بن جعفر : ص ٤٣ و اسمه عنده « عكس اللفظ » أو « عكس

مانظم من بناء » . (٤٤) سورة آل عمران : الآية ٢٢ .

وكذلك وَرَدَ قول النبي ﷺ : « جَارُ الدارِ أَحَقُّ بِدَارِ الجارِ » .

وكتب عليُّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - كتاباً فقال : « أما بعد ، فَإِنَّ الإنسانَ يَسْرُهُ دَرْكُ مالمْ يَكُنْ لِيَقُوتَهُ ، وَيَسُوؤُهُ قُوتُ مالمْ يَكُنْ لِيُدْرِكُهُ ، فلا تَكُنْ بما نِلْتَ من دُنْيائِكَ فَرِحاً ، ولا بما فاتَكَ منها تَرِحاً ، ولا تَكُنْ ممَّنْ يَرجو الآخِرَةَ بغيرِ عملٍ ، ويؤخِرُ التوبةَ بطولِ أَمَلٍ : وكانَ قَدْ ، والسلام » .

وروى عن أبي تمام أنه لما قصدَ عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان ، وامتدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

\* أَهْنَّ عَوادِي يُوْسُفٍ وَصَواجِبِهِ (٤٥) \*

وأنكر عليه أبو سعيدٍ الضريُّ وأبو العميثل هذا الابتداء ، وقالوا : « لِمَ لا يَقولُ ما يُفهِمُ » فقال : « لِمَ لا يَفْهَمانَ ما يُقالُ » ؟ ! فاستحسنَ منه هذا الجواب على الفور . وهو من التجنيس المشار إليه . وقد جاءني شيءٌ منه .

**كقولِي في فصل من كتاب يتضمَّر فتحا ، وهو :**

« فكمْ كانَ في افتِراعِ عُذْرَةِ الحِصْرِ من افتِراعِ عُذْرَةِ حِصانٍ ، وكمْ حيزَ به من سِنانٍ لَحْظٍ اسْتَرْقَةَ لِحْظِ سِنانٍ » .

**وكذلك قولِي في صدر كتاب إلى ديوان الخلافة وهو :**

« الخادِمُ يبلِغُ خِدمَتَهُ إلى ذلكَ الجَنابِ الذي تَمَطَّرَهُ الشِفاءُ قُبلاً ، وتُوسِعُهُ العُفْاءُ أَملاً ، وتَرى الخَوْلَ به مُلوَكاً والمُلوكَ خَوْلًا ، وطاعَتُهُ هي محكُّ الأَعْمالِ التي أُشيرَ إليها بقوله تعالى : « لِيَبْلُوكُم أَيُّكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا » (٤٦) » .

(٤٥) صدر بيت وتامه : فعزماً فقدماً أدرك السؤل صاحبه \*

وانظر ديوان أبي تمام ٤٣ .

(٤٦) سورة الملك : الآية ٢ .

وكذلك ورد قولى أيضاً ، وهو فصل من تقليد وزير ، فقلت :

وقد صدق الله لهجة المثنى عليك أن يقول إنك الرجل الذى تُضربُ به الأمثال ،  
والمهذب الذى لا يقالُ معه أى الرجال ، وإذا وأزرت مملكةً فقد حُطيتُ منك بشدِّ  
أزرها ، وسدَّ ثغرها ، وأصبحت وأنت صدرٌ لقلبها ، وقلبٌ لصدرها ، فهى مُزدانةٌ  
منك بالفضلِ المتين ، مُعانةٌ بالقوى الأمين .

وأما الضرب الثانى من هذا القسم - وهو عكس الحروف - فهو كقول بعضهم :

أهديتُ شيئاً يقلُّ لولا أخذوثه الفال والتبركُ  
كُرسى تفاءلتُ فيه لها رأيتُ مقلوبه «يسركُ»

وكذلك قولُ الآخر :

كيف السرور بإقبالٍ وآخره إذا تأملتُه مقلوبُ «إقبالٍ» (٤٧)  
وأجودُ من هذا كله قولُ الآخر :  
جاذبتُها والريحُ تجذبُ عقرباً من فوق خدٍ مثل قلبِ العقربِ  
وظفقتُ أثمُّ ثغرها فتمنعتُ وتحجبتُ عنى بقلبِ «العقربِ»  
وإذا قلبَ لفظُ «عقرب» صار «برقعاً» .

وهذا الضربُ نادرُ الاستعمال ، لأنه قلٌّ ما يقعُ كلمةٌ تُقلبُ حروفها فيجى معناها  
صواباً .

القسم الخامس : من المشبه بالتجنيس ، ويسمى (المجنَّب) وذلك أن يجمعَ  
مؤلفُ الكلامِ بين كلمتين إحداهما كالتبعِ للأخرى والجنبية لها ، كقول بعضهم :

أبا العباس لا تحتسبُ بانى لشيءٍ من حلى الأشعارِ عارى  
فلى طبعُ كسلسالٍ معينٍ زلالٍ من ذرا الأحجارِ جارى

وهذا القسمُ عندى فيه نظر ، لأنه بلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس . ألا ترى أن  
التجنيسَ هو اتفاق اللفظِ واختلافُ المعنى . وهاهنا لم يتفق إلا جزءٌ من اللفظ ، وهو

(٤٧) مقلوب «إقبال» هو كلمة «لابقاء» .

أقله ، وأمّا اللزوم في الكلام المثنون فهو تساوي الحروف التي قبل الفواصل المسجوعة . وهذا هو كذلك ، لأنّ العين والراء تساويا في البيت الأول في قوله « الأشعار » و « عار » ، والجيم والراء في البيت الثاني في قوله « الأحجار » و « جاز » .

القسم السادس : من المشبه بالتجنيس : وهو ما يساوي وزنه تركيبه ، غير أنّ حروفه تتقدّم وتتاخر ، وذلك كقول أبي تمام .

بيض الصفائح لاسود الصفائح في متونهنّ جلاء الشكّ والرّيب (٤٨)  
فالصفائح والصفائح مما تقدّمت حروفه وتأخّرت :

وقد ورد في الكلام المثنون كقوله صلى الله عليه وآله في فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ » .

فقوله صلى الله عليه وآله « اقرأ » و « ارتق » من التجنيس المشار إليه في هذا القسم .

## النوع الثالث

### في التصريح

وهو مأخوذ من تصريح العقد ، وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلي مثل ما في الجانب الآخر ، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المثنورة من الأسجاع ، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية .

وهذا لا يوجد في كتاب الله تعالى ، لما هو عليه من زيادة التكلف .

(٤٨) ديوان أبي تمام ٧ من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية ، ومطلعها :  
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب  
وبيض الصفائح يراد بها السيوف .

فَأَمَّا قَوْل مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْهُ شَيْئًا وَمِثْلَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ \* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ <sup>(١)</sup> » فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا وَقَعَ لَهُ ، فَإِنَّ لَفْظَةَ « لَفِي » قَدْ وَرَدَتْ فِي الْفَقْرَتَيْنِ مَعًا ، وَهَذَا يَخَالِفُ شَرْطَ التَّرْصِيعِ الَّذِي شَرَطْنَاهُ ، لَكِنَّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ . وَأَمَّا الشَّعْرُ فَإِنِّي كُنْتُ أَقُولُ إِنَّهُ لَا يَتَزَنُّ عَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، لَمَّا فِيهِ مِنْ تَعَمُّقِ الصَّنْعَةِ ، وَتَعَسُّفِ الْكُلْفَةِ ، وَإِذَا جِيَءَ بِهِ فِي الشَّعْرِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ مَحْضُ الطَّلَاوَةِ الَّتِي تَكُونُ إِذَا جِيَءَ بِهِ فِي الْكَلَامِ الْمُنثَوْرِ ، ثُمَّ إِنِّي عَثَرْتُ عَلَيْهِ فِي شَعْرِ الْمُحَدِّثِينَ ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ جَدًّا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

فَكَارُمٌ أَوْلَيْتَهَا مَتَبَّرَعًا وَجَرَائِمُ أَلْغَيْتَهَا مُتَوَّرَعًا

ف « مَكَارِمَ » بِإِزَاءِ « جَرَائِمَ » وَ « أَوْلَيْتَهَا » بِإِزَاءِ « أَلْغَيْتَهَا » وَ « مَتَبَّرَعًا » بِإِزَاءِ « مُتَوَّرَعًا » .

وَقَدْ أَجَازَ بَعْضُهُمْ أَنَّ يَكُونُ أَحَدُ الْفَاطِئِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مَخَالَفًا لِمَا يَقَابِلُهُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي ، وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ، لِخَالَفَتِهِ حَقِيقَةَ التَّرْصِيعِ .

فَمَّا جَاءَ مِنْ هَذَا النُّوعِ مُنثَوْرًا قَوْلُ الْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ « فَهَوَ يَطْبَعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ » فَإِنَّهُ جَعَلَ الْفَاطِئِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مَسَاوِيَةً لِأَلْفَاطِ الْفَصْلِ الثَّانِي وَزَنَاً وَقَافِيَةً ، فَجَعَلَ « يَطْبَعُ » بِإِزَاءِ « يَقْرَعُ » وَ « الْأَسْجَاعَ » بِإِزَاءِ « الْأَسْمَاعَ » وَ « جَوَاهِرِ » بِإِزَاءِ « زَوَاجِرِ » وَ « لَفْظِهِ » بِإِزَاءِ « وَعْظِهِ » .

وَمِمَّا جَاءَنِي فِي هَذَا النُّوعِ :

مَازَكَرْتَهُ فِي جَوَابِ كِتَابِ إِلَى بَعْضِ الْإِخْوَانِ ، وَهُوَ :

« قَدْ أَعَدْتُ الْجَوَابَ ، وَلَمْ أَسْتَعِرْ لَهُ نَظْمًا مَلْفَقًا ، وَلَا جَلْبَتُ إِلَى حُسْنًا مَنَمَّقًا ، بَلْ أَخْرَجْتُهُ عَلَى رِسْلِهِ ، وَغَنَيْتُ بِصِقَالِ حُسْنِهِ عَنْ صَقْلِهِ ، فَجَاءَ كَمَا تَرَاهُ غَيْرَ مَمَشُوطٍ وَلَا مَخْطُوطٍ ، فَهُوَ يَرْفُلُ فِي أَثْوَابِ بَدَلْتِهِ ، وَقَدْ حَوَى الْجَمَالَ بِجُمْلَتِهِ ، وَالْحُسْنَ مَاوَشْتَهُ فِطْرَةً التَّصْوِيرِ ، لَا مَا حَشْتَهُ فِكْرَةَ التَّزْوِيرِ » وَالتَّرْصِيعُ فِي قَوْلِي « وَشْتَهُ فِطْرَةَ التَّصْوِيرِ » وَ « حَشْتَهُ فِكْرَةَ التَّزْوِيرِ » .

(١) سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ : الْآيَاتَانِ ١٣ ، ١٤

وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الأولاد :

قلتُ : « مَنْ قَوْمَ أَوْدَ أَوْلَادِهِ ، ضَرَمَ كَمَدَ حُسَّادِهِ » فهذه الألفاظ متكافئة في ترصيعها ، ف « قَوْمَ » بإزاء « حُسَّادِهِ » و « أَوْدَ » بإزاء « كَمَدَ » و « أَوْلَادِهِ » بإزاء « حُسَّادِهِ » .

وكذلك قولُ بعضهم في الأمثال المولدة التي لم ترد عن العرب ، وهو : « مَنْ أَطَاعَ غَضَبَهُ أَضَاعَ أَدَبَهُ » ، ف « أطاع » بإزاء « أضاع » و « غضبه » بإزاء « أدبه » . وقد وردَ هذا الضربُ كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيبُ عبد الرَّحيم بن نُبَّاتة رحمه الله ، فمن ذلك قوله في أول خطبة : « الحمدُ لله عاقِدِ أزمَةِ الأُمورِ بعزائمِ أمره ، وحاصِدِ أئمةِ الغُرورِ بقواصِمِ مكرِهِ ، ومُوفِّقِ عبيده لمغائِمِ ذِكْرِهِ ، ومحققِ مواعيدِهِ بلوازمِ شُكْرِهِ »

فالألفاظ التي جاءت في الفصلين الأولين متساوية وزناً وقافية ، والتي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تخالُف في الوزن ، فإن « مواعيد » تخالفُ وزن « عبيد » ، ولا تخالف قافيتها التي هي الدال .

ومن ذلك قوله أيضاً في جملة خطبة « أولئك الذين أفلوا فَنَجَمْتُمْ وَرَحَلُوا فَأَقَمْتُمْ ، وأبادهم الموتُ كما علمتم ، وأنتم الظالمون في البقاءِ بعدهم كما زعمتم ، كلاً والله ما أشخِصُوا لتَقْرُوا ، ولا نَغْصُوا لِتُسْرُوا ، ولا بد أن تمرُّوا حيثُ مرُّوا ، فلا تثقوا بجدع الدنيا ولا تغتروا » .

وهذا الكلام فيه أيضاً ما في الذي قبله من صحَّة الوزن والقافية وصحَّة القافية دون الوزن .

وكذلك قوله أيضاً في خطبة أخرى : « أيُّها الناسُ أسيِّمُوا القلوبَ في رياضِ الحِكم ، وأديِّمُوا النَّحيبَ على ابيضاضِ اللَّمم ، وأطيلوا الاعتبارَ بانتقاصِ النعم ، وأجبلوا الأفكارَ في انقراضِ الأُمم » .

وأما ماورد في الشعر على مخالفة بعض الألفاظ بعضاً فكقول ذي الرِّمة :

كحلاءُ في بَرَجٍ صَفْرَاءُ في دَعَجٍ كأنها فضةٌ قد مسَّها ذهبٌ<sup>(٢)</sup>

وصدرُ هذا البيت مرصعٌ ، وعجزه خالٍ من الترصيع ، وعذرُ الشاعرِ في ذلك واضحٌ ، لأنه مقيَّدُ بالوقوفِ مع الوزن والقافية ، ألا ترى أنَّ ذا الرُّمةَ بنى قصيدته على حرفِ الباءِ ، ولو رصَّعَ هذا البيتَ الترصيعَ الحقيقيَّ لكان يلزمه أن يأتي بألفاظه على حرفين حرفين : أحدهما الباءُ ، أو كان يُقسم البيتَ نصفين ويمائلُ بين ألفاظِ هذا النصف وهذا النصف ، وذلك ممَّا يعسر وقوعه في الشعر .

وأربابُ هذه الصناعة قد قسَّموا الترصيعَ إلى هذين القسمين المذكورين ، وهذه القسمة لا أراها صواباً ، لأن حقيقة الترصيع موجودةٌ في القسم الأول دون الثاني .

ومما جاء من هذا القسم الثاني قولُ الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةَ مَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ مَهْمَا  
لِدِي الطَّرِيقَةَ نَفَّاعٌ وَضَرَّارٌ<sup>(٣)</sup>

وكذلك قولُ الآخر<sup>(٤)</sup> :

سُودَ ذَوَائِبِهَا يَبِيضُ تَرَائِبِهَا  
مَحْضُ ضَرَائِبِهَا صِيغَتْ مِنَ الْكَرَمِ

(٢) من قصيدة له مطلعها .

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلي مفرية سرب  
ورواية الديوان « دعج » موضع « برج » و « نعج » موضع « دعج » .

(٣) من قصيدة الخنساء في رثاء أخيها صخر التي مطلعها :

ماهاج حزنك أم بالعين عوار أم ذرفت أم خلت من أهلها الدار

وقد سقط البيت من ديوانها ، واستدركه الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه « أنيس الجلساء في شرح

ديوان الخنساء » ص ٨١ ، وقد استشهد به أبو هلال العسكري للترصيع الجيد ، وأتبعه بيت الخنساء الذي

بليه :

فعال سامية وراود طامية للمجد نامية تعنيه أسفار

وقال : هذا البيت رديء ، لتبرؤ بعض ألفاظه من بعض ، وانظر الصناعتين ٣٧٨ .

(٤) هو أبو صخر الهذلي .



## النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم

وهو من أشق هذه الصناعة مذهباً ، وأبعدها مسلماً ، وذاك لأن مؤلفه يلتزم مالا يلزمه ، فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنشور في قوافيها ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً .

وهو في الشعر أن تسوى الحروف التي قبل روى الأبيات الشعرية .  
وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان (١) في ذلك كتاباً وسماه كتاب « اللزوم » (٢) فأتى فيه بالجيد الذي يُحمد ، والرديء الذي يُدّم .  
وسأذكر في كتابي هذا في هذا الموضع أمثلة من المنشور والمنظوم يهتدى بها .

فمن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب في فصل يتضمن ذم جبان ، فقلت :  
« إذا نزل به خطبُ ملكه الفرق ، وإذا ضلَّ في أمر لم يؤمن إلا إذا أدركه الغرق » .

ومن ذلك ما ذكرته في مبدأ كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت :  
« الخادم يهدي من دُعائه وثنائه ما يسلكُ أحدهما سماءً والآخر أرضاً ، ويصونُ أحدهما نفساً والآخر عرضاً ، وأعجب ما فيهما أنها توأمان ، غير أن هذا مُستتج من ضمير القلب وهذا من نطق اللسان » .  
فاللزوم هاهنا في الرأء والضاد .

(١) هو أبو العلاء المعري .

(٢) هذا اختصار لاسم الكتاب ، كما يسميه بعضهم « اللزوميات » والحقيقة أن اسمه كما سماه مؤلفه « لزوم مالا يلزم » قال أبو العلاء في خطبته : وجمعت ذلك كله في كتاب لقبته « لزوم مالا يلزم » ومعنى هذا اللقب أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت . . . الخ - لزوم مالا يلزم : ج ١ ص ٣ .

وكذلك ورد قولي في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة ، فقلت :

« وَقَدْ عَلِمَ مِنْ شَيْمِ الدِّيوانِ العَزِيزِ أَنَّهُ يُسْرُ بِامْتِدَادِ الأَيْدِي إِلَى بابِهِ ، وَإِذَا أَعَبَّ أَحَدُهَا فِي المَسْأَلَةِ نَهَاةً عَنِ إِعْبابِهِ ، حَتَّى لا يَخْلُو حَرَمُهُ الكَرِيمُ مِنَ المَطافِ ، ولا يَدُهُ الكَرِيمَةُ مِنَ الإِسْعاَفِ » .  
فاللزوم هاهنا في لفظتي « بابه » و « إغبابه » .

ومن ذلك ما كتبه في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضا ، وهو :

« ومهما شد به عَضُدُ الخادِمِ مِنَ الإِنعامِ فَإِنَّهُ قوَّةٌ لِليدِ التي خَوَّلْتَهُ ، ولا يَقوى تَصَعُّدُ السُّحْبِ إلا بِكَثْرَةِ غَيْثِها الَّذِي أَنْزَلْتَهُ ، وَغَيْرُ خافٍ أَنْ عبيدَ الدَوْلَةِ لها كالأَعْمَدِ مِنَ طَرافِها<sup>(٣)</sup> ، ومركزُ الدائِرَةِ مِنْ أَطرافِها ، ولا يُؤَيِّدُ السيفُ إلا بِقائِمِهِ ، ولا يَنْهَضُ الجِناحُ إلا بِقوادِمِهِ » .  
فاللزوم في هذا الموضع في الرّاء والفاء في قولي « طرف » و « أطراف » .

ومن ذلك ما كتبه في صدر كتاب إلى الملك الأفضل علي بن يوسف أهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فقلت :

« المملوكُ يَهْتَمُّ مولانا بنعمةِ اللهِ المُؤدِّنةِ باستِخْلاصِهِ واحْتِبابِهِ ، وتمكِينِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، واستِخْراجِ كَثْرَةِ آبائِهِ ، ولو أَنْصَفَ لَهْنا الأَرْضَ مِنْهُ بِوَالِئِها ، والأُمَّةَ بِكافِئِها ، وخصوصاً أَرْضَ مِصرَ التي خُصِّصَتْ بِشرفِ سُكْناها ، وَغَدَتْ بَيْنَ بَحْرَيْنِ مِنَ فَيْضِ البَحْرِ وَفَيْضِ يَمْناها » .

وكلُّ هذه الفُصولِ المذكورةِ مِنْ هذه المَكْتُوباتِ التي أنشأتُها لا كُفِّفَ على كَلِماتِ اللزومِ فيها .

وقرأتُ في كتابِ « الأغانِي » لأبِي الفَرَجِ أَنَّ لَقِيْطَ بْنَ زُرَّارَةَ تزَوَّجَ بِنْتَ قَيْسِ بْنِ خالِدِ بْنِ ذِي الجَدَيْنِ ، فَحِظِيَتْ عِنْدَهُ ، وَحَظِيَتْ عِنْدَها ، ثُمَّ قَتَلَ ، فَأَمَتْ بَعْدَهُ ، وَتَزَوَّجَتْ زَوْجاً غَيْرَهُ ، فَكانَتْ كَثِيراً ما تَذْكَرُ لَقِيْطاً ، فَلامَها على ذلك ، فقالت :

(٣) الطرف البيت من آدم .

« أنه خرج في يومِ دَجْنٍ ، وقد تطيبَ وشربَ فطردَ البقرَ فصَرَخَ منها ، ثمَّ أتاني وبه نَضْحُ دَمٍ ، فضمّني ضُمَّةً ، وَشَمْنِي شَمَةً ، فليتنى مُتُّ ثَمَّةً ، فلمَّ أَرِ مَنْظَرًا كَانَ أَحْسَنَ مِنْ لَقِيْطٍ . »

فقولها « ضَمَّنِي ضُمَّةً ، وَشَمْنِي شَمَةً ، فليتنى مُتُّ ثَمَّةً » من الكلامِ الحُلُوفِيِّ بَابِ اللُّزُومِ ، ولا كُلفَةَ عليه .

وهكذا فليكنْ ، فَإِنَّ الكُلفَةَ وحشةٌ تذهبُ برونقِ الصَّنعةِ . وما ينبغي لمؤلِّفِ الكلامِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ هذا النوعَ حتَّى يَجِيءَ به متكلفًا . ومثاله في هذا المقامِ كمنْ أخذَ موضوعًا رديئًا فأجاد فيه صنَّعته ، فإنه يكونُ عند ذلك قد راعى الفرعَ ، وأهمل الأصلَ ، فأضاعَ جودةَ الصَّنعةِ في رداءةِ الموضوعِ .

وقد سلكَ ذَلِكَ أَبُو العلاءِ المعرِّيُّ أحمدُ بنُ عبد الله بنِ سُلَيْمانَ ، فمَّا جاءَ منْ ذلك قوله في حرفِ التَّاءِ معِ الحَاءِ (٤) .

بِنْتُ عَنِ الدُّنْيَا وَلَا بِنْتُ لِي      فِيهَا وَلَا عِرْسٌ وَلَا أُخْتُ  
وَقَدْ تَحَمَلْتُ مِنَ الوِزْرِ مَا      تَحْمِلُهُ البِخْتُ (٥)  
إِنَّ مَدْحُونِي سَاءَ نَبِيٍّ مَدْحُهُمْ      وَخِلْتُ إِنِّي فِي الشَّرَى سُخْتُ  
وله مِنْ ذلكِ الجيدِ كقوله :

لَا تَطْلُبِينَ بآلَةَ لِكَ حَاجَةً      قَلْمُ البَلِيغِ بغيرِ جَدِّ مِعْزَلُ  
سَكَنَ السَّمَاءِ كِلَاهُمَا (٦)      هَذَا لَهُ رُمَحٌ وَهَذَا أَعْرَلُ  
وهذا يَبِينُ الاسترسالَ وَيَبِينُ الكُلفَةَ .

وأما ما تكلفَ لَهُ تكلُّفًا ظاهرًا - وَإِنْ أَجَادَ - فقوله (٧) :

تَنَازَعُ فِي الدُّنْيَا سِوَاكَ وَمَالُهُ      وَلَا لِكَ شَيْءٌ فِي الحَقِيقَةِ فِيهَا

(٤) لزوم مالا يلزم ١٤٠/١ .

(٥) البخت الإبل الخراسانية المولدة ، من عربية وفالج - والفالج الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من السند للفحلة .

(٦) السماكان الأعزل والرامح نيجان نيران ، والأعزل لأنه لا سلاح معه ، أو لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ربيع ولا برد ، والرامح نجم يكون قدام الفكة يقدمه كوكب يقولون هو رمحه ، والفكة كوكب مستديرة خلف السماك الرامح . (٧) لزوم مالا يلزم ٤١٠/٢ .

ولكنها ملكٌ لربٍّ مُقدِّرٍ  
ولمَّ تحظَّ من ذلك التزاعِ بطائلٍ  
فيا نفسُ لا تعظُمِ عليكِ خطوبُها  
تداعوا إلى التزيرِ القليلِ فجالدوا  
وما أمُّ صلٍّ أو حليلةٌ ضيغمٍ  
تلاقي الوفودَ القادِمِيها بفرحةٍ  
وما هي إلا شوكةٌ ليسَ عندها  
كما نبذتَ للطيرِ والوحشِ رازمٌ  
تئاتُ عن الإنصافِ من ضيغمٍ لم يجدُ  
سِيلاً إلى غاياتٍ مُتصِفِيها  
فأطبقُ فأ عنها وكفاً ومُقلقُ  
وقلِّ لغوى النَّاسِ فاك لفيها (١٢)  
ومن ذلك (١٣) :

أرى الدنيا وما وُصفتُ بـ  
إذا أغنتُ فقيراً أزهقتُه (١٤)  
إذا خُشيتُ لشرٍّ عجلتُه  
وإن رُجيتُ لخيرٍ عوقتُه  
حياةٌ كالحبالةِ ذاتُ مكرٍ  
ونفسُ المرءِ صيدٌ أعلقتُه  
فلا يُخدعُ بحيلتها أريبٌ  
وإن هي سورتُه ونطقتُه  
أذاقتهُ شيئاً من جناها  
وصدَّتْ فاهُ عمًا ذوقتُه

- (٨) الجنوب جمع جنب وهو شق النقي ، وارتدبه تبعه .  
(٩) أم صل الحية ، وحليلة الضيغم لبؤة الأسد أى زوجته ، وقوله فاعترفها أى فاعرفها .  
(١٠) فى الديوان « شاكه » موضع « شوكه » والشاكه الكثيره الشوكه ، والإرطاب مصدر أرطب النخل حان أو ان رطبه ، واخترف الثمار جناها .  
(١١) الرازم البعير لا يقوم هزالا ، وإنما أنت الضمير والفعل لتأويله بمؤنث أو خبر عن الطير .  
(١٢) هذه كلمه تستعملها العرب عند الدعاء بالمكروه والشهامة به والمعنى جعل الله فم الداية مقابلا لفيك ، وأصل ذلك أن السباع إذا تهاشرت صرفت أفواهاها بعضها لبعض ، فكأنهم يدعون على من يقال له ذلك أن يكون مكابداً للدواهي .

(١٣) لزوم مالا يلزم ٤٠٠/٢

(١٤) فى الديوان « أوهقتُه » أى جعلت الوهق - وهو الجبل - فى عنقه .

وَقَدْ وَرَدَ لِلْعَرَبِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ ، فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي آيَاتِ

الحماسة (١٥) :

إِنَّ التِّي زَعَمْتَ فَوَادِكَ مَلَهَا  
بَيْضَاءُ بَاكِرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا  
حَجَبَتْ نَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي  
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ  
وَهَذَا مِنَ اللَّطَافَةِ عَلَى مَا يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ .

وَمِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى قَوْلُ حَجْرَ بْنِ حَيَّةَ الْعَبْسِيِّ مِنْ شِعْرَاءِ الْحِمَاسَةِ أَيْضاً (١٦) :

وَلَا أَدُومُ قِدْرِي بَعْدَمَا نَضِجَتْ  
بُخْلًا فَمَنْعُ مَا فِيهَا أَثَافِيهَا (١٧)  
حَتَّى تُقَسِّمَ شَتَى بَيْنَ مَا وَسِعَتْ  
وَلَا يُؤْتِبُ نَحْتَ اللَّيْلِ عَافِيهَا (١٨)

وَمَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يَكْسِبُ أَهْلَهُ  
أَرَى كُلَّ مَالٍ لَا مَحَالَةَ ذَاهِبًا  
فُضُوحًا إِذَا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَوَاسِبُهُ  
وَأَفْضَلُهُ مَا وَرَثَ الْحَمْدَ كَاسِبُهُ

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَعَبِيرٌ لَوْنٌ رَاحِلَتِي وَلَوْنِي  
أَقُولُ لَهَا إِذَا ضَجْرَتْ وَعَصَّتْ  
تَرَدَّى الْهَوَاجِرَ وَاعْتِمَامِي  
بِمُورِكَةِ الْوَرَاكِ مَعَ الزَّمَامِ  
عَلَامٌ تَلْفَتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِي  
وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَمَامِي

(١٥) مضى الكلام في هذا الشعر في ص ١٩٠ من هذا الكتاب .

(١٦) ديوان الحماسة ٢/٢٨٩ ، والواقع أنه لا التزام في هذا الشعر إلا في هذين البيتين وبعدهما بيتان لا التزام

فيهما وهما :

لَا أَحْرَمُ الْجَارَةَ الدُّنْيَا إِذَا اقْتَرَبَتْ  
وَلَا أَكْمَلُهَا إِلَّا عِلَانِيَةً  
وَلَا أَقُومُ بِهَا فِي الْحَى أَخْزَبَهَا  
وَلَا أَخْرِهَا إِلَّا أَنْادِيَهَا

(١٧) رواية الحماسة «لتنع» موضع «فتمنع» . والأثنافى الحجارة التي توضع عليها القدر والمعنى : لا أدع قدرى بعد تضجها على الأثنافى بخلا بما فيها ، بل أنزلها عنها ، وأطعم منها الأضياف وكان من عادة البخيل أن يترك القدر منصوبة على الأثنافى ، ليرى غيره أن القدر لم تنضج .

(١٨) لا يؤنّب أى لا يلام ، والعاقي في طالب المعروف .

وكذلك قوله أيضاً :

منع الحياة من الرجال ونفعها      حدقُ ثقلها النساءُ مراضُ  
وكانَ أفئدةَ الرجالِ إذا رأوا      حدقَ النساءِ لِنيلها أغراضُ

وإذا شئتَ أن تعلمَ مقاديرَ الكلامِ ، وكان لك ذوقٌ صحيحٌ فانظرْ إلى هذا  
العربي في كلامه السهل الذي كأنه ماءٌ جارٍ ، وانظرِ إلى ما أوردته لأبي العلاء المعري ،  
فإنَّ أثرَ الكلفةِ عليه بادٍ ظاهرٍ .

ومن قصدٍ من العزبِ قصيدهُ كلُّه على اللزومِ كثيرُ عزة ، وهي القصيدةُ التي أولها .  
خَلِيلِي هَذَا رِبْعُ عَزَّةٍ فَاعْقِلَا      قَلُوصَيْكَمَا تُمَ احْتِلَا حَيْثُ حَلَّتْ (١٩)  
وهذه القصيدة تزيدُ على عشرين بيتاً ، وهي مع ذلك سهلةٌ ليّنة ، تكادُ تترقُّقُ من  
لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفةِ شيءٌ . ولولا خوفُ الإطالة لأوردتها  
بجملتها .

وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ما وردَ في أبياتِ الحماسة (٢٠) وهو :  
وَفَيْشَةٌ لَيْسَتْ كَهَذِي الْفَيْشِ      قَدْ مَلِئْتُ مِنْ تَرْفِ وَطَيْشِ (٢١)  
إِذَا بَدَتْ قَلْتُ أَمِيرَ الْجَيْشِ      مَنْ ذَاقَهَا يَعْرِفُ طَعْمَ الْعَيْشِ  
وهذا ليس من باب اللزوم ، لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظمُ والناثرُ مالا يلزمه ،  
كقولنا « شرق » و « فرق » مثلاً ، فإنه لو قيل بدلا من ذلك « شرق » و « حنق » لجازَ  
ذلك .

وفي هذه الأبيات لا يقع الأمرُ كذلك ، لأنه لو قيل « طيش » و « عرش » لما  
جاز . وهذا يُقال له الرَّدْفُ في الشعر وهو الياءُ والواوُ قبلَ حرفِ الرَّوِيِّ ، وإِذَا جِيءَ

(١٩) رواية لزوم مالا يلزم (١٧/١) « ثم ابكيا حيث حلت » وكذلك في سر الفصاحة (٢١١) قال  
الخنفاجي : وكان شيخنا - يقصد أبا العلاء - يذهب إلى أن قصيدة كثير التي أولها « خليلي . . » قد لزم اللام في  
جميعها ، فلما سألتاه عن البيت الذي يروى فيها ، وهو

أصاب الردي من كان يهوى لك الردي      وجن اللواني قلن عزة جنت  
قال : هذا البيت ليس من هذه القصيدة .

(٢٠) ديوان الحماسة ٣٧١/٢ . (٢١) رواية الحماسة . « قد ملئت من خرق وطيش »

بذلك في الشعر وفي الكلام المشهور لا يقال إنه التزام ما لا يلزم ، لأن الملتزم ما لا يلزم له مندوحة في العُدُول إلى غيره ، وهاهنا لا مندوحة .

ومن لطيف ذلك ما يُروى لامرأة من البصرة مَجَنَتْ بِأبي نُوَاسٍ فَقَالَتْ :

إِنَّ حِرِيَّ حَزْبِلُ حَزَابِيَّةٍ إِذَا قَعَدْتُ فَوْقَهُ نَبَائِيَّةٌ (٢٢)

كَالْأَرْبِ الْجَائِمِ فَوْقَ الرَّابِيَّةِ

وكذلك ورد قولُ أبي تمام ، وهو (٢٣) :

لَا تَخْدُمُ الْأَقْوَامَ مَا لِمَ تَخْدَمُ  
قَالَتْ لَهُ الْأُخْرَى بَلَّغْتَ تَقَدَّمَ

خَدَمَ الْعُلَا فَحَدَمْنَهُ وَهِيَ الَّتِي  
فَإِذَا ارْتَقَى فِي قَلَّةٍ مِنْ سُودِدٍ  
وَعَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ قَوْلُهُ أَيْضاً (٢٤) :

يُصَافِي الْأَكْرَمِينَ وَلَا يُصَادِي  
إِلَى بَعْضِ الْمَوَارِدِ وَهُوَ صَادٍ

وَلَوْ جَرَّبْتَنِي (٢٥) لَوَجَدْتَ خَرْقًا  
جَدِيرًا أَنْ يَكُرَ الطَّرْفَ شَرًّا

وله من أبيات تتضمن مرثية (٢٦) :

وَتَغْلِبُهُ (٢٧) أُخْرَى اللَّيَالِي وَوَائِلُهُ  
إِلَيْهِمْ وَلَا تَسْرَى إِلَيْهِمْ (٢٨) غَوَائِلُهُ  
فَضَائِلُهُ عَنْ قَوْمِهِ وَفَوَاضِلُهُ  
وَسَائِلُ مَنْ أَعَيْتَ عَلَيْهِ وَسَائِلُهُ

لَقَدْ فُجِعَتْ عَتَابُهُ وَزُهَيْرُهُ  
وَمُبْتَدِرُ الْمَعْرُوفِ تَسْرَى هَبَاتُهُ  
طَوَاهُ الرَّدَى طَى الرَّدَاءِ وَغَيْبَتْ  
طَوَى شِيمًا كَانَتْ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

(٢٢) الحزبيل المشرف ، والحزابية الغليظ .

(٢٣) ديوان أبي تمام ٣١٣ من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم ؛ ومطلعها :

نَثَرْتُ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تَنْظُمِ وَالِدَمْعِ بِحَمَلِ بَعْضِ شَجْوِ الْمَغْرَمِ

(٢٤) ديوان أبي تمام ٨١ من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي داود ، ويعتذر إليه ومطلعها :

سَقَى عَهْدَ الْحَمَى سَبِيلَ الْعَهَادِ وَرَوْضَ حَاضِرٍ مِنْهُ وَبَادِ

(٢٥) رواية الديوان « ولو كَشَفْتَنِي » والخرق السخي ، ويصادي يعارض .

(٢٦) ديوان أبي تمام ٣٧٧ من قصيدة يرثي بها القاسم بن طوق ، ومطلعها :

جَوَى سَاوِرِ الْأَحْشَاءِ وَالْقَلْبِ وَاغْلَهُ وَدَمْعِ يَضُمِ الْعَيْنَ وَالْحَفْنَ هَامِلَهُ

(٢٧) في الأصل « وثعلبة » والصواب عن الديوان ؛ وفجعت أصيبت ، وعتاب وزهير وتغلب ووائل قبائل .

(٢٨) المبتدر المسرع ، الغوائل المهلكات .

فِيَا عَارِضًا لِلْعُرْفِ أَقْلَعَ مُزْنَهُ      وَيَا وَادِيًّا لِلجُودِ جَفَّتْ مَسَائِلُهُ  
 أَلَمْ تَرَنِي أَنْزَفْتُ عَيْنِي عَلَى أَبِي      مُحَمَّدٍ النَّجْمِ الْمُغِيبِ (٢٩) أَفَلُهُ  
 وَأَخْضَلْتُهَا فِيهِ كَمَا لَوْ أَتَيْتُهُ      طَرِيدَ اللَّيَالِي أَخْضَلْتَنِي (٣٠) نَوَافِلُهُ

وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب ، وليس بمتكلفٍ كشعر أبي العلاء ، فإنَّ حُسْنَ هذا مطبوعٌ ، وحُسْنَ ذاك مصنوع .

وكذلك أقول في غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولاً ، فإنَّ الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع ، وكانت غير مُستجلبَةٍ ولا متكلفة ، جاءت غير محتاجة إلى التأنيق . ولا شك أن صورة الخِلقَة غير صورة التخلُّق .

فإن قيل ما الفرق بين المتكلف من هذه الأنواع وغير المتكلف ؟  
 قلت في الجواب :

أما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والرؤية ، وذلك أن يُنضَى الخاطر في طلبه ، ويُبعث على تتبعه ، واقتصاص أثره وغير المتكلف يأتي مستريحاً من ذلك كله ، وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته ، أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته ، فبيناً هو كذلك إذ سَحَّ له نوعٌ من هذه الأنواع بالاتفاق ، لا بالسعي والطلب . ألا ترى إلى قول أبي نواس (٣١) في مثل هذا الموضع :

أَتْرَكَ الْأَطْلَالَ لَا تَعْبَأُ بِهَا      إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ دَانِيَةٌ  
 وَأَنْعَتِ الرَّاحَ عَلَى تَحْرِيمِهَا      إِنَّا دُنْيَاكَ دَارٌ فَانِيَةٌ  
 مِنْ عُقَارٍ مَنْ رَأَاهَا قَالَ لِي      صَيْدَتِ الشَّمْسُ لَنَا فِي آيَةٍ (٣٢)

وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضاً :

كَمْ مِنْ غَلَامٍ ذِي تَحَاسِينِ      أَفْسَدَهُ نَاطِفُ يَاسِينِ (٣٣)

(٢٩) في الأصل « المشرق »

(٣٠) في الأصل « أخلصتها » و « أخلصتني » . ومعنى أخضلتها بلتها ، والنوافل العطايا .

(٣١) ديوان أبي نواس ٣٥١ .

(٣٢) رواية الديوان « في باطية » والباطية الناجود ؛ وهو الخمر وأناؤها .

(٣٣) الناطف ضرب من الحلوى يصنع من الجوز واللوز والفتق .



وَهَذَا « يَاسِينُ » كَانَ يَبِيعُ النَّاطِفَ بِيَعْدَادَ .

وحكى إبراهيم البندنجي قال : رأيت شيخاً ضعيفاً يبيع ناطفاً ، فقلت له : يا شيخ ، أما زلت في هذه الصناعة ؟ فقال : مُدْكَنتُ ، ولكن الحال كانت واسعةً ، والسَّلعة نَافِقةً ، وكنْتُ مِمَّنْ يشار إلى ، حتَّى قال أبو نَوايس في ، وأنشد هذا البيت . فانظر أيها المتأمل ، ما أحلَّى لفظ أبي نواس في لزومه ، وما أغراه عن الكلفة ! وكذلك فلتكن الألفاظ في اللزوم وغيره .

### [ ما يلحق باللزوم ]

واعلم أنه إذا صُغرت الكلمة الأخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنشور ، فإن ذلك مُلْحَقٌ باللزوم ، ويكون التصغير عوضاً عن تساوي الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية ، والحروف التي قبل الفاصلة من النثر .

فمن ذلك قول بعضهم :

عَزَّ عَلَى لَيْلَى بَدَى سُدَيْرِ      سُوءُ مَبِيتِي لَيْلَةَ الْغُمَيْرِ (٣٤)  
مُقْبِضًا نَفْسِي فِي طُمَيْرِ      تَتَهَيَّرُ الرَّعْدَةُ فِي ظَهَيْرِي  
يَهْفُو إِلَى الزُّورِ مِنْ صُدَيْرِي      ظَمَانٌ فِي رِيحٍ وَفِي مُطَيْرِ  
وَأَزَرَ قُرًّا لَيْسَ بِالغُرَيْرِ      مِنْ لَدُنَّ مَا ظَهَرَ إِلَى سُحَيْرِ  
حَتَّى بَدَتْ لِي جَبْهَةُ الْقُمَيْرِ      لِأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهَيْرِ

وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب ، فاعرفه .

وأحسن منه ما ورد عن أبي نواس وعن عِنَانِ جَارِيَةِ النَّطَافِ ، وله معها حكايات كثيرة غير هذه ، فقال أبو نواس (٣٥) :

أَمَا تَرَقَّى لِصَبِّ      يَكْفِيهِ مِنْكَ قُطَيْرَةٌ

(٣٤) رواية لسان العرب (٢١/٦) « سوء مبيتى بلد الغمير » قال ابن منظور : يجوز أن يريد بذي سدر ،

فصغر وقيل : ذو سدير موضع بعينه .

(٣٥) أخبار أبي نواس لابن منظور المصري : ٣٥

فَقَالَتْ عِنَانٌ :

إِيَّايَ تَعْنِي بِهَذَا عَلَيْكَ فَاجْلِدْ عُمَيْرَةَ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ :

أَخَافُ إِنْ رُمْتُ هَذَا عَلَى يَدِي مِنْكَ غَيْرَهُ

فَالْيَتَانِ الْأَوَّلُ وَالثَانِي مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَالثَّالِثُ جَاءَ تَبَعًا .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ شَيْءٌ مِنْ هَذَا اللَّزُومِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَسِيرٌ جَدًّا .

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

عَلَقٍ » (٣٦) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالطُّورِ \* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٣٧) » . وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ

تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ « فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ \* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ (٣٨) » .

وَرَبِّمَا وَقَعَ بَعْضُ الْجَهَّالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَدْخَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ \* فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ

الْجَحِيمِ (٣٩) » . وَهَذَا لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ اللَّزُومِ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ « نَعَمٌ » وَ« جَحْمٌ » وَالْيَاءُ

هِيَ مِنْ حُرُوفِ الْمَدِّ وَاللَّيْنِ ، فَلَا يُعْتَدُّهَا هَاهُنَا .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ \* فِي سِدْرٍ

مَخْضُودٍ \* وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٤٠) » .

وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ

انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ

النَّصِيرِ (٤١) » .

(٣٦) سُورَةُ الْعَلَقِ : الْآيَاتَانِ ١ ، ٢

(٣٧) سُورَةُ الطُّورِ : الْآيَاتَانِ ١ ، ٢

(٣٨) سُورَةُ الطُّورِ : الْآيَاتَانِ ٢٩ وَ ٣٠

(٣٩) سُورَةُ الطُّورِ : الْآيَاتَانِ ١٧ وَ ١٨

(٤٠) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ : الْآيَاتُ ٢٧ وَ ٢٨ وَ ٢٩

(٤١) سُورَةُ الْأَنْفَالِ : الْآيَاتَانِ ٣٩ وَ ٤٠

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : « يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا \* قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا » (٤٢).

وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى : « قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ \* قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ » (٤٣) ولا تجد أمثال ذلك في القرآن إلا قليلا .

## النوع الخامس

### في الموازنة

وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنشور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساويي الألفاظ وزناً .  
وللكلام بذلك طلاوة ورونتق، وسببه الاعتدال، لأنه مطلوب في جميع الأشياء .

وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا لامرأ فيه لوضوحه .

وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة دون المائلة، لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال، وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد .

وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع، ولا تماثل في فواصلها، فيقال إذاً : كل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً .  
وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة .

(٤٢) سورة مريم : الآيتان ٤٠ و ٤٦

(٤٣) سورة (ق) : الآيتان ٢٧ و ٢٨

فَمَا جَاءَ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ \* وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١) » فَالْمُسْتَقِيمُ وَالْمُسْتَقِيمُ عَلَى وَزْنٍ وَاحِدٍ .

وَكذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا \* كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا \* أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَضُّعُهُمْ أَزًّا \* فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٢) »

وَكذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : « مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا \* خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (٣) » .

وَكذَلِكَ وَرَدَّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ حَمَّ عَسَقَى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ \* اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ \* يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ \* اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ \* مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ \* أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَاقْتَضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٤) » .

وهذه الآياتُ جميعُها على وزنٍ واحدٍ ، فإنَّ شَدِيدَ ، وَقَرِيبَ ، وَبَعِيدَ ، وَعَزِيزَ ، وَنَصِيبَ ، وَالْأَلِيمَ ، وَكَبِيرَ ، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى وَزْنِ « فَعِيلٌ » وَإِنْ اختلفَ حروفُ المقاطعِ التي هيَ فواصلُها .

(١) سورة الصافات : الآيتان ١١٧ و ١١٨

(٢) سورة مريم : الآيات ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤

(٣) سورة طه : الآيتان ١٠٠ و ١٠١

(٤) سورة الشورى : الآيات ١٦ - ٢٢ .

وأمثالُ هذا في القرآنِ كثيرٌ، بل معظمُ آياته جاريةٌ على هذا النهجِ، حتَّى أنه لا تخلو منه سورةٌ من السُّورِ، ولقد تصفَّحته، فوجدته لا يكادُ يخرجُ منه شيءٌ عن السَّجعِ والموازنة.

وأما ما جاء من هذا النوعِ شعراً فقولُ ربيعةِ بنِ ذؤابةِ (٥) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَّتْ عُرُوشَهُمْ      بَعْتِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ (٦)  
بِأَسَدِهِمْ بِأَسَا عَلَى أَصْحَابِهِ      وَأَعَزَّهُمْ فَقَدَاً عَلَى الْأَصْحَابِ (٧)

فالبيت الثاني هو المختصُّ بالموازنة، فإنَّ «أسا» و «فقدًا» على وزنٍ واحدٍ.

## النوع السادس

### في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها

وهو من هذه الصناعةِ بمنزلةِ عليَّةِ، ومكانةِ شريفةِ، وجلُّ الألفاظِ اللفظيةِ منوطةٌ به، ولقد لقيتُ جماعةً من مدعى فنِّ الفصاحةِ، وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني، فما وجدتُ أحداً منهم تيقنَ معرفةَ هذا الموضوعِ كما ينبغي. وقد استخرجتُ فيه أشياءً لم أُسبقُ إليها، وسيأتي ذكرها ها هنا.

أما اختلاف صيغ الألفاظِ، فإنها إذا نُقلتْ من هيئةٍ إلى هيئةٍ، كتنقلها مثلاً من وزنٍ من الأوزانِ إلى وزنٍ آخرٍ، وإن كانت اللفظةُ واحدةً، أو كتنقلها من صيغةِ الاسمِ إلى صيغةِ الفعلِ، أو من صيغةِ الفعلِ إلى صيغةِ الاسمِ، أو كتنقلها من الماضي إلى المستقبلِ، أو من المستقبلِ إلى الماضي، أو من الواحدِ إلى الثننيةِ أو إلى الجمعِ، أو إلى

(٥) هو ربيعة بن عبيد بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين أحد بني أسد، وربيعة هذا هو أبو ذؤاب الأسدي، وقد نسب الشعري حاسة أنى تمام ٣٥٤/١ لرجل من بني نصر بن قعين.

(٦) معناه إن كانوا فرحوا بقتلك وتبجحوا به فقد هدمت عزهم بقتل عتية.

(٧) رواية الحامسة (٣٥٦/١) «بأشدهم كلبا».

النسب ، أو إلى غير ذلك ، انتقل<sup>(١)</sup> قُبْحُهَا صَارَ حُسْنًا ، وحسُنُهَا صارَ قُبْحًا .  
 فن ذلك لفظة « خَوْد »<sup>(٢)</sup> فَإِنَّهَا عبارةٌ عن المرأةِ الناعمةِ ، وإذا نُقِلَتْ إلى صيغةِ  
 الفعلِ قيل « خَوَّد »<sup>(٣)</sup> على وزن « فَعَّل » بتشديد العين ، ومعناها أُسْرِعَ ، يُقال : خَوَّدَ  
 البعيرُ ، إذا أُسْرِعَ ، فهي على صيغةِ الاسمِ حسنةٌ رائقةٌ ، وقد وَرَدَتْ في النَّظْمِ والنثرِ  
 كثيراً ، وإذا جاءتْ على صيغةِ الفِعْلِ لم تكنْ حَسَنَةً ، كقول أبي تَمَّامٍ<sup>(٤)</sup> :  
 وَإِلَى بَنِي عَبْدِ الْكَرِيمِ تَوَاهَقَتْ رَتَكَ النَّعَامِ رَأَى الظَّلَامَ فَخَوَّدَ<sup>(٥)</sup>  
 وهذا يُقَاسُ عليه أشباهه وأنظاره ، إلا أن هذه اللفظةُ التي هي « خَوْد » قد نُقِلَتْ  
 عن الحقيقةِ إلى المجازِ ، فحَفَّتْ عنها ذلك القُبْحُ قليلاً ، كقولِ بعضِ شعراءِ الحماسةِ<sup>(٦)</sup> :  
 أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوَّدَ رَأْيَهَا رُوَيْدِكَ لَمَّا تُشْفِقِي حِينَ مُشْفِقِي<sup>(٧)</sup>  
 رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غِيَابَةَ هَذَا الْبَارِقِ الْمُتَالِقِ<sup>(٨)</sup>  
 والرُّأُلُ : النعام ، والمرَادُ بِهِ هاهنا أَنَّ نَفْسَهُ فَرَّتْ وَفَرِعَتْ ، وشبه ذلك بإسراعِ  
 النِّعَامِ فِي فِرَارِهِ وَفَرَعِهِ ، وَلَمَّا أُوْرِدَهُ عَلَى حُكْمِ الْمَجَازِ حَفَّتْ بَعْضُ الْقُبْحِ الَّذِي عَلَى لَفْظَةِ  
 « خَوْد » وهذا يُدْرِكُ بِالذَّوْقِ الصَّحِيحِ . ولا خَفَاءَ بما بين هذه اللفظةِ في إيرادها هاهنا  
 وإيرادها في بيتِ أبي تمام ، فإنها وردتْ في بيتِ أبي تمامٍ قبيحةٌ سَمِجَةٌ ، كما وَرَدَتْ  
 هاهنا بَيْنَ بَيْنٍ .

(١) جواب « إذا » في قوله « إذا نقلت . . . » .

(٢) الخود المرأة الحسنه الخلق الشابة أو الناعمة وهي بفتح الخاء وسكون الواو ، وجمعها خود بضم الخاء .

(٣) التخويد : سرعة السير .

(٤) ديوان أبي تمام ١٢٥ من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الكريم ، ومطلعها :

يادار دار عليك أرهام الندى واهتز روضك في الثرى فتأودا

(٥) تواهقت مدت أعناقها وتسابقت ، الرتك سرعة في مقاربة خطو ، خود اهتز من النشاط .

(٦) ديوان الحماسة ١/١٤٣ وقد نسب هذا الشعر لرجل من بني أسد قاله في يوم اليمامة .

(٧) رواية ديوان الحماسة « مكانك » موضع « رويدك » في البيتين ؛ وخود أسرع ، والرأل فرخ النعام ،

ويقال للمذعور والمرتاع « خود رأله » وهو مثل ، وقوله « لما تشفقي حين مشفقي » أي لم تخافي وقت مخافة ، والمعنى ليس هذا وقت الخوف فاصبري فإنه وقت صبر .

(٨) رواية الحماسة « عماية » موضع « غيابة » والعارض السحاب ، والمراد هنا الجيش .

ومن هذا النوع لفظة « ودع » وهي فعلٌ ماضٍ ثلاثيٌ لا يُقَلَّ بها اللسان ، ومع ذلك فلا تُستعملُ على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مُستحسنة ، ولكنها تستعمل مُستقبلةً ، وعلى صيغة الأمر ، فتجى بحسنة .

أما الأمر فكقوله تعالى : « . . . يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (٩) » ولم تأت في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة ! !

وأما كونها مستقبلةً فكقول النبي ﷺ ، وقد واصل في شهر رمضان ، فواصل معه قوم : « لو مدد لنا الشهر لواصلنا وصلاً يدع له المتعمقون تعمتهم » .  
وقال أبو الطيب المتنبي (١٠) :

تَشُقُّكُمْ بِفَتَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ (١١)  
وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يُستعمل إلا شاذاً ، ولا حُسنَ له ، كقول أبي العتاهية :

أَثَرُوا فَلَمْ يَدْخُلُوا قُبُورَهُمْ شَيْئاً مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا  
وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نَفْعاً مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

وهذا غير حسنٍ في الاستعمال ، ولا عليه من الطلاوة شيء .  
وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شيء سوى أنها نُقلت من الماضي إلى المستقبل لا غير .

وكذلك لفظة « وذر » فإنها لا تستعمل ماضية ، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى : « ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا (١٢) » .

(٩) في القرآن الكريم سورة الزخرف : الآية ٨٣ « فذرهم يخوضوا ويلعبوا » وقد رواه ابن الأثير « فدعهم » ليكون شاهداً على ما ذهب إليه ؛ وهذا وهم منه لانفاق الفطين في المعنى .

(١٠) ديوان المتنبي ٢/٢٣٠ من قصيدة في مدح سيف الدولة مطلعها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

(١١) رواية الديوان « بقناها » موضع « بفتاها » ومعنى فتاها فارسها ، والقنا الرماح ، السلهبة الطويلة من الخيل .

(١٢) سورة الحجر : الآية ٣

وتستعمل مستقبلةً أيضاً كقوله تعالى : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر \* لَا تُبْقَى وَلَا تَنْدَر » (١٣) .

فهى لم تَرُدْ في القرآن إلا على هاتين الصيغتين ، وكذلك في فصيح الكلام غير القرآن .

وأما إذا جاءت على صيغة الماضي فإنها لا تستعمل ، وهى أقبح من لفظة « وَدَع » لأن لفظة « وَدَع » قد استعملت ماضيةً ، وهذه لم تستعمل .  
وهاهنا فلينعم الخائضون في هذا الفن نظرهم ، ويعلموا أن في الزوايا خبايا ، وإذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال ، وأغرقوا في الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب .

ومن هذا النوع لفظة « الأخذع » فإنها وردت في بيتين من الشعر ، وهى في أحدهما حسنة رائقة ، وفي الآخر ثقيلة مستكرهة كقول الصمة بن عبد الله (١٤) من شعراء الحماسة (١٥) :

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي      وَجَعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعَا (١٦)  
و كقول أبي تمام (١٧) :

يَادَهُرُ قَوْمٌ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ      أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خَرْقِكَ (١٨)  
الآ ترى أنه وجد هذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع ، والكرهية في النفس أضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبد الله (١٩) من الرّوح والخفة والإيناس والبهجة ؟ وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما مثناة في الآخر ،

(١٣) سورة المدثر : الآيات ٢٦ ، ٢٧ و ٢٨ . (١٤) في الأصل « ابن الصمة عبد الله »

(١٥) ديوان الحماسة ٥٦/٢ .

(١٦) الليت صفحة العنق ، والأخذع عرق فيها ، نصبها على التمييز ، والإصغاء الميل .

(١٧) ديوانه ٢١٠ من قصيدة يمدح فيها محمد بن الهيثم ويهنته ببرته ، ومطلعها :

قد مات محل الزمان من فرقك      وأكن أهل الإعدام في ورقك

(١٨) الخرق الحمق .

(١٩) في الأصل « ابن الصمة عبد الله » بيت الصمة وبيت أبي تمام تكلم عنها عبد القاهر الجرجاني بمثل

هذا الكلام الذي نقله ابن الأثير - وانظر دلائل الإعجاز ٣٨ ، ٣٩ .



وكانت حسنة في حالة الإفراد، مستكرهة في حالة التثنية، وإلا فاللفظة واحدة، وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى.

ومن هذا النوع ألفاظٌ يُعدّلُ عن استعمالها من غير دليلٍ يقوم على العدول عنها، ولا يُستفتى في ذلك إلا الذوقُ السليم، وهذا موضعٌ عجيبٌ، لا يُعلم كنهُ سيره.

فمن ذلك لفظه «اللَّب» الذي هو العقل - لا لفظه «اللَّب» الذي تحت القشر - فإنها لتحسن في الاستعمال إلا مجموعة، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة، ولم ترد مفردة، كقوله تعالى: «وَلَيَنْذِرُنَّ أُولُو الْأَلْبَابِ» (٢٠) و«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لَأُولِي الْأَلْبَابِ» (٢١) وأشباه ذلك.

وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق، ومخارجها بعيدة، وليست بمُستثقلة، ولا مكروهة.

وقد تُستعمل مفردة، بشرط أن تكون مضافة أو مضافاً إليها، أما كونها مضافاً إليها فكقولنا: لا يعلم ذلك إلا ذو لب، وإن في ذلك لعبرة لذي لب وعليه ورد قول جرير:

إِنَّ لِلْعُيُونَ التي في طرفها حور<sup>(٢٢)</sup> قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحِينِ قَتْلَانَا  
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنْ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا  
وأما كونها مضافةً فكقول النبي ﷺ في ذكر النساء «ما رأيت ناقصات عقلٍ ودينٍ  
أذهب لبَّ الحازم من إحدائكنَّ يامعشر النساء».

فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لا تأتي حسنة ولا تجد دليلاً على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح.

وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الإفراد كلفظة «كوب» فإنها وردت في القرآن مجموعة، ولم ترد مفردة، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حال إفرادها فإن الجمع فيها أحسن.

(٢٠) سورة (ص): الآية ٢٩ (٢١) سورة الزمر: الآية ٢١

(٢٢) رواية الشعر والشعراء «مرض» موضع «سور».

لكن قد ترد مفردة مع ألفاظٍ أخر تندرجُ معهنَّ ، فيكسوها ذلك حسناً ليس لها .  
وذلك كقولي في جملة أبياتِ أصفُ بها الخمر ، وما يجرى معها من آياتها :

ثَلَاثَةٌ تُعْطَى الْفَرْحَ كَأْسٌ وَكُوبٌ وَقَدَحٌ  
مَا ذُبِحَ سِوَى بِهَيَا إِلَّا وَلِلَّهِمْ ذَبِيحٌ

فلما وردت لفظة « الكوب » مع الكأس والقَدَح على هذا الأسلوب حسنها ، وكأنه  
جلاها في غير لباسها الذي كان لها إذ جاءت بمفردها .

وكذلك وردت لفظة « رَجَا » بِالْقَصْرِ ، « والرجا » الجانب ، فإنها لم تستعمل  
موحدةً ، وإنما استعملت مجموعة ، كقوله تعالى : « وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ  
رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » (٢٣) .

فلما وردت هذه اللفظة مجموعةً ألبسها الجمعُ ثوباً من الحُسنِ لم يكن لها في حالِ  
كونها موحدةً .

وقد تستعمل موحدةً ، بشرطِ الإضافةِ كقولنا « رجا البئر » .

ولربما أخطأ بعضُ الناسِ في هذا الموضعِ ، وقاس عليه ما ليس بمقيس ، وذلك  
أنه وقف على ما ذكرته هاهنا واقفٌ فقال : وكذلك قد وردت لفظة الصوف في القرآن  
الكريم ، ولم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا  
تَسْكُنُونَهَا يَوْمَ ظَنَعْتُمْ وِيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى  
حِينَ » (٢٤) .

وهذا بخلاف ماوردت عليه في شعر أبي تمام (٢٥) :

كَانُوا بَرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَانَتْ لِبَسِ الزَّمَانِ الصُّوفَا (٢٦)

وهذا ليس كالذي أشرت إليه ، فإن لفظة « الصوف » لفظة حسنة مفردة  
ومجموعةً ، وإنما أزرى بها في قول أبي تمام أنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان .

(٢٣) سورة الحاقة : الآية ١٧ . (٢٤) سورة النحل : الآية ٨٠ .

(٢٥) الديوان ٢٠٥ من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف ، ويعرض بوال ولي الثغر ، ومطلعها :

أطلاهم سلبت دماها الهيفا واستبدلت وحشاهن عكوكفا

(٢٦) البرود الثياب ، تصدعوا تشتتوا .

وعلى هذا التَّهَجُّجُ وردت لفظة «خبر» و «أخبار»، فإن هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة، ولم ترد في القرآن إلا مجموعة.

وفي ضد ذلك، ماورد استعماله من الألفاظ مفرداً. ولم يرد مجموعاً كلفظة «الأرض» فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة، فإذا ذكرت السماء مجموعة جى بها مفردة معها في كل موضع من القرآن، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلُهُنَّ» في قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» (٢٧). ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يرد مجموعاً لفظة «البقعة» قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: «فَلَمَّا آتَاهَا نُودَىٰ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَأْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ» (٢٨) والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة، وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة، كقولنا: «بِقَاعِ الْأَرْضِ» أو ماجرى مجراها.

وكذلك لفظة «طيف» في ذكر طيف الخيال، فإنها لم تستعمل إلا مفردة. وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يأتوا بها إلا مفردة، لأن جمعها جمع قبيح، فإذا قيل «طُيُوفٌ» كان من أقبح الألفاظ وأشدّها كراهةً على السَّمْعِ.

وبالله للعجب من هذه اللفظة ومن أختها عدّة ووزناً، وهي لفظة «ضيف» فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق، وهذا ممّا لا يعلم السرُّ فيه. والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراها. وأمّا جمع المصادر فإنه لا يجيئُ حسناً، والإفراد فيه هو الحسن، ومما جاء في المصادر مجموعاً قول عنتره:

فَإِنْ بِيْرًا فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدَ فَحَقَّ لَهُ الْفُقُودُ (٢٩)  
قوله: «الْفُقُودُ» جمع مصدر من قولنا: فَقَدَ، يَفْقِدُ، فَقْدًا. واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغٍ ولا لذيدٍ، وإن كان جائزاً.

(٢٧) سورة الطلاق: الآية ١٢. (٢٨) سورة القصص: الآية ٣٠.

(٢٩) شرح ديوان عنتره بن شداد ٤٩ من أبيات في جرية العمري. وقد رماه عنتره. فظن أنه قتله. فلم

ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحُسن لامع الجواز. وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم، فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فمه منها استعمله، وما لفظه فمه تركه.

ألا ترى أنه يقال « الأمة » بالضم عبارة عن الجمع الكثير من الناس، ويقال: « الإمة » بالكسر، وهي النعمة، فإن « الأمة » بالضم لفظه حسنة وبالكسر ليست بحسنة واستعملها قبيح.

ورأيت صاحب كتاب « الفصيح »<sup>(٣٠)</sup> قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ، الفصيحة، وباليث شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها!؟ وكذلك قد اختار الألفاظ أخر ليست بفصيحة، ولا لوم عليه، لأن صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير!

وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية، أو تصريفية، أو نقل كلمة لغوية، وما جرى هذا الجرى.

وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها، وإذا شد عن صاحب كتاب « الفصيح » ألفاظ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فإن هذا منه كثير.

ومما يذكُر في هذا الباب أنه يُقال: « سهم صائب » فإذا جمع الجمع الحسن الذي يعذب في الفم قيل: سهام صوائب، وصائبات، وصيب. فإذا جمع الجمع الذي يقبح قيل: « سهام صيب » على وزن « كتب » قال أبو نواس<sup>(٣١)</sup>:

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعَتْ  
عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ بِي  
فَقَلَّتْ<sup>(٣٢)</sup> إِنْسَانَهَا كَيْدِي  
بِسَهَامٍ لِلرَّدَى صُيْبِ

(٣٠) هو الإمام أحمد بن يحيى المعروف بثعلب.

(٣١) ديوانه ٤٠٧ من أبيات أولها:

يباني حالة الخطب حرى من ظيكم حرى

(٣٢) رواية الديوان « قتلت ».

فقوله : « سَهَامٌ صُيَّبٌ » من اللفظ الذى يَنْبُو عنه السَّمْع ، ويحيدُ عنه اللِّسَان .  
ومثله ورد قول عُوَيْفِ القَوَافِي (٣٣) من أبياتِ الحِمْيَرِ :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ      مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ العُودُ  
لَمَّا أَتَانِي عَنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ      أُمْسَى عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الأَقْيَادُ (٣٤)

فقوله : « أقياد » فى جمع « قَيْد » مما لا يحسنُ استعماله ، بل الحَسَنُ أن يقال فى جمعه « قُيُود » .

وكذلك قولُ مَرَّةَ بنِ مَحْكَانِ التَّمِيمِيِّ (٣٥) من أبياتِ الحِمْيَرِ ، وذلك من جُمْلَةِ الأبياتِ المشهورةِ التى أوَّلها :

بَارِبَةَ البَيْتِ قَوْمِي نَيْرَ صَاغِرَةٍ      ضَمِي إِلَيْكَ رِحَالَ القَوْمِ وَالأُقْرَبَا (٣٦)  
فقالَ فيها :

مَاذَا تَرَيْنَ : أأَنْدِينِهِمْ لَأَرْحِلْنَا      فى جَانِبِ البَيْتِ ؟ أَمْ نَبْنِي لَهُمْ قَبِيًّا ؟  
فإنه جمع « قَبَّة » على « قَبِّب » ، وذلك من المستبشعِ الكريه ، والأحْسَنُ المستعملُ هو « قِبَاب » لا « قَبِّب » ، وكذلك يَجْرَى الأمرُ فى غيرِ هذا .

ومن المجموع ما يختلفُ استعماله ، وإن كانَ مُتَّفَقاً فى لفظه واحدةً ، كالعَيْنِ الناظرةِ ،  
وعَيْنِ النَّاسِ ، وهو النَّبِيهُ فيهم : فَإِنَّ العَيْنَ الناظرةَ تُجمعُ على « عَيُون » ، وعَيْنِ النَّاسِ

---

(٣٣) هو ابن معاوية بن عقبة من بنى فزارة بن ذبيان ، وإنما أضيف إلى القوافى لقوله :  
سأكذب من قد كان يزعم أنني إذا قلت قولاً لا أجيد القوافيا  
وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية من ساكنى الكوفة ، وبيته من البيوتات المتقدمة فى العرب ، وكانت  
أخته متزوجة عيينة بن أسماء الفزارى فطلقها ، فلما حبس الحجاج عيينة وقبده قال عوياف هذه الأبيات .  
(٣٤) رواية البيت فى الحِمْيَرِ (١/٩٧) وفى الأصل :

لَمَّا أَتَانِي مِنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ      أُمْسَتْ عَلَيْهِ بظَاهِرِ أقيادِ

(٣٥) هو من بطن يقال لهم بنو ربيع من سعد بن زيد مناة بن تميم ، وهو شاعر إسلامى مقل من شعراء  
الدولة الأموية ، عاصر جريراً والفرزدق ، فأخملاً ذكره ، وكان شريفاً جواداً ، قتله مصعب بن الزبير فى  
ولايته . والأبيات فى ديوان الحِمْيَرِ ٢/٢٤٢ .

(٣٦) فى الأصل « رجال » موضع « رحال » وهو تصحيف ، والصاغرة الذليلة ، والقرب جمع قراب وهو  
الجراب يوضع فيه السيف بغمده ، يأمر زوجته بأن تضم إليها رحال القوم وأسلحتهم حفظاً لها ، لأنهم نزلوا  
عنده ، فهم فى أمان لا يحتاجون إلى السلاح .

يُتَّجَمَعُ عَلَى «أَعْيَانٍ»، وَهَذَا يَرْجِعُ فِيهِ إِلَى الْإِسْتِحْسَانِ لَا إِلَى جَائِزِ الْوَضْعِ اللَّغْوِيِّ.

وَقَدْ شَدَّ هَذَا الْمَوْضِعُ عَنْ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِيِّ فِي قَوْلِهِ (٣٧):

وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ وَالخَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبْلُ (٣٨)

فَجَمَعَ الْعَيْنَ النَّاطِرَةَ عَلَى «أَعْيَانٍ»، وَكَانَ الذَّوْقُ يَأْتِي ذَلِكَ، وَلَا تَجِدُ لَهُ عَلَى

اللِّسَانِ حَلَاوَةً، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا.

وَلَوْلَا خَوْفُ الْإِطَالَةِ لِأَوْرَدْتُ مِنْ هَذَا النَّوعِ وَأَمْثَالِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَكَشَفْتُ عَنْ

رُؤُوسٍ وَأَسْرَارٍ تَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُتَعَاظِي هَذَا الْفَنِّ، لَكِنْ فِي الَّذِي أَشْرْتُ إِلَيْهِ مُنْبَهٌ لِأَهْلِ الْفَطَانَةِ وَالذِّكَاةِ أَنْ يَحْمَلُوهُ عَلَى أَشْبَاهِهِ وَأَنْظَارِهِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْكَ تَرَى وَزْنَ وَاحِدًا مِنَ الْأَلْفَاظِ، فَتَارَةً تَجِدُ مُفْرَدَةً

حَسَنًا، وَتَارَةً تَجِدُ جَمْعَهُ حَسَنًا، وَتَارَةً تَجِدُهَا جَمِيعًا حَسَنِينَ.

فَالأَوَّلُ نَحْوُ «حُبْرُورٍ» وَهُوَ قَرْنُ الْحُبَارِيِّ، فَإِنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ يَحْسُنُ مَفْرَدًا

لَا بِمَجْمُوعِهَا، لِأَنَّ جَمْعَهَا عَلَى «حُبَارِيرٍ»، وَكَذَلِكَ «طُنْبُورٌ» وَ«طَنَابِيرٌ» وَ«عُرْقُوبٌ» وَ«عِرَاقِيبٌ».

وَأَمَّا الثَّانِي فَنَحْوُ «بُهْلُولٍ» وَ«بَهَائِلٍ» (٣٩) وَ«لَهْمُومٌ» وَ«وَلَهَامِيمٌ» (٤٠) وَهَذَا

ضِدُّ الأَوَّلِ.

وَأَمَّا الثَّلَاثُ فَنَحْوُ «جُهْهُورٍ» وَ«جَاهِيرٍ» وَ«عُرْجُونٍ» وَ«عَرَّاجِينَ».

فَانظُرْ إِلَى الوَزنِ الوَاحِدِ كَيْفَ يَخْتَلِفُ فِي أَحْوَالِهِ مَفْرَدًا وَمَجْمُوعًا؟ وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ

مَا يَجِيءُ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَهَكَذَا قَدْ جَاءَتْ أَلْفَاظٌ عَلَى وَزْنِ وَاحِدٍ ثَلَاثِيَّةٍ مَسْكُونَةٍ الوَسْطِ، وَجَمِيعُهَا حَسَنٌ فِي

الِاسْتِعْمَالِ، وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُثَقِّلَ وَسَطُهَا حَسُنَ مِنْهَا شَيْءٌ دُونَ شَيْءٍ.

(٣٧) دِيوانه ٣٠٧/٣ من قصيدة في مدح عضد الدولة، ومطلعها:

أَثَلْتُ فَإِنَّا أَيُّهَا الظِّلُّ نَبِكِي وَتَرْزَمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

(٣٨) الخرز ضيق العين، والقبل إقبال إحدى العينين على الأخرى، وذلك تفعله الخيل لعزة نفسها.

(٣٩) البهلول الضحاك والسيد الجامع لكل خير.

(٤٠) اللهموم الناقية الغزيرة، والجرح الواسع، وجهاز المرأة، والسحابة الغزيرة القطر، والعدد الكثير.

والجيش العظيم، والكثير الخير.

فإن ذلك لفظة التثنية، والرُّبْع . . . إلى العُشْر، فإنَّ الجميع على وزنٍ واحدٍ، وإذا ثقلنا أوساطها، فقلنا: ثُلثٌ ورُبْعٌ وخُمُسٌ . . . وكذلك إلى عُشْرٍ، فإنَّ الحَسَنَ من ذلك جميعه ثلاثة، وهى التثنية والخُمُسُ والسُّدُسُ، والباقي موهو: الرُّبْعُ، والسَّبْعُ، والثَّمَنُ، والتَّسْعُ، والعُشْرُ، ليس كالأول في حُسْنِه، هذا والجميعُ على وزنٍ واحدٍ، وصيغةٍ واحدةٍ، والجميعُ حَسَنٌ في الاستعمال قبل أن يثقل وسطه، ولَمَّا ثَقُلَ صارَ بعضُه حَسَنًا، وبعضُه غيرَ حَسَنٍ .

وكذلك نجدُ الأمرُ في أسماءِ الفاعلين، كالثلاثيِّ منها نحو «فَعَلَ» بفتح الفاءِ والعينِ، «وَفَعَلَ» بفتح الفاءِ وكسرِ العينِ، «وَفَعَلَ» بفتح الفاءِ وضمِّ العينِ، فإنَّ هذه الأوزانَ الثلاثةَ لها أسماءُ فاعلين.

أما «فَعَلَ» - بفتحِ الفاءِ والعينِ - فليس له إلا اسمٌ واحدٌ أيضاً، وهو «فَاعِلٌ» لا غيرٌ، ولا يقعُ فيه اختلافٌ.

وكذلك «فَعُلٌ» - بفتحِ الفاءِ وضمِّ العينِ - فليس له إلا اسمٌ واحدٌ أيضاً، وهو «فَعِيلٌ»، ولا يقعُ فيه اختلافٌ إلا ماشدًا.

لكن «فَعِلٌ» - بفتحِ الفاءِ وكسرِ العينِ - يقعُ في اسمِ فاعِلِه الاختلافُ استحساناً واستقباحاً، لأنَّ له ثلاثةَ أوزانٍ، نحو «فَاعِلٌ» و «فَعِلٌ» و «فَعَلَانٌ» تقول منه «حَمِدٌ» فهو «حامدٌ» و «حَمِيدٌ» و «حَمْدَانٌ» .

وقد جاءَ على وزنه «فَرِحٌ» تقول منه: فَرِحَ زيدٌ، فهو فَرِحٌ، وهو الأحسنُ. ولا نحسنُ أن يُقالَ «فَارِحٌ» ولا «فَرِحَانٌ»، وإن كانَ جائزاً، لكن «فَرِحَانٌ» أحسنُ من «فَارِحٌ»

وقد وردتْ هذه اللفظةُ في القرآنِ الكريمِ، فلم تستعملْ إلا على «فَرِحٌ» لا غير، كقوله تعالى: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (٤١).  
وكقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَرِحِينَ» (٤٢)

(٤١) سورة الروم: الآية ٣٢ .

(٤٢) سورة القصص: الآية ٧٦ .

وقد جاءت هذه اللفظة في شعر بعض شعراء الحماصة<sup>(٤٣)</sup> في باب المراثي :  
 فَمَا أَنَا مِنْ حُزْنٍ<sup>(٤٤)</sup> وَإِنْ جَلَّ جَزَاعٌ وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ  
 وهذا غير حسن ، وإن جاز استعماله .

وعلى نحو منه يقال « غَضِبَ » وهو « غَضِبَانَ » ولا يقال « غَاضِبٌ » وإن كان  
 جائزاً .

وقد تقدّم القولُ أَنَا في تأليفِ الكلامِ بصددِ استعمالِ الحسنِ والأحسنِ ، لا بصددِ  
 استعمالِ الجائزِ وغيرِ الجائزِ .

وممّا يجري هذا الجرى قولنا « فَعَلَّ » و « افْتَعَلَ » فَإِنَّ لَفْظَةَ « فَعَلَ » لها موضعٌ  
 تستعملُ فيه . أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ : « قَعَدْتُ إِلَى فُلَانٍ أَحَدَهُ » ولا تقول : « اقْتَعَدْتُ  
 إِلَيْهِ » وكذلك تقول : « اقْتَعَدْتُ غَارِبَ الْجَمَلِ » ، ولا تقول : « قَعَدْتُ عَلَى غَارِبِ  
 الْجَمَلِ » ، وَإِنْ جازَ ذلك ، لكن الأولُ أَحْسَنُ .

وهذا لا يحكمُ فيه غيرُ الذوقِ السليمِ ، فإنه لا يمكنُ أَنْ يُقَامَ عليه دليل .  
 وَأَمَّا « فَعَلَ » « وافْعَوْلَ » فإنا نقول : « أَعْشَبَ الْمَكَانُ » ، فإذا كثرَ عَشْبُهُ قُلْنَا :  
 « اعشَوْسَبَ » ، فلفظةُ « افْعَوْلَ » للتكثيرِ .

على أني استقرّيتُ هذه اللفظة في كثير من الألفاظِ ، فوجدتها عذبة طيبةً ، على  
 تكرارِ حروفها ، كقولنا : اخشوشنَ المكانُ ، وأغرورقتَ العينُ ، واحلولى الصمِّ ،  
 وأشباهها .

وأما « فُعَلَّةٌ » نحوهُمَزَةٌ ، ولمزَةٌ ، وجُثْمَةٌ ، ونُومَةٌ ، ولكِنَّةٌ ، ولُحْنَةٌ ، وأشباه ذلك ،  
 فالغالبُ على هذه اللفظة أن تكونَ حسنةً .

وهذا أخذته بالاستقراءِ وفي اللغةِ مواضعٌ كثيرةٌ هكذا لا يمكنُ استقصاؤها .  
 فانظرُ إلى مايفعله اختلافُ الصيغةِ بالألفاظِ .

\* \* \*

(٤٣) هو أشجع بن عمرو السلمي ، والبيت من أبيات أولها :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ولا مغرب إلا له فيه مادح

(٤٤) رواية الحماصة (١/٣٦٢) . \* فإنا من رزء وإن جل جازع \*



وعليك أن تَفَقِّدَ أمثالَ هذه المواضع ، لتعلم كيف تضعُ يدك في استعمالها ، فكثيراً مايقعُ فحول الشعراء والخطباء في مثلها ، ومؤلفُ الكلام من كاتبٍ وشاعرٍ إذا مرَّت به الألفاظُ عَرَضَها على ذوقه الصَّحيح ، فما يجد الحسن منها موحِّداً وحده ، وما يجد الحسن منها مجموعاً جمعه ، وكذلك يجرى الحكمُ فيما سوى ذلك من الألفاظ .

## النوع السابع

### في المعازلة اللفظية

والمعازلةُ : معاظلتان : لفظيةٌ ، ومعنوية .

أمَّا المعنويةُ فسيأتي ذكرُها في باب ( التقديم والتأخير ) من المقالة الثانية ، فليؤخذ من هناك .

وأما المعازلةُ اللفظيةُ ، فهي <sup>(١)</sup> المخصوصةُ بالذكرِ هاهنا في بابِ صناعةِ الألفاظِ ، وحققيقتها مأخوذةٌ من قولهم « تعازلت الجرادتان » إذا ركبت إحداهما الأخرى ، فسمي الكلامُ المترابكُ في ألفاظه أو في معانيه ( المعازلة ) مأخوذاً من ذلك ، وهو اسمٌ لائقٌ بمسمَّاه .

ووصفَ عمرُ بنُ الخطابِ - رضي الله عنه - زهيرَ بنَ أبي سلمى ، فقال : « كان لايعاظلُ بينَ الكلامِ » .

وقد اختلفَ علماءُ البيانِ في حقيقةِ المعازلة ، فقال قدامةُ بنُ جعفرٍ الكاتبِ <sup>(٢)</sup>

(١) في الأصل « هي » .

(٢) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي ، كان نصرانياً وأسلم على يد المكنفي بالله ( ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ ) وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء ، ومن يشار إليه في علم المنطق ، وقيل هو أول من وضع الحساب ، وله تصانيف كثيرة منها كتاب نقد الشعر ، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة ، وتوفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ . وللدكتور بدوي طبانة دراسة مفصلة في حياة قدامة ونقده طبع تحت عنوان « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي » .

التعاضلُ في الكلامِ هُوَ أَنْ يُدْخَلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ ؛ وَلَا أَعْرَفُ ذَلِكَ إِلَّا فَاحِشَ الاستعارة (٣) كَقَوْلِ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ :

وَدَاتُ هَيْدَمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصِمَّتُ بِالْمَاءِ تَوَلْبًا جَدِعًا (٤)  
فَسَمَى الصَّيِّ «تَوَلْبًا» ، وَالتَوَلْبُ وَلَدُ الْحِمَارِ .

هذا ما ذكره قدامة بن جعفر ، وهو خطأ ، إذ لو كان ما ذهب إليه صواباً لكانت حقيقة المعاطلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه ، وليست حقيقتها هذه ، بل حقيقتها ماتقدم ، وهو التراكب ، من قولهم : تعاضلت الجرادتان : إذا ركبت إحداهما الأخرى .

وهذا المثال - الذي مثل به قدامة - لا تراكب ، في ألفاظه ولا في معانيه .  
وأما غير قدامة فإنه خالفه فيما ذهب إليه ، إلا أنه لم يقسم المعاطلة إلى لفظية ومعنوية ، ولكنه ضرب لها مثالا ، كقول الفرزدق :

وَمَامِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ حَيَّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ (٥)

وهذا من القسم المعنوي ، لا من القسم اللفظي ، ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيرهُ ، وتأخير ما كان يجب تقديمه ، لأن الأصل في معناه « ومأمثله في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه » ؟ وسيجى شرح ذلك مستوفى في بابهِ من المقالة الثانية ، إن شاء الله تعالى .

وإذ حَقَّقْتُ الْقَوْلَ فِي بَيَانِ الْمَعَاطَلَةِ ، وَالْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَإِنِّي أَتَّبِعُ ذَلِكَ بِتَقْسِيمِ

(٣) جعل قدامة (المعاطلة) من عيوب اللفظ ، قال : وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبتها لها أيضاً ، فقال : وكان لا يعاظر بين الكلام ، وسألت أحمد بن يحيى عن (المعاطلة) فقال : مداخلة الشيء في الشيء ، يقال : تعاضلت الجرادتان ، وعاضل الرجل المرأة ، إذا ركب أحدهما الآخر . وإذا كان الأمر كذلك فحال أن ينكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه أو فيما كان من جنسه ، وبقى النكير إنما هو في أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه ، وما هو غير لائق به ، وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة . [ انظر نقد الشعر ١٠٣ - طبعة بريل ، ليدن ] ، وانظر « قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ٢٠٤ - ٢١٥ من الطبعة الثانية » .

(٤) الهدم الثوب البالي أو المرقع ، والنواشر جمع ناشرة . وهي عصب في الذراع ، تصمت تسكت ولدها ، والجدع السبيغ الغذاء . والبيت من قصيدة لأوس في رثاء فضالة بن كعدة ومطلعها :

أَيْبَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنْ الَّذِي تَحْدَرِينَ قَدْ وَقَعَا

(٥) ديوان الفرزدق ١٠٨/١ في مدح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك .

القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره هاهنا فأقول : إنني تأملت بالاستقراء من الأشعارِ قديمها ومحدثها ، ومن النظر في حقيقتها نفسها ، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام :

### الأول منها : [ ما يختص بالأدوات ]

يختص بأدوات الكلام نحو من ، وإلى ، وعن ، وعلى ، وأشباهها ، فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته ، ومنها ما لا يسهل ، بل يرد ثقيلاً على اللسان ، ولكل موضع يختصه من السبك .  
فمما جاء منه قول أبي تمام :

إلى خالدٍ راحتُ بنا أرحبياً مرافقها من عن كراكرها نُكْبُ<sup>(٦)</sup>  
فقوله : « من عن كراكرها » من الكلام المتعاضل الذي يثقل النطق به .

على أنه قد وردت هاتان اللفظتان وهما « من » و « عن » في موضع آخر ، فلم يثقل النطق بهما ، كقول القائل : « من عن يمين الطريق » ، والسبب في ذلك أنها وردتا في بيت أبي تمام مضافتين إلى لفظة الكراكر فثقلت منها ، وجعلتها مكروهتين كما ترى ، وإلا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة<sup>(٧)</sup> ، فكانتا خفيفتين ، كقوله :

ولقد أراني للرماح درية من عن يميني مرةً وأمامي<sup>(٨)</sup>

والأصل في ذلك راجع إلى السبك ، فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو ما يجرى مجراها مع ألفاظ تسهل منها لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطري ، وإذا سبكتا مع الألفاظ ثقلت منهما جاءتا كما جاءتا في بيت أبي تمام .

(٦) ديوان أبي تمام ٣٠ من قصيدة في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، ومطلعها :

لقد أخذت من دار ماوية الحقب أنحل المغاني للبلبي هي أم نهب  
والأرحبية ناقة منسوبة إلى أرحب ، وهو فحل كريم ، كراكرها - جمع كركرة - رحي صدرها وخواصرها ،  
نكب - جمع نكباء - مائلة .

(٧) هو قطري بن الفجاءة المازني ، من زعماء الخوارج الشعراء والخطباء ، قضى مدة طويلة في حروب مع

الأمويين ، حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩ هـ .

(٨) الدررثة الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها ، والبيت من قصيدة مطلعها :

لا يركن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحمام  
٣٠٧

ومن هذا القسم قول أبي تمام أيضاً :  
كَانَهُ لِاجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحٌ <sup>(٩)</sup>  
فَقَوْلُهُ « فِي » بَعْدَ قَوْلِهِ « فِيهِ لَهُ » مِمَّا لَا يَحْسُنُ وَرُودِهِ .

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبى :  
وَتُسَعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سُبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدٌ <sup>(١٠)</sup>  
فَقَوْلُهُ « لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا » مِنَ الثَّقِيلِ الثَّقِيلِ الثَّقِيلِ .  
وكذلك قوله :

تَبَيْتُ وَفُودَهُمْ تَسْرَى إِلَيْهِ وَجَدَوَاهُ الَّتِي سَأَلُوا اغْتِفَارُ  
فَخَلَفَهُمْ بَرْدُ الْبَيْضِ عَنْهُمْ وَهَامَهُمْ لَهُ مَعَهُمْ مُعَارٌ <sup>(١١)</sup>  
وقوله « وهامهم له معهم » مما يثقل النطق به ، ويعتبر اللسان فيه ، لكنه أقرب حالاً  
من الأول .

ومن الحسن في هذا الموضع قول أبي تمام :  
دَارٌ أَجِلُّ الْهُوَى عَنْ أَنْ أَلِمَّ بِهَا فِي الرَّكْبِ الْإِوَعِيِّ مِنْ مَنَائِحِهَا <sup>(١٢)</sup>

---

(٩) ديوان أبي تمام ٧١ من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري ، وأولها :  
قل للأمرير لقد قلدتني نعماً فت التناء بها ما هبت الريح  
وفي الديوان « في اجتماع » موضع « لاجتماع » . والجارحة العضو .

(١٠) ديوان المتنبى ٢٧٠/١ من قصيدة أولها :  
عواذل ذات الخال في حواسد وإن ضجيع الخود بني لماجد  
والغمرة الشدة ، والسبوح الفرس الشديد الجرى .

(١١) ديوان المتنبى ١٠٠/٢ من قصيدة قالها لما أوقع سيف الدولة بين عقيل وتشير وبني العجلان وبني  
كلاب ، حين عاثوا في عمله ، وخالفوا عليه . ويذكر إيفاهم بين يديه ، وظفره بهم ، وأولها :  
طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووعى بخار  
ومعنى البيتين : أنهم وفدوا عليه لم يطلبوا منه شيئاً سوى العفو عنهم ، وأنه استبقاهم برد سيوفه عنهم ، وجعل  
رءوسهم معهم عارية متى شاء أخذها .

(١٢) ديوان أبي تمام ٧٢ من قصيدة في مدح الفضل بن صالح الهاشمي مطلعها :  
أهدى الدموع إلى دار وما صحها فللمنازل سهم من سوافحها  
وما صحها دارسها ، وسوافحها سواكبها ، وألم أنزل ، ومنايحها عطاياها .

فقوله : « عَنُ أَنْ » في هذا البيت من الخفيف الحَسَنَ الذي لا بأس به .

### القسم الثاني من المعاطلة اللفظية :

تَخْتَصُّ بتكرير الحروف ، وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ ولا بتكرير المعاني - ممَّا يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية - وإنما هو تكرير حرفٍ واحدٍ أو حرفين في كل لفظةٍ من ألفاظِ الكلامِ المنثور أو المنظوم ، فيثقل حينئذٍ النطقُ به ، فمن ذلك قولُ بعضهم :

وَقَبْرٌ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ      وَلَيْسَ قُرْبٌ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٍ<sup>(١٣)</sup>

فهذه القافات والرَّاءاتُ كأنها في تتابعها سِلْسِلَةٌ ، ولا خَفَاءَ بما في ذلك من الثقل ، وكذا وَرَدَ قولُ الحريريِّ في مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا      وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرَافَانَهُ<sup>(١٤)</sup>

فقوله « وعافَ عَافِي العُرفِ عرفانه » من التكرير المشار إليه .

وكذلك وَرَدَ قوله أيضاً في رسالته اللتين صاغها على حرفي السَّينِ<sup>(١٥)</sup> والشَّينِ<sup>(١٦)</sup> ، فإنه أتى في إحدهما بالسَّينِ في كلِّ لفظةٍ من ألفاظها ، وأتى في الأخرى بالشَّينِ في كلِّ لفظٍ من ألفاظها ، فجاءتا كأنهما رُقِي العَقَارِبُ ، أو خُدْرُوفَةُ العَزَائِمِ ، وما أعلمُ كيفَ خفي ما فيها من القُبْحِ على مثل الحريريِّ مع معرفته بالجيد والرَّديءِ من الكلامِ ؟ ويحكى عن بعضِ الوعاظ أنه قال في جملةِ كلامٍ أوردَهُ : « جَنَى جَنَاتٍ وَجَنَاتِ الْحَبِيبِ » فصاح رجلٌ من الحاضرين في المجلس ، وَمَادَ وَتَغَاشَى ، فقال له رجلٌ كَانَ إلى جَانِبِهِ : ما الَّذِي سَمِعْتَ حتى حدثَ بك هذا ؟ فقال : « سَمِعْتُ جِيمًا فِي جِيمٍ ، فِي جِيمٍ فَصِحْتُ » !! ،

(١٣) ذكروا أنه من شعر الجن ، وأنه لا ينبغي لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتبع ، وذكروا أن جنبا صاح على حرب بن أمية فمات في فلاة ، ويسمى نوع هذا الجنى هاتفا .

(١٤) مقامات الحريري ٣٦٥ من المقامة التفليسية . رازور مال وأعرض . وعاف استقدر . والعاف طالب

العتاء .

(١٥) الرسالة السينية : مقامات الحريري ٦٠٣ . (١٦) الرسالة الشينية : مقامات الحريري ٦٠٧

وهذا من أقبح عُيوب الألفاظ .

وممّا جاء منه قولُ أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي مطلعُها :

\* أُرَاهَا لكَثْرَةِ الْعُشَاقِ (١٧) \*

كَيْفَ تَرَى الَّتِي كُلُّ جَفْنٍ رَأَاهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِي (١٨)

وهذا وأمثاله إنمّا يَعْرِضُ لِقَائِهِ فِي نَوْبَةِ الصَّرَعِ الَّتِي تَتَوَّبُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ !  
ومن هذا القسم قولُ الشاعر المعروف بِكُشَاجِمِ (١٩) فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطْلَعُهَا :

\* دَاوِ خُمَارِي بِكَأْسِ خَمْرٍ \*

وَالزَّهْرُ وَالْقَطْرُ فِي رُبَاهَا مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرٍ  
حَدَاتِقُ كَفِّ كُلِّ رِيحٍ حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وهذا البيتُ يَحْتَاجُ النَاطِقَ بِهِ إِلَى بَرَكَارٍ يَضَعُهُ فِي شِدْقِهِ ، حَتَّى يَدِيرَهُ لَهُ .  
وعلى هذا الأسلوبِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَشْهُورُ الَّذِي يَتَذَكَّرُ النَّاسُ :

مَلَّتْ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفْدَى مَلِيحٍ مَانِعٍ مِني مُرَادِي

وهذه الميَاتُ كَأَنَّهَا عَقْدٌ مَتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ .

وكان بعضُ أهلِ الأدبِ من أهلِ مِصْرِنَا هذا يَسْتَعْمَلُ هَذَا الْقِسْمَ فِي أَلْفَاظِهِ  
كَثِيرًا فِي كَلَامِهِ نَثْرًا وَنَظْمًا ، وَذَلِكَ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِسُلُوكِ الطَّرِيقِ . وَأَنَا أَذْكَرُ نَبْذَةً مِنْ  
ذَلِكَ كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ رَجُلٍ سَخِيٍّ : « أَنْتَ الْمَدِيحُ ، كَبَدًّا تَرِيحُ ، وَالْمَلِيحُ إِنْ تَجَهَّمَ  
الْمَلِيحُ بِالتَّكْلِيحِ ، عِنْدَ سَائِلٍ تَلُوحُ ، بَلْ يَفُوقُ إِذْ يَرُوقُ مَرَأَى لُوحِ ، يَامَغْبُوقَ كَأْسِ  
الْحَمْدِ يَامُصْبُوحِ ، ضَاقَ عَنِ نَدَاكِ اللَّوْحِ ، وَبِبَابِكَ الْمَفْتُوحِ تَسْتَرِيحُ ، وَتُرِيحُ ذَا  
التَّبْرِيحِ ، وَتَرْقُهُ الطَّلِيحُ » .

(١٧) وعجز البيت : \* تحسب الدمع خلقه في المآق \*

وهي في مدح أبي العشائر الحسين بن علي بن حمدان .

(١٨) ديوان المتنبي ٢/٣٦٢ - رآها : رآها . والمعنى هذه المحبوبة لا ترحم باكيًا . وكيف ترجمه وهي ترى  
كل جفن من النظر إلا جفنها غير راق بالبكاء . يريد غير منقطع من البكاء . فهي لا ترحم أحدًا . لأنها تحسب  
الدمع في أجفان العشاق خلقه .

(١٩) كشاجم هو محمود بن الحسين الكاتب الشاعر . أحد وصافي الطبيعة . وكان من خدام سيف الدولة .

توفى سنة ٣٢٠ هـ .

فانظر إلى حرف الحاء . كيف قد لزمه في كل لفظه من هذه الألفاظ ، فجاء كما نراه من الثقل والغثاء ؟

واعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أذغموه استحساناً ، فقالوا في « جعل لك » . « جعلك » وفي « تضرّبوني » « تضرّبوني » . وكذلك قالوا « استعد فلان للأمر » ، إذا تأهب له ، والأصل فيه « استعدّد » ، و « استتب الأمر » إذا تهيأ ، والأصل فيه « استتب » . وأشبه ذلك كثير في كلامهم ، حتى أنهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفاً آخر غيره ، فقالوا : « أملت الكتاب » . والأصل فيه « أملت » ، فأبدلوا اللام بياء ، طلباً للخفة ، وفراراً من الثقل وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضاً ؟

### القسم الثالث من المعازلة :

أن تردّ الألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً .  
فيما يختلف بين ماضٍ ومستقبلٍ . ومنها ما لا يختلف .  
فالأول : كقول القاضى الأرجاني (٢٠) في أبياتٍ يصف فيها الشمعة ، وفيها معنى هوله مبتدع ، ولم يسمع من غيره ، وذلك أنه قال عن لسان الشمع : إنه ألف العسل وهو أخوه الذي ربي معه في بيت واحد ، وإن النار قرقت بينه وبينه ، وأنه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضاً من ألم الفراق ، إلا أنه أساء العبارة ، فقال :  
بِالنَّارِ قَرَقَتِ الحِوَادِثُ بَيْنَنَا وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

(٢٠) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، الملقب ناصح الدين ، وكان قاضى تستر وعسكر مكرم . وله شعر رائق في نهاية الحسن ، ذكره العماد الكاتب في الجريدة . فقال : كان الأرجاني في عنفوان عمره بالمدرسة النظامية بأصهان . وشعره من آخر عهد نظام الملك منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة إلى آخر عهده وهو سنة أربع وأربعين وخمسمائة ولم يزل نائب القاضى بعسكر مكرم وهو مهجول مكرم . وشعره كثير . والذي جمع منه لا يكون عشرة .

فقوله : « نذرتُ أَعُوذُ [ أَقْتُلُ ] » من المعاضلة إليها .

وأما ما يردُّ على نهجٍ واحدٍ من الصيغة الفعلية ، فكقول أبي الطيب المتنبى :  
أَقْلُ أَنْلُ أَقْطِعُ أَحْمِلُ عَلٌّ سَلٌ أَعِدُّ زِدْهُشَّ بَشٌّ تَفْضَلُ أَدْنُ سُرَّصِلُ (٢١)  
فهذه ألفاظٌ جاءت على صيغةٍ واحدةٍ ، وهى صيغة الأمر ، كأنه قال : « افعل ،  
افعل ... هكذا إلى آخر البيت » وهذا تكريرٌ للصيغة ، وإن لم يكن تكريراً للحروف ،  
إلاَّ أنه أخوه ، ولا أقولُ ابن عمه .

وهذه ألفاظٌ متراكبةٌ متداخلةٌ ، ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا كما قالَ عبدُ  
السَّلامِ بن رَغبان (٢٢) :

فَسَدَ النَّاسُ فَاطْلَبَ الرَّزْقَ بِالسَّيِّئِ فِ وَالْأَفْمَتْ شَدِيدَ الْهَزَالِ  
أَحْلُ وَأَمْرٌ وَضَرٌّ وَأَنْفَعٌ وَلَنْ وَأَخٌ شُنُّ وَأَبْرَزُ ثُمَّ انْتَدَبَ لِلْمَعَالِي  
أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هَاهُنَا بِالْوَاوِ لَمْ يَتْرَكِبِ الْأَلْفَاظَ كِتْرَاكِهَا فِي بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ  
الْمُقَدِّمِ ذَكَرَهُ ؟

فإن قيل : إنك جعلت ما كانَ وارداً على صيغةٍ واحدةٍ على سبيل التكرارِ مُعاضلةً .  
وقد وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كقوله تعالى : « فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا  
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ (٢٣) » ولو  
كَانَ مُعاضلةً لَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِثْلَهُ ؟ !

فالجوابُ عن ذلك أَنِّي أَقُولُ : هذه الآيةُ ليستُ كالذى أنكرته . فإن هذا الموضعَ  
يُنظَرُ فِيهِ إِلَى الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ ، فَإِذَا كَثُرَ كَانَ تَعَاظُلًا ، لِتَرَاكِبِهِ وَثِقَلِهِ عَلَى النُّطْقِ ، وَقَدْ

(٢١) ديوان المتنبى ٨٥/٣ من قصيدة مطلعها :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والإبل  
وقد أمره بأربعة عشر أمراً في بيت واحد « أقل » من الإقالة ، يقال أقلته من عثرته ، و « أنل » من الإنالة ،  
و « أقطع » من الإقطاع . و « احمل » من قوهم : حملته على فرس . وقوله « عل » من العلو والرفعة . و « سل »  
من السلو . و « أعد » من الإعادة . و « زد » من الزيادة . و « هش » من قوهم : هشت إلى كذا . وهو التهلل  
نحو الشىء . و « بش » من البشاشة وهى الطلاقة . و « تفضل » من الإفضال . و « أدن » من الدنو . و « سر » من  
السرور . و « سل » من الصلة . وهى العطفة .

(٢٢) هو المعروف بديك الحن الحمصى .

(٢٣) سورة التوبة : الآية ٥ .



عَرَّفْتِكَ أَنْ مَا يُفْصَلُ بَيْنَ صِيغِهِ بَوَاوِ الْعَطْفِ يَكُونُ أَقْلًا ثَقَلًا مِمَّا لَا يُفْصَلُ . وَالَّذِي أَنْكَرْتَهُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ أَنْ تَأْتِيَ الْأَفْظُ مَكْرَرَةً عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَأَنَّهَا عَقْدٌ مَتَّصِلَةٌ ، فَحِينَئِذٍ يَنْقَلُ النُّطْقُ بِهَا ، وَيُكْرَهُ مَوْقِعُهَا مِنَ السَّمْعِ ، كَبَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِيِّ .

وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْمَشَارُ إِلَيْهَا فَإِنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ هَذَا الْحُكْمِ .  
أَلَا تَرَى أَنَّهَا لَمَّا وَرَدَتْ الْأَفْظُ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ فُرِّقَ بَيْنَهَا بَوَاوِ الْعَطْفِ ثُمَّ مَعَ التَّفْرِيقِ بَيْنَهَا بَوَاوِ الْعَطْفِ لَمْ يَرِدِ التَّكْرِيرُ فِيهَا إِلَّا بَيْنَ ثِنْتَيْنِ ، وَهِيَ « خَذُوهُمْ »  
« وَاحْضُرُوهُمْ » .

وَأَمَّا الصِّيغَةُ الْأُولَى فَإِنَّهَا أُضِيفَ إِلَيْهَا كَلَامٌ آخَرَ ، فَقِيلَ : « اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » وَلَمْ يَقُلْ : اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ وَخَذُوهُمْ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَتِ الصِّيغَةُ الرَّابِعَةُ أُضِيفَ إِلَيْهَا كَلَامٌ آخَرَ أَيْضًا ، فَقِيلَ « وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ » .  
لَا جَرَمَ أَنَّ الْآيَةَ جَاءَتْ غَيْرَ ثَقِيلَةٍ عَلَى النُّطْقِ مَعَ تَوَارِدِ صِيغَةِ الْأَمْرِ فِيهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . وَهَذِهِ رُمُوزٌ يَنْبَغِي أَنْ يُتَنَبَّهَ لَهَا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَفْظِ إِذَا جَاءَتْ هَكَذَا .

#### القسم الرابع من المعاطلة :

وهو الذي يتضمن مضافات كثيرة ، كقولهم : « سَرَّحَ فَرَسٌ غُلَامًا زَيْدًا » وَإِنْ زَيْدًا عَلَى ذَلِكَ قِيلَ : « لَبَّدُ سَرَّحَ فَرَسٍ غُلَامًا زَيْدًا » وَهَذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى اللِّسَانِ وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ابْنِ بَابِكٍ <sup>(٢٤)</sup> الشَّاعِرِ فِي مَفْتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :  
حَمَامَةٌ جَرَعًا حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي فَأَنْتِ بَمَرَأَى مِنْ سَعَادٍ وَمَسْمَعِ

#### القسم الخامس من المعاطلة :

أَنْ تَرَدَّ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوِ وَاحِدٍ ، كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا :

\* مَالِكَيْبِ الْحِمِيِّ إِلَى عَقْدِهِ <sup>(٢٥)</sup> \*

<sup>٢٤</sup> (٢٤) هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ بَابِكٍ ، ذَكَرَهُ الثَّعَالِيُّ فِي الْيَتِيمَةِ ٣/٢٧٤ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ الطَّارِئِينَ عَلَى الصَّاحِبِ مِنَ الْآفَاقِ ، وَقَالَ فِي نَعْتِهِ : شَاعَرَ شُعْرَاهُ إِحْسَانَ السَّبْكِ ، وَإِحْكَامَ الرَّصْفِ ، وَإِبْدَاعَ الْوَصْفِ . يَشْبَهُ كَلَامَهُ مَرَّةً فِي الْخِزَالَةِ وَالْفَصَاحَةِ كَلَامَ الْمَفْلُوقِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَيُنَاسِبُ تَارَةً فِي الرَّشَاقَةِ وَالْمَلَاخَةِ قَوْلَ الْمُجَمِّدِ بْنِ الْمُهَذَّبِ بْنِ الْوَالِدِيِّ .

(٢٥) دِيْوَانُ أَبِي تَمَّامٍ ٩١ ، وَهُوَ مَطَّلَعُ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ . وَعَجَزَ الْبَيْتُ :

فقال يصف جملاً :

سَأَخْرُقُ الْخَرْقَ بَابِنِ خَرْقَاءَ كَالْهِبِ      قِي إِذَا مَا اسْتَحَمَّ مِنْ نَجْدِهِ (٢٦)  
مُقَابِلُ فِي الْجَدِيلِ صُلْبُ الْقَرَا      لَوْحُكٌ مِنْ عَجْبِهِ إِلَى كَنْدِهِ (٢٧)  
تَامِكِهِ نَهْدِهِ مُدَاخِلِهِ      مَلْمُومِهِ مُحَزَّنُهُ أَجْدِهِ (٢٨)  
فَالْيَبْتُ الثَّلَاثُ مِنَ الْمَاعِظَلِ الَّتِي قَلَعُ الْأَسْنَانِ دُونَ إِيرَادِهَا .

وكذلك قَالَ من هذه القصيدة يصف رُمحاً :

وَمَرٌّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى      أَسْمَرٍ مَتْنٍ يَوْمَ الْوَعْيِ جَسِدِهِ (٢٩)  
مَارِنِهِ لَدْنِهِ مُتَّقَفِهِ      عِرَاضِهِ فِي الْأَكْفِ مُطْرَدِهِ (٣٠)  
وهذا كالأول في قَبْحه وَثِقْله ، فَقَاتْله ، اللَّهُ ! مَا أَمْتَنَ شِعْرُهُ ! وما أَسْخَفَهُ في

بعض الأحوال !

وعلى هذا جاءهُ من هذه القصيدة أيضاً يَصِفُ الممدوح :

إِلَيْكَ عَنْ سَبِيلِ عَارِضِ خَضِلِ الْ      شَوْ بوبِ يَأْتِي الْحِمَامُ مِنْ نَضْدِهِ (٣١)  
مُسْفُهُ ثَرَهُ مُسْحِحِهِ      وَأَبْلَهُ مُسْتَهْلَهُ جَرْدَهُ (٣٢)  
ولو لم يكن لأبي تَمَامٍ من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات لَحَطَّتْ من قَدْرِهِ .

• ما بآل جرعائه إلى جرده •

- والكتيب تل الرمل ، والعقد الرمل المنعقد ، والجرعاء الوعر يعلوه رمل ، والجرد سهل بلا نبات .  
(٢٦) الخرق الفلاة . الخرقاء الناقة . الهيق ذكر النعام . النجد العرق .  
(٢٧) الجديل المفود المجدول . القرا الظهر . العجب أصل الذنب . الكند مجتمع الكتفين .  
(٢٨) تامكه حديثه . نهده ثديه . محزئله مرتفع سيره . أجده فقار ظهره .  
(٢٩) تهفو تحفق . الذوابة ضفيرة الشعر المرسله . الجسد المصبوغ بالجسد وهو الزعفران .  
(٣٠) المارن الصلب اللين . اللدن اللين . المثقف المقوم . عراضه صفحته . مطرده يقال : رمح مطرد الأنايب . أى متناسقها .  
(٣١) العارض السحاب . الخضل الندى . الشؤبوب المطر . الحمام الموت . النضد المتراكم .  
(٣٢) المسف القريب من الأرض . الثر الكثير الماء . السحسح السائل من فوق ، الوابل الشديد . المستهل المتألى .

(٣٣) ديوانه ١٨٩/٢ من قصيدة في مدح عبيد الله بن خراسان الطرابلسي . ومطلعها :  
أظبية الوحش لولاً ظبية الأنس لما غدوت مجد في الهوى تعس

وعلى هذا ورد قولُ أبي الطيب المتنبي (٣٣) :

دَانٍ ، بَعِيدٍ ، مُحِبٍّ ، مُبْغِضٍ ، بَهْجٍ ، أَغْرٍ ، حُلُوٍّ ، مُمِرٍّ ، لِينٍ ، شَرَسٍ (٣٤)

نَدِيٍّ ، أُمِّيٍّ ، غَرِيٍّ ، وَافِدٍ ، أَخِيٍّ ثِقَةٍ

جَعَدٍ سَرِيٍّ ، نَهٍ ، نَدْبٍ ، رِضِيِّ ، نَدِيسٍ (٣٥)

وَهَذَا كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ بِلَا شَكٍّ ، وَقَلِيلاً مَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الشُّعْرَاءِ ، وَلَمْ أَجِدْهُ كَثِيراً  
إِلَّا فِي شِعْرِ الْفَرَزْدَقِ ، وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا فِي بَابِهَا ، وَهَذِهِ  
مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ ، وَهِيَ تَوْجَدُ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ كَثِيراً .

## النوع الثامن

### في المنافرة بين الألفاظ في السبك

وهذا النوع لم يحقق أحدٌ من علماء البيان القول فيه ، وغاية ما يُقالُ إنه ينبغي ألاَّ  
تكون الألفاظُ منافرة عن مواضعها ، ثم يُكتفى بهذا القولِ ، من غير بيان ولا تفصيل ،  
حتى أنه قد خلطَ هذا النوع بالمعازلة . وكل منها نوعٌ مفردٌ برأسه ، له حقيقةٌ تخصه ،  
إلا أنها قد اشتبها على علماء البيان ، فكيف على جاهل لا يعلم ؟ !  
وقد بيَّنتُ هذا النوعَ ، وفصلته عن المعازلة ، وضربتُ له أمثلةً يُستدلُّ بها على  
أخواتها ، وما يجري مجراها .

(٣٤) البهج الفرح ، والشرس هنا الصعب ، ومعنى البيت : هو قريب ممن يقصده ، بعيد ممن ينازعه ،  
محب للفصل وأهله ، مبغض للنقص وأهله ، بهج بالقصاد ، حلولاً ولياته ، مر على أعدائه ، لين حسن الخلق  
على الأولياء : شرس صعب على الأعداء . يريد أنه جامع لهذه الأوصاف . كذا قال أبو الفتح بن جني ، ونقله  
الواحدى حرفاً حرفاً ، وانظر البيتين في شرح الديوان .

(٣٥) ند جواد ، يريد ندى الكف ، والأنى الذى يأنى الدنيا ، غرأى مغرأى يفعل الجميل جمد ماضٍ في  
الأمر ، والسرى الشريف ، وأنك أى ذو نية وهى العقل ، والندب السريع فى الأمر إذا ندب إليه ، والندس  
العارف بالأمر البحوث عنها ، وهو بضم الدال وكسرها .

وجملة الأمر أن مدار سبك الألفاظ على هذا النوع والذي قبله دون غيرها من تلك الأنواع المذكورة ، لأن هذين النوعين أصلاً سبك الألفاظ ، وما عدهما فرغ عليهما وإذا لم يكن النائر أو الناظم عارفاً بهما فإن مقاتله تبدو كثيراً .

وحقيقة هذا النوع الذي هو ( المنافرة ) أن يُذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر .

وعلى هذا فإن الفرق بينه وبين المعاطلة أن المعاطلة هي التراكب والتداخل إما في الألفاظ أو في المعاني ، على ما أشرت إليه ، وهذا النوع لا تراكب فيه ، وإنما هو إيراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذي ترد فيه .

وهو ينقسم قسمين :

أحدهما : يوجد في اللفظة الواحدة ، والآخر : في الألفاظ المتعددة . فأمّا الذي يوجد في اللفظة الواحدة فإنه إذا ورد في الكلام أمكن تبديله بغيره ممّا هو في معناه ، سواء كان ذلك الكلام نثراً أو نظماً .

وأما الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنه لا يمكن تبديله بغيره في الشعر ، بل يمكن ذلك في النثر خاصة ، لأنه يعسر في الشعر من أجل الوزن .

فما جاء من القسم الأول قول أبي الطيب المتنبي :

فلا يبرم الأمر الذي هو حائلٌ ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم<sup>(١)</sup>

لفظة « حائل » نافرة عن موضعها ، وكانت له مندوحة عنها ، لأنه لو استعمل

عوضاً عنها لفظة « ناقص » ، فقال :

فلا يبرم الأمر الذي هو ناقصٌ ولا يقض الأمر الذي هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة في مكانها ، غير قلقة ولا نافرة .

وبلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعري أنه كان يتعصب لأبي الطيب ، حتى أنه

(١) ديوان المتنبي ٨٥/٤ من قصيدة في مدح عمر بن سليمان الشراي ، ومطلعها :

نرى عظماً بالين والصد أعظم ونتمهم الواشين والدمع منهم

رواية الديوان : « ولا يبرم » موضع « فلا يبرم » و « يبرم » موضع « يبرم » .

كان يُسميه « الشاعر » ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول : ليس في شعره  
لفظة يُمكن أن يقومَ عنها ما هو في معناها ، فيجىء حسناً مثلها !  
فيا ليت شعري أما وقفَ على هذا البيت المشار إليه ! ؟ لكنَّ الهوى كما يُقال أعمى ،  
وكان أبو العلاء أعمى العين خِلقةً ، وأعماهَا عَصِيبةً ، فاجتمع له العمى من جهتين .  
وهذه اللفظة التي هي « حَالِل » وما يجرى مجراها قبيحة الاستعمال ، وهى فكُ  
الإدغام في الفعل الثلاثي ، ونقله إلى اسم الفاعل ، وعلى هذا فلا يحسن أن يقال : بلَّ  
الثوب ، فهو بالِل ، ولا سلَّ السيفَ ، فهو سَالِل ، ولا أن يقال : همَّ بالأمر ، فهو  
هَامِم ، ولا خطَّ الكتابَ ، فهو خَاطِط ، ولا حَنَّ إلى كذا ، فهو حَانِنٌ !!  
وهذا لو عُرضَ على مَنْ لا ذوقَ له لأدركه وفهمه ، فكيفَ مَنْ له ذوقٌ صحيحٌ  
كأبى الطيب ؟ لكن لا بُدَّ لكلِّ جوادٍ من كَبْوةٍ ! .

وأشده بعض الأدباء بيتاً للدعبل (٢) ، وهو :  
شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ فِي الْحَوَائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ  
فَقَلْتُ لَهُ : عَجَزُ هذا البيت حَسَنٌ ، وأما صَدْرُهُ فقبيحٌ ، لأنه سَبَّكَه قَلِقًا نَافِرًا ،  
وتلك الفاء التي في قوله : « شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ » كأنها رُكبة البعير ، وهى في زيادتها  
كزيادة الكَرش ! .

فقال : لهذه الفاء في كتاب الله أشباه ، كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ  
\* وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ \* وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ » (٤) .

فقلتُ له : بين هذه الفاء وتلك الفاء فرقٌ ظاهرٌ يُدرك بالعلم أولاً ، وبالذوق  
ثانياً .

(٢) هو دعبل بن علي بن رزين ، يبنى من خزاعة ، نشأ بالكوفة متعصباً لقومه على العدنانية ، هجاء ،  
خبث اللسان ، لا يسلم منه كبير ولا صغير حتى الخلفاء ، فعاش مكروهاً مرهوباً حتى توفى سنة ٢٤٦ هـ ، وشعره  
من النوع المطبوع ذى الأسلوب القوى ، لتأثره بنزعة الجريئة في وجه الدولة ، وبتعصبه للطالبيين ، وبميله إلى  
الإرهاب والتخريف ، ويغلب على شعره الهجاء والمدح .

(٣) الموازنة ٥٩ والصناعتين ٢١٣ وقبل هذا البيت :

وإن امرأ أسدى إلى بشافع إليه ويرجو الشكر مني لأحمق

(٤) سورة المدثر : الآيات ٢١ و٢٣ و٢٤

أَمَّا الْعِلْمُ : فَإِنَّ الْفَاءَ فِي « وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ \* وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ » هِيَ الْفَاءُ الْعَاطِفَةُ ، فَإِنَّهَا وَارِدَةٌ بَعْدَ « قُمْ فَأَنْذِرْ » وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِكَ « اِمْسِمْ فَاسْرِعْ » ، وَ « قُلْ فَأَبْلِغْ » وَلَيْسَتْ الْفَاءُ الَّتِي فِي « شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ » كَهَذِهِ الْفَاءِ ، لِأَنَّ تِلْكَ زَائِدَةٌ ، لَا مَوْضِعَ لَهَا ، وَلَوْ جَاءَتْ فِي السُّورَةِ كَمَا جَاءَتْ فِي قَوْلِ دِعْبِلٍ - وَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ - لَأَبْتَدَى الْكَلَامُ ، فَقِيلَ : رَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . لَكِنَّمَا لَمَّا جَاءَتْ بَعْدَ « قُمْ فَأَنْذِرْ » حَسُنَ ذِكْرُهَا فِيمَا يَأْتِي بَعْدَهَا مِنْ « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ \* وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ » .

وَأَمَّا الذَّوْقُ : فَإِنَّهُ يَنْبُو عَنْ الْفَاءِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِ دِعْبِلٍ ، وَيَسْتَقْبِلُهَا وَلَا يَوْجَدُ ذَلِكَ فِي الْفَاءِ الْوَارِدَةِ فِي السُّورَةِ .

فَلَمَّا سَمِعَ مَا ذَكَرْتَهُ أَدْعَنَ بِالتَّسْلِيمِ .  
 وَمِثْلُ هَذِهِ الدَّقَائِقِ الَّتِي تَرُدُّ فِي الْكَلَامِ نِظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا الرَّاسِخُ فِي عِلْمِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ !

وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ وَصَلْ هَمْزَةَ الْقَطْعِ ، وَهُوَ مُحْسَبٌ مِنْ جَائِزَاتِ الشُّعْرِ الَّتِي لَا يَجُوزُ فِي الْكَلَامِ الْمَنْشُورِ ، وَكَذَلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ الْوَصْلِ ، لَكِنَّ وَصَلَ هَمْزَةَ الْقَطْعِ أَقْبَحَ ، لِأَنَّهُ أَثْقَلَ عَلَى اللِّسَانِ

فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ (٥) :

قَرَانِي اللَّهُمَّ وَالْوُدَّ كَأَنَّمَا أَفَادَ الْغَنِي مِنْ نَائِلٍ وَفَوَائِدِي (٦)

فَأُصْبِحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ مِنْ أَجْلِهِ يَأْغِظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةٍ وَالِدِ (٧)

فَقَوْلُهُ « مِنْ أَجْلِهِ » وَصَلَ هَمْزَةَ الْقَطْعِ .

(٥) ديوان أبي تمام ١١٧ من قصيدة في مدح محمد بن الهيثم ؛ ومطلعها :

قفوا جددوا من عهدكم بالمعاهد وإن هي لم تسمع لنشيدان ناشد

(٦) قراني أضافني ، والله العطايا .

(٧) رواية الديوان « لأجله » وعليها لا يكون في البيت موضع شاهد .

(٨) ديوان المتنبي ١١١/٢ من قصيدة مطلعها :

طوال قنأ تطاعها قصار وقطرك في ندى ووغي بحار =

وعليه وَرَدَ قول أبي الطيب المتنبي :

يُوسُطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الْإِنْتِظَارَ (٨)

فقوله « لا الانتظار » كلامٌ نافر عن موضعه .

ومن هذا القسم أن يُفَرِّقَ بين الموصوفِ والصفةِ بضمير من تقدّم ذكره ، كقولِ

الْبَحْتَرِيُّ :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ (٩)

تقديره « من قلبي المتعلق بها » فلما فصلَ بين الموصوفِ الذي هو « قلبي » والصفةِ

التي هي « المتعلق » بالضمير الذي هو « بها » قُبِحَ ذلك ، ولو كان قال « من قلبِها متعلقٌ » لزال ذلك القُبْحُ ، وذهبت تلك الهجئة .

ومن هذا القسم أيضاً أن تُزَادَ الألفُ واللامُ في اسمِ الفاعلِ ، ويقام الضميرُ فيه

مقامَ المفعولِ ، كقول أبي تمام :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَالزَّائِرِيَهُمْ لَمَا مِزْتَ الْبَعِيدَ مِنَ الْحَمِيمِ (١٠)

فقوله « الزائري » اسم فاعل ، وقوله « هم » الذي هو الضميرُ في موضعِ المفعولِ

تقديره « الزائرين أرضهم ، وأودارهم » ، أو « الزائرين إياهم » فاستعمالُ هذا مع

الألفِ واللامِ قبيحٌ جداً ، وإذا حُذِفَتْ زَالَ ذلك القُبْحُ . وقد استعملها الشعراءُ

المتقدمون كثيراً .

---

= وقال أبو الفتح بن جني : قلت لأبي الطيب عند قراءتي عليه : كسر اللام من « الانتظار » جيد لكونها وسكون النون . وقال علي بن حمزة : سألت أبا الطيب عن فتح اللام ، فقال :

اجتمع ساكنان ، فحركت اللام بحركة ما قبلها ، وهي اللام من ( لا ) . ومعنى البيت : إنما ينزله المفاوز طلب أعدائه ، لا انتظار من يلحقه ويخافه ، وذلك أن الخائف ينزل المفاوز خوفاً ممن يلحقه ، وهذا ينزلها طلباً لمن يهرب منه إليها .

(٩) مطلع قصيدة في مدح الفتح بن حنان ، ديوان البحتري ٤٨١ .

(١٠) ديوان أبي تمام ٢٨٩ من قصيدة في مدح بعض بني عبد الكرم الطائيين ومطلعها :

أرامة كنت مألّف كل ريم لو استمتعت بالأنس المقيم

ورواية الديوان : \* فلو عاينتهم مع زائرهم \* وعليها لا يكون في البيت موضع شاهد .

ومما جاء من القسم الثاني - الذي يوجد في الألفاظ المتعددة - قول أبي الطيب أيضاً :

لَاخْلَقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَأَى نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِيهَا<sup>(١١)</sup>  
فَإِنَّ عَجْزَ هَذَا الْبَيْتِ نَافِرٌ عَنِ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هَذَا فِي الْأَشْعَارِ كَثِيرٌ .

---

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع

القسم الأول

من كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر »

وبليه بعونه تعالى القسم الثاني

وأوله

المقالة الثانية : في الصناعة المعنوية

---

(١١) ديوان المتنبي ٢٣٢/١ من قصيدة في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران ، ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات بعيد موضوعاتها

ورواية الديوان « لاخلاق أسمع » و « راء » مقلوب « رأى » كما يقال « ناء » و « نأى » ومعنى البيت : لأحد

أسمع منك إلا رجلا رأك فعرفك ، فلم يسألك بأن تهب له نفسك .



# فهرس

## القسم الأول

### من كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر »

- تصدير ..... ٢٦ .
- الحاجة الى نشر الكتاب
  - عقلية ابن الأثير وثقافته
  - مصادر الكتاب
  - أثر عصر ابن الأثير وفنه في المثل السائر
  - منهج ابن الأثير في البحث البياني
  - النقد والبلاغة في المثل السائر.

ترجمة ابن الأثير ..... ٢٧-٢٩ .

## كتاب المثل السائر

- ١ - خطبة الكتاب ..... ٣٣-٣٦ .
- أهمية علم البيان - كلمة في كتب السابقين
  - اشادته بكتابي الموازنة وسر الفصاحة
  - منهج البحث .
- ٢ - مقدمة الكتاب ..... ٣٧-١٦٢ .
- الفصل الأول: في موضوع علم البيان ..... ٣٧ .
  - الفصل الثاني: في آلات علم البيان وأدواته ..... ٣٨ .
  - النوع الأول: معرفة علم العربية من النحو والتصريف ..... ٤١ .
  - النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ..... ٥٠ .
  - النوع الثالث: معرفة أيام العرب وأمثالهم ..... ٥٣ .
  - النوع الرابع: الاطلاع على المنظوم والمنثور ..... ٥٩ .
  - النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية ..... ٥٩ .

٦٠	النوع السادس : حفظ القرآن الكريم
٦١	النوع السابع : حفظ الأخبار النبوية
٦١	النوع الثامن : معرفة علمى العروض والقوافى
٦٢	الفصل الثالث : فى الحكم على المعانى
٧٠	الفصل الرابع : فى الترجيح بين المعانى
٧٨	الفصل الخامس : فى جوامع الكلم
٨١	الفصل السادس : فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن
٨٤	الفصل السابع : فى الحقيقة والمجاز
٩٠	الفصل الثامن : فى الفصاحة والبلاغة
٩٦	الفصل التاسع : فى أركان الكتابة
١٠٠	الفصل العاشر : فى الطريق إلى تعلم الكتابة
١٠٣	حل الأبيات الشعرية
١٣٤	حل آيات القرآن الكريم
١٤٩	حل الأخبار النبوية

### المقالة الأولى

#### فى الصناعة اللفظية

##### القسم الأول : فى اللفظة المفردة

١٦٣	ما يحتاج إليه صاحب الصناعة فى تأليفه
١٦٤	التفاوت بين الألفاظ
١٧١	تباعد مخارج الحروف وتقاربها
١٧٥	الوحشى من الألفاظ
١٨٦	تقسيم الألفاظ إلى جزلة ورقيقة
١٩٦	المبتذل من الألفاظ
٢٠١	الألفاظ المشتركة
٢٠٤	عدد حروف الكلمة
٢٠٦	خفة الحركات

##### القسم الثانى : فى الألفاظ المركبة

٢٠٩	أنواع تأليف الألفاظ
٢١٠	النوع الأول : المسجع
٢١٠	اختلاف الآراء فى السجع - السجع فى القرآن

٢١١	... ..	السجع في الحديث النبوي
٢١٢	... ..	ذم سجع الكهان
٢١٤	... ..	السجع الجيد
٢٥٥	... ..	أقسام السجع من حيث تساوى الفصول
٢٥٧	... ..	أقسام من حيث الطول والقصر: السجعالقصر
٢٥٧	... ..	السجع الطويل
٢٥٨	... ..	التصریح في الشعر
٢٦٢	... ..	النوع الثاني: في التجنيس
٢٦٣	... ..	حقیقة التجنيس
٢٦٨	... ..	ما يشبه بالتجنيس
٢٧٧	... ..	النوع الثالث: في التصریح
٢٨١	... ..	النوع الرابع: في لزوم ما لا يلزم
٢٨٩	... ..	ما يلحق باللزوم
٢٩١	... ..	النوع الخامس: في الموازنة
٢٦٣	... ..	النوع السادس: في اختلاف صیغ الألفاظ واتفاقها
٣٠٥	... ..	النوع السابع: في المعاطلة اللفظية
٣٠٥	... ..	رأى قدامه في المعاطلة
٣٠٦	... ..	- رأى آخر
		- أقسام المعاطلة:
٣٠٧	... ..	(١) ما يختص بالأدوات
٣٠٩	... ..	(٢) ما يختص بتكریر الحروف
٣١١	... ..	(٣) ورود صیغ الفعل متتابعة
٣١٣	... ..	(٤) ما يتضمن مضافات كثيرة
٣١٣	... ..	(٥) ورود الصفات المتعددة على نحو واحد
٣١٥	... ..	النوع الثامن: في المنافرة بين الألفاظ في السبك
٣١٦	... ..	المنافرة في اللفظ المفرد
٣١٨	... ..	المنافرة في الألفاظ المتعددة
٣١٩	... ..	استدراكات القسم الأول
٣٢١	... ..	فهرس الكتاب

طبعہ نوزادہ مدرسہ